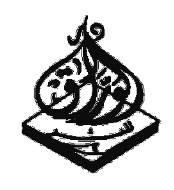

الليدي درور
العراق في التاريخ
على ضفاف
دجلة والفرات
دار الوراق للنشر

الليدي درور

على ضفاف دجلة والفرات

تعريب:

فؤاد جميل



* الكتاب : على ضفاف دجلة والفرات
* تأليف : الليدي درور .
* الطبعة الأولى لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة: 2008.
* جميع الحقوق محفوظة.
* تصميم الغلاف : جبران مصطفى .
* صورة الغلاف : أثر سومري .
* الناشر: شركة دار الورّاق للنشر المحدودة.

By Tigris and Euphrates

by

Lady Drower

First edition by Alwarrak Publishing Ltd. 2008

www.alwarrakbooks.com

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
Suite 500, 56 Gloucester Road,
London SW7 4UB. UK
Fax: 0044-207 581 9213
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 6435-113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

المحتويات

الباب الأول
من المدن المطمورة في العراق

الباب الثاني
العتبات المقدسة في العراق

الباب الثالث
مدن العراق الكبرى

الباب الرابع
أهل العراق... جوانب من: حياتهم العامة، عقائدهم وشعائرهم الدينية

ملحق الكتاب

الإهداء

إلى :

والديَّ. . .

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿24﴾﴾

صدق الله العظيم

[الإسراء: 24]

(ف.ج)

شكر واعتذار

أشكر الدكاترة الجامعيين والأساتذة الكرام:

- مصطفى جواد
- شاكر مصطفى سليم
- علي الوردي
- كوركيس عوّاد
- بشير اللوس
- سالم الآلوسي

على تفضلهم بمراجعة فصول الكتاب والتعليق عليها.

(المترجم)

تصدير(*)

من الأجانب الذين زاروا العراق أو أقاموا فيه طائفة من الدراس والبحاث امتازوا بطول الأناة والدأب على تقصي أوضاعه العامة والنفاذ إلى جوانب مختلفة من حياة أبنائه وإنتاج المؤلفات القيِّمة عن ذلك كله. ولمؤلفة هذا الكتاب ليدي درور E.S. Stevens[1] مصنفات عدة تناولت فيها موضوعات (الصابئة)[2] و(اليزيدية)[3] و(مأثورات العامة)[4] وعدت في موضوعاتها من المراجع الأصيلة. ومنها هذا الكتاب الموسوم (By Tigris and Euphrates) وهو مجموعة فصول تنطوي على نظرات عابرة، ولكنها عامرة ونافذة إلى جوانب كثيرة من حياة البلد وسكانه العامة: اجتماعية كانت، أو روحية، وتاريخية كانت أو أثرية. ولقد كتبتها المؤلفة بأسلوب سلس يسير، وقصصي ممتع، وكان ذلك في مطلع تشكيل الحكومة العراقية في «العهد الملكي»[5].

ولقد أقدمت على ترجمة الكتاب لأجعل هذه الدراسات الممتعة العميقة على طرف الثمام من أيدي من لم تتح له فرصة التمكن من اللغة الإنكليزية تمكناً يستطيع به أن يقرأه في لغته الأصلية. ذلك أنني أرى أن في ترجمة ما يكتبه الأجانب عنَّا إلى لغتنا العربية سبيل الوقوف على رأي الغير فينا، وقد

(*) صدر هذا الكتاب عام 1961 تحت عنوان في بلاد الرافدين.

(1) الاسم المستعار الذي اتخذته المؤلفة في أغلب مؤلفاتها.

(2) The Mandaeans of Iraq and Iran.

(3) Lady Drower: Peacock Angel.

(4) Lady Drower: Folk Tales of Iraq.

(5) ذلك أن تأريخ نشر الكتاب، كما ثبت على دياجته: 1923.

يساعد ذلك على أن نعرف أنفسنا ونستكنه معضلاتنا على الوجه الأعم الأتم. وأرى أن نجتبي مما يكتبه هؤلاء للترجمة هذا الذي ينفع أكبر عدد ممكن من قراء العربية، شريطة أن يبنى الاجتباء على أساس من الوعي، والتمحيص، والملاءمة، والاعتدال.

وفي الحق إن الحياة العصرية التي نريدها لعراقنا الحبيب تتطلب الاستمداد الثقافي من الأقطار المتقدمة جميعاً: غربيها وشرقيها على حد سواء... ومن كتب السلف الصالح مهما طال عليها سالف الأمد. وبديهي أن الاستمداد من الغرب والشرق اليوم يكون بالترجمة الأمينة السليمة لشوامخ الكتب العلمية والأدبية والفنية والقصصية، فالترجمة يجب أن تشمل كل ما يغذي فكر المواطن ويمتِّع نفسه، سواءً كان المواطن هذا أو مثقفاً، أو متخصصاً.

وحين أخذ السلف الصالح في تاريخنا الخالد المجيد بأسباب الحضارة لم تبهرهم مدنية دون أخرى ولم يشغلهم الشرق القريب عن الغرب البعيد أو العكس، ذلك أنهم ترجموا عن اليونان العلم والفلسفة، وترجم المغرب الإسلامي عن الرومان في لغتهم اللاتينية، والمشرق العربي عن الفرس والهند واللغات السامية القديمة. كما عمد هذا السلف الصالح إلى الترجمة عن لغات أخرى غير لغة المؤلفين فلقد نقلوا الفلسفة اليونانية عن السريانية، ونقلوا بعض الآثار الهندية عن الفارسية. وهم لم يعملوا على نقل العلوم عن اليونان والفرس والرومان والهنود والسريان والنبط فحسب بل عملوا على حفظها ونقلها إلى العالم أجمع. لذلك صح أن نقول إنه يندر أن يجد المؤرخ حركة فكرية بلغت من السعة والشمول ما بلغته حركة الترجمة عند العرب.

إن حركة الترجمة اليوم ناشطة في بعض بلدان العرب ولكنها ما زالت قاصرة عن سد حاجة الفكر العربي. وهي، بوجه عام، لا تراعي الحاجة الملزمة، ولا الاختيار الدقيق، ولا التبويب الصحيح، ولا الأمانة اللازمة، ولا سلامة اللغة من هجنة العجمة.

إن الترجمة ابتداء عمل شاق، كثير العقبات، معنت. ومما يعين

المترجم إلى العربية أن هذه اللغة الكريمة، لغة القرآن الكريم والبيان المشرق الناصع، ذات طاقة ضخمة من الشمول والاستيعاب والمرونة. لذلك سعيت إلى اشتقاق مصطلحات عربية أصيلة من مادتها الخام الأصلية كلما وجدت ضرورة إلى ذلك. ثم إني في باب (المفردات) آثرت الفصيح على المولَّد، والمولّد على الحديث، والحديث على العامي الذي لم استعمله إلَّا قليلاً. وإن قدّر لي أن أستعمله وضعته بين (حاصرتين). كما أني عنيت أشد العناية بإحياء الكلمات الفصيحة، وإن كان البعض منها غريباً على سمع القارىء السوي، ما دامت تؤدي، على وجه الدقة المعنى المطلوب أداؤه. فأنا لا أرى هذا الرأي الآثم القائل: «إن الخطأ الشائع خير من الصحيح المهجور». وفي باب (المعاني)، لا يخفى أن المترجم له قيود من كلام المنشىء الأصلي، وأن الأمانة في الترجمة، ولا سيما لدى اضطراره إلى التعريب المعنوي واجبة، لذلك عنيت بالمقاصد والمعاني التي رمت إليها المؤلفة، وإحلالها بالألفاظ والمباني العربية السليمة، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

وإنك لتجد في هوامش الكتاب تعليقات شتى، وشروحاً منتشرة، واستدراكات جمة تناولت ما ورد في متنه مما يستدعي تعقيباً أو توضيحاً أو تصويباً، أو إكمالاً، وإرضاء للنهمة العقلية.

هذا وإن الكتاب في أصله يأخذ القارىء بأسلوبه العذب، وعباراته الجزلة، ونسجه المحكم، ومعلوماته الوفيرة، وأسلوب المؤلفة أسلوب صفو ساحر نضير، ولغتها نقية طيعة ولكن الكتاب لم يخل من قلة من هذه الصور المبهمة، خفيفة الألوان، مضللة الملامح، لذلك سعيت إلى أن أجلوَها عن (المؤلفة) ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، كما أنني اضطررت في حالات قلائل إلى تصويب بعض ما صدر منها نتيجة النظر الخاطف والتناول العاجل. كما لاحظت أنها عمدت إلى الإسهاب في مواضع يطول فيها الجدل وتضطرب فيها منازع الآراء والأهواء ويشتد الخلاف بين أبناء البلد الواحد، أو أنها دوَّنت منها شيئاً بلا إعنات للفكر ولا إطالة للروية. شأنها شأن الفرنجة الذين يدونون عنا الصفحات ويطوونها أو ينشرونها على غرِّها. لذا فمن السائغ عقلاً أن نجمل القول في مثل هذه المواضع، والإجمال فيها ينبئك عن تفصيل، وأن

نعلق عليها بما نراه صواباً، لئلا تشعر الترجمة بأن (المترجم) يستحسن ما ينقله عن المؤلفة في هذه المواضع بالذات، وما هو بمستحسنه، ودفعاً لكل لجاجة، خاوية بغيضة تنشأ عن ذلك.

والكتاب ـ بعد ذلك كله ـ يجلو لنا حافظة (المؤلفة) الواعية، ومعرفتها المستنبطة، فلقد رسمت لعراقنا وأهله، في تبويب بيِّن متمايز (صوراً قلمية) لما تقع العين عليه في الغداة والعشي، كما دونت (خواطر لطيفة) عن رحلات قامت بها، وما الرحلات إلا ضرب من الأدب القصصي، وحاولت إبراز أهم مشكلاتنا المعضلات التي لامست حياتنا العامة، وسرت فيها إبان زمن تأليف الكتاب... وما زال قسم منها قائماً، أو هو موشك على الزوال.

وختاماً إن كل وكدي أن يجيء هذا الكتاب المترجم عن (بلاد الرافدين) صنواً للأصل ونداً له، وأن تكون ترجمته مساهمة متواضعة في الحركة الفكرية في جمهوريتنا الخالدة السائرة قدماً إلى الأمام.

والله الموفق الهادي... وهو نعم المولى، ونعم النصير.

فؤاد جميل

مقدمة الكتاب

كانت بلاد «ما بين النهرين» أو «العراق» على ما سميت به قديماً وأعيد اليوم إليها الاسم «المبارك» هذا ـ وما زالت سبباً يتخذه نقدة سياسة الحكومة البريطانية ومن يعارض تبديد المال والجهد فيها.

لذا لا معدى من أن ينطوي تأليف كتاب عن هذا البلد على فكرة سياسية معينة، ولهذا يجدر بي أن أبين في هذه (المقدمة) بكل جلاء ووضوح، أني لم أقصد إلى شيء من هذا أبداً، كما لا أجد في نفسي القدرة على (نقد) سياسة الحكومة البريطانية، أو سلطاتها المحلية في العراق، أو (الدفاع) عن هذه السياسة بالذات.

هذا وإن كتابي يعرض على مواطنيّ طرفاً من القضايا المعقدة، «الحكومة العربية الجديدة» في بحر السياسة المتلاطم. ولقد كتبوا كثيراً عن البلاد هذه... ومن كتب عنها لا يعدو أن يكون من المراقبين السطحيين، ولاحظ له من تبصر أو كفاية. لذلك، ليس من وكدي أن أضم إلى ما كتب شيئاً آخر أعتقد أن أمره يعود إلى أهل السياسة ورجال الاقتصاد حصراً.

هذا وإن كتابي يعرض على مواطنيّ طرفاً من القضايا المعقدة، والمتباينة تبايناً لا حدَّ له ولا نهاية. إنها قضايا تتصل بحياة شعب في مقدورنا أن نقرر مصيره. إن ترك البلد لأهله، بادىء الرأي، ليس بالأمر الهيّن اليسير.

وفي مؤلفي هذا تناولت الأماكن والحوادث التي عنيت بها على وجه أخص، أو كنت شديدة التوق إليها.

وآمل أن تكون العناية والتوق شركة بيني وبين قراء هذا الكتاب. وقد

سبق لي أن كتبت شيئاً عن كثير من هذه الموضوعات قبلاً، ولكن هناك زوايا عدة يستطيع الكاتب أن يرى البلد منها. ولعل القصّاص يجدون فيه، وفي سكانه، مادة قيّمة تغذي إنتاجهم بوجه لم يسبق إليه أحد من قبل.

لقد شغفت ببيتي العراقي حباً، وشغفت بالعراقيين حباً جماً. وعنيت بالأساطير كثيراً، ولم أعن بالتاريخ إلا لماماً. وانصرفت بكليتي إلى استقصاء عادات العراقيين والخرافات الشائعة في البلد، ولم أتناول موضوع السياسة البريطانية أو معضلات الحكومة المحلية إلا قليلاً.

وأستميح قرائي عذراً إن رأوني أسير وراء خيالي المنسرح، فلقد اعتدت على كتابة القصص الخيالية!

ولقد نشر البعض من هذه الفصول، كلياً أو جزئياً، في الصحف والمجلات، قبلاً، لذلك أشكر محرريها على تفضلهم بالسماح لي لإعادة طبعها في هذا الكتاب.

كما أشكر من الصميم جميع العراقيين والبريطانيين الذين أسعفوني بما لديهم من معلومات ونقد، وأقدر فيهم روح الكرم وحسن الوفادة. إن عونهم السخي هو الذي ساعد على إخراج هذا الكتاب.

وإني لأزجي الشكر إلى «سر أرنلد ولسن» على إعادة بعض الصور لي، «وشركة فكتور المحترمة» على مثل ذلك، و«مستر سي ال. وولي» على ما زودني من معلومات عن التنقيب في (أور).

الباب الأول

من

المدن المطمورة في العراق

الفصل الأول

من المدن الآشورية[1] المطمورة

«الابتذال مدعاة الاحتقار»، وعلى ما يقوله المثل[2]، فلقد كانت (نينوى) و(بابل) فيما مضى بعيدتين، لا سبيل للوصول إليهما، ولكنهما أصبحتا، منذ الحرب، مزارين تشدّ إليهما الرحال الآلاف المؤلفة من البريطانيين. وعلى مياه (بابل) يقضي الناس أوقات نزهاتهم الخلوية، وعلى أسوار (نينوى) تفرغ كثير من قناني بيرة (أساهي)! وفي (نمرود) يعمد كثير من الإنكليز الكادين إلى تسلية النفس بجعل الثيران ذوات الرؤوس الآدمية هدفاً لتصويبهم. وكثير من صبية الأعراب يبتزون المال عن طريق تقليد الكتابة المسمارية على الآجر وبيعها إلى الجنود الذين يعمدون إلى إرسالها إلى صويحباتهم في الوطن.

وأخيراً... هذا ملازم في الجيش، إنه يطيل النظر إلى تمثال ملك آشوري، وسرعان ما يهتف: «إن هؤلاء الآشوريين، لا بد وأن يكونوا مرحين كالفقمة العجوز!».

---

(1) آشور: اختلف الكتبة في ضبط هذه اللفظة باختلافهم في حصر مدلولها، فقد كتبها بعضهم «أثور» والبعض الآخر «أقور» وجاء المحدثون منهم فكتبوها «أشور» و«آشور» و«آثور» وكل هذه الألفاظ تعني ما اصطلحت عليه الفرنجة في قولها: (Ashur) أو (Assur) أو (Assyria) وتريد بها المدينة والإقليم المعروفين بهذا الاسم. وأوضح (ياقوت) الأمر فوصف المدينة بقوله: «... كانت الموصل قبل تسميتها بهذا الاسم تسمى أثور، وقيل أقور، (بالقاف)» ـ راجع معجم البلدان ـ مادة أثور.

(2) إنه مثل إنكليزي شائع ونصه: .Familiarity breeds contempt

وليس الخيال بصفة غالبة في طبع الإنكليز، لذا قد تسمع أحدهم يردد بعد جولة نهار كامل في تلك الخرائب: «يا للخيبة... ويا لضيعة الوقت!».

وهذا هو شأن (نينوى) وسائر المدن الآشورية المطمورة حقاً فلو لم تكن لدى المرء معلومات أثرية، وقليل من لديه مثل هذه المعلومات ـ فلن تستثير إعجابه تلك التلال التي تعلو مدن آشور الميتة إلا لماماً.

وأول ما يبدد هذا الوهم (نينوى) الواقعة عبر نهر الموصل. فلقد كانت مدينة عظيمة يقطعها المرء ـ على ما تقول التوراة في ثلاثة أيام. ومن يسعى حول التلين الباقيين اليوم سعياً معتاداً يستطيع أن يفرغ منها في نهار كامل.

ولا بد أن ديودور[1] الصقلي ـ ولم يعرف في يوم ما بدقة التحقيق ـ اعتمد على روايات المسافرين عند وصفه أبعاد المدينة الشاسعة.

وجاء ذكر أطلال المدينة العظيمة في الأناباسيس[2]، (Amabasis)، وقيل إن طول أسوارها المدورة 6 فراسخ وارتفاعها 100 قدم ـ لقد سماها زينفون Xenophon[3] (مسبيلا)، فلا بد وأن تكون هذه (نينوى) بالذات. إن تعبير (مدينة) مرن، غير محدود، وإن التلين اللذين يقومان شاخصين في السهل الواقع وراء الموصل، في قوينجق[4] ونبي يونس لا يمكن أن يضما

---

(1) ديودور الصقلي (Diodorus Siculus) مؤرخ يوناني ولد في صقلية وعاش أيام يوليوس قيصر وأغسطس، وتدل كتاباته على أنه ساح في مصر (60 ـ 57 ق.م.) وأنه قضى سنوات عدة في روما. ويتألف كتابه التأريخي المسمى (المكتبة التأريخية) من 40 كتاباً يعالج في بعضها الأساطير الآشورية. إنه لا يتميز بالعقلية النقادة، وتتسم كتاباته بالتكرار الكثير وقد يناقض نفسه بنفسه في بعضها ومن الطريف أنه يحدد اتساع مدينة نينوى بـ 55 ميلاً! بينا لا يزيد اتساعها برأي الثقات المنقبين على 8 أميال! (راجع سيرته في المعلمة البريطانية/الجزء 7، ص394) (المترجم).

(2) في مؤلفات المؤرخ اليوناني زينفون (Xenophon) وكان قد أصدره باسم مستعار وفيه وصف دقيق للأماكن التي رحل إليها هذا المؤرخ. (المترجم).

(3) زينفون مؤرخ يوناني وكاتب فلسفي ولد في أثينا في حوالي سنة 430 ق.م. ـ راجع ترجمة حياته وسرد مؤلفاته في دائرة المعارف البريطانية الجزء 23. (المترجم).

(4) اسم التل الشمالي من بقايا (نينوى) وهو موضع قصور المدينة ومعابدها واسمه مركب من «كوى ـ انجق» أو «أنجيك» ومعناه قرية الإنجيك، وهم قوم من التركمان نزلوا في أطلال =

نينوى[1] كلها حصراً. إنهما يضمان موطن فخرها وقوتها ومقر ملوكها النابهين من أمثال سنحاريب، وأسرحدون، وآشور بانيبال. وحول بناياتها الشامخة، والمدينة الداخلية التي كانت داخل جدران حصينة وما زالت آثارها باقية حتى اليوم، خنادق، وضواحي، وتحصينات، وبيوت فقراء وبساتين، ودارات، وقرى... وهذه كلها زالت من الوجود منذ أمد بعيد.

وتل قوينجق، أكبر تلّي نينوى[2]، أجرد مقفر، وبه تحققت النبوءة القائلة: إن مصير مدن آشور المنيعة إلى ركام وخراب.

والتل الثاني، نبي يونس، يقوم على بقايا قصر آشور بانيبال، وعليه اليوم قرية تركمانية جميلة. ولقد حال دون قيام المنقبين بحفرياتهم فيه ما يعتقده السكان المحليون من أن النبي يونس مقبور تحت المسجد وعلى قمة التل،

= نينوى، فسمي باسمهم. راجع لغة العرب: 2: 58. (المترجم).

(1) عرفت (نينوى) بهذا الاسم لأنها كانت موضع عبادة الآلهة نينا آ (Ni-Na-a) منذ أقدم الأزمنة. وعرف البابليون هذه الآلهة في جنوبي العراق فكان لها معبد في مدينة الوركاء، وفي غيرها من المدن. ويكتب اسم هذه المدينة بالعلامة المسمارية الخاصة بكل مدينة، وداخلها علامة السمكة. فالسمكة كانت تعد من الحيوانات المقربة للآلهة نينا آ ويحتمل أن للفظة نون التي كانت تعني بالآشورية السمكة صلة بهذا الاسم تنحي نحو ما في العربية واللغات السامية الأخرى. وقد اشتق من لفظة نون الاسم العلم بأشكاله: يونان، ويونس، وذو النون، ولقصة يونان والحوت على ما يظهر، جذور في العقيدة الخاصة بعبادة الآلهة نينا آ التي صارت أيضاً لدى الآشوريين الآلهة عشتار وعبدت في نينوى وأربيل وغيرها من المدن الآشورية. راجع: دليل تاريخي على مواطن الآثار في العراق ص33 ـ 35. (المترجم).

(2) في نينوى تلان كبيران أحدهما يطل على نهر الخوصر ويسمى «تل قوينجق» والثاني وهو أصغر من الأول ويسمى «تل توبة» وعلى سفحه الغربي يقع «جامع النبي يونس» والنبي يونس هو «يونان بن أمتاي» أحد أنبياء بني إسرائيل المذكورين في التوراة (انظر سفر يونان بن أمتاي ـ العهد القديم) والمعروف عند المسيحيين «يونس بن متى» ويعرف أيضاً بذي النون وأخباره في القرآن الكريم (سورة يونس والأنبياء والصافات والأنعام والقلم والنساء) والجامع بُني على أنقاض معبد مجوسي بجانب «دير يونان بن أمتاي» وتحت الدير عين تعرف بعين يونس أو (دملماجة) وهي ترى بين السورين الداخلي والخارجي لأطلال نينوى من جهة الشرق. (المترجم).

وبذلك لم يستطع أي واحد منهم الكشف عما فيه من كنوز. . . وعندما احتل جيشنا الموصل ترك التل ولم يمسه بسوء.

وفي الحق إن القبر المنسوب إلى النبي يونس إن هو إلا قبر رجل دين مسيحي، ذلك أن كنيسة مسيحية كانت تقوم فوق التل في يوم من الأيام، وأن الجامع يقوم على أنقاض الكنيسة هذه، ولن يستسيغ القرويون مثل هذا القول، فالنبي يونس محجة لكثير من الناس ومزاره يدر عليهم المال، فذهابه فيه القضاء على سبب من أسباب نفوذهم.

ويختلف الأمر بالنسبة لتل (قوينجق)[1] فعندما قام (سر هنري لايرد) بالتنقيب فيه سنة 1845 كان العمل سهلاً يسيراً، واستطاع أن يكشف عما تحته وأخرج السر الدفين، وظهرت الغرف والأبهاء التي بقيت مطمورة تحت الثرى أمداً طويلاً. لقد أخرج منه أثمن كنز استطاع العثور عليه أي عالم بالآشوريات. إنه خزانة كتب نينوى التي أسسها الملك المحارب سرجون في القرن السابع قبل الميلاد والتي زاد فيها خلفاؤه من أمثال سنحاريب واسرحدون. وإلى حفيد سرجون، آشور بانيبال، بطل الأساطير، يرجع الفضل الأكبر في إنماء هذه الخزانة. فلقد كان هذا الملك شغوفاً بالعلم والآثار، وفي عهده تم إيفاد الكتّاب إلى بابل وآشور لاستنساخ الألواح الطينية الثمينة، وكتب المعرفة أينما وجدت. ثم جرت ترجمتها إلى الآشورية عن الألواح السومرية فلقد أصبحت اللغة السومرية آنئذٍ لغة ميتة، لا يستعملها إلا رجال الدين حصراً. وكانت خزانة الكتب هذه حسنة التنسيق والترتيب وتضم مؤلفات جمة في الدين والتاريخ والقواعد، وعلم النجوم، والحلول، والأساطير، والقانون والألغاز والمزامير والتعليقات

(1) أول من باشر في الحفر في تل قوينجق هو مسيو بوتا P. E. Botta قنصل فرنسا في الموصل (1842) واستؤنف من قبل سر هنري لايرد (Sir Austen Henry Layard) وهرمز رسام، ولوفتوس (W. K. Loftus) وجورج سميث في أوقات متفاوتة وكنج (1904) وطومسن سنة 1927. واكتشفت فيه قصور شلمناصر وسنحاريب وأسرحدون وتغلات فلاسر وآشور بانيبال (وهو أعظمها) وهيكل (نبو) أحد الآلهة الآشوريين وخزانة الكتب الملكية التي كانت تتألف من 30 ألف كتاب وقد خزنت في المتحفة البريطانية، وهي لا تقدر بمال. (المترجم).

وما إلى ذلك. وكانت الألواح الطينية التي ينقش عليها الكتاب بالحروف المسمارية[1] بعناية بالغة ذات أشكال مختلفة وتتسق مع موضوعاتها، فكان ظهر البعض منها مدوراً، ومحدودباً، وجلي أن الاختلاف هذا إنما أريد به سهولة التصنيف. وفي الخزانة ألواح عجيبة تسرد قصة الطوفان البابلية، وفيها ألواح ملحمة جلجاميش أيضاً. وفي مقدور المرء أن يتصور أمين خزانة الكتب هذه، وهو ملتح وغارق في العمل فيؤشر هذه اللوحة، ويصنف تلك، أو يوبخ مساعده على ما بدر منه من إهمال فسبب كسر إحدى القوائم، أو يقود الزائر إلى حيث تتكدس الألواح التي تحتوي على ما يطلبه من معلومات. وقد يراه مصغياً إلى عبارات الإطراء والمدح على ما تضمه الخزانة من نفائس، أو لما يتصف به كتابه من علم ودراية. ومن حسن الطالع أن يرعى الخزانة مثل آشور بانيبال نصير العلم وبطل الحرب. ذلك أنه أضاف بإنماء كتبها فخراً إلى فخار شعبه. لقد خلّد اسمه عن طريقها أكثر مما خلده بحروبه الدموية، أو بإقامته إمبراطورية عظيمة سرعان ما أخذت تنهار قبيل وفاته.

وعبرنا في أصيل يوم (دجلة) على جسر من قوارب ثم اتجهنا صوب التلين القائمين في السهل المترامي، وتركنا (نبي يونس)، وهو على اليمين، وسرنا بمحاذاة (قوينجق) والجدار العظيم الكائن عند أقدام التل. . . إلى أن وقفنا في زاويته الشمالية ـ الشرقية. وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب من وراء الموصل، وهي ترسل أشعتها اللاهبة على التلال التي تضم الصروح المطمورة. وسار قطيع الغنم في أثر الراعي وعلى طريق معشب صوب بيته. . . وقد ترى بعض أفراد القطيع يتواثب بين الفينة والفينة، وقد يصيب البعض الآخر شيئاً من العشب ثم يمضي. . . وسرعان ما هبت الريح من التلال الكردية رخاء نقية. هذا (جبل مقلوب) يقوم شامخاً خلفنا، وهو يلتمع في نور السماء. ولم نكن لنسمع نأمة أنسي فيما خلا نداء الرعاة وثغاء الماشية وهي تتجه صوب الغرب الذهبي. وفي مثل هذا الصمت العميق عسير على المرء أن يصف الحافة المعشوشبة العليا التي كنا نقف عليها بالذات. إنها تشبه الجدار التي يخطو عليها الحراس المسلحون

(1) الخط المسماري: خط تصويري تشبه علاماته الشكل الجانبي للمسمار، وقد يسمى (الخط الأسفيني) لأن علاماته تشبه أيضاً الشكل الجانبي للأسفين. (المترجم).

وهم يحرسون المدينة العظيمة الزخارة بالحياة والعمل. ولعل الحكام والرؤساء الآشوريين كانوا يدخلون المدينة من أبوابها وهم يرتدون الحلل الفخمة أو يمتطون صهوات الخيل المطهمة... ولعلهم جميعاً من الشبان وقد عادوا محملين بغنائم الحرب، يسير في أعقابهم الأسرى فيثيرون النقع. ثم يأتي خلفهم المشاة الملتحون يسيرون بانتظام وهم أشد ما يكونون توقاً إلى مباهج المدينة العظيمة، بعدما أبلوا في الحرب وغابوا عنها أمداً طويلاً.

ولعل (يونس) لم يكن إلا أحد الذين ساروا على جدر المدينة العريضة، ولعل الحزن كان يراود نفسه لما يعلمه من مصير المدينة التعسة، المدينة التي ضمت كثيراً من مواطنيه كأسرى.

وجالت في خاطري كلمات نبي آخر.. ولعلها أبلغ وصف لحال المدينة الميتة:

وسيجعل من (نينوى)[1]. قفرا يبابا[2].

---

(1) إن نينوى هي العاصمة الثالثة لمملكة آشور أولاها (آشور) (قلعة الشرقاط) وهي أقدمها وتقع أطلالها على الجانب الأيمن من نهر دجلة وعلى بعد حوالي 9 كيلومترات من صوب الشرقاط الحالية، وثانيتها (كالح) وهي نمرود الحالية وتقع أطلالها على الجانب الأيسر من دجلة وإلى الشمال من (آشور) وعلى بعد حوالي 32 كيلومتراً من الموصل وثالثتها أشهر عواصم الإمبراطورية (نينوى) وتقع تلولها على مسافة ميل واحد من الموصل على الجانب الأيسر من نهر دجلة. أما رابعة العواصم فهي دور شروكين «أي مدينة سركون» وتقع في قرية خرسباد شمالي شرقي نينوى على بعد حوالي 16 كيلومتراً منها (راجع الدليل الجغرافي العراقي للدكتور سوسة). لقد جعل (نينوى) أحد أبناء الملك تيغلات بلاصر، الوارد ذكره في التوراة، عاصمة الإمبراطورية (آشور) 1080 ق.م. وبنى فيها معبد عشتار. وجاء بعده بـ400 سنة الملك سنحاريب الذي شاد فيها مباني واسعة وحصَّنها وزرع حولها البساتين وبث فيها من أنواع الحيوان الغريبة وزرع فيها الشجر والورد من مختلف الألوان وعما جاء به من مختلف البلدان التي فتحها. كما أنه أدخل في إمبراطوريته زراعة القطن بعد أن جاء به من الهند. وخلف سنحاريب ملوك كثيرون زادوا من عمران المدينة. وسقطت نينوى سنة 607 ق.م. على يد (الماديين) وساعدهم على ذلك الطوفان (راجع نينوى وخرساباد ـ نشرة مديرية الآثار العامة في العراق). (المترجم).

(2) اهتم الآشوريون بالأمور الحربية كثيراً لذلك خسروا الأيدي العاملة في الصناعة والزراعة =

وستضطجع القطعان في قلب المدينة.

وستأوي طيور الغاق والواق إلى أسكفاتها[1].

وستردد أصواتها في النوافذ، وهي تغني:

إن الدمار والخراب على وصيد الباب!.

وفي نور الغسق الضئيل تجولنا حول قوينجق، ورأينا فتحات وثقوباً تدل على الأماكن التي أجريت فيها التنقيبات. ولم يخلف (لايرد) وعده الذي قطعه على نفسه للترك فلقد غطى كل ما لم يرَ نقله إلى إنكلترا بعناية، وحسناً ما فعل إذ لو يفعل ذلك لما بقي شيء منه أبداً. ومن (نينوى) نقل كثير من الطابوق إلى الموصل عبر قرون عدة. وما زالت أسوارها تزود ما تتطلبه صيانة جامع النبي يونس الذي تهدم في الشتاء المنصرم. وزرنا (نبي يونس) في الصباح. إنه يقوم فوق تل مرتفع، وهو أشبه ما يكون بقرية (تسكانية)، وفي مقدور المرء أن يشاهد من فوق سقف الجامع (نينوى) وما حولها من سهول وتلال وتتراءى الموصل من هذا المستشرف العالي وكأنها مدينة من المدن التي يرد ذكرها في قصص الجان.. وإنك لتشاهد مرتفعها الشمالي، وسورها المتهدم، ومآذنها المائلة، ونهرها العريض. وفوق سطح الجامع رحب بنا الإمام وقدم لنا الشاي فاحتسيناه شاكرين وجلسنا نستمتع بالهواء العذب والمنظر الجميل. ويتكلم سكان القرية بلهجة تركمانية، وكانت أبصارهم شاخصة إلينا وهم لا يستطيعون إلى الإسهام في الحديث سبيلاً.

وقادنا مضيفنا بعد فترة الاستجمام هذه إلى داخل الجامع. إنه بناء منخفض يتضوع في أرجائه الطيب، وقد فرش رواقه بالسجاد... وفي جدرانه

= فاضمحلت الدولة، واهتبلت بابل الفرصة وشقت عليهم عصا الطاعة ثم تبعتها مصر في هذا المضمار وهكذا لم يمض على موت آشور بانيبال (626 ـ ق.م.) مدة طويلة حتى كان الماديون قد اتفقوا وتآزروا معاً على خضد شوكة نينوى وكان سقوطها على أيديهم. (المترجم).

(1) الغاق هو (Cormorant) والواق هو (Bittern) في الإنكليزية. والأسكفة (Lintels) وهي عتبة تعلو النافذة أو الباب. (المترجم).

كوى قبور وكتابات ملونة. ودخلنا غرفة ثانية مفروشة بالسجاد السميك، وفي وسطها صندوق خشبي كبير وعليه غطاء مطرز، وعلى إحدى نهايتيه عمامة كبيرة. وخيل لنا أن هذا مرقد النبي، أو بالأحرى القبر الذي يضم جثمان المسيحي الذي حظي بالتقديس خطأً... ولم يكن هذا بصحيح فالصندوق، على ما قيل لنا، يخفي الدرجات المؤدية إلى دهليز فيه القبر الحقيقي. ولم يرغبوا في إطلاعنا عليه، لذا لم تتح لنا زيارة ما قد يكون أقدم جزء من الجامع، وأكثره إمتاعاً.

وفي خارج الجامع آيات قرآنية كتبت بخط لماع جميل ووضعت في إطارات كما توضع الصور. ففي الشرق يُعنى الناس كثيراً بالخط الفني الجميل. وعلى جدار الغرفة التي تضم المدخل إلى القبو علقت قطعة من سمك الكوسج[1] وهم يقسمون غير حانثين على أنه جزء بقي من الحوت الذي التقم ذا النون.

ومضينا من هذا الحرم المقدس إلى المصلّى، أو الجامع نفسه. وإنك لتجد فيه الصخور المنحوتة ملونة، ومنظرها ساحر، ولا سيما في الضوء الخافت. والمحراب والمنبر مزينان أيضاً. وسجاد الجامع نفيس جداً، فلقد جرت العادة أن يهدي كل سلطان من سلاطين الأتراك سجادة إلى هذا المزار المقدس. وما أن لبسنا الأحذية وهممنا بمغادرة الجامع إلّا وجاء رجل يسعى وبيده آجرة عليها كتابات مسمارية وهو يروم إطلاعنا عليها. إنهم يتوقون كثيراً إلى إطلاعنا على الكتابات الأثرية (الأنتيكة) الموجودة في المتوضأ، ويقع في باحة صغيرة قريبة. ولقد تبين لنا أن الكتابة سريانية، وهذا دليل آخر على أن المزار يقوم في موضع مسيحي الأصل. ولقد أجريت تنقيبات كثيرة في (نبي يونس) ولكنها لم تجر على عرق من العلم والدراية. وباعة العاديات البغداديون يشترون دوراً في القرية ويقومون بالتنقيب عن الآثار فيها. إنهم يبيعون ما يعثرون عليه، ويؤمل أن القوانين الجديدة التي يجري بحثها الآن

---

(1) في الأصل (Sword fish) ويسمى أيضاً أبو سيف أو سياف البحر (معجم الحيوان ـ أمين المعلوف) وهو سمك بحري له منقار طويل سمي به (معجم شرف). (المترجم).

والتي تهدف إلى صيانة الآثار القديمة ستحول دون أمثال هذا النوع من النهب والسلب.

نمرود[1]

لو تسنى لشبح (سر هنري لايرد) أن يجول لغشي (نمرود) قبل (نينوى). ذلك أن نمرود، (كالح) الآشورية القديمة، هي ميدان أعماله الموفقة. وكانت (كالح) مركزاً للحكومة قبل أن تصبح (نينوى) مقر ملوكها. ولدينا كتابات من عهد آشور ناصربال، ملك آشور في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، تفيد أن (كالح) أسست قبل نينوى بـ 400 سنة. إنها تبعد اليوم عن الموصل بـ 20 ميلاً، وطريقها جيد. ويطيب لي أن أزورها في الربيع، ذلك أن زهور البرية، التي تزين الأرض في شهري نيسان وأيار، كانت عندما زرتها في تشرين الأول هشيماً[2] أو ذبلى والمزارع صفراء لما تخلّف عليها من عصف، أو عشب مصفر.

وكنا نمر بالقرى الواحدة تلو الأخرى وأهلها ناشطون إلى دياسة الحبوب

---

(1) تقع أطلالها على الجانب الأيسر من نهر دجلة، وإلى الشمال من آشور، وعلى بعد حوالي الـ 32 كيلومتراً من الموصل. وكانت (نمرود) عاصمة الإمبراطورية الآشورية في خلال القرنين الـ 8 والـ 9 قبل الميلاد. وقام (سر هنري لايرد 1840) و(رسام) بالكشف عن قصور ملوكها: آشور بانيبال، وشلمنصر، وتيغلات بيلصر في أواسط القرن التاسع عشر وكشف (لايرد) عن كثير من الآثار التي نقلت إلى بريطانية حينئذٍ. واستؤنف التنقيب في المدينة ثانية برئاسة بروفسور مكس ملوان عام 1948 فكشف عن معبد الإله نبو، إله الحكمة والكتابة. كما عثر فيها على مسلة للملك آشور ناصربال الثاني عليها صورته وهي تدون أعماله العمرانية وفتوحاته العسكرية وتنتهي بوصف الوليمة التي دعا إليها جميع سكان المدينة والبالغ عددهم 65000. وتعتبر الآثار المصنوعة من العاج والتي اكتشفت في هذه المدينة من أنفس العاجيات ولا مثيل لها في متاحف العالم.
وورد ذكر (نمرود) في التوراة (سفر التكوين: 12) وهي تنسب تأسيسها إلى (آشور) بن (سام)، ولكن ليس لدينا من المعلومات عن المدينة قبل الملك شلمنصر الذي أراد من وراء بنائها أن تكون له عاصمة خصبة بدلاً من آشور. (المترجم).

(2) الهشيم: اليابس المتكسر.

وتذريتها. إنها وفيرة هذه السنة، وقد لا تساوي قيمتها قيمة الجهد المبذول في حصادها. وكنا نشاهد قطارات الإبل وهي مثقلة بالحبوب أو بالمحصولات الأخرى... إنها تمضي صوب الجنوب ويقودها دوماً رجل يركب حماراً. هنا طير الهدهد، طير سليمان ذو العرف... إنه يعدو! وهذا طائر الوروار يتلألأ جسمه في شعاع الشمس.

وانحرفنا عن الطريق الرئيسي المؤدي إلى أربيل وسرنا بين الحقول حتى بلغنا حافة تل اصطناعي... إنه آشوري، ما في ذلك شك. إنه يزدهي في أوائل السنة بزهور البرية، أما الآن فهو أشبه ما يكون بتل محترق أغبر. وهناك ممر يؤدي إلى قمته، وفي أسفله قطع الحجارة مكدسة في غير نسق، ولعلها مما كان المتعهدون المحليون يستفيدون منه، حتى صدر الأمر من قبل الإدارة البريطانية بمنعهم من ذلك. وما يستطيع المرء أن يشاهده في نمرود هو أكثر مما في نينوى. فهناك عدد من الثيران المجنحة ذوات الرؤوس الآدمية ما زالت مطمورة إلى النصف في التراب. وأرادت إحدى القطعات العسكرية البريطانية أن تلهو فأخرجت تمثال إنسان، ولكن التمثال استعيد منها الآن. ويمكن استقصاء خطط المدينة، وهي تدل على أن مساحتها كانت تتراوح بين 5000 ـ 7000 قدم، ولا شك أن العين المبصرة تستطيع أن تستشف كثيراً مما تبقى فوق الأرض، أو فوق الكثبان والتلال المتكونة فوقها. ونمرود، بالنسبة للزائر العابر، كنينوى لا تعدو أن تكون مدينة ميتة لا حياة فيها!.

آشــور

وتقع آشور على بعد 40 ميلاً إلى الجنوب وتبعد حوالي 4 أميال عن محطة قلعة الشرقاط. إنها ذات مجلى، ولقد كانت المقر الأول لملوك آشور، مدينة الشباب المحارب، وسميت باسم الإله الأعظم، آشور ـ إله مواطن الوغى.

ولنتساءل: من هم الآشوريون هؤلاء؟ إنهم أقرب الناس إلى الأكاديين(1)

(1) إن أقدم قوم معروف حل في ربوع ما بين النهرين وأنشأ الدويلات الأولى التي اشتهرت بتنظيماتها الدقيقة في الأوجه المختلفة في الحياة هم (السومريون)، لا سيما وأنهم =

فالزعم الشائع اليوم: إن الآشوريين هم الآراميون الذين استوطنوا منطقة دجلة الشمالية.

لقد أسروا خلقاً عظيماً، وفي الحق أنهم كانوا يؤسرون شعوباً برمتها، وعلى ما ورد في (التوراة). وإن ساروا إلى الفتح استهدفوا النهب، والسلب، ولعل هذا هو السبب الذي عجل في انهيار إمبراطوريتهم على الوجه المفجع. ذلك أن ما يملك بحد السيف لا يبقى بقبضة مالكه طويلاً. لقد أثبت (كورش) الفارسي أن أقوم سبيل لحكم الشعوب المغلوبة هو تمكينها من الحرية، وإشاعة العدل فيها.

وتقوم بقايا آشور على صخرة شامخة في سهل ذي زرع، وخلفها سلسلة جبل حمرين. ولقد بنوا المدينة بالآجر والصخر والمرمر، وعلى غرار مدينة الموصل اليوم. وليس بُدّ من أن تكون المدينة جميلة في أيامها الغر... ذلك أنها كانت تقوم فوق بحيرة واسعة ترتطم أمواجها بأسوار المدينة نفسها. وكان هناك خزان يملأ البحيرة بالماء، وما زالت آثاره باقية حتى اليوم. وفي مقدور المرء أن يشاهد الآن المراسي الصخرية التي كان الآشوريون يشدون قواربهم إليها، وتقوم هذه المراسي في أسفل تل المعبد.

= تمكنوا من السيطرة على مياه الرافدين مما ساعدهم على عيش مستقر وهيأ لهم الانصراف إلى التوسع في المعارف والعمران. ثم جاء بعدهم (الأكاديون) فساروا على نهجهم ونشروا أساليب حضارتهم في أنحاء العراق والأقطار المجاورة له وذلك بإنشائهم الإمبراطورية الأولى التي عنيت بالتجارة واستتباب الأمن والإعمار في رقعة امتدت إلى البحر الأسود وقبرص. ثم حل بعدهم في الجنوب (سلالة أور الثالثة) وما زالت آثارها في أور والوركاء ونفر. وتبع ذلك ظهور سلالة بابل التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي صاحب الشريعة ذات الأثر البالغ في تطور الفكر ونشوء الضمير. وفي الوقت الذي كان الجنوب يحارب بعضه بعضاً كان الآشوريون قد ظهروا في الشمال وأخذت مملكتهم تنمو شيئاً فشيئاً حتى خضع لها الهلال الخصيب وامتد نفوذها في فترة من الزمن حتى وادي النيل. إنها اختفت من مسرح الحياة بسقوط عاصمتهم نينوى عام 612 على أيدي الماديين الساكنين في الجبال الشرقية والكلدانيين القاطنين في بلاد بابل وقد اشتهر من الكلدانيين ملكهم نبوخذنصر الثاني.
راجع: النشاط الآثاري في العراق ـ مديرية الآثار العامة في الجمهورية العراقية.

وليس بد من أن تكون المدينة عامرة بالشجر في أيامها الزاهرة، أما وقد انحسر الماء عنها فلا شجر اليوم، ولكنها ترتدي في بواكير السنة حلّة خضراء قشيبة، أي عندما ترتفع سنابل الحبوب في الأرض المعطاء المروية بالديم.

قامت (جمعية الشرق الألمانية) بتنقيبات واسعة في أطلال المدينة، ولكن الحرب حالت دون استمرارها بالعمل، وما زالت الأخاديد، والأنفاق، وأكوام التراب التي خلفها المنقبون قائمة على جانبي المدينة. هذا وإن خطط المدينة من شوارع وأبنية كبرى ومعابد ودور وحصون ظاهرة اليوم بين أكداس الحجارة والطابوق والمرمر.

مدينة تبنى فوق مدينة وعهد يروح وعهد يجيء... لذا قامت طبقات عديدة يستطيع المرء أن ينفذ منها قبل الوصول إلى أول مدينة. وكانت (آشور) موجودة أيام الساسانيين، وفي أيام (البارثيين) أيضاً. وقام الألمان بحفر الأخاديد على مسافة بضع مئات من الأقدام فاستطاعوا أن يصلوا إلى أعمق الطبقات ولم يفلت منهم، لذلك، إلا القليل. وتمكنوا أن يقتفوا بتنقيباتهم آثار المعابد الآشورية القديمة، ومنها معبد (آنو وعداد) كما استطاعوا أن يعرّوا البيوت الواحد تلو الآخر فكشفوا عن فناء كل بيت وما فيه من تنظيم صحي مما يدل على أن الآشوريين شعب نظيف. وبيت كل آشوري هو مقبرته أيضاً. وكانوا يضعون الموتى في توابيت تشبه الجرار، ويدفنونهم تحت البيوت، وما زالت هذه العادة متبعة لدى بعض الشعوب الهمجية اليوم.

كثير هذا الذي عثر عليه بين جداري المدينة الداخلي والخارجي، ومنه شاهد[1] يكشف لنا عن أسطورة سميراميس العاطفية. إنها أسطورة ويا للأسف! فسميراميس شخصية خرافية نصفها إلهي ونصفها مما تحفل به قصص الجان. وفي الحق كانت هناك «سيدة قصر» أو «سامورات» هي زوج «شمس عداد الخامس» 825 ـ 810 ق.م، وعندما ترملت وأصبحت وصية على ابنها (عداد نيراري الرابع) 810 ـ 781 ق.م. تعاظم بأسها فطبعت شخصيتها على

(1) في الأصل الإنكليزي Stele، والشاهد حجر على قبر أو عمود منصوب عليه نقش أو كتابة. (المترجم).

الأساطير الذهبية في العالم كله. ولم يكن ذلك مسبباً عن المنجزات الكبرى التي عزاها المؤرخون اليونانيون إليها.

وعلى الشاهد الآشوري المذكور ما يلي:

«نصب تذكار لـ (سامورات)، سيدة قصر شمشي عداد، ملك العالم، وملك آشور، وأم عداد نيراري، ملك العالم، وملك آشور، وابنة زوجة شلمنصر، ملك الجهات الأربع».

ويتوّج المدينة صرح مدرج شامخ (زقورة). إنه معبد الإله آشور[1] العظيم ويدعى بـ (خارساك ـ كالكور) أو «البيت الجبلي».

ولعل هذا الصرح المدرج الشامخ هو أول ما كان يراه الجنود الآشوريون المتعبون عند عودتهم إلى الوطن عبر السهول المليئة بمخلفات المعارك. وبرج المعبد هذا مبني باللبن، وهو متراص فيما عدا غرفة تقع في وسطه، وإليها حفر الألمان النشطون طريقاً لهم. وكان ملك الحرب المزهو يتطلع من برجه العالي إلى البحيرة والبلد الضاحك. ولو تسلق المرء درجات حفرت على سطحه لرأى المدينة كلها. فهناك عظام بيضاء لفحتها آلاف السنين، ومنخفض كان في يوم من الأيام بحيرة، وهذا نهر دجلة يتلوى ويتلألأ في جريه نحو الجنوب، وعلى مقربة من النهر بناية كانت مقراً للمنقبين الألمان، إنها حسنة البناء وقد استفادوا منها بآخرة فجعلوها مستشفى للجنود البريطانيين المخيمين بجوارها. ويسمى التل الذي بنيت عليه المدينة بـ (جبل القمر) ـ وهو اسم على مسمى، ذلك أن فوهاته ومنخفضاته وثقوب الحفريات فيه تتراءى خلال نصف السنة القاحل، وكأنها صورة وجه القمر. إن المدينة

---

(1) الإله القومي للآشوريين، ويرجح أن اسمهم مشتق من اسم هذا الإله. ولم يكن الإله آشور، مثل الإله مردوخ، في بداية الأمر بذي شأن فكان أهل مدينة آشور وحدهم يعبدونه. وبعد أن تدرج الآشوريون في نموهم السياسي وأسسوا مملكة قوية سيطرت على العالم القديم عظم شأن إلههم وأصبح على رأس الآلهة البابلية والآشورية. وهو يمثل عادة بإنسان يطير بجناحين وبيده القوس والسهم، والجناحان ينبعثان من قرص الشمس.

راجع مقدمة في تاريخ الحضارة القديمة بقلم طه باقر. ص254 ـ 255.

الميتة أشبه ما تكون بمقبرة. وعسير على الإنسان أن يتصور، على الرغم من ذلك، ما كانت عليه المدينة الأم للشعب الآشوري في أيامها الغر الزاهرة. ذلك أن برج معبدها، وحصونها ذوات الأبراج كانت تنعكس على صفحة البحيرة، كما كانت البساتين الفيح تمتد على حافة الماء، والريف الخصب يطعمها إبان شهر أيار. إنها الموضع الذي كان المحتربون يتشوقون إليه إثر قتال طويل في البلدان القاصية. أما اليوم: «إن رعاتك يا ملك آشور، نوَم، وإن سراتك يرقدون تحت التراب».

الفصل الثاني

من المدن البابلية المطمورة

أولاً - بابـل[1]

شمس... وسكون... وخرائب مغبَّرة فيها أكداس مكدسة من كسارة

(1) تقع خرائب بابل على بعد نحو 90 كيلومتراً جنوب بغداد. والاسم السومري للمدينة هو الصيغة المألوفة (كادنكرا)، أما الاسم البابلي السامي، أي «باب ايلو» أو «باب ايلي» فهو ترجمة للصيغة السومرية، ومعنى الاسم باب الإله أو الآلهة. هناك آثار تدل على وجود مستوطن في موضع بابل يرجع تاريخه إلى عصور ما قبل التاريخ (نحو 4000 ق.م) إلا أن أقدم إشارة تاريخية إلى المدينة قد جاءتنا من عهد (السلالة الأكدية) في حدود 2350 ق.م. ولم تصبح بابل ذات شأن سياسي خطير في تاريخ العراق القديم إلا منذ قيام سلالتها الأولى (1880 ـ 1580 ق.م) التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي حيث أصبحت عاصمة الإمبراطورية التي أسسها. وتتابعت عليها الأحداث الجسام فلقد دكَّ الملك الآشوري سنحاريب، إثر قيامها بثورة عليه، حصونها وقصورها (689 ق.م). ثم كانت لها حقبة مجيدة (العهد البابلي الأخير) 625 ـ 538 ق.م. ولا سيما إبان حكم الملك الشهير (نبوخذنصر الثاني 604 ـ 562 ق.م) والذي يصح أن نقول إنه أعاد بناءها من جديد ولا سيما قصورها ومعابدها وهي التي حققها المنقبون الألمان في خلال الـ 14 عاماً في بداية هذا القرن. وإنك لتجد بقايا الآجر المختوم باسمه منتشرة في خرائب المدن القديمة. ودخلت بابل ومعها جميع القطر تحت حكم الفرس (الأخمينيين) بعد أن غزاها (كورش) 538 ق.م. وبقيت بابل على أهميتها إبان هذا العهد، ثم أخذت تفقد هذه الأهمية منذ العهد السلوقي بتأسيس العاصمة الجديدة (سلوقية) إلا أنها استمرت كمستوطن إلى العهود الإسلامية.

(راجع «بابل وبورسبا» بقلم طه باقر).

الحجر، واللبن، والطابوق، وكلها تحت صعيد الأرض، تتراءى وكأن من بناها حفر أساس المدينة وفر هارباً. . . تاركاً وراءه ذلك كله. هذه هي بابل «تلك المدينة العظيمة» وإنك لتسمع تغريد القنبرة فوق صحرائها المترامية، أو ترى (نمساً)[1] يتشوّف من جحر، أو ابن آوى يولي هارباً، أو قد تشاهد ذعرات الماء[2] تنساب رافعة ذيولها بين الأعشاب النابتة في الحفر القريبة من تلك الأرض الشاسعة والتي يزعم الألمان أن (برج بابل) العظيم كان يقوم فيها شاخصاً نحو السماء. لقد أسموه (ايتومين آنكي)[3] ومعناه «البيت الذي هو الحجر الأساسي للأرض والسماء، على حد سواء».

سكون شامل، وعزلة. . . وحيوانات صحراوية صغار. . . وتراب لفحته أشعة الشمس. ولو جهل الإنسان طريق بابل وقصدها بالسيارة من بغداد، مثلاً، فقد يحسب أن تلك المرتفعات الدالة على مجاري المياه القديمة هي ما تبقى من أسوار المدينة العظيمة، وذلك قبل أن يصلها بمسافة طويلة. وحدث مثل هذا لي، وكلما حاولت السؤال من أحد الرعاة عن الطريق المؤدي إلى بابل، أو أستفسر كم بقي من الوقت للوصول إليها وجدت المسؤول يجمع أطراف ثوبه ويولّي هارباً، وكأنه يفر من السيارة فراره من الشيطان. وصادفت أحدهم وهو يمشي الهوينا أمام قطيعه، وما أن سألته نفس السؤال إلا ونظر

---

(1) في الأصل Monsters والنمس حيوان لاحم أكدر اللون أحمر العينين قصير القوائم طويل الجسم والذنب ولعله سمي بالنمس لأنه أنمس أي أكدر. والنمس الفارسي موطنه العراق وإيران، واسمه في العراق (جريدي النخل) أو (أبو العرس) حسب رواية الكرملي (راجع معجم الحيوان لأمين المعلوف). (المترجم).

(2) في الأصل Water Wagtails ومفردها ذعره وهي (الزيطة) بلغة العوام في العراق. (المترجم).

(3) (أي ـ تمن ـ آن ـ كي) اسم صرح بابل الشهير أي (الزقورة)، ويقع إلى الشمال من ايساكالا بقليل. وكان عبارة عن حارة ضخمة مقدسة يعلوها الصرح المدرج ويحيط بها سور عظيم. وكان يرقى إلى الصرح بمجموعة من السلالم عددها 3، سلم وسطي وسلمان جانبيان. وللبناية المقدسة هذه مداخل متعددة من الخارج. وقاعدة الزقورة مربعة (55ر91× 55ر91) متراً = 300 قدماً).
راجع: (بابل وبورسبا بقلم طه باقر ص9). (المترجم).

إليّ باستغراب، لقد اكتشفت بعد ذلك أنه لم يفر كأمثاله ويركض أمام الصوت الذي أحدثه تقربنا منه، لكونه مصاباً بالصمم والخرس!!

فإن وصل المرء (بابل) على كل حال، فلن يضل بين معالمها الباقية. فالتلال فيها متميزة عن السهل، وسرعان ما يجد نفسه واقفاً في وسط الأحافير. وزرت بابل، بعد زيارتي الأولى، مرات عدة، وكنت في كل مرة وحيدة... وإنني لست بناسية الخيال السحري الذي غمرني لدى رؤيتي «المدينة المنعزلة» أول مرة، والغداء الذي تناولناه على قمة إحدى رباها وقد تناثرت هنا وهناك قطع الآجر تحمل اسم «نبوخذنصر» العظيم مكتوباً بالخط المسماري. ولم تكن تلك الرابية إلا أساس قصره الحصين، وفي مقدور المرء أن يشاهد من فوقها المدينة كلها وكأنها خارطة نشرت تحته. كنا نجلس على أرض معشبة فوق قمة الرابية، وعلى مقربة منا خروف أسود كثيف الشعر عنيد يقتات على ذلك العشب، ولا يريم! وكان لنا أن نجلس ههنا ونفتح صفحات كتبنا. إن (كولديوي) و(ماسبيرو) يقومان بتعيين مواقع الربى على الخريطة وبيان تاريخ هذه المدينة العظيمة التي كانت تترامى تحت المكان الذي نجلس عليه.

وبابل، بالنسبة لمدينة آشور الشمالية مدينة محدثة[1] وهي أشد عصامية من (أور) الجنوبية. لقد نبه شأنها في حوالي الـ 2200 سنة ق.م. وذلك عندما حررها الملك حمورابي، وهو من ألمع شخصيات التاريخ العالمي، من الغزاة العيلاميين، وشيَّد إمبراطوريته على أساس من الرخاء والسلام. وبعد 500 سنة من حكمه شهد العالم بلاد الرافدين متحدة يزدهر فيها الفن، وتنشط فيها الحياة الزراعية، وأصبحت بابل التي لم ينبه لها شأن إلا قبل أربعة أجيال فقط قلب الإمبراطورية، ومعين الوحي فيها. ودأبت المدينة على هذا الحال، وإن غزيت في فترات وخضعت لحكم الآشوريين، ثم كان خرابها في أيام السلوقيين.

وكان معبد مردوخ (بعل) المركز الرئيسي في أرض بابل. ففيه (شارع

---

(1) في الأصل Parvenu والمحدث هو العصامي أو حديث النعمة. (المترجم).

الموكب)[1]، وكانت تحمل الآلهة وتمر منه، وكان الملوك ينفذون منه ليؤدوا الصلاة أمام مذابح المعبدين العظيمين: (مردوخ)[2] ونينماخ[3] ولعل هذا الشارع ذا الشهرة العالمية أشبه ما يكون بشارع (فيفث أفينو) Fifth Avenue أو (بيكادللي) اليوم إذ إن الذي كان يهمس به أهل بابل في يوم ما سرعان ما يسري إلى أهل العالم كله فيناقل الحديث عنه بعضهم بعضاً. ولقد كانت بابل مركز التجارة والفن والأدب، وكرسي الحضارة في الدنيا كلها.

سبق لي القول إن بابل بقيت على نباهة شأنها إبان حكم الآشوريين. وعندما مات آشور بانيبال العظيم في حوالي سنة 640 ق.م. كان الخطر محدقاً بالإمبراطورية، ومجدها يوشك أن ينهار. وتم تدمير المدينة كلها. إن هجمات البرابرة الشماليين على مملكتي بابل وآشور أضعفت من شأنهما فأصبحتا في المرتبة الثانية. وعندما استعادتا شأنهما الأول كانت القيادة، إبان زمن يمور بالاضطراب والقلق، للقائد الكلداني (نبوبولاسر)[4] البابلي. واندلعت نيران العداء بين الدولتين كرة أخرى، وقام (نبوبولاسر)، يعاونه ملك مادي اسمه كي اخسار Cyaxeres بمحاصرة مدينة نينوى، واستولى عليها سنة 607 إثر مقاومة دامت سنتين. لقد أصبحت نينوى إثر ذلك أثراً بعد عين. لقد كانت المدينة عاصمة إمبراطورية عسكرية عظيمة ومن عواصم التاريخ،

(1) اسمه القديم «أي ـ يبور ـ شابو» ومعناه «لن يعبر الأعداء» وكانت تمر فيه تماثيل الآلهة على هيئة موكب من معبد الإله مردوخ في أثناء عيد رأس السنة البابلية (بين آذار ـ ونيسان) فتمر أولاً في باب فخم هو باب عشتار ومن ثم تسير في الشارع شمالاً إلى موضع خاص هو معبد خصص للاحتفال بهذا العيد، ويقع على مقربة من النهر. (المترجم).

(2) هو معبد ايساكلا، وهو المعبد الرئيسي بين معابد المدينة، ومعنى اسمه السومري (البيت الرفيع) وقد خصص هذا المعبد لعبادة الإله مردوخ كبير الآلهة البابلية والذي عظم شأنه منذ قيام سلالة بابل الأولى.. ولقد وصفه (هيرودتس) في رحلته وبيَّن ما فيه من تماثيل من ذهب صنعت للآلهة. (المترجم).

(3) معبد خصص لعبادة الآلهة «نن ماخ» واسمه «أي ـ ماخ» وموضعه لصق باب عشتار. (راجع بابل وبورسبا بقلم طه باقر ص5).

(4) إنه من السلالة الكلدانية (612 ـ 538 ق.م.) التي حكمت بابل في عهودها الأخيرة. وهذا الملك، وابنه «نبوخذنصر» العظيم (604 ـ 562) معروفان في التاريخ بالعمران وآثارهما تدل عليهما ولا سيما ما بقي منها في بابل وبورسبا. (المترجم).

فأصبحت في حكم العدم. واقتسمت الدولتان المتحالفتان الإمبراطورية الآشورية، فاستولى الماديون على (آشور) واستولى (نبوبولاسر) على (سومر) أو أرض العراق نفسه، وعلى عاصمتها (بابل) بطبيعة الحال. إن جلَّ ما بقي من بابل كخرائب اليوم إن هو إلا بقايا الآثار التي تخلفت عن الأمبراطورية الجديدة.

وسادت الغوغائية ذلك العصر. فالآشوري جندي، ومهما بلغ من الطيش ففيه شيء من صفات السيد الماجد المهذب[1]. ولكن الأمبراطورية البابلية الجديدة التي بقيت مزدهرة لـ 70 سنة لم تسلم من طغيان الجلبة والصخب، ومن العسير أن ينسى المرء (نبوخذنصر البابلي) عسر نسيانه (رعمسيس الثاني المصري). والثاني عرف بشدة الأنانية بينما لم يكلف الأول بالدعاية لنفسه. وفي الحق أن هذا الملك وأباه وجدا كثيراً من البنايات المتهدمة فشمرا عن ساعد الجد وبنى كل منهما بنايات جديدة محلها.

وإنك لتجد اسم نبوخذنصر مكتوباً بوضوح وبالخط المسماري على ما يعثر عليه المرء اليوم من آجر، إن تجول بين خرائب المدينة.

وطَّن نبوخذنصر النفس على تخليد اسمه في التاريخ إلى الأبد، ونجح في ذلك. ولقد ورث هذا الملك عرش أبيه في حوالي سنة 605 ق.م. وبلغت بابل إبان حكمه قمة المجد. وكان الحظ دوماً حليفاً له، كما كان أبوه سديد الرأي وشجاعاً في حومة الوغى. وأقام الأب تحالفه مع جاره الطموح الثائر كي اخسار Cyaxeres المادي على أساس من المصاهرة، فزوَّج ابنه من الأميرة المادية (اميتس)، ولكي يحفظ ميزان القوى جعل من نفسه وسيطاً بين (ليديا) المملكة الزاهرة وبين (مادي) وذلك عندما نشبت الحرب بين المملكتين. ثم حلَّ السلم بينهما إثر زواج الأميرة الليدية من ابن كي اخسار Cyaxeres وبذلك تكوَّن حلف ثلاثي من (مادي) و(ليديا) و(بابل)، وكل طرف فيه شديد الأيد، ويساوره الشك في الآخر. ولم يحل السلم بين الأطراف إلا سياسياً. ومن

(1) في الأصل Gentleman وكل من (السيد) أو (الماجد) أو (المهذب) و(الظريف) تصح ترجمة لها. (المترجم).

حسن حظ (نبوخذنصر) أن ابن كي اخسار Cyaxeres عند تولّيه العرش لم يحذو حذو أبيه في حب الحرب والقتال. ولكن نبوخذنصر لم ينس نصائح أبيه، على الرغم من قيام التحالف، فبنى حصوناً دفاعية منيعة ما زالت آثارها باقية على طريق السكة الحديد بين سامراء وبغداد. ثم إنه شق قنوات الري وجعلها بشكل يمكن أن تغمر البلاد كلها بالماء عند تعرضها للغزو. كما أنه حصَّن سبار Sippar[1] وهي ثغر في أقصى حدود إمبراطوريته البابلية شمالاً. إنه لم يكلف بالفتح ولم يجعله شغلاً شاغلاً له. ولقد جرَّد إبان حكمه الذي استمر 43 سنة حملات على (مصر) وغيرها وكان القصد الأول منها تدعيم نظام حكمه في الداخل. وكأنه كان يشعر بمصير بلاده إثر وفاته وحاول أن يجنبها المصير المحتوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وكان شديد التصميم على أن يجعل من (بابل) مدينة جميلة منيعة.

«ألم أشيد بما لديَّ من حول وقوة بابل العظيمة هذه لتكون المقر الملكي ومفخرة لي ـ أنا صاحب الجلالة».

ولكن، ما الذي بقي للرائي المستطلع اليوم من هذه المدينة الملكية؟.

للألمان الفضل الأكبر فيما جرى من تنقيب في خرائبها. ولقد استمرت حفرياتهم برئاسة الدكتور روبرت كولديوي[2]، وهو رجل عرف بالصبر والعناية منذ سنة 1899 حتى الحرب العالمية. وعندما فر الألمان اصطحبوا معهم من الآثار أكثر ما استطاعوا إلى حمله سبيلاً. كما أنهم خزنوا الباقي في (المَضَافة Rest - house) التي كانوا يحلّون فيها، وهو اليوم مخزون في غرفة خاصة

---

(1) وتعرف أطلالها الآن (أبو حبة). (المترجم).

(2) أشرف (الدكتور كولديوي) على الحفريات في أطلال بابل وانحصرت في التل المسمّى بـ(القصر) وهو حصن بناه (نبوبولاصر) ووسعه نجله (نبوخذنصر) والتل المسمى بـ(عمران) والواقع جنوبي الأطلال الثلاثة التي تشغل موضع المدينة. لقد تبين أنه أنقاض المعبد المشهور (تي راج ايلا) أو البيت السامي المقام المرصود لمردوخ إله البابليين الكبير وسيد الآلهة البابلية قاطبة لذلك استخرجت أسس القصر كافة وفحصت مئات من الغرف التي يحتوي عليها ودرست كل مادة وجدت فيها دراسة فنية دقيقة. (المترجم).

سدت بالآجر. إن ذلك كله لم يتم إلا مع شيء كبير من الأضرار، ذلك أن كثيراً من مجموعة العاديات هذه نهبت من قبل البريطانيين والعرب على حد سواء. ولقد أعلمني أحد الضباط أنه حضر في الوقت اللازم لينقذ قطعاً نفيسة من باب عشتار كانوا على وشك نقلها. لقد هيأوا عربة وكان السراق في سبيل سحب القطعة من مكانها. وعندما رحل الألمان كان كثير من القرميد المموَّه، زينة الأماكن العامة في يومها، موجوداً، أما الآن فلم يبق منه شيء. وسيطرت السلطات البريطانية على الوضع بطبيعة الحال، ولكن ذلك تم بعد حدوث كثير من الأعمال البربرية. وأهم الربى (رابية النصر) وفيها باب عشتار الشهير الذي كان يزدان بالثيران، والحيوانات الخرافية كالتنين، والأسود الملونة بالألوان: الزرقاء، والصفراء، والبيضاء، نتاج الصناع البابليين النابهين. لم تبق اليوم منها قرميدة واحدة![1] أما الآجر فما زال الحفر عنيه ظاهراً، وعليه أوجه وشكول عدة تمثل حيوانات مختلفة وهولات[2] Monsters، وهي دقيقة الصنعة، متقنة الصقلة. ويقال إن الباب كانت مزخرفة بمئات من صور المخلوقات هذه، والمموَّه منها ما كان يعلو الأرض. ذلك أن قسماً منها كان تحت صعيد الأرض، وعلى غرار البيوت الحالية في العراق[3]، حيث يبنى

---

(1) وفقت مديرية الآثار العامة خلال عمليات الصيانة الأثرية في بابل في أوائل عام 1959 إلى العثور على كمية كبيرة من كسارة الآجر المزجج بالألوان وصنعت منها أسداً كاملاً من الأسود التي كانت تزين شارع الموكب وهي الآن معروضة في متحفة بابل. (المترجم).

(2) ترينا خطط الدور إطراداً في شكلها وتصاميمها، فهي تشبه بوجه أساسي البيت الشرقي ببغداد اليوم، فقوامه ساحة تحيط بها حجرات ومرافق أخرى. كانت الشوارع منظمة ومستقيمة وتقاطعها بزاوية قائمة تقريباً، وقد وصفها هيرودوتس أدق وصف. (المترجم).

(3) يتمكن الزائر أن يشاهد اليوم نحو 152 صورة من الحيوانات البارزة غير الملونة على جدران باب عشتار، (وكانت جدران شارع الموكب الملاصق لباب عشتار مزينة بالآجر المموَّه بالميناء وبصور بارزة للأسود، ويوجد نموذج من ذلك في كل من متحفة بابل والمتحفة العراقية وهي تأتلف من صف من الثيران فوقها صف من صور الحيوان الخرافي (التنين) وهو حيوان مركب كانوا يعدونه خاصاً بالإله مردوخ، ثم صف آخر من الثيران. أما الثور فكان الحيوان المقدس الخاص بالإله (ادد) إله الأمطار والرعود والبروق ويشاهد الزائر أن باب عشتار عبارة عن باب مضاعف (بابين) لأن جداري السور الداخلي كانا يمران منه، وعلى جانبيه أبراج فخمة أعدت للدفاع عن المدينة. (المترجم).

قسم من البيت تحت الأرض اتقاء الحرارة. وهذا القسم هو كل ما تبقى من الباب اليوم. وفي هذا الموضع بالذات «شارع الموكب» وقد فرشت أرضه بالحجارة، والكلس والمرمر، وثبتت بالقار. ولو مر المسافر في زمان (هيرودوتس) من باب عشتار الجميل، وجاوز (معبد نينماخ) حيث تؤدي النسوة صلاتهن إلى (السيدة) لشاهد مهيَع المواكب[1] الذي يؤدي إلى معبد (مردوخ) ذي الصرح المدرج الـ(زقورة) الشاخص في السماء، ماراً في طريقه بالجنائن المعلقة، والبنايات العامة.

وكانت الآلهة العظمى تحمل، وتمر مواكبها من هذا الطريق المقدس، ولم يكن ليسمح لوسائط النقل الاعتيادية أن تمر عليه، إذ إن المرور منه مقصور على المشاة. وتحمل صورة (بعل) مرة في السنة، ويمر حاملوها من هذا الشارع أيضاً، إنهم يمضون به ليزور ابنه (نبو)[2] في مشارف مدينة (بورسبا) وحيث يقوم للابن هذا صرح مدرج آخر (زقورة) وكأنه معلمة في ذلك السهل الواسع. إن الصرح هذا اليوم خرائب وآكام عليها وآثار اشتعال النار. واستمرت (بابل) تابعة للفرس إثر سقوطها ودأبت على ممارسة شعائرها وطقوسها هذه، فكانت الآلهة تحمل وتنقل على الطريق المقدس كل سنة، وكان الملك العظيم الذي يؤمن بعقيدة سامية يقدم القرابين إلى الإلهين (مردوخ) و(نبو) بسخاء، وبذلك كان ينال شكر الكهان البابليين وولاءهم. وفي مقدور المرء أن يسير اليوم في (الطريق المقدس) ويقف عند معبد (نينماخ) المتهدم. إنه يظهر مخطط المعبد العتيق بجلاء ووضوح، وما زال قسم من جدرانه قائماً اليوم. وهذه المعابد جميعاً مبنية باللبن، ومعنى ذلك أن العصر الذي بنيت فيه لم يتسم بدقة الصنعة... والدين محافظ بطبعه، كما لا يخفى.

و (القصر) يقع على اليمين، وكان يضم البنايات الحكومية في عهد

---

(1) المهيع ـ الطريق الواسع الظاهر.

(2) إله الحكمة والمعرفة عند قدماء العراقيين وسمي معبده في بورسبا (اي زيدا) أي المكان المكين. و(نبو) جذر في الأكدية يعني دعا وأخبر، وكلمة النبي في العربية، وفي العبرية (نابئي)، بحسب اشتقاقها اللغوي، تعني المبلغ وهي من نفس الجذر السامي المذكور. (المترجم)

(نبوخذنصر)، وهو اليوم أكداس مكدسة من الجدران، والآجر والأساس. ويزعم الألمان أن ما يشاهد فيه اليوم هو بقايا الآثار المقامة على أروقة، كانت أساساً للجنائن المعلقة المشهورة[1]: فالظاهر أن الأروقة شيدت لتحمل أحمالاً ثقالاً، ولقد وجدت بعض الأنابيب التي لا معدى من أن تكون موصولة بآلة لرفع الماء، وهي منصوبة على الفرات لتسقي ذلك المتنزه الوسيع، ولم تكن الجنائن المعلقة لتدهش العقل البابلي، ذلك أن المعبد الذي يتخذ شكل صرح مدرج (زقورة) أو (المقام العالي) الوارد ذكره في (التوراة) ـ شيء عرفه سكان (سومر) و(أكد) كما كان علماء هؤلاء القوم يرصدون الأجرام السماوية من فوق هذه التلال الاصطناعية. فالجنينة المعلقة لا تعدو أن تكون تطوراً طبيعياً للفكرة الأصلية.

وفي القصر، وعلى صعيد (طريق المواكب) آثار قاعة واسعة مبلطة. إن مخططها ظاهر اليوم وإن لم يبق منها جدار. ويذكر (بروفسور كولديوي) في كتابه أبعاد القاعة واستعمالاتها المحتملة.

ومن يتوق لاستكناه الأماكن الوارد ذكرها في (الكتاب المقدس) يجد طلبته في (قاعة المآدب) لـ (بيلشاصر) حيث تجد آثار (اليد)[2] على الجدار

---

(1) وجد المنقبون بقايا بناء غريب يتألف من 14 حجرة متشابهة في شكلها وحجمها، كل سبعة منها على جانب من ممر أو رواق ويحيط بها جدار قوي ثخين. . كما وجدوا في إحدى الحجرات بئراً تختلف عما هو مألوف من أنواع الآبار، فلها 3 حفر بعضها بجانب بعض: حفرة مربعة في الوسط وحفرتان مستطيلتان على الجانبين وقد فسر المنقبون هذه البناية بما فيها من ممرات وحجرات معقودة والبئر بأنها موضع الجنائن المعلقة المشهورة التي عدت من عجائب الدنيا السبع، أما العجائب الست الباقية فهي: أهرام مصر ـ فنار الاسكندرية ـ معبد الآلهة ارطميس (ديانا) في مدينة رمسيس (آسيا الصغرى) ـ تمثال الإله (زوس) أو (جويتر) للنحات اليوناني الشهير فيدياس ـ الناووس الفخم في هليكارناسوس آسيا الصغرى ـ التمثال الضخم في جزيرة رودس. (المترجم).

(2) تقول التوراة (دانيال 9 ـ 105) إن الملك (بيلشاصر) ـ الذي عهد إليه أبوه (نبونهيد) إدارة المملكة لانشغال الأب بالبحوث التاريخية وأفول شمس الحضارة البابلية ـ هو الذي رأى (الكتابة على الحائط) ذلك أن هذا الملك كان في وليمة خمر فظهرت أصابع يد إنسان وكتبت بإزاء النبراس على مكلس حائط قصر الملك، والملك ينظر إلى طرف اليد =

وهناك من يتصور الموقع المحتمل للعرين الذي ألقي فيه دانيال، والأسد الذي كان بمقربة منه. إنها مجموعة عجيبة من التماثيل[1] أخرجها المنقبون من جوف الأرض ووضعوها قرب باب عشتار. وبقرب هذه البقعة تقوم جدران القلعة الداخلية، ويظهر أنهم كانوا يضعون الأسود في الخندق المائي المحيط بها. إني لست بأثرية لكي أبدي رأياً في الموضوع، ومن الممتع أن تداعب النظريات هذه خيال المرء.

وإن ذهبت إلى (تل عمران) ماراً بـ(تل المركز)، فستجد أن الأرض هناك أقوى وأصلب، وعليها آثار وركام كثير من البيوت الخاصة. ذلك أن (بابل) كانت محاطة بأحياء فقيرة تسكنها العامة، وبيوتها مبنية بالطين فهي تشبه بيوت الأعراب اليوم. إن اللبن الذي بُنيت به تلك البيوت أصبح، ببقائه مدة طويلة في جوف الأرض، تراباً، وعلى غرار أجداث أصحاب تلك البيوت.

كان نبوخذنصر سديد الفكر، بعيد النظر، شاعراً بخطر الغزو والحصار دوماً، لذلك جعل أسوار المدينة تحيط بأرض زراعية، فلو حوصرت من قبل الغزاة لما حال ذلك دون قيام أهلها بزراعة الأرض وسد حاجتهم من القوت. وكان سور المدينة عظيماً، إنه نطاق (مدينة المدن)، مدينة نبوخذنصر، وفي مقدور عربة تجرها 4 خيول أن تسير فوقه بيسر ورخاء.

وفي (عمران) ـ وهي ليست ببعيدة اليوم عن مسجد صغير حديث[2] ـ كل ما يمكن أن يشاهد من آثار معبد مردوخ. إنها لا تعدو أن تكون ركاماً، وبعض الجدران الطينية أيضاً. واستطاع الألمان أن يقتفوا آثار مخطط المعبد وأبعاده وأن يعثروا على ممرات سرية تؤدي إليه. وما زال الجانب الأعظم منه مدفوناً تحت صعيد الأرض بنحو من 70 قدماً. وفيه جلس قوّاد جيش

= الكاتبة. فخاف الملك، ولما لم يستطع أحد من كهنته ومنجميه أن يفسر الكتابة التي نصها (منا منا تقبل وفرسين) أحضر إليه دانيال الذي فسرها على الوجه الآتي:
(منا: أحصى الله ملكوتك وأنهاه، وتقبل: وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً، وفرسين: قسمت مملكتك وأعطيت لمادي وفارس. (المترجم).

(1) أسد يقف على تمثال رجل صريع. (المؤلفة).

(2) هو مرقد (عمران بن علي) (المترجم).

الاسكندر يتشاورون إثر موته. . . وفيه، قبل ذلك بأمد بعيد، أقام الملك حمورابي مسلة دوِّنت عليها شريعته[1] ليطلع الناس جميعاً على حقوقهم. إن نسخة من هذه الشريعة محفوظة اليوم في (المتحفة البريطانية)[2]. وفي المكان نفسه يقوم الصرح المدرج الـ(زقورة) العظيم المسمى (اي ـ تيمينانكى)، وقد سبق أن أشرت إليه في مفتتح هذا الفصل. إنه اليوم أخدود يمتلىء بالماء شتاءً، فينبت فيه البردى عالياً.

---

(1) وجدت في العراق منذ أقدم عهوده أعراف وأصول قانونية قبل أن يجمع حمورابي شريعته المشهورة، وكانت هذه القوانين السابقة مصادر مهمة لتقنين شريعته. فأخذ منها بعد التعديل والتغيير. ولكن مع ذلك تعد شريعة حمورابي أنظم وأكمل شريعة في تاريخ الحضارات القديمة. لقد جمع حمورابي نصوص شريعته في السنوات الأخيرة من حكمه وذلك بعد أن قضى على خصومه العيلاميين ووحد مملكته ومد فتوحاته إلى خارج العراق، فرأى من بعد ذلك ضرورة لإصدار شريعة موحدة تسري على جميع أنحاء المملكة الكبيرة الموحدة. كتب حمورابي شريعته باللغة الأكدية (السامية) ورتبها ترتيباً متقناً، وقد نقشها على مسلة من الحجر الأسود (حجر الديوريت) يبلغ ارتفاعها 8 أقدام وقطرها قدمين. وقد نقش في أعلى المسلة صورة بالنحت البارز تمثل الإله ـ الشمس (شمش) وهو إله العدل جالساً على عرشه وحمورابي واقفاً بحضرته وقفة المتعبد الخاشع، رمز تفويض الإله وتسلمه الشرائع المقدسة منه (أو أنه بتفسير آخر يقدم شريعته إلى ذلك الإله). ويرجح كثيراً أن حمورابي قد وضع مسلة الشريعة هذه في عاصمته بابل في موضع مقدس منها لعله في (ايساكلا) معبد الإله مردوخ ليرجع إليها الناس. وقد بقيت المسلة في بابل بعد حمورابي أزماناً طويلة، وتوجد دلائل تشير إلى أن المشتغلين بشؤون القانون والكتب قد استنسخوا عنها كثيراً من المواد والنصوص ليستعملوها في اشتغالهم بشؤون القانون. والمسلة المنقوشة بشريعة حمورابي تتألف من 44 حقلاً أو عموداً، وتنقسم إلى 3 أقسام: مقدمة بالدرجة الأولى دينية ومكتوبة بلغة شعرية عن أسباب إصدار الشريعة. والمواد القانونية وعددها 282 (ولعلها بالأصل 300 مادة) وفاتحة يذكر فيها حمورابي أن هذه «هي الأحكام العادلة التي أصدرها حمورابي العظيم للبلاد فازدهر فيها العدل والحكم الصالح. . .».

(راجع مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ـ القسم الأول تأليف طه باقر وفيه نماذج من أحكام شريعة حمورابي).

(2) الأصل محفوظ في متحفة اللوفر بباريس، ونسخة من جبس محفوظة في المتحفة العراقية. (المترجم).

ولا يبعد (الملهى الإغريقي)[1] عن هذا الموقع الأثري بأكثر من ربع ساعة بالسيارة إنه يتداعى سريعاً للانهيار، وأخشى أن لا يترك للآتي المستطلع شيء فيه، إلا مدرج الملعب. إنه اليوم قريب من موقف السكة الحديد، وفي مقدور من يأتي بالقطار لزيارة بابل أن ينزل فيه لهذه الغاية. واستفاد كثير من الجنود البريطانيين مما قدمه لهم (المقر العام) من تيسير، إبان إقامتهم في بلاد الرافدين فجاسوا خلال أطلال المدينة، وكانت ضحكاتهم تتعالى وأحاديثهم تتشعب ولها جميعاً صدى يتردد بين جدران المدينة الصامتة.

وأطفال الأعراب ممن يتوقون أشد التوق إلى بيع (الأنتيكة) هم المخلوقات التي يصادفها المرء في هذه البقعة المنعزلة. إنهم يقفلون راجعين إلى مساكنهم والشمس تنحدر إلى خدرها وتغيب فتصبح البقعة المنعزلة سكناً لبنات آوى والثعالب والجان. . . والجان، كما يقول الأعراب، تصول وتجول في تلك البقعة، حيث كان الملك نبوخذنصر يجلس للمشاورة ويقيم فيها الاحتفالات.

---

(1) يوجد قرب سور بابل الداخلي وإلى الشرق من القصور 3 تلول أطلق عليها اسم «الحميرة» بسبب لونها الأحمر. وقد بني في التل الجنوبي منها بناء «ملهى يوناني» ووجد المنقبون في أنقاض هذا البناء كتابة يونانية جاء فيها أن شخصاً اسمه «ديوسكرايدز» قد بنى «الملهى والمسرح» والمرجح كثيراً أن البناء كان قد شيد في الأصل في عهد الاسكندر الكبير وأن الكتابة المذكورة تشير إلى تعميره في عهد متأخر، في العهد السلوقي، ويتألف مخطط الملهى من جمع بين الملهى وموضع للمصارعة.
(راجع بابل وبورسبا بقلم طه باقر).

وقد قام الأستاذ هاينرش لنزن رئيس بعثة التنقيب الألمانية في الوركاء في تشرين الثاني عام 1956 بالتنقيب عشرة أيام في خرائب الملعب اليوناني في بابل وذلك للتحري عن بعض النقاط من المخطط الذي وضعه كولديوي Koldewey قبل الحرب العالمية الأولى عن هذا البناء، وتأكد الأستاذ لنزن من تنقيباته هذه من أن الملعب المذكور قد شيد بأمر من الإسكندر المقدوني الكبير من أنقاض برج بابل المدرج، وإنه كان يتألف، على غرار الملاعب الحالية، من مدرجات يعلو أحدها الآخر، وهي على هيئة نصف دائرة وأمامها ساحة الاستديو والألعاب. ولقد أعيد بناء هذا الملعب مرة أخرى في العهد السلوقي ثم أعيد بناؤه وتجديده مرتين في الزمن الفرثي. (راجع النشاط الآثاري في العراق ـ لمديرية الآثار العامة سنة 1959). (المترجم).

ثانياً ـ بورسبا

سبق لي أن ذكرت (بورسبا)، ضاحية بابل، وحيث يقوم الصرح المدرج (زقورة) الشهير لـ(نبو)، ونبوخذنصر هو الذي أعاد بناءه أيضاً. وفي مقدور المرء أن يصل إلى التل ـ وقد قام شاخصاً فوق السهل ولفحته الشمس بأشعتها فأصبح يبساً أجرد ـ بنصف ساعة إن سار إليه بالسيارة من الحلة. والأعراب يسمون هذا التل (برس نمرود)[1] والأساطير المحلية تجعل منه (برج بابل) الذي حلت عليه لعنة الله. وتماسك آجر الصرح بفعل الحرارة العالية فأصبح وكأن صاعقة نزلت عليه من السماء. إنه مرتفع جداً ويمكن أن يرى من مسافة 30 ميلاً عبر السهل. وفي الحق أنه ليس بـ(برج بابل) المذكور في الكتاب المقدس. لقد قدسوه لأنه مزار (الإله نبو) ابن الإله (بعل) رب الكتابة. وجال المنقبون خلال ركامه وخرائبه مرَّات عدَّة فعثروا على أشياء ممتعة، ولا شك أن فيه آثاراً ممتعة أخرى مطمورة. وكنت ممن زاره في ثلاث أو أربع مناسبات، واستطعت أن أعثر فيه على بعض قطع الخزف المتكسر والآجر المكتوب وخرزات ونقود قديمة عليها طبقات سميكة من الصدأ «الورد جريس»[2] لو أغطست في الخل لما تبقى من سطوحها شيء. وعندما تهطل

(1) برس محرف عن الاسم البابلي القديم «بورسبا» أو «بارسبا» وخرائبها تقع اليوم جنوب الحلة بحوالي 10 أميال. وكانت هذه المدينة تسمى في المصادر القديمة باسم «بابل الثانية» لأنها تجاور مدينة بابل الأصلية. واسمها الشائع «بورسبا» أو «بارسبا» فهو اسم سومري يرجع أن يكون معناه «سيف البحر» إذ المعتقد أن المدينة كانت تقع في العصور القديمة جداً قرب بحر أو بحيرة شبيهة ببحر النجف. وأقدم ذكر للمدينة ورد في شريعة حمورابي حيث يذكر تجديد أبنيتها ولا سيما معبد الإله (نبو)، وكان أعظم ازدهار لها في عهد المملكة البابلية المتأخرة (السلالة الأكدية 612 ـ 538 ق.م.) ولا سيما أيام الملك نبوبولاسر، وابنه الملك نبوخذنصر. واستمرت المدينة في الوجود والاستيطان في العهود التالية لذلك العهد: الأخميني، والسلوقي، الفرثي، والساساني وذكرت في أخبار الفتوح الإسلامية للعراق وظلت مأهولة في العهد الإسلامي ثم اندرست بسبب تغيير مجرى النهر.

راجع (بابل وبورسبا بقلم طه باقر). (المترجم).

(2) في الأصل Verdigris لفظة معربة ومن مصطلحات الكيمياء. (المترجم).

الأمطار في الشتاء تكتسح من سطح الأرض طبقة تخرج منها قطع صغيرة هي من مخلفات ذلك الماضي البعيد.

ولكن، ما علاقة (الملك الصيَّاد نمرود) بهذا التل يا ترى؟

من الغريب أن يبقى اسم (نمرود) ـ أشيع أسماء رجالات الماضي ـ موصولاً بالأساطير ومأثورات الأعراب. جلست في يوم من الأيام على عباءة فرشها لي شيخ عربي مضياف وبدأت أستمع إلى بعض الأساطير الدائرة حول اسم ذلك الملك البطل القديم، قال:

«عندما سحل (إبراهيم) أمام نمرود ملك الحكمة، إثر خروجه على طاعة الإله، أمره الملك أن يعبد النار، فقال إبراهيم له:

«ولكن الماء أشد من النار قوة، الماء يطفىء النار».

فقال الملك له: «فاعبد الماء، إذن».

فأجاب إبراهيم: «ولكن الماء ينزل من السحاب».

فقال الملك له: «فاعبد السحاب، إذن».

فأجاب إبراهيم: «ولكن الريح تمزق السحاب فيتناثر».

فقال الملك له: «فاعبد الريح، إذن».

فأجاب إبراهيم: «أيها الملك، إن الإنسان يسخِّر السحاب لما يعود عليه بالنفع».

فقال الملك له: «إنك حقاً لثرثار، ولن أستمع أكثر مما استمعت لمثل هذا الهراء، فاعبد النار، كما عبدتها، وإلا فسترمى فيها».

ورفض إبراهيم أن يعبد النار، ورموه في الأتون، وبعد سبعة أيام وجدوه ولم تمسه النار بسوء فلهيبها استحال إلى زهر نضير[1].

---

(1) إذا رجعنا إلى القرآن الكريم نستعرض جميع الآيات التي ورد فيها ذكر لإبراهيم عليه السلام لا نجد ذكراً لهذا (النمرود) ولكن في إحدى الآيات الكريمات إشارة إلى محاورة كهذه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: 258]. (المترجم).

وقال نمرود أريد أن أكتشف إله إبراهيم فبنى لذلك برجاً عالياً جداً ولكنه، على الرغم من ذلك، وجد السماء بعيدة جداً. وجاء بنسرين وربط بهما عجلة، وحفَّز النسرين ليطيرا عالياً بأن ربط على رأس كل واحد منهما قطعة من اللحم. وحلَّق النسران في السماء وسرعان ما سمع نمرود صوتاً يناديه «أيها الكافر! إلى أين تريد المضي؟» فما كان من (نمرود) إلا أن يشد قوسه ويرمي المصوِّت بسهم، ولكن السهم عاد إليه مضرجاً بالدم... ففرح لذلك وظن أنه استطاع أن يجرح الرب نفسه!

ثالثاً ـ عقرقوف[1]

إنه لقريب جداً من بغداد: ففي مقدور المرء أن يمضي إليه بالسيارة فيتناول على تلِّه فطور الصباح، ثم يقفل راجعاً قبل أن تتكبد الشمس السماء. وهو برج (زقورة) آخر يقوم شاخصاً منفرداً في سهل. وإنه لكتلة من الأديم المائل إلى الاحمرار، ويتلوى وتنعكس له صورة على صفحة الماء عندما يغمر الأرض المحيطة به في موسم الفيضان، وإثر هطول المطر في الربيع. وله منظر مؤثر، ويشبه في ذلك (برس نمرود). وأحاديث الأعراب تجعله على صلة بالملك الصياد العظيم، والذي لم يفلت منه إنسان ولا حيوان. إنه أثر قديم، موغل في القدم، وكل ما يعرفه الناس عنه لا يعدو الحدس والتخمين.

---

(1) هو موضع مدينة (دور كوريكالزو) عاصمة العراق خلال حكم الكشيين الذين جاؤوا العراق من شرقه أو شماله الشرقي، منذ أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد حتى نهاية السلالة الكشية. وقد أبانت التنقيبات فيه عام 1942 و1945 عن معابد واسعة تقوم قرب الصرح المدرج الـ(زقورة) المبنية باللبن. وكان يصعد إليها بـ 3 سلالم. وقد عثر في هذه المدينة على قصور ملوكها وعلى آثار متحفية فيها ورقم من الطين ذات كتابة مسمارية وعلى أحجار الحدود التي كانت تبين حدود الأرض أو البناية ومساحتها واسم مالكها وكان ينقش عليها رموز الآلهة السومرية والبابلية. ومن الجدير بالذكر أنه وجدت في هذا الموقع آثار تعود إلى العهود الساسانية والأخمنية، والعصرين الإيلخاني والإسلامي (عصر سامراء).
راجع [النشاط الآثاري في العراق لمديرية الآثار العامة في الجمهورية العراقية]. (المترجم).

وقليل من أهل بغداد من يعنى بزيارته، ومنهم من لم يسمع به أبداً.

والزعم الشائع أنه بُني في نفس الوقت الذي بنيت فيه (اور) وتخليداً لإله أجهل اسمه. ولم يسعدني الحظ فأستمع إلى رأي آثاري مختص في هذا الباب[1]، لذا لن أعمد إلا إلى وصف مظهره الخارجي فقط..

ويعلو البرج بحوالي الـ 200 قدم وهو مبني باللبن كليّاً. وهناك طبقات من القصب موضوعة بينه، وعلى مسافات غير منظمة، وما زال القصب هذا، وقد غبر عليه زمان طويل، صالحاً لأكل الحيوان، فإنك لتجد الحمير تقضم الأطراف الناتئة من البناء. وفي البرج ثقوب مربعة لتصريف الماء وتجديد الهواء، والطير تتخذها اليوم وكنات... وهكذا استحال «القصر العالي» المخصص لعبادة إله عفى عليه النسيان وكراً لطيور البرية والشهرمان[2] والغربان، سودها وبيضها، والطائر المسمى بأبي زريق[3] وما إلى ذلك. وإنك لترى هذه الطيور حائمة ثم سرعان ما تحط، وزعيقها يملأ الفضاء، على مرتفع من ذلك البرج المتعالي.

---

(1) حكم الملوك الكشيون في بادىء أمرهم في عاصمة البلاد القديمة (بابل) ولكنهم أسسوا في منتصف عهد حكمهم مدينة ضخمة لتكون عاصمة لهم سميت باسم مشيدها الملك (كوريكالزو) فصارت تدعى (دور كوريكالزو) أي مدينة أو حصن (كوريكالزو) ـ وآثار عقرقوف من آثارها الباقية الشاخصة ـ وقد كشفت التنقيبات التي أجرتها مديرية الآثار العراقية في هذه المدينة عن آثار مهمة عن قصور ملوكها ومعابدها الواسعة الضخمة وكذلك أظهرت نماذج من الآثار الفنية والسجلات التاريخية فأظهرت نتائج هذه التنقيبات جانباً مهماً من تاريخ العراق الحديث في العهد الكشي الذي كان يعد مظلماً بسبب قلة المصادر والمآخذ التاريخية التي جاءتنا منه.

راجع [«مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة» بقلم طه باقر ففيه بحث عن الكشيين]. (المترجم)

(2) في الأصل sheldarke وهو نوع من البط، أسود الرأس والعنق، في أسفل عنقه وأعلى صدره طوق أبيض ثم طوق أحمر، أبيض البطن وفي وسط بطنه خط أسود إلى أصل ذنبه. راجع معجم الحيوان لأمين المعلوف.

(3) في الأصل blue jay وهو طائر كالغراب أسود الذنب مخطط الجناحين بزرقة (راجع معجم الحيوان لأمين المعلوف).

وقد يعمد أحد شيوخ القبائل الرحالة إلى نصب خيمة له على التل، ولكنه لا يمكث في المكان طويلاً، إذ سرعان ما يرحل، فذلك حال الصحراء على كل حال.

وفي مقدور المرء أن يشاهد البرج هذا وعلى غرار (برس نمرود) من مسافة أميال عدة. لكن شكله مشعب يشبه المنشار شكلاً يعطيه منظراً مختلفاً عن الكتلة المتراصة التي يراها الإنسان في (بورسبا).

ولو تسلَّق المرء التل لوجده عبارة عن رمل وتراب رخو، ولو نظر من كوة في بناء البرج المتهدم لرأى خط الأفق في جوانبه كافة ولشهد الأفق يمتد، ويمتد، إلى مرمى البصر.

هذه قناة من قنوات الري، وتلك بقعة مزروعة من الأرض، وهناك مجموعة من الخيام، وهي على الرغم من تفاهة شأنها تذهب الوحشة، وبالعزلة الأبدية، ميسم هاتيك الأرجاء المقفرة. وليس بد من أن يكون (الكلدان) الذين جاؤوا بأخرة، أي بعد تشييد الصرح المدرَّج (زقورة)، أطالوا النظر إلى النجوم من فوق قمته. كما كان في مقدورهم أن يروا منها زحف جموع العدو من جهة الشمال. ولا توجد في قلب الأكمة هذه غرفة ما، إنها متراصة من آجر، وحولها آثار مدينة عفى عليها النسيان. . . زعموا، بادىء الرأي أنها (أكد)[1] ثم جاء المنقبون فنفوا ذلك. ويسري الأعراب في ضوء القمر، وأشعته تغمر الصحراء فتتلألأ، وتستطيل فيها الظلال وتتخذ شكولاً ما أنزل الله بها من سلطان. إنهم يتحدثون عن الجان التي تساكن الوطاويط وبنات آوى في شقوق المكان وجحوره. وفي مكنة المرء أن يلتقط في أعقاب هطول الأمطار، قطعاً من الخزف، ونقوداً تحمل كتابة بارثية تارة، ولاتينية

---

(1) هي منطقة اليوسفية والمحمودية، وهي أشهر مدن بلاد أكد ومن مدنها الأخرى (سبار) أبو حبة الآن، و«اوبس» و«كوثى» أو «تل إبراهيم» وكيش «الأحيمر» و«دلبات» و«بورسبا» و(برس نمرود) وغيرها. وإلى الجنوب من بلاد أكد تقع بلاد سومر بوجه عام. ومن أشهر مدنها (أور) و(اريدو) و(لجش) و(نفر) و(لارسه) و(الوركاء) ـ وقد يطلق على القسمين، ولا سيما في العصور المتأخرة، اسم بلاد بابل Babylonia كما يطلق على القسم الشمالي أي موطن الآشوريين (بلاد آشور) Assyria (المترجم).

تارة أخرى. وهذه الأخيرة تقطع بأن الناس سكنوا الموقع هذا إبان العصر المسيحي أيضاً. ولقد عثرت على القليل منها في هاتيك الربى، وقد كادت أن تتآكل بفعل الورد جريس، وكان الأب أنستاس الكرملي البغدادي يصحبني في جولتي في ذلك اليوم، فما كان منه يرسل لي بأخرة بعض النقود المماثلة، وقد جمعها من ذلك الموقع وصانها جيداً.

رابعاً ـ أور الكلدان

(يجدر بي أن أنوّه هنا بفضل هيئة التنقيب، وأمناء المتحفة البريطانية وجامعة بنسلفانيا فإليهم جميعاً فضل تزويدي بالمعلومات التي سأدوّنها فيما يلي وهو فضل لو تعلمون عظيم...).

عمدت سلطات السكة الحديد في الأيام الخوالي إلى إجراء ترتيب يلزم القطار في ذهابه وإيابه بالتوقف لمدة 20 دقيقة في مفرق أور لتناول الغداء. وفي مقدور المرء أن يرى من المحطة هذه بجلاء رابية من الآجر المائل إلى الاحمرار، إنها كل ما تبقى من زقورة المدينة. وعلى الرغم من أن الرابية تتراءى وكأنها على مقربة من الرائي، فإن الوقت المقرر لوقوف القطار لم يكن ليسمح للمسافر ـ وإن عمد إلى التضحية فلم يتناول غداءه ـ بالوصول إلى الزقورة والرجوع منها ليدرك القطار قبل تحركه. على المسافر أن يسير لمسافة 20 دقيقة قبل أن يصل خرائب المدينة. ولم يكن ليجدي المرء، حتى عهد قريب، النظر إليها عن كثب، إذ إن ما يستطيع أن يراه في مثل هذه الحال جد قليل، فيما خلا الصرح المدرّج، بطبيعة الحال.

لقد أعجبني كل ما قام به مستر تايلور من تنقيب سنة 1854، ولم يخلّف لنا مدوّنات تجلو معاني ذلك. وفي سنة 1919 شرع دكتور هل Hall ـ وهو أحد منتسبي المتحفة البريطانية ـ بالكشف عن معبد الإله ـ القمر[1] ولكن

(1) خص الإله ـ القمر بمدينة (أور) منذ أقدم الأزمان، وشيد له فيها معبد شهير، وما تزال بقايا الصرح المدرج فيها باقية، ويمثل الإله ـ القمر بهلال وحده أو بهلال مع صورة على هيئة =

الوقت كان ضيقاً، وكان على (الدكتور هل) أن يُعنى بإجراء التنقيب في محلات أخرى، لذا لم يستطع أن يقرر أكثر من أن هناك آثاراً كثيرة تستأهل التنقيب في هذا الموقع الأثري الذي يضم أقدم المدن المطمورة في العراق.

وفي شتاء 1922 أرسلت بعثة مشتركة من (المتحفة البريطانية) و(جامعة بنسلفانيا) وكانت البعثة مؤلفة من 4 خبراء فعينت لنفسها سكناً، واستطاعت في أقل من 4 شهور أن تكشف عن عدد من البنايات، وعن مخطط المدينة الداخلية، وأن تضيف قدراً كبيراً إلى معلوماتنا التاريخية. وفي بواكير أيام عمل البعثة استطاعت أن تصل إلى الجدار العظيم (السور)، وهو يأتلف من طبقتين، ويحيط بالمدينة الداخلية المقدسة من جميع جهاتها. واسم السور هذا بالسومرية (أي ـ تمين ـ ني ـ ايل) أو (البيت المنيع الذي رفعه ـ هو). لقد أسفر اقتفاء آثار خط الجدار المتواصل، وأبوابه الرئيسة، إلى تمكين المنقبين من التنبؤ بوجود أبنية عديدة، داخل السور.

وباني هذا السور المنيع هو الملك (أور ـ ان ـ كور) أول شخصية عظيمة ظهرت على مسرح تاريخ المدينة. وجاءت قبل سلالة هذا الملك سلالتان من الملوك، عفى على ذكرهم النسيان بمجرد أن وورو التراب. ولو قيست المسافة بين سمكي السورين الجوَّاني والبرَّاني لتجلَّت لنا عظمته، ذلك أن عرضه حوالي الـ 11 ياردة. وعلو السور حوالي الـ 10 ياردات ومحيطه حوالي الـ 2200 ياردة. إنه محيط بخزينة (أور) الرئيسة، ومعابدها القديمة المخصصة لعبادة الإله القمر، وزوجه. وأهل شنعار جميعاً يدينون لهما بالولاء. وكان السور يحيط بالصرح المدرَّج العظيم أو (المقام العالي) ـ والذي كان يقوم شاخصاً كالطود في ذلك السهل ـ ويحتمل أنه كان محيطاً

= البشر. واشتهر الإله القمر بالحكمة ويشترك مع الإله الشمس (شمش) في شؤون العدالة. وكان خسوف القمر من الحوادث المهمة التي يتطير منها البابليون، فيصلون له ويذبحون القرابين حتى يظهر مضيئاً، بعد أن يقهر الشياطين والظلام أي الموت. وخصصوا له زوجة هي (ننجال) وعبدت معه في معبده في أور. وكان كثير من الملوك يعينون أبناءهم وبناتهم ليكونوا كهنة له. (راجع مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة لطه باقر صحيفة 25). (المترجم).

بقصر الملك (أور ـ ان ـ كور) أيضاً، ذلك أن الرابية التي لم تتناولها بعد معاول المنقبين ـ تضم، على ما يعتقد، موطن الملوك.

وجاءت قصة إبراهيم في تاريخ أور بأخرة: فعندما رحل (إبراهيم) و(تارح) بقطيعهما وخيامهما سارت قافلتهما عبر سهول ما بين النهرين إلى المراعي الخصبة في الشمال ولم تكن (أور) آنئذٍ مدينة مرموقة. وكان السور الذي يحيط بأماكنها المقدسة يقوم شاخصاً كالطود، كما كانت عبادة القمر الإله، وزوجه، عريقة متأصلة في البلاد. وكان سكان أور يرفلون في حلل حضارة مترفة ويعنون بالفنون.. وذلك على الرغم من أن جموع (العيلاميين)[1] الشماليين كانت تغزو وتنهب بلادهم باستمرار. لقد حمل ذلك بعض الشيوخ الموسرين من أمثال (إبراهيم) على انتجاع المناطق الخصبة الغنية القاصية. لقد تمتع السومريون، سكان سهل شنعار[2]، كما تمتعت مدينتهم الرئيسة (أور) بحياة سلم ورخاء ردحاً طويلاً من الزمن، وجاءت أفواج الحجاج إلى بلادهم من أقاصي البلدان لتقدم العطايا إلى كهّان معابدها المشهورة، وازدهرت بلادهم بالزراعة والتجارة على ما تدل عليه الرقم الطينية التي كانوا يدونون عليها معاملات بيع الأراضي، والجلود والتمور والحبوب وسندات تجارية أخرى. ومجمل القول إن سراة أور الكلدانيين نعموا بالحياة على غرار ما ينعم به سكان العراق اليوم. وكانت النسوة يمشطن شعورهن بأمشاط تشبه الأمشاط التي تباع اليوم في سوق أية مدينة عصرية في العراق. وكنَّ يتزينَّ بخرز العقيق المذهب، وعلى غرار ما تتزيَّن به نسوة اليوم، أيضاً. كما كنَّ يلبسن الأقراط و«الخزّامات» وهي تشبه مثيلاتها في يومنا هذا. وكنَّ يحسن غزل القطن، والحرير، والصوف، والنسيج. ولا تختلف حصران تلك

---

(1) هجم العيلاميون على العراق من الشرق وكانت نهاية أور الثالثة (2115 ـ 1998 ق.م) على أيديهم، إذ نهبوا المدينة وانتهكوا حرمة قبور ملوكها، وخلف شعراء هذا العهد رثاء محزناً لذلك كله. (المترجم).

(2) كان العراق الجنوبي يسمى سهل شنعار، وعلى ما ورد في الكتاب المقدس بأخرة، وكان السهل يمتد من خليج فارس شمالاً حتى خط يمر بقصبة (بلد) الحالية.
راجع: Seton Lloyd Twin Rivers p. 24. (المترجم).

الأيام عما هي عليه يومنا هذا وهي على أغلب الاحتمالات، من صنع سكان البطائح القريبة. وكانت أدواتهم، كالفؤوس وغيرها على غرار أدوات القرن العشرين. لقد كانت الحضارة في أيام إبراهيم عريقة، قديمة. . والمعابد الشهيرة التي ازدرى (إبراهيم) ما يجري فيها من عبادة ومعبود، أقدم. لقد حافظ معبد نينماخ، آلهة القمر، أو جناح الحريم في معبد الإله ـ القمر، على مخططه لأطول مدة عرفها بناء في الدنيا، أي منذ تأسيسه فيما قبل التاريخ إلى تاريخ هدمه قبل مئين قليلة من السنين من ميلاد المسيح. إن فحوى المعبد ومحتواه هو جداره الخارجي، والطبقات السفلى منه، وهي مبنية بالآجر جزئياً، وما زال أهل العراق دائبين على استعماله في أبنيتهم ويسمونه «الطابوق الأخضر» إنها جميعاً تعود إلى عصر ما قبل التاريخ، العصر المظلم الطويل الذي لن تجد فيه شيئاً معيناً مكتوباً أو اسماً يمكن تعريفه به. إن التفريق بين (الطابوق الأخضر) هذا وبين ما يحيط به من تراب وطين أمر عسير على غير العارف الخبير. ويليه اللبن الذي عرفه (أور ـ ان ـ كور) وابنه (دنكي)، وهذا الأخير أنهى ما قام به أبوه من تعمير في حوالي القرن 23 قبل المسيح. وإنك لتجد اسم (دنكي) هذا على الرقم الطينية التجارية العديدة. ولقد عاش الابن مدة أطول من أبيه، وأصبحت (أور) في عهده المدينة الرئيسة بين مدن سهول سومر[1] وفي مقدور المرء أن يتابع طبقات البنايات المقدسة التي شيدها هذا

---

(1) إن الأكديين، وغيرهم من الأقوام السامية التي نزحت إلى العراق منذ أقدم الأزمنة جنباً إلى جنب مع السومريين سموا جنوبي العراق، وهو القسم الذي قطنه السومريون وأنشأوا فيه مدينتهم، باسم «مات شوميريم» أي بلاد السومريين. ولقد سمي هذا القسم الجنوبي باسم (شومر) أو (سومر)، وورد بمجموعة من العلامات المسمارية وتلفظ شومر، واللغة السومرية غريبة في مفرداتها وتراكيبها ولم يتمكن العلماء بعد من تصنيفها وإرجاعها إلى صنف من أصناف اللغات البشرية المعروفة، وهي أقرب إلى الأسرة اللغوية المعروفة بـ(أورال ـ التاي) التي تنتمي إليها اللغة التركية، والمجرية، والمغولية. فهي ليست من مجموعة اللغات السامية أو من أسرة اللغات الهندية ـ الأوروبية. واستعمل السومريون الكتابة المسمارية في كتابة لغتهم إلى آخر عهود العراق القديم. هذا ولو أردنا أن نضع العهود التي شهدها العراق في تأريخه العريق الطويل لكان عهد السومريين والأكاديين في المقدمة ثم يليهما العهد البابلي، فالآشوري، فالكلداني، فالأخميني فعهد الاسكندر الأكبر في العراق ثم الساساني والعربي. =

الملك، طبقة إثر طبقة، وبينها وضع الملك العظيم (نبوخذنصر) الثاني البابلي آجره المفخور جيداً ودوَّن عليه اسمه الخالد. ثم جاء كورش الفارسي، ملك الملوك، بأخرة، وبنى جداره القائم فوق الجدران التي بناها أسلافه.

وفي مقدورنا أن نقتفي آثار نشوء وتطور، وأضحى المعالم، في العقيدة الإلهية، ففي الأيام الأولى، وحتى في أيام الملك (أور ـ ان ـ كور) وخلفائه، كان معبد القمر ـ الإله قائماً منذ 200 سنة، لكنه لم يكن مكاناً يؤمه الناس جميعاً للعبادة. لقد أقيم رمزاً للاعتقاد بالدين والآلهة، وإنه سكن للآلهة، والكهّان والخدم. والمعبد لا يعدو أن يكون «حريماً» لـ(ننا) ـ الإله ـ القمر. وكانت زوجه تحافظ على قدسية «الحريم» وانعزاله. أما منازل الكهّان فكانت قريبة متناثرة حول المعبد. كما كان المذبح، وصورة الآلهة داخل الحرم المقدس، محاطة بالأسرار ولا يمكن الوصول إليها أبداً. ولم يكن ليسمح لأحد برؤية الآلهة إلا مرة واحدة في السنة، وحين تحمل خارج المعبد لتصل حجرة الهيكل المقدس. وهناك عتبة واسعة مفروشة بصفيحة من معدن مثبت في القار، ومنها يصل الإنسان إلى منضدة النذور، وخلفها يقوم المذبح. إنه مفروش بصفيحة من معدن أيضاً، ولعله الذهب. وكان الكاهن الأعظم يقف خلف (المذبح)، أو يركع، وخلفه الهيكل المقدس، وقد بنوه بأبعاد قليلة وعلى الطراز البدائي الذي يرجع إلى عهد مضى. وفيه صورة (الآلهة ـ القمر) وقد أضيئت بمصابيح عديدة توقد بالزنك فتجلو وجهها في الظلام الدامس المحيط بها. ولست بقادرة على تبيان الطراز الذي تحاكيه الصورة هذه. ذلك أنهم عثروا عليها بين أنقاض المدينة أنها تمثل أنثى واقفة، وعلى مفرقها تاج، لقد وضعت يديها على معين الحياة في جسمها: ثدييها. وهناك صورة بدائية أخرى تمثل وليداً وأمه، والأم ترضع الوليد وقد أجلسته على ركبتيها. واستطاع المنقبون أن يكشفوا عن الجدران، والمعبد، والمذابح والمماشي المبلطة، وجرى ذلك بعناية ودقة. لقد جروا في تنقيبهم على عرق من المعرفة والاتقان، فجاء الكشف عن ذلك وكأن البناء حديث، أو هو في طريق

= ولقد ثبت بنتيجة التنقيبات في (أريدو) أن السومريين هم من سكان العراق الأصليين وأن حضارتهم لها جذور تمتد إلى الحضارات السابقة في العراق. (المترجم).

الإنشاء. إنهم لم يزحزحوا طابوقة واحدة عن مكانها بدون ضرورة. أما العظام فلقد تناولها مستر وولي بيد العناية وبدراية مما حمل الأعراب العاملون تحت إشرافه على الاعتقاد بأن الرجل ذو صلة بالشيطان! لقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون: كيف يستطيع الرجل هذا أن يعرف أن في هذه البقعة بالذات جدثاً، وأن في تلك الزاوية أسطوانة، أو حجراً عليه كتابة!؟

ووقفنا على قمة الصرح المدرج (الزقورة) فشاهدنا ذلك الركام المكدس الذي يراه المرء من المحطة، كما راقبنا الحفريات الجارية في أسفله. ولقد تراءى لنا المعبد كما كان يراه بناته الأصلاء، أي عندما كان رجال (أور) يحملون أثقالهم من اللبن، ويشيدون بيتاً لـ(سيدتهم) بجعل الطابوق صفاً على صف حتى ينتهوا عند سقف البيت. والمعتقد أن السقف عندهم يشبه سقوف بيوت الأعراب في يومنا هذا، أي إنها عبارة عن جذوع النخل، أو أي خشب آخر، تمد عبر الجدران، ثم توضع جذوع أو أخشاب أخرى عليها بوجه معاكس، وتفرش على الكل الحصر، ثم طبقة سميكة من الطين اتقاء المطر والحرارة.

أما الحرم الجوّاني[1]، فلقد التزمت بمخططه جميع السلالات، على تعاقبها، وبضمنها السلالة الفارسية. إن فيه غرفاً صغيرة تفضي إلى خارج المعبد الذي تقوم فيه صورة الآلهة، وعلى الرغم من أن هذه الغرف الصغيرة سبق أن أعيد بناؤها على مستوى أعلى، فإنهم التزموا بمخطط الطراز الأصلي بكل دقة، كما تم بناء المذابح، والمناضد لتقبل النذور داخله، وجرى بناؤها في نفس الموقع الذي كانت تشغله دوماً.

وجد أن إحدى الغرف الجانبية مبلطة بفسيفساء من صدف البحر، كما وجدت أصداف كبيرة في المعبد أيضاً. ولعلها من جملة النذور المقدمة للآلهة، ولعل الناس في تلك العهود السحيقة كانوا يعتقدون بوجود صلة روحية بين البحر والقمر، تلك الصلة التي تمكن القمر من التأثير في البحر وإحداث

---

(1) (الجواني) و(البراني) من العامية الفصحى في العراق، وبعض بلاد العرب الأخرى. (المترجم).

المدّ، لذلك كانوا يأتون إلى الإله بالكنوز من أعماق البحر، عساه يتقبلها قبولاً حسناً.

سبق لي أن قلت إن (كورش) وقيل إنه كان يدين بالوحدانية، أعاد بناء معبد القمر ـ الإله، فلقد عثر على طابوق فيه يحمل اسمه، فوق طابوق أنقاض أبنية (نبوخذنصر). وإلى (كورش) ينسب مجرى في الفناء الخارجي، حيَّر هذا المجرى المنقبين، بادىء ذي بدء، فهو قصير يبدأ من الأرضية المغروسة ويفضي إلى ما تحته من الثرى. لقد استبعد المنقبون أن يكون أحد المجاري المعدة لتصريف ماء المطر، أو المياه القذرة، ثم عثروا في تاريخ هيرودوتس على وصف لمعبد بابلي رآه بأم عينه، فحملهم الوصف هذا على استكناه هذا الذي حيرهم فتوصلوا إلى أنه المجرى الذي يحمل دم القرابين، وأن من المحتمل أن يقوم مذبح القرابين العامة على مقربة من أول المجرى. إن الدم المراق تمتصه الأرض فتصبح بنظرهم مقدسة.

وليس من المؤمل أن تكون المعابد السومرية على شيء كبير من جمال العمارة، إن زخرفتها بدائية الطابع، والمعادن الثمينة مطروقة فيها بشكل بدائي، والستائر من مواد غالية الثمن، وفيها تزيينات طعمت بمعادن نفيسة. وهناك صورة للآلهة تزدان بالذهب والحلي. إنها لا تباري الأعمدة الإغريقية الفخمة، وتماثيل الإغريق الرائعة، تلك التي تعود إلى عصر متأخر نسبياً. إن العراقي لم يكن في يوم من الأيام فناناً[1]. لقد عثرت البعثة على حلي ذهبية ومجوهرات يفتقد جلها نفاسة الصنعة والذوق المصفَّى، وقليل منها ما يعكس مهارة فنية. ومن هذا القليل قلادة نفيسة مصنوعة من خرز حجرية، وأوراق مفردة من ذهب مطروق، وفي وسطها ما يشبه عنقود العنب المعلق. ووجدت

---

(1) تزين الآثار النفيسة التي وجدها المنقبون في مدن العراق القديمة ولا سيما آثار المقبرة الملوكية في أور 3 متاحف من متاحف العالم الشهيرة، وهي: المتحف العراقي والمتحف البريطاني ومتحف جامعة بنسلفانية. فلقد زودتنا التنقيبات في أور بنماذج غنية نفيسة لحضارة السومريين في آخر أدوارها... وكثير منها من الذهب الخالص المسبوك والمصنوع صنعاً دقيقاً يشير إلى فن رائع جميل.
راجع مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة بقلم طه باقر. (المترجم).

بعض الحلي النسائية في أحد أركان الغرفة المقدسة في معبد (نينماخ)، ولعلها وضعت هناك لتسلم في الأزمان العصيبة القلقة. ومما عثر عليه أيضاً دبوس من ذهب، يمشط به الشعر، وله مقبض عليه صورة إحدى الآلهات، كما عثر على حلقة من ذهب للشعر وخرزات ذهبية كثيرة وقطع من الأحجار الكريمة كالعقيق (الحجر اليماني)، والسبج[1] والعقيق الأبيضChalcedony وأقراط وخواتم. ولقد عثروا على عدد كبير من الخرز إبان إجراء التنقيب، ومنها ما هو ثمين، ومنها ما هو شبه ثمين، ومنها ما هو زجاجي صرف. ومن خرز الزجاج هذه ما هو بلون الكهرمان، وإنك لتقسم، غير حانث، أن قد جيء بها من السوق، وقدرها بالفلسين معدود! إنها تتراءى جديدة، وحقيرة ومما يدعو إلى الغرابة أنها اكتشفت ضمن آثار عهد أقدم من عهودها. وهناك خرز من زجاج مختلف ألوانه، وما أن أزيلت عنها الأكدار إلا وأصبح لها لمعان، فكأنها خرجت لساعتها من صقال. ومما كان يكلف به الناس من أنواع الحلي رأس عفريت صغير مخيف يسمونه (بوزوزو). وهم يحملون الحلية كرقية لتقيهم شر المرض.

والمعبد الثاني هو معبد (ننّا)، زوج (نينماخ) ويقوم على مقربة منه وفي الجهة الجنوبية الغربية. بدأ التنقيب فيه سنة 1919 من قبل الدكتور هل، وهو على غرار معبد الآلهة فيه من الدلائل الواضحة أن قد جدد بناؤه في فترات مختلفة. وفي المعبد بئر عجيبة مفروشة بالطين النضيج[2] وأخرى يبلغ عمقها 36 قدماً وفيها مخاريط عليها كتابات. وقرب البئر هذه مجرى بناه الملك دنكي.

وفي الزاوية الجنوبية الغربية من الحائط تقع (رابية القصر)، ولم يجر فيها تنقيب حتى الآن، وستبقى أسرارها مكتومة حتى يبدأ المنقبون عملهم في الموسم القادم. لقد اختتم المنقبون عملهم في الموسم الحالي في غير إبانه بسبب نفاد المخصصات، وكان ذلك في الوقت الذي شرعوا فيه

(1) في الأصل Obsidian وهو نوع من الزجاج البركاني. (المترجم).
(2) في الأصل Terra cotta أي مصنوع منه أو بلونه. (المترجم).

بإجراء عمليات تنقيبية ممتعة في الصرح المدرج نفسه. وفي الجهة الشمالية الغربية من الصرح اكتشف باب يرجع عهده إلى زمن آخر ملك من ملوك البابليين، وهو (نبونائيد). كما كان المنقبون يظنون أن الباب لا بد وأن يفضي إلى فناء تغطيه اليوم أكداس الحجارة المتساقطة من الصرح. وفي هذا المحل بالذات عثر المنقبون على أشد الآثار إمتاعاً وأكثرها قيمة، إنه تمثال من حجر، مقطوع الرأس، وعليه رداء لعله يمثل جلد خروف. إن طريقة نحته بدائية، وإن الذراعين فيه عاريتان وكذلك الرجلين. أما اليدان فمتشابكتان في الأمام. والتمثال يعود إلى أيام (لَكَش) الأولى، وهو غنيمة النصر جيء به إلى (أور)، أو لعل لوجوده فيها من الأسباب ما نجهله، و(نبونائيد) شخصية غريبة ذات طابع عصري. إنه يشغف بالآثار ويميل إلى مبدأ التوحيد، ومن عادته جمع صور الآلهة القديمة. وأعلن في يوم ما عن رغبته في إعادة اعتبار الآلهة المهملة، ولا يعوزنا الدليل على أن رغبته هذه ليست دينية صرفة، أن رجال الأديان الشائعة، على الرغم من ذلك ارتابوا به وظنوه يسعى إلى الحط من قيمة عبادة معاصريه. لقد كان (نبونائيد) ذوَّاقة، عالماً بكل ما يتصل بالآثار، ما في ذلك شك. وعلى سبيل المثال أعاد بناء معبدي (شمس) ـ والإله القمر ـ في (سبار)، كما عُني بتدوين عمليات البناء على اسطوانة مفخورة، ومما دوّن عليها: إنه عثر على حجر أساس قديم عليه اسمه (نرام سن) بن (سرجون الأول)، والحجر هذا لم ير النور لمدة 3200 سنة. ولعل الرجل نفسه هو الذي عثر على الصورة القديمة في (لَكَش) ووضعها على الصرح المدرج في (أور). فلو صح ذلك لما استبعد أن يكون له الفضل في وضع البقية الباقية من الكنوز الآثارية. ويأمل مستر وولي، رئيس بعثة التنقيب، في أن يحقق ذلك، شريطة أن تحصل (البعثة) على قليل من المال، وبذلك تستطيع البعثة أن تقرر نظرية ساحرة، سلباً أم إيجاباً. ما أعظم ذلك الكنز المدفون تحت الآجر المتكدس المتساقط من الصرح المدرج القديم!.

والظاهر ألّا وجود لغرفة ما داخله. إن القراميد الزرقاء اللماعة مرصوفة في الصفوف السفلى، ولعل (التمثال) كان موضوعاً قبالة الصرح، ولعله كان

يتراءى رفيعاً جليل المنظر في التماعه فوق التل الذي بنيت عليه (أور). ولا تمثل البنايات المحيطة بالأسوار إلا قسماً من المدينة، فليس بُد من أن تكون هذه ممتدة لمسافات من الأميال. ذلك أن المدن كانت آخذة بالاتساع في تلك الأيام، كما أن القرى المجاورة كانت تعتبر جزءاً منها. وفي الحق أن تلكم القرى كانت ترنو إلى المدينة لتحميها، وقد تسهم في انتصارات المدينة نفسها. ويدفع لكل أعرابي من الذين يعملون مع البعثة (روبية) واحدة يومياً، وهم يحصلون على منحة لقاء كل أثر يلتقطونه. ولقد جاء أحد الأعراب، إبان زيارتنا البعثة، بعدد من (الأنتيكات) التي عثر عليها في تل قريب. وما عثر عليه يأتلف من قطع متكسرة من الخزف وبعض الحيوانات المصنوعة من الفخار، ومنها ما كان تافهاً من حيث القيمة فأعيد إلى الشخص نفسه. وقامت البعثة باختيار شيء منها وبضمن ذلك رأس حصان وقد رسمت عليه خطوط بلون أسود. ولقد منح لذلك روبية تقبلها بدون تذمّر، كما لم يحاول أحد أن يساوم حولها أبداً. وما تعثر عليه البعثة تتقاسمه مع الحكومة العراقية، والمؤمل أن يصبح لدى الحكومة متُحفة[1] خاصة بها. إن الأشياء الممتعة التي يعثر عليها ترسل إلى أوروبا للدراسة أولاً. ولا تستطيع الحكومة العراقية اليوم أن تصرف المال اللازم لبناء متحفة، فوارداتها قليلة، وسيمضي زمن طويل قبل

---

(1) ذلك ما كان عليه الحال إبان تأليف الكتاب (1923) أما اليوم ففي بغداد متحفة كبيرة تضم الآثار العراقية القديمة من عصور إنسان الكهف إلى أواخر الأزمنة الساسانية، فهي تحوي آثار العصور الحجرية القديمة مما يرتقي زمنه إلى ما قبل 100 ألف سنة وآثار عصور ما قبل التاريخ كآثار حسونة وسامراء وحلف والعبيد والوركاء وجمدة نصر وفجر السلالات وآثار العصور التاريخية: الأكدي، والكوتي وسلالة أور الثالثة، وايسن ـ لارسا، وسلالة بابل الأولى ولكش والآشوري والكلداني والأخميني والسلوقي والفرثي والساساني الذي انتهى بالفتح العربي الإسلامي للعراق. ويجري الآن تشييد بناية جديدة خاصة بالمتحفة العراقية على أحدث طراز وفي أحسن بقعة بجانب الكرخ. وهناك عدا هذه المتحفة (متحفة الموصل) و(دار الآثار العربية ـ القصر العباسي) و(متحفة الأسلحة)، و(متحفة الفن العراقي الحديث) و(دار الآثار العربية في خان مرجان).
(راجع النشاط الآثاري في العراق لمديرية الآثار العامة في الجمهورية العراقية). (المترجم).

أن تستطيع تهيئة ما يسد نفقات أمناء المتاحف الذين يجب أن يحصلوا على رواتب طيبة.

وتأملنا في الكنوز التي عثرت عليها البعثة وعرضتها على رفوف غرفة صغيرة، أن الزمن، وتعريضها للهواء والشمس، جعلا هذه الكنوز سريعة التلف. إنها على غرار الآثار التي عثر عليها في مقبرة (توت عنخ آمون) حيث تعالج أولاً كيماوياً، ثم تحفظ. وعندما يعثر على لوحة (رقيم من الطين) عليها كتابة تتراءى للناظر غير المتفحص وكأنها قطعة من فخار، ولا يمكن تمييزه عن غيره من قطع التربة العراقية الأخرى إلا لماماً.

إنهم يبدأون أولاً بوضعها في النار فتشوى ثم إنهم يجرون عليها الفرشاة بعناية وبذلك يزيلون عنها تراب الأرض الذي يغطي كتابتها. ثم إنهم يعالجونها بالحوامض ويحفظونها بمحلول من السلّوليد. وأخيراً تسلم اللوحة إلى العضو المختص في البعثة، ويكون من واجبه حل رموز الكتابة التي على اللوحة ثم ترزم وتوضع جانباً. ويخضع إلى نفس الفحص والمعالجة كل ما يعثر عليه من الأواني وآثار العاج والخزف وسائر اللقط الأخرى. وتتراءى الخرز والأحجار الكريمة وكأنها جديدة بعد أن يفرغ أعضاء البعثة من معالجتها بالطريقة الآنفة الذكر. وهم يجعلونها في سُمُوط[1] ويحفظونها بين قطع الصوف والقطن. وإنهم لا يكتفون بحفظ اللقى فحسب، لكنهم يعمدون إلى تصويرها، وفنّان البعثة مكلف بذلك. إنه يعيد تنظيم الأجزاء الجميلة فيجعلها كالأصل، وبذلك يستطيع المرء أن يستعمل الجزء الواحد في كثير من عمليات الحدث والتخمين. فالقدم، وقسم من السلم المرسومان على قطعة من الخزف يمثلان جزءاً من بيت. وإن رأساً وأذنين، وأربع أرجل في الأسفل تمثلان إلهاً أو عفريتاً له 4 رؤوس وهكذا. ولقد عثروا في المكان نفسه على عيارات للوزن كهيئة البط، وقد وضعت رؤوسها على ظهورها، كما عثروا على مثلها في المدن المطمورة في جنوب العراق، إن هذه وسائر مخلفات الإنسان على اختلاف

---

(1) الواحد: سمط أي الخيط، ما دام الخرز أو اللؤلؤ منتظماً فيه. (المترجم).

أنواعها تمكن المرء من أن يتصور الحياة البيتية واليومية لأولئك الناس القدامى. ومن يستطيع أن يقرر مقدار ما ستكشف عنه حفريات السنة القادمة، مما يجلو حياتهم ودينهم وتاريخهم. إن هذه الأرض القديمة لم تكشف عن أسرارها المكتومة إلا قليلاً. وإن مهد الحضارة سيعلّم أبناء اليوم شيئاً كثيراً عن حضارة العالم. إن كل ذلك مدفون في أرض العراق الخصبة.

الباب الثاني

العتبات المقدسة في العراق

الفصل الأول

النجف
مشهد علي، المدينة المقدسة الأولى

«إن الدروب جميعاً تفضي إلى روما[1]» وهناك دروب عدة يسلكها الزائر الشيعي التقي فيصل إلى مدينته المقدسة الأولى. ذلك أن (النجف) أهم مزارات العراق، سواء من الوجهة السياسية، أم من الوجهة الروحانية. ففيها يقيم (المجتهد الأعظم) عادة... وفيها كنوز ونفائس ضخمة، تجمعت عبر القرون فخبئت عن عيون الشر. وفي مقدور الزائر أن يسافر بالقطار إلى الحلة أولاً، فإن كان على حظ من اليسار استأجر سيارة خاصة تقلّه إلى (كربلاء) فالنجف، عبر الطريق الصحراوي. وإن كان عائلاً اتخذ مقعده الخشبي في سيارة ركاب، واهية الوصلات، تقطع الطريق من بغداد ببطء على أساس المبيت كل ليلة في أحد الخانات الكائنة عليه[2] وفي «الخانات» هذه يجد الزوار أجنحة يحلون فيها بدون أجرة، وعليهم أن يعدّوا طعامهم وفراشهم فيها. ومن الزوار من يقطع الطريق هذه على ظهور الخيل أو الإبل. ورقيقو الحال منهم يقطعونها مشياً على الأقدام، ومنهم

---

(1) على ما ورد في المثل الإنكليزي المشهور All roads lead to Rome (المترجم).

(2) بدهي أن (المؤلفة) تتحدث عما كان عليه الحال عند تأليف الكتاب: فالطرق هذه اليوم مبلطة تسير عليها السيارات المريحة، العامة منها والخاصة، وهناك خطوط لمصالح نقل الركاب تسير عليها سيارات عصرية بين النجف، والكوفة والحلة وبين كربلاء والمسيب. (المترجم).

من يقضي نحبه فيها بسبب الإعياء أو المرض وما إلى ذلك. وهناك سيل لا ينقطع من جثث الموتى تحمل على هذا الطريق إلى العتبات المقدسة. فأقصى ما يطمح إليه الشيعي أن يدفن في أرضها المقدسة... وإنك لتشاهد القوافل من كل الذي وصفناه تمر، وما لها من فَوَاق[1]. ومن الناس من يعيش على الموتى، ونقل جثثهم حصراً.

واتخذت لزيارة (النجف) طريق الحلة سبيلاً. فاتبعنا أولاً طريق الزوار عبر الصحراء حتى بلغنا الكوفة. كان ذلك في يوم من أيام شباط، والسماء شاحبة اللون، وعلى غرار ما يشاهد المرء في ربيع إنكلترا. ومررنا في طريقنا بـ(الحلة) تحيط بها المزارع وتكتنفها النخيل. وشاهدنا (برس نمرود)[2] يتعالى على يمين الطريق ويرتسم على صفحة السماء الزرقاء، واتبعنا آثار السير على طريق الصحراء، وكنا نعبر تارة قناة ري، أو نَمُرّ بواحة من النبت تارة أخرى. وعند الظهيرة وصلنا (الكفل)، وهي بلدة تقع على يمين الطريق وقائمة حول مرقد (حزقيال النبي) الذي يجلّه المسلمون واليهود على حد سواء. وللمرقد هذا قبة مخروطية الشكل، بيضاء تتعالى بين النخيل. ولم يكن لدينا من الوقت متسع لنعرج على زيارة المرقد. وسارت السيارة بنا في سرع سريع وهي تمر بواحة إثر واحة حتى وصلنا (جسر العباسيات)، وهو جسر عائم على قوارب، فعبرنا عليه نهر الفرات. وتناولنا الغداء في مقهى عربية مغطاة بالحصر والبردى. وهناك طريق أخرى تمر بـ(التاجية)، وهي منطقة يتكاثف فيها النخل. وكان علينا أن نعبر الفرات كرة أخرى لنصل الكوفة. ولم نتوقف في هذا المكان، ونبذنا طريق الزوار المعتاد وسرنا على الطريق المؤدية إلى (أبي صخير) وأقمنا في (مضافة) أياماً معدودات. شيد العثمانيون (أبا صخير) واتخذوها مقراً للحكومة، ذلك أن (الجعارة)[3] ـ وهي على مسافة ساعة منها ـ موبوءة بالملاريا، وكثيراً ما كان موظفوها يمرضون بهذا الوباء. وأبو صخير

(1) تنظر أو تمكث إذا بدأت، كما في التنزيل العزيز. (المترجم).

(2) تقع (برس نمرود) أو (بورسبا) على بعد 25 كيلومتراً من جنوب الحلة وهي بقايا زقورة الهيكل (نبو) إله العلوم والآداب عند قدماء البابليين. (المترجم).

(3) هي اليوم مركز ناحية الحيرة في لواء الديوانية وعدد نفوسها 2689 نسمة.

على مفترق قناة تتفرع من الفرات. إن بساتين النخل تتواصل على حافتها حتى الجعارة.

وفي (أبي صخير) سوق صغيرة، أما الجعارة فهي بلدة نظيفة، يزدحم في أسواقها البدو، وهي لطيفة في الربيع، ولها جسران مشيدان عبر قناتها، وفيها شوارع ضيقة متلوية وبساتين فيح غناء. واستضافنا بها (السيد عباس زوين) وهو رجل ذو نسب شريف عريق. وكان السيد عباس قد أتم في زمن زيارتنا له (المضيف) وبناه، كبيته، بالحجارة التي جيء بها من (الحيرة)[1] المدينة القديمة التي ما زالت آثارها قائمة حتى اليوم.

ولقد تهدمت كثير من بيوت الجعارة في أثناء ثورة 1920، وتجمع السكان حولنا قرب الجسر عند زيارتنا البلدة رسمياً للسلام والترحيب. وتقطع السيارة المسافة بين (الحيرة) و(أبي صخير) في حوالي نصف ساعة. وكانت الحيرة في الأصل مبنية على شرف من الأرض وعلى حافة منحدر يفضي إلى السهول الخضراء والمياه المتلألئة في بحر النجف[2]. وتلي النطاق الأخضر

---

(1) الحيرة: عاصمة التنوخيين واللخميين والمناذرة وهي قريبة من النجف وكان أهلها نصارى نسطورية وهم من العرب الأقحاح ولم تزل بعض أديرتهم موجودة، ولقد بقيت حتى بعد انتشار الإسلام وعلو شوكته. وفيها (دير مارت مريم) و(ديارات الأساقف) و(دير الأسكول). ولقد تم فتح الحيرة سنة 12 هـ ونزلها خالد بن الوليد، وكانت معسكراً له. راجع الطبري: ج4، ص12. (المترجم).

(2) وجاء في كتاب البلدان لليعقوبي (طبع ليدن) سنة 309 بعد ذكر الكوفة (. . . والحيرة منها على ثلاثة أميال، والحيرة على النجف، والنجف كان ساحل بحر الملح، وكان في قديم الدهر يبلغ الحيرة. . .).
وذكر موقع (الحيرة) ياقوت في معجمه فقال (مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يقال له النجف).
وذكر المسعودي أن أكثر ماء الفرات «كان ينتهي إلى بلاد الحيرة ثم يجتازها ويصب في البحر الفارسي وكان البحر يومذاك في الموضع المعروف في النجف في هذا الوقت وكانت مراكب الهند والصين ترد على ملوك الحيرة فيه. وفي سنة 1889 وصف المستر بارلو في كتابه.
إن أكثر الزائرين الذين يقدمون من الهند لزيارة الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف يسلكون طريق الفرات فالعطشان فالشنافية، وإن سفناً كثيرة ذات حمولة 50 طناً تَمُر من =

في المنطقة التي أشرت إليها صحراء واسعة ممتدة مد البصر. هذا وإن التل الذي يضم اليوم بقايا آثار (الحيرة) ـ موطن الفروسية العربية في أسمى معانيها، والمكان الذي تحدى فيه العرب الفرس، لا يعدو أن يكون كسارات حجارة وآثار أساس ليس غير. إن موضع قصر ملك الحيرة (أو شيخها) لا بد وأن يكون هنا، قبالة هذا السهل المترامي تحته. وملك الحيرة الذي حارب كسرى، على ما يقول مؤرخو العرب، هو (النعمان). وفي هذا المكان نبه شأن البطل (عنترة) ـ وهو من أب عربي أمير وأم سوداء. ولقد شاع حبه لبنت عمه (الأميرة الجميلة عبلة). وتمر نسمات الهواء الصحراوي الطلق النقي على نشز الحيرة، وتتلألأ الأرض حوله بالحصى. وتصقل الرمال المنحدرة هذا الحصى حتى يكاد أن يصبح شفافاً. ومررنا في طريقنا من (أبي صخير) إلى (النجف) بمضارب البدو: هذه قطعانهم ترعى عشب الربيع، وهنالك خيام الغجر (الكاولية) السود. إنهم طائفة من الناس تحترف الموسيقى، وبناتهم يرقصن على عزف رجالهم. . . وعلى نغمات (الربابة)[1] والطبل والمزمار. إنهم على غرار الغجر في بلادنا، وهم يحترفون تصليح الأواني والصحون، وقد يتبارون على ظهور الخيل. . ولهم لغة خاصة، وليس لهم حظ من سمعة طيبة. وقد تشهد الصحراء فضيحة، إذ قد يهوى شاب من أسرة الشيخ الطيبة فتاة غجرية ويتزوجها. . إن نساءهم على حظ من جمال.

وعلى مسافة أميال من النجف صادفتنا دورية صحراوية. وكان رجالها حوالي الـ 6، وعليهم إمارات التوحش. لقد اندفعوا نحونا مسرعين وهم يصرخون صرخات مرعبة، وبنادقهم مرفوعة في الهواء. والرجل منهم ينظم شعره على الطريقة البدوية، ويجعله في غديرتين متدليتين على كل من الكتفين. وتهاوت

= هذا الطريق النهري الذي ينتهي بالنجف وهذا يدل على أن بحر النجف كان على اتصال بخليج فارس في زمن المؤرخين المذكورين. (المترجم).

(1) آلة موسيقية ذات وتر واحد، وهو جزء من شعر الخيل لها إطار من خشب يشد عليه من الجانبين جلد مبشور يترك فراغاً يضاعف ذبذبات الصوت ويضخمها حتى إذا ما سحب القوس فوق الوتر ترك النوحة المعروفة لصوت الربابة. ولقد قال عنها النابلسي في رسالته (الدلالات في سماع الآلات) «إنها آلة موسيقية عربية قديمة نشأت في الجزائر وتونس ومراكش وانتشرت في سائر البلاد العربية. . . وخاصة بين سواد العراق. .»

بعض الكفافي والعقل وخيول هؤلاء الرجال منطلقة. إن لباس الرأس هذا (الكفية والعقال) ليس عملياً، إذ سرعان ما يختل نظامه لأقل حادث. وعلى لابسه آنئذٍ أن يعيد إليه النظام بحركة ميكانيكية وعلى غرار وضع العباءة على الكتفين. وقد ينسى الإنكليزي العناية بهندامه ولكن العربي لا ينسى ذلك أبداً.

وتراءت النجف الآن، وهي تطفو في سراب الصحراء الممتدة وتغرق. تلك قبتها الذهبية المستديرة[1]، ومنائرها النحيفة، وهي ترتفع فوق أسوارها الرمادية وكأنها صورة من الصور التي تحفل بها قصص الجان. إن المسافر المكدود التعب يرى فيها ـ بعد قطع الأميال الكثيرة ـ واحة جميلة فيها الروح والريحان، فهي تضم شعائره ومقدساته ومأثوراته الدينية كلها. وفي مقدور المرء أن يرى القبة المتلألئة من مسافة أميال عدة، قيل إنها تبلغ 40 ميلاً إن كان الجو صحواً رائعاً. إن المرقد يتعالى علواً كبيراً في سهل يمتد امتداداً واسعاً. وتحت القبة هذه مرقد (علي الشهيد) رأس أسرة لم تفارقها المصائب الكبرى أبداً. والشيعة على الرغم من وداعة علي وتردده في الأمور تضعه في المرتبة الثانية بعد (محمد). وهناك طائفة تعتقد أن الإله حل في جسمه. وكثير من الناس يعتبرونه الإمام الحق، وخليفة الله الفذّ في أرضه. وروى لي السيد عباس الكليدار ـ وهو ليس بالسيد عباس الذي ذكرته آنفاً ـ قصة تأسيس النجف ونحن جلوس نتناول طعام الغداء، إذ قال:

ما إن استشهد سيدنا علي في الكوفة إلا وحملوا جدثه على بعير، وتركوه طليقاً، وقالوا: لندفن الجدث الطاهر حيث يبرك البعير. وجال البعير مسافة أميال عدة ثم برك عند حافة شرف من الأرض قائم فوق بحر النجف، وعلى مبعدة ساعة من الكوفة. وفي هذا الموضع بالذات دفن الجدث الطاهر.

---

(1) وللشاعر عبد الباقي العمري البغدادي المتوفى سنة 1278 هجرية أبيات في وصفها، منها:

قبة المرتضى علي تعالى ... شأنها من موازن وعديل
من نضار صيغت بغير نظير ... في مثال منزه عن مثيل
فوقها كالإكليل لاح هلال ... رمقته السها بطرف كليل

إلى أن يقول:

هي باء مقلوبة فوق تلك ... النقطة المستحيلة التأويل

ولم يتركوا على المرقد أية علامة لكي يستغلق أمره على أعدائه فلا يعمدون إلى نبشه. ومضت على ذلك سنون عدة، وفي يوم من الأيام كان الخليفة هارون الرشيد[1] يصطاد الغزلان في مكان مجاور له. وأسرع الخليفة في أثر طريدة منها وكاد أن يظفر بها لولا أنها اتجهت صوب هذا الشرف ووقفت عنده مذعورة بلا حراك. وترجل الخليفة وصوب نحوها سهمه، ولكنه لم يقدر على شد قوسه فشعر بالربكة وأخذ منه العجب كل مأخذ. ورأى الخليفة شيخاً جليلاً في محل قريب، فسأله، وهو يرتجف: «ما هذا المكان؟» فأجاب الشيخ: «إن أخبرتك عنه يا أمير المؤمنين قد يصيبني شر من وراء ذلك» وأقسم الخليفة قسماً غموساً بالنبي أنه لن يضر الشيخ بشيء وأمره بأن يفصح عن الحقيقة. وهنا قال الشيخ: «إن هذا مرقد علي، ولما كانوا يشفقون من إقلاق رميم عظامه، فلقد أخفوا سره. هذا وإن الغزالة هذه تعرف أنها ما دامت تقف على مثل هذا الموضع الشريف، وفوق رميم عظام الإمام، فليس في مقدور إنسان أن يصيبها بضرر. احفر لتتحقق من صدق قولي».

«وأخذ الخليفة يحفر الأرض وما إن وصل إلى عمق 12 قدماً إلا ورأى قطعة من رخام تحتها عظام علي، فأقسم غير حانث أن بقعة كهذه لا بد وأن تنال ما تستحقه من تقديس وإجلال، فبنى الجامع أولاً، وقامت بعد ذلك مدينة النجف».

وفي شمال المدينة وشمالها الشرقي مقابر غير مسوَّرة، وفيها أنواع من القبور، منها ما تعلوه القبب التي صرفت على تشييدها مبالغ طائلة، وقد غشيت بالقاشاني الملون البهيج، واللون الغالب فيه الأزرق الشذري، ومنها ما لا يعدو أن يكون كومات من تراب. ويؤتى كل سنة بعدد كبير من جثث الموتى من إيران لتدفن في كربلاء والنجف. ولعل مما يبعث الدهش أن لا تكون المقابر هذه إلا بمثل سعتها الحالية، فمقبرة كل من المدينتين لا تكاد تكفي موتى أهلها. وقيل لي إن هناك 10 آلاف قبر في النجف، لا أكثر ولا أقل، وآنف تقرير دفن الجثث السنوي راغم. فكيف تفسر إذن ظاهرة غريبة

---

(1) توجد في مرقد الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وتحت الطاق صورة رجل وبيده قوس وأمامه غزال قد وجه نحوه قوسه وهذه الصورة رمز إلى قصة الرشيد هذه. (المترجم).

كهذه؟ ولكل قبر ثمن، وتحدد الثمن هذا درجة قدسية موضعه. وتحتفظ وزارة الأوقاف في بغداد بحسابات المبالغ المدفوعة هذه، وهي تُعنى بأن يكون صرفها في سبيل «صيانة العتبات المقدسة».

ودفن الموتى في المقبرة العامة (وادي السلام) عملية زهيدة الكلفة، إذ إنها لا تكلف أكثر من 6 روبيات و4 آنات (8 شلنات تقريباً). والدفن في مقبرة خاصة يكلف 52 روبية ويكلف الدفن في المسجد أو حواشيه مبلغاً كبيراً من المال، وقد يبلغ الـ 750 روبية، في (الرواق)، وقد يقل عن ذلك تبعاً لواقع الحال. وفي سنتي 1921 و 1922 بلغت واردات بيع القبور أكثر من (57 ألف) روبية. وأكثر شهور السنة إيراداً شهر نيسان، وأقلها شهر تموز. وبلغت رسوم الدفن في كربلاء وحدها قرابة الـ 22 ألف روبية. ويكثر الدفن فيها في شهري تشرين الأول وتشرين الثاني من كل عام. ويضاف إلى ذلك كله أن المدينة تحصل على موارد رابحة أخرى من تشييع الجنائز، وبناء القبور، وحفرها وما إلى ذلك. ويؤتى بالجنائز من إيران في توابيت لا غطاء لها، وقد تنقل على ظهور الخيل والبغال، أو بعربات مفتوحة. فإن حملت على دابة، عُلِّق تابوت على كل من جانبيها. وما أن تصل الجنازة المدينة إلا ويأخذون في غسلها وتكفينها (وتلك حرفة مربحة أخرى) ثم يطاف بها حول المسجد وتدفن، في خاتمة المطاف، ووراءها الروحانيون والمشيعون (وتدفع لهم الأجور لقاء ذلك) وبين التراتيل وتصاعد روائح البخور.

... ووقفت بنا السيارة أول مرة عند (خانة الشرطة) حيث قتل الرئيس مارشال Capt. Marshall سنة 1918. وممن رافقنا من الأعراب رجل كان مع مارشال هذا عند مصرعه. ووصف لنا كيف أن قاتليه طلبوا بادىء ذي بدء مقابلته وما أن سمح لهم بذلك إلا وأجهزوا عليه فوراً. ولو تحرينا أسباب مقتل هذا الضابط لوجب علينا أن نتعمق السياسة المحلية في المدينة، ففي النجف طائفتان من الناس: (الزقرت) و(الشمرت) ولكل طائفة قادتها، وكثيراً ما يتعالى الخُلف وينشب العراك بين الطائفتين بسبب الشنآن التقليدي بينهما وعلى غرار ما كان يحدث بين طائفتي الكلف Guelph والغبلين Ghibelline في (فلورنسة) خلال القرون الوسطى.

والطائفتان تجندان كل من خلع العذار وأهل البطالة في المدينة، وليس في مقدور (المجتهدين) فيها أن يضعوا حداً لشجارهما، وما تثيران من قلق أو اضطراب. والطائفتان تستخدمان المقاتلين بأجرة Bravoes، كما أن خطرهما لا ينحصر بالمدينة نفسها، فلكل من الطائفتين أنصار وأعداء خارجها. لذا قد يتطور عراك محلي داخل النجف إلى حرب قبلية[1] واسعة. وقد تتحد

---

(1) كانت إذا سعرت نار الحرب بين الفريقين تعطل الأسواق وتسد أبواب البلد فلا داخل يدخل ولا خارج يخرج فتكون البلدة في حصار وتغلق أبواب الحرم العلوي... وهذا الانقسام بين (الزقرت) و(الشمرت) موجود اليوم فمحلات: (العمارة) و(الحويش) وأكثر (البراق) في النجف زقرت و(المشراق) وبعض من أهل محلة البراق شمرت... والزقرت هو الصقر ولعلهم كانوا يتصيدون بالصقور أو يصطادونها وفي اللغة العامية الدارجة إذا قال الرجل أنا زقرتي يعني أنه خفيف المؤنة لا عدة له ولا عيال ويحتمل أن هؤلاء كانوا بدء أمرهم كذلك لا سلاح لهم ولا عدة. أما الشمرت فلعلها من (الشمردل) ومعناه اللغوي: الفتى السريع فيحتمل أنهم أرادوا هذا المعنى وفيه دلالة على قوتهم وشدة عددهم. (راجع ماضي النجف وحاضرها لجعفر آل محبوبة). (المترجم).

قيل إن سبب الخلاف بين (الشمرت) و(الزقرت) ناجم عن نزاع عشائري دار حول امرأة. فلقد زعموا أن سيداً عاش في (القصر) ـ أو في (الركبة) في رواية أخرى ـ والقصر قرية صحراوية صغيرة قريبة من النجف، وأن عروسه، أو امرأة من عشيرته خطفت، فخلق الأمر هذا ثأراً، وأن معنى زقرت (المنعزل عن أسرته). ولقد أكد لي أحد الآباء الدومنكيين أن هذه الرواية من التفه والسخف بمكان عظيم، وأضاف إلى ذلك: «إن السلطان مراد الرابع فتح بغداد وانتزعها من يد الفرس. وكانت شيعة النجف تكره حكم الأتراك واستطاع الأتراك أن يكيدوا لها فخلقوا فيها طائفتين متخاصمتين متعاديتين، ودأبوا على تحريض كل طائفة ضد الأخرى. وسبب الصراع بينهما إضعاف الطائفتين معاً، وتقوية سطوة الأتراك في المدينة. وتم للأتراك ذلك عن طريق إثارة الشعور الطبقي العدائي. ذلك أنهم استدعوا الفقراء المحرومين ووعدوهم بأن يساندوهم ضد الموسرين والذين حصلوا على أملاك في العهد السابق، ومن هؤلاء تألفت طائفة (الزقرت). ثم استدعى الحاكم التركي بعد ذلك الموسرين الذين ذعروا من تكوين طائفة الزقرت (والشمرت تركية وتعني الغنى الموسر المرفه، والزقرت تعني عكس ذلك) ووعدهم بأن يحميهم من الطائفة الجديدة، وقال إن الحكومة التركية وجدت فيهم العون والمساعدة في إقامة دولتها. ولم يفسح الأتراك المجال لأية طائفة من الطائفتين لتصبح ذات شأن وخطورة، وكان هواهم يتأرجح بين هذه الطائفة والطائفة الأخرى... وكثيراً ما كانت حكومتهم =

الطائفتان في بعض الأحيان كما حدث عند مقتل الرئيس مارشال. إن زعيم (الشمرت)... الحاج سعدون ابن الحاج راضي هو الذي حبك مؤامرة قتل «الإنكليزي» بالدرجة الأولى وقيل إنه كان على صلة بسيد الزقرت (كاظم الصبي). ولم يكن للسيد محمد كاظم اليزدي (المجتهد الأعظم) في ذلك الوقت ضلع بالمؤامرة لذلك عصفت الحيرة به عند ارتكاب الجريمة وأخذ يضرب أخماساً بأسداس. وكانت سيطرة الإنكليز على البلد آنئذٍ قوية وقطع الماء عن النجف، وبقيت الآبار في داخلها المورد الوحيد الذي يستقى منه أهلوها. وطوقت التلال العالية (التي سأعود لذكرها بعد حين) وأسقط في يد أهل النجف. ولم تطلق أية إطلاقة، وعرفت المدينة أنها لا تقوى علينا. وتم تسليم القاتلين إلى العدالة (كذا!)، وحكم على 13 منهم بالإعدام، ونفي 5 آخرون وأرسل بعض المشتبه بهم إلى الهند. وساد الهدوء المدينة إثر هذا الدرس الذي تلقته النجف ولم تنسه في يوم من الأيام. واشتدت حملة الصحف في بريطانيا تطالب بانسحاب البريطانيين، واعتقد أهل المدينة أن قوتنا ضعيفة، وكل ذلك هيأ السبيل للمكائد والدسائس من جديد. وشد أزر أهل المدينة دعاة الوحدة العربية في سوريا. لذلك فإن شرارة ثورة 1920 لم تندلع إلَّا في النجف، بالدرجة الأولى[1]. إن النجف موطن الثورات، وهكذا كانت في أيام الحكم التركي تناهض حكومته... وهي، وكربلاء، اليوم موطن

تعمد إلى تسليح هذه الطائفة أولاً ثم تسلح بعد ذلك الأخرى لتبقى لها الكلمة العليا واليد العليا فوق كل من يعارضها من الطائفتين. وأفادت من هذه السياسة بيقين.

والشائع أن (الزقرت) أشجع من (الشمرت). ولعل المتواتر من أمر الطائفتين، ورواية صديقي الأب الدومنيكي صحيحة أيضاً. إذ قد ينجم في المدينة ثأر عشائري، فيستفيد منه الأتراك. أو لعل إحدى الطائفتين سلبت الأخرى ثروتها وسطوتها. ومهما كان الأمر فإن روحانيي الشيعة، استطاعوا على ما يقال، أن يوحدوا الطائفتين بإزاء البريطانيين. وهناك طائفة معتدلة ثالثة تدعى (الشقرت) ولم أستطع أن أقف على كثير من أمر هذه الطائفة المتزنة الحصيفة. (المؤلفة).

(1) في الحق إن الشعب العراقي بأسره شعر بأن المحتلين البريطانيين الذين جاؤوا باسم «محررين» يريدون الاستعمار الدائم لبلادهم لذلك أحسوا بخطر ذلك ومعرته فقاموا بسلسلة من الثورات منذ سنة 1920، أهلية كانت أم عسكرية للتخلص من ربقته. (المترجم).

السياسيين المتطرفين (كذا!) الذين لا يقرون الأوضاع الراهنة. وخير مثال على ذلك اجتماع كربلاء الذي عقد في ربيع سنة 1922. قيل إن السبب في عقده اتخاذ ما يلزم لصد غارات الإخوان أو «الوهابيين» على ما زعموا والحفاظ على العتبات المقدسة لئلا يصيبها منهم مكروه. ولكن القصد الحقيقي من الاجتماع لم يكن إلّا دعوة الشيوخ لتوقيع بيان ضد الانتداب واتخاذ إجراءات حازمة لإدراك الهدف المقصود، إن لم يكتب لبيانهم النجح. وكان المجتهد مهدي الخالصي (الكاظمي)، على رأس الحركة، ويناصره فريق من المتطرفين ببغداد. حضر رجال من الحاشية الملكية لإدارة دفة النقاش وتوجيهه الوجهة السليمة. أما «الوجهة السليمة» هذه فلم تكن جلية واضحة. وتظافرت الجهود على حمل كبار المجتهدين على مؤازرة الحركة هذه، لكن قليلاً منهم أثرت فيه الدعاية فآزرها فعلاً. ولم يسهم فيها شيوخ العشائر، أصحاب التفكير المنطقي الصحراوي البسيط، فلقد أدركوا بادىء الرأي أن لـ (أفندية بغداد) (كذا!) يداً فيها[1] وألقى المعتدلون السمع إلى ما دار في الاجتماع. . . وكان نصيبه الفشل في خاتمة المطاف، وتضاءل ما كان للخالصي من سطوة ونفوذ.

ويلي (الكليدار) المجتهدين في المقام. ومنصبه وراثي، وهو القيِّم على كنوز العتبات المقدسة ونفائسها. ولا تطلب الحكومة منه أن يقدم حساباً عن الأمانة التي بعهدته. إن كنوز العتبات المقدسة لكبيرة جداً، وهي على غرار ما تحفل به الأساطير من نفائس وكنوز. وكل شيعي ملزم بأن يدفع مبلغاً سنوياً من المال لإدامة العتبات المقدسة وصيانتها. وعليه أيضاً أن يؤدي فريضة الزكاة. ويجود الزوّار على العتبات المقدسة بالمنح والهدايا، وعليهم أن يفوا بنذورهم فيها. وسنحت لي فرصة رؤية إحدى هذه الهدايا وهي تمر محمولة

(1) في الحق إن الشعب العراقي كله أحس بالاستعمار الذي يوشك أن يخيم على صدره وأدرك بادىء ذي بدء المعرة التي تلحقه في حاضره ومستقبله فقام قومة رجل واحد، كالليث عادياً، وما هذا الاجتماع وأمثاله في بغداد وغيرها وما الثورات المسلحة في شمال العراق وجنوبه إلا أدلة قاطعة على نزوع الشعب إلى الاستقلال والتحرر ومشاعره المرهفة وعقله المتألق. وتعبير «أفندية بغداد» من التعابير التي شاعت على ألسنة المستعمرين، ومن سار في ركابهم، ولم يقصدوا منه ومن أمثاله إلا التفرقة وتشويه فحوى الثورة ومحتواها. (المترجم).

من بغداد. ذلك أن إحدى السيدات الفارسيات خافت على وليدها المريض فنذرت أن تقدم درعاً ثميناً للإمام عند شفائه. وتمَّ ذلك، والظاهر أنها ندمت على النذر فسألت (الملالي) إن كان التحلل من مثله ميسوراً، فأجابوها أن ذلك ميسور، وعلى وجه التحقيق، شريطة أن تدفع لهم ما يساوي ثمن الجوهر فيه ليصرفوه على أعمال البر. ودفعت السيدة إليهم النقود، ولكنها رأت بعد ذلك، فيما يراه النائم من حلم، أن علياً مثل أمامها ووبخها على ما صنعت. . . واستيقظت المرأة من نومها مذعورة وسارعت إلى إرسال الجوهر إلى النجف، وقام الابن نفسه بحمله ومعه سيف مرصع أيضاً. إن الدرع المعلق بسلسلة ذهبية حول العنق عبارة عن منظومة من الماسات الضخمة، والزمردات والصفِّيرات[1] إنه بدائي الطراز والصقلة، وإن كان على جانب كبير من القيمة.

وتقوم سلطات الأوقاف بتسجيل مثل هذه الهدايا وتصويرها إن مرت ببغداد. واستطعت أن أشاهد بعضها إبان إمرارها من العاصمة وتسجيلها.

وتنهال على العتبات المقدسة الطنافس الثمينة، والأحجار الكريمة، وسبائك الذهب والمجوهرات، والتراث[2] على اختلاف أنواعه، ذلك بالإضافة إلى المال القليل والعطايا المتواضعة التي يقدمها لها فقراء القوم. فهناك شق يعلو مرقد علي ومنه يرمي الزوّار النقود والجوهر. ومفتاح المرقد عند (الكليدار)، وهو الذي يجمع النذور والعطايا حصراً. قيل إن كنوز كربلاء والنجف عرضت على (ناصر الدين شاه) عند زيارته لهما فبلغ وزن الذهب والفضة فيها 7 أطنان! ومن بين هذه النفائس سراج مصنوع من زمردة واحدة، وثريات من ذهب خالص، ومرصعة بالياقوت، وسجادة مطرزة باللؤلؤ. وقبة النجف ومنائرها الأربع مغشاة بالذهب الخالص، وهي من مآثر ناصر الدين شاه.

---

(1) في الأصل Sapphires وهو ضرب من الياقوت الأزرق. (المترجم).

(2) في الأصل Heirlooms وهو الأموال والتحف الموروثة يتوارثها الخلف عن السلف أجيالاً عدة. (المترجم).

وليس بمستغرب أن تحاط المدينة بأسوار عالية، وبخندق، على غرار المدن في القرون الوسطى. ذلك أن ما تضمه من ثروة عظيمة تغري العشائر الجائعة خارجها، ما في ذلك شك. ولا يرجع تاريخ أسوار المدينة لأكثر من 100 سنة، وفيها بَسُطونات[1] على مسافة كل 100 ياردة. ولو دخلت المدينة من بابها الشرقية لوجدت نفسك على حين غرَّة[2] في السوق المسقفة، والسوق هذه عبارة عن طرق مسقفة، وأزقة فرعية مغطاة اتقاء الأوار[3] ويجلس في صف منه باعة الفواكه والمخضرات، وأهل الصنعة الواحدة أميل الاجتماع في مكان واحد. وفي صف آخر يجلس صانعو الأحذية، الحمراء منها والصفراء. وهناك طريق آخر تجد فيها دكاكين تباع فيها (العبى)، والنجف تشتهر بصنع الحريرية منها، وعلى اختلاف ألوانها[4]. وتميز العباءة النجفية بخيط أزرق يخاط على جنبة منها ومعه الذهب أو الفضة. والخيط هذا، بزعمهم، يقي من العين الشريرة.

وهذا سوق النحاسين، وفيه ضجيج وعجيج وأصوات المطارق تنزل على ما يحاولون صنعه من آنية الطبخ أو الصحون والأدوات الأخرى. وذلك سوق الفخاريات وفي مقدورك أن تشتري فيه إناء مفخوراً من كل حجم أو شكل، والفخاريات هذه بيضاء اللون وذات مسامات، وقد تكون مغشاة بطبقة من الزلاج الأزرق. وفي السوق القديمة (القيصرية) أركان غريبة وجملونات[5] ناتئة، إنها سوق جذابة تسترعي أنظار الأوروبي، وفيها دكاكين تبيع (الناركيلات) الخزفية الفارسية الصنعة. وهناك سوق تباع فيها الأحجار الكريمة، وفيها صفوف من صناديق تحوي فصوص الشذر والعقيق والياقوت، وبلّورات النجف قبل كل شيء. وفي مقدور المرء أن يشاهد رجلاً هماً هرماً يصقل هذه البلورات بإدارة عجلة خاصة. ولو عثرت على واحدة منها في

---

(1) في الأصل Bastions وهو البرج البارز من بناء. (المترجم).

(2) غرة: غفلة. (المترجم).

(3) الأوار: شدة حر الشمس. (المترجم).

(4) تصدّر النجف العباءات الثقيلة (الخاجية) إلى كثير من البلدان العربية والعباءات الخفيفة إلى إيران وكذلك النوع المعروف (بالعباء النايلي). (المترجم).

(5) في الأصل Gables والجملون كلمة شائعة في العراق وتعني السقف السنامي. (المترجم).

الصحراء لوجدتها خشنة الملمس تافهة ولكن الرجل قادر على قطعها وصقلها وتهذيبها وجعلها جوهرة صافية نقية متلألئة. وسرعان ما ينفذ السوق على باب المسجد الكبرى المغشاة بالقاشاني، وإنك لترى عليها سلسلة مثلثة من نحاس.

إن الزخرفة هذه نتاج الخيال الوردي المبدع والإحساس الجمالي، وهو ما تعكسه الألوان التي تلازم القاشاني الفارسي. وفي مقدور المرء أن يتملى من خلال هذا الطاق... هذا صحن الجامع الخارجي، وهذه بناياته، إنه لمنظر جميل ساحر مبعثه الصور القاشانية الملونة بالألوان: الذهبية، والشذرية، الزرقاء... وكل ذلك يجعل المرء أشد كلفاً بها وتَوْقاً للمرور بقربها. وعلى المرء أن لا يطيل الوقوف قرب الطاق، ذلك أن الشزرات تلاحق الغريب في حلّه وترحاله. إن الوجوه الشاحبة المتزمتة تتراءى في الضوء الشاحب، وداخل الحوانيت الظليلة، ولن تجد بائعاً متجولاً يتقدم إليك مبتسماً ويغريك على شراء شيء مما يبيع. فإن أردت أن تشتري شيئاً فلن تجد إلّا التأدب، ولكن في غير اهتمام. إن التزمت وشعور الكره يؤثران في النفس البشرية تلقائياً، وعلى الرغم من جمال المكان... فينتاب المرء لذلك خواء الروح وبرودة القلب.

والنجف جميلة جداً، لكن شوارعها ليست على شيء من الاستقامة والتنظيم. وتعلو الأزقة فيها طوق البيوت، ولهذه نوافذ ناتئة. والأزقة في النجف ضيقة متعرجة، ولا تنفذ أشعة الشمس إليها إلّا لماماً. وقد يصادفك على حين غرة باب من أبواب الحرم الكبيرة، وهي مزينة بالزهور المختلفة الألوان. إن الطابع المميز لكل ذلك الجد الصارم، وكأن البلد لقي مصيره المحتوم. هذا وإن نصف (المدينة) كائن تحت الأرض، والنصف الأرضي هذا عميق، جد عميق. إنه شبكة من السراديب المتصلة، وبينها ممرات، وقد يفضي بعضها إلى الصحراء خارج المدينة. ولكل بيت سردابه، والسرداب غرفة أرضية سوداء تقع تحت الأرض على عمق 7 أقدام، وإليه يأوي سكان البيت في وديقة[1] الصيف، ويحتمل أن يكون تحت السرداب سرداب ثان وثالث ورابع... وفي السراديب آبار عميقة جداً.

---

(1) الوديقة: شدة الحر.

وبيوت هذه المدينة المسوَّرة مبنية بالحجارة أو محفورة، وفي خارجها تلول غريبة عالية. واحد هذه التلول يشرف على باب النجف الجنوبي وأسوارها. ويقال إن هذه التلول نتاج تلك الأكداس المكدسة من التراب المستخرج من حفر السراديب وممراتها. وفي مقدور المرء أن يرى من أعالي التلول منظراً رائعاً لمدينة النجف و(بحر النجف) الممتد حتى حافة التل المنحدر. إنه واد ضاحك ضيق يتلألأ فيه الماء وتزينه الخضرة. وإنك لتشاهد كل يوم الحمر الصغار تغدو وتروح و(الماء فوق ظهورها محمول). وقد تسمع نقرات طوس الماء، وهي مصنوعة من نحاس، وأصوات باعته وهم ينادون عليه داخل شوارع المدينة. وتمتد الصحراء الواسعة حتى مد البصر، وخارج نطاق الخضرة الذي يحيط بالنجف.

ورحب بنا في زيارتنا الأولى للنجف الكليدار السيد عباس... ومن معه نقيب الأشراف السيد هادي، ومحسن شلاش، وهو تاجر ثري، وقليل غيرهما من الوجهاء. وجلس هؤلاء الرجال معنا للطعام في غير تحرج أو تزمت. وكان مضيفنا رجلاً سمحاً كريماً، وسرني أن أحظى بزيارة زوجته اللطيفة، وأن أتحدث إلى ابن أخيه، وأرى طفله الرضيع (السيد حسين).

والسيد عباس كهل، وهو وسيم المظهر ذو لحية مهندمة ويرتدي (سيدية) خضراء دلالة على نسبه الشريف. وغرفة الضيوف في بيته طويلة ضيقة، وفي جانب منها نوافذ تطل على فناء البيت، وصفت (الدواوين) في جوانبها الأربعة، وعلى (الدواوين) وأرض الغرفة فرشت طنافس فاخرة. إن جدرانها مزخرفة بالمرايا الفسيفسائية. ودعونا أن ندخل غرفة الضيوف لنرتاح فيها إن شئنا. إنها تشبه غرف النوم في العراق، وأثاثها يتألف من سرير مزدوج كبير، تعلوه ستائر وردية من حرير، وغطاؤه من (الساتان) المطرز بالفضة، وقد وضعت عليه نمارق من (الساتان) مطرزة بالذهب. ومساند السرير منجدة بالقطيفة، وهي ذات ألوان بدائية...

الفصل الثاني

الكوفة[1]

أسست الكوفة أيام نهضة الإسلام، ولكن أهلها قديماً دأبوا على التقلّب فكانوا مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك. . . فسرعان ما كانوا يمالئون هذا، وسرعان ما ينقضون عليه! ومن يقدم كربلاء أو النجف لزيارة عتباتها المقدسة لا بدّ وأن يعرج على الكوفة ويزور المسجد الكبير الذي استشهد فيه الإمام علي. . .

إن أهل الكوفة هم الذين أغروا (الحسين بن علي) على التوجه مع أفراد أسرته عبر الصحراء وإلى مدينتهم، لكنهم سرعان ما أشفقوا على أرواحهم فخذلوه ولم يلبّوا طلبه في الوقوف موقف المؤيد لقضيته. وذكَّرهم الحسين بالبيعة التي أخذوها على أنفسهم واليمين التي أقسموها على نصرته. وكان إن حزّ رأس الحسين وأهل الكوفة ينظرون!

وفي الكوفة خذل (زيد) حفيد الحسين أيضاً، أغراه أهلها سرّاً على الثورة في وجه الخليفة الأموي، وأخذوا على أنفسهم عهداً بأن يكفّروا عن سيئات آبائهم الأقدمين ويزيلوا الوصمة التي ألحقوها بمدينتهم بخذلان جدّه.

---

(1) أنشأها العرب في سنة 17 هـ (638م) بعد فتحهم العراق، وصارت عاصمته ودار إمارته حتى ابتنى الحجاج (واسط) وكانت مقر خلافة الإمام علي (رض) وبها بويع أبو العباس بالخلافة عام 132هـ. وجاء في تاج العروس: سميت الكوفة بالكوفة لاستدارتها. وقيل بسبب اجتماع الناس بها، وقيل لكونها رملية حمراء، ولاختلاط ترابها بالحصى. والكوفان: الدغل من القصب والخشب: التاج 6: 340 (مادة كوف). (المترجم).

وأراد (زيد) أن يختبرهم، ورفعت راياته في الكوفة قبل هجوم جيوش الخليفة عليها . . . ولم يقف في صفّه من أهلها سوى 200 وسرعان ما تفرّق هؤلاء أيضاً فرقاً وأشفاقاً. وغلق باب المسجد على زيد أشدّ الناس تظاهراً في نصرته. وخاطبهم زيد عساهم يتذكّروا عهدهم ويخجلوا من نقضه. . . وذهبت الصيحة بلا صدى، وقتل زيد مع من بقي على نصرته منهم، وهم جدّ قليل. أما الكثرة الكاثرة منهم فبقوا متخفّين، يخشون إسداء المعونة له أو نجدته.

والكوفة، اليوم، وعلى الرغم من نباهة شأنها في تاريخ الإسلام، قصبة صغيرة. وهي ترتبط بالنجف بخط تراموای طوله 7 أميال وتجرّه الخيول[1] عبر الصحراء. وتتراءى القصبة على شيء من التفه بسبب قربها من مدينة النجف العظمى.

زرت الكوفة مرتين، مرة من الحلة، ومرة أخرى من النجف، ولم تراودني نفسي على زيارتها مرة ثالثة. ويخترق طريق النجف ـ الكوفة صحراء مسطحة نظيفة تزينها أحياناً أحداق زهيرات برّية زرقاء. وتتراءى من بعيد قبة النجف الذهبية وهي تتلألأ وتتألق فتسرّ الناظرين. وقد يعبر المسافر بين الفينة والفينة جدولاً من تلك الجداول المندرسة. وتروى بصدد إحدى هذه الجداول أسطورة عربية قديمة: قالوا إن فتاة وضيئة كانت تسكن عمان، وخطبها الكثيرون ولكنها فضّلت من بينهم رجلاً بصرياً، ولكنها غالت في صداقها ولم ترض به بعلاً إلّا بشرط: هو أن يقوم بحفر جدول تستطيع أن تنقل بواسطته في قارب يحملها من عمان إلى البصرة. وشمّر خطيبها عن ساعد الجد، واستغرق حفر الجدول 80 سنة وعندما جاء الخطيب بخطيبته إثر ذلك إلى بيت الزوجية كانت الفتاة الوضيئة قد بلغت من الكبر عتياً، وخلّفت «زهرة العمر» ظهرياً: والظاهر أن مغزى الأسطورة هذه يخالف مغازي أساطير الجان وما فيها من شرط تشترطه الأميرة على خطيبها!

وجامع الكوفة الكبير[2] على بعد أكثر من ميل من القصبة الحالية. إنه

---

(1) لا أثر لهذا الخط اليوم وترتبط الكوفة بالنجف الأشرف بخط مواصلات من سيارات الركاب الكبيرة، كما أخذ الأهلون يبنون البيوت العصرية على جانبي الطريق. (المترجم).

(2) أجرت مديرية الآثار العامة التنقيبات المتعاقبة خلال السنوات 1938 و1954 و1955 =

قائم في الصحراء، يحيط به جدار يجعله أشبه ما يكون بحصن. وفي الجدار أعمدة شبه دائرية، وهي فيه على مسافات. وفي داخل الجدار ساحة كبيرة وفي وسطها المزار المشبك حيث استشهد علي. وقيّم المزار شيخ وديع، يضع في إصبعه خاتماً بابلياً ويزهو به كثيراً. ولم يكن ليغلب على هذا القيّم التعصب شأن غيره. فلقد سمح لي بأن أقف على الباب الرئيس لأصور منها ما أشاء!.

وسألته: أهو قديم؟ فأجاب، وعليه سيماء الجد: ـ

أجل، إنه قديم قدم آدم!

وفي الحق أن ما هو قديم فيه لا يعدو منارة الجامع، أما الجدران التي تحيط به وتتراءى وكأنها من مخلفات القرون الوسطى فلم تُبْنَ إلَّا حديثاً.

وهنا عين، وحولها أسطورة: قيل إن مياه الطوفان التي غمرت الدنيا كلها في عهد نوح تدفقت من هذا العين بالذات وبأمر من الله وليهلك الناس جميعاً..

وعلى مقربة من الجامع الكبير، وفي الصحراء أيضاً، يقوم بيت ينسب

= و1957 في الأطلال المجاورة لمسجد الكوفة والمعروفة باسم (قصر الإمارة) وأظهرت فيها معالم السور الخارجي، وبعض الغرف في قسمه الشمالي المتصل بالجامع، كما أنَّها توصلت إلى معلومات قيمة عن مخطط القصر وطبقاته وحصلت على مجموعات من اللقى الآثارية المهمة والنقود. وفي سنة 1955 عثرت على جزء من التصاميم التي كان عليها قصر الإمارة في الكوفة في زمن الفتح الإسلامي للعراق وفي العصر العباسي فلقد كشف عن 4 دور للإمارة شيدت كل واحدة منها على أنقاض الأخرى. إن دار الإمارة التي يرتقي زمنها إلى أيام الخليفة المأمون تحتوي على قبة تتصدر بناء واسعاً له أربعة أبواب، وعلى محورين متعامدين... وأمام هذه القبة بهو يقوم على أعمدة.
وفي سنة 1957 كشفت المديرية عن القسم الجنوبي من دار الإمارة حيث المرافق الموجودة ضمن سورها الداخلي. إن المعالم المعمارية الأولى المكتشفة تعود إلى زمن القائد العربي الكبير سعد بن أبي وقاص. ويرجع حوالي الـ 70% من بقايا الأبنية القائمة وسوريها الداخلي والخارجي إلى ذلك الزمن. هذا وإن الأحداث، والتغييرات التي طرأت على الدار في الدورين الأموي والعباسي قليلة وأحدث أهمها في جنوبي غربي الدار في العصر الأموي.
راجع: (النشاط الآثاري في العراق ـ نشرة لمديرية الآثار العامة في العراق). (المترجم).

إلى الخليفة القتيل وقبران ينسبان إلى مسلم بن عقيل وهينهن أمواه[1] وهما ممن يجلّهم الشيعة. والظاهر أن الجامع كان على النهر، ولكن النهر بدّل مجراه فأخذ أهل الكوفة يبنون بيوتهم أمام الجامع وتقدمت القصبة.

والكوفة ميناء نهري تقع على نهر الفرات السلسال وتكتنفها خمائل النخل العامرة والبساتين المتضوعة، ولها جسر جيد البناء. وتجري أمام المدينة سفائن كسفن الفايكنغ[2] والقوارب النهرية، والمراكب وهي تحمل البضائع من كل نوع. والمدينة مفتوحة وتلعب الرياح في جوانبها. وكان لها سوق جميل قبل ثورة 1920 وقصف فبنوا سوقاً جديداً محله... إنه سوق بارد يتخلله الهواء ويأتلف من دكاكين متينة البناء. وبين الحلة والكوفة أجهز الثوار على وحدة الـ (مانجسترز)[3] وأفنوا أفرادها عن بكرة أبيهم، وما زالت جثث القتلى ورمم الخيول ومخلفات المعركة باقية شاهدة على ذلك. وشربت الشاي مع (المدير) في منظرته المُطِلَّة على النهر. ولعله حاذر من أن يضيفني، وأنا امرأة وحيدة، داخل الدار لئلا يثير القيل والقال، ولعلي مخطئة في هذا الظن أيضاً. وتبدو على وجه (المدير) الشاب أمارات الحزن، وهو لا يعرف عن العالم الخارجي إلّا لماماً. إنه قريب للقائمقام وهو رجل عرف بنزعته العدائية للإنكليز، سبق أن أنزل العلم البريطاني إبان الثورة وداس عليه بقدميه. لقد نحّوه أخيراً عن منصبه لا بسبب هذه النزعة ولكن لعدم كفاءته بوجه عام!.

(1) كذا في الأصل الإنكليزي والراجح أنه قبر هانيء بن عروة. (المترجم).
(2) الـ The Viking هم قراصنة الشمال. (المترجم).
(3) The Manchesters وحدة عسكرية بريطانية أرادوا بواسطتها وبمثيلاتها قمع ثورة العراق سنة 1920. ففي 20 تموز تجمعت الحاميات البريطانية في (النجف) و(أبي صخير) و(الشامية) وحاصرت الكوفة زهاء 3 أشهر، وفي 23 تموز وقعت معركة (الرارنجية) الشهيرة وتعرضت 3 سرايا بريطانية من وحدة المانجسترز هذه للهزيمة حيث أسر الثوار 160 بريطانياً وقتلوا 180 وجرحوا 60 وغنموا 59 مدفعاً رشاشاً ومدفعاً من عيار (18 عقدة) استعملوه في إغراق الباخرة فاير فلاي في شط الكوفة. (المترجم).

الفصل الثالث

كربلاء[1]

وتلي (كربلاء) ـ عند الشيعة ـ (النجف) من حيث الأهمية، وفي مقدور المرء أن يزورها من النجف أو الحلة. ولا يسلك الطريق الصحراوي الذي يربطها بالنجف إلّا لماماً، لكن الزوّار، على الرغم من ذلك، يسلكون الطريقين دوماً. ولو ترك المرء (النجف) وسلك هذا السبيل فإنه يشاهد أولاً الكثير من القبور، ومنها ما تعلوه القباب المغشاة بالقاشاني المموّه، ومنها ما تبنى على غرار المزارات الشائعة، أو بالآجر، والبقية الباقية لا تعدو أن تكون أكداساً من طين. وقد يشاهد المرء بين الفينة والفينة موكباً جنائزياً. . . أو كلاب البرية وهي حائمة بين القبور.

وبين (النجف) و(كربلاء) قاع صفصف رملي[2] وآثار الطريق

---

(1) تقع كربلاء على الضفة اليسرى لجدول (الحسينية) وعلى مسافة 104 كيلومترات من بغداد. ومدينة كربلاء عريقة في القدم وقد وسعها السلطان سليمان القانوني (941 هـ ـ 1534م). وفيها مرقد الحسين عليه السلام ثم خططت من جديد في ولاية مدحت باشا (1286هـ ـ 1869م) الذي استشهد في اليوم العاشر من المحرم عام 60 هـ. وإلى جانبه مرقد ابنه (علي) الذي قتل معه. وعلى مسافة قليلة من غربي الصحن الحسيني مرقد أخيه (العباس). وعلى بعد 7 كيلومترات من كربلاء غرباً يقع قبر (الحر بن يزيد الرياحي) وكان قد استشهد مع الحسين ودفن حيث قتل. وإلى الشرق من المدينة على بعد 12 كيلومتراً منها يقع مرقد (عون بن عبد الله بن جعفر) وأمه زينب بنت علي عليه السلام وكان عون قد قتل في هذا الموقع فدفن فيه ـ راجع الدليل الجغرافي العراقي ـ للدكتور أحمد سوسه (لواء كربلاء).

(2) إذا اتسعت الأرض واستوت ولم يتخللها شجر أو خمر. (المترجم).

المتَيهة[1] التي تربط المدينتين سريعة المحو، ولا سيما عند هبوب العجاج[2] لذلك، كثيراً ما يضلّ السالكون الطريق. إن طولها 40 ميلاً، وليس فيها من المعالم شيء، وقد تغور عجلات السيارة في كثيب...

وكان يوماً فاختي اللون من أيام شباط عندما سلكت هذا الطريق... وقنابر الصحراء، وهي ليست بذات عرف، دائبة الشدو والغناء. ولا تعدم الصحراء هذه، على الرغم من الملوحة الظاهرة عليها، شيئاً من النبت، وفيها زهرات لا عهد لي بها من قبل. وقطفت منها زهيرة خشاش أرجوانية اللون وعذقاً من زهيرات برية غريبة أخرى. إن أرضها مسطحة محصاة[3]، ومهما بلغ تسكابُ المطر عليها من شدة فهي باقية كبلقع مهجور. وما إن يقترب المسافر منها إلا وتتلاشى الخضرة التي تتراءى في الأفق (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء). وتنبت فيها الأعشاب متباعدة، لذلك تظهر الأرض وكأنها جرداء رمادية.

ومررنا في طريقنا بـ (خان المصلّى)[4] وهو على بعد 12 ميلاً من (النجف). وتوجد من مثل هذا الخان ثلاثة، إنها على الطريق بين كربلاء والنجف، وهي محصنة جميعاً. وفي مقدور الزوّار أن يجدوا فيها المأكل والمشرب والمأوى. ووقفت بنا السيارة عند (خان حماد) وهو في منتصف الطريق تماماً. إنها قرية ذات أسوار عالية، وفيها بيوت، ودكاكين، واسطبلات وأجنحة خاصة بالزوّار. وهؤلاء يخشون أبناء العشائر كثيراً، ولعل هذه الملاجىء المحصنة خير دريئة تقيهم أخطار مكان منعزل كهذا الطريق. وقادنا المدعو (منديل) مختار (خان المصلّى) إلى بيته، وقد فرشت على أرضه الحصر

---

(1) الطريق التي تضل سالكها. (المترجم).

(2) الغبار الذي تثيره الريح. (المترجم).

(3) كثيرة الحصى. (المترجم).

(4) في سنة 1258هـ سار إلى النجف وإلى بغداد آنئذٍ (نجيب باشا) وبعد أن أوقع بأهل كربلاء بلغه تمرد أهل النجف أيضاً فسار إليهم فلما كان على فراسخ منها حط رحله وصلى، وفي هذا الموضع بني خان وعرف بـ (خان المصلى) حتى اليوم، وتمت بعد ذلك المصالحة بينه وبين أهل النجف. (المترجم).

وتناثرت عليها الوسائد. وقدّم لنا المخيض (شنينة) في آنية كبيرة، كما قدمت لنا الأرغفة المسطحة، والدجاج المشوي والبرتقال وعجّة البيض Omellete. وفي سرع سريع انطلقت السيارة بنا نحو كربلاء، ولم نزر في طريقنا إليها (خان النخيلة). وتلتقي الصحراء بالمدينة على حين غرّة، وعلى مسافة تقرب من ميل، خارج كربلاء نفسها، ومن بعيد تتراءى قباب كربلاء ومنائرها بين النخل. إن شذى زهور الباقلاء هو أول ما تستروحه في مسرى نسماتها الحلوة العليلة... وأنت مقبل على المدينة. ويتكاثف الشجر، ويطالعك بعده منظر ساحر فتّان. هذا نَوْر كثير من أنوار اللوز والتفاح، إنه يتلألأ بين النخيل، وتتدلى أغصان شجره القائم على حفافي (الحسينية)(1) فوق صفحة مائها الصافي الرقراق. وهذا طريق آخر بين الجنائن ويفضي إلى المدينة نفسها.

وبعد (النجف) ـ وخططها جامدة على ما رأيت ـ تطالعك (كربلاء) فتنة للناظرين. فشوارع الجزء الحديث من المدينة مفتوحة مستقيمة، وكأنها هندمت بالقدّة والفادن والبركار... وإنك لترى الحمير تَمُر فيها وهي محملة خضراً. لقد خلفنا الصحراء المقفرة المالحة ظهرياً، فنحن الآن في أرض رسوبية خصبة. وبيوت القسم القديم من المدينة تحيط بمساجدها. إن شوارع هذا القسم ملتوية، ولا حظ لها من انتظام. ولكربلاء مقبرة في (وادي الأمان) وإليها تنقل أجداث الموتى من كل بلد ناء سحيق. إن كانت النجف هي الرأس المفكر عند الشيعة فالقلب كربلاء. إنها أشد قدسية من النجف، فمجرد ذكر اسم (الحسين) الذي تضم تربتها رفاته يثير في نفوس الشيعة أقوى أحاسيس

(1) الحسينية من الجداول التي تعتمد على سدة الهندية في الحصول على كمية المياه التي تصل إليها. وكان القصد الأساسي من حفر هذا الجدول هو إيصال مياه الشرب إلى كربلاء، ولقد كتب (لونكريك): «إن السلطان سليمان القانوني ـ الذي زار العراق سنة 1534 ـ وجد مدينة كربلاء المقدسة حائرة في حائرها بين العطش والطغيان، إذ كان الفرات الفائض في الربيع يغمر الوهاد التي حول البلدة بأجمعها من دون أن تسلم منه العتبات نفسها. وعند هبوط النهر كان عشرات الألوف من الزوار يعتمدون على الري من آبار قذرة سمجة... فوسع الترعة المعروفة بالحسينية وزاد في عمقها لكي تأتي بالماء بصورة مستمرة.. وصارت هذه الترعة تنساب في أرض كان الجميع يظنونها أعلى من النهر الأصلي فاستبشر الجميع للمعجزة». (المترجم).

الولاء له. وتبكي نسوة العراق اليوم الحسين كما بكت بابل (تموز)[1] في الماضي القديم. وسرد قصة ما عاناه (الشهيد) يثير فيهن الأسى فتقطع منهنَّ نياط القلوب. وعلى مقربة من موقع كربلاء اليوم حاصر هراطقة الخليفة[2] وجنده (الحسين بن علي)[3] ومنعوا عنه الماء، ثم أجهزوا عليه. إنها أفجع مآسي تاريخ الإسلام طراً. والقصَّاص في شهر محرم، يروونها وتمثل وقائعها كمأساة: فهناك رجال يرتدون ملابس خاصة ليمثلوا شخصياتها الرئيسة. إنهم يسيرون في موكب يطوف بالمدينة، وبينهم (الفرنجي) ـ وقد ألبسوه قبعة شمسية وملابس أوروبية ـ وتروي الأساطير أنه أسدى لـ (الحسين) معروفاً.

ولا يَمُرّ شهر محرم إلا ويموت فيه بعض أبناء الشيعة نتيجة ضرب «القامات» على الهامات، أو السلاسل على الظهور، إنهم يحتفلون بذكرى الفاجعة في جميع الأمكنة التي يحلّون فيها، وكربلاء دوماً في المقدمة منها. ذلك أن جثمان (الشهيد) مقبور فيها تحت قبة (الحضرة الكبيرة) ـ وهي أشد العتبات المقدسة حرمة وأكثرها ثروة. وإن شهر محرم هو الشهر المفضل في أداء الزيارات إليها. وفي (كربلاء) مسجد آخر تعلوه قبة مغشاة بالقاشاني ومنائر ذهبية ويضم رفات الإمام العباس، وهو أخ للحسين من أبيه. ولو أقسم الشيعي حانثاً بالحسين لما ناله عقاب، فالإمام وديع يصفح، لكن العباس عصبي المزاج وعسكري صارم، يؤمن بالضبط والربط، لذلك لن يجسر أحد

---

(1) دموز أو (الراعي) إله الخضرة، وقد ورد اسمه في الكتاب المقدس (تموز) و(أدونيس) في الأزمنة الكلاسيكية ـ راجع (الرافدان) لـ (سيتون لويد) ص17.

(2) تريد المؤلفة (يزيد بن معاوية) والرواة، وعلى الأخص الطبري، مجمعون على أن الحسين عليه السلام لو قدم على يزيد لوجده مبجلاً له عارفاً بقدره. ويقال إنه لما وصله خبر فاجعة كربلاء لعن (ابن سمية) وترحم على الحسين وكان قصره من البكاء عليه كأنه في مناحة. (المترجم).

(3) يقول المؤرخ الإنكليزي النابه (جيبون): «إن مأساة الحسين المروعة على الرغم من تقادم عهدها وتباين موطنها تثير العطف وتهز النفس من أضعف الناس إحساساً وأقساهم قلباً».
ولكن لسان حال شهيد كربلاء، كما قال البارودي:
ومن تكن العلياء همة نفسه ... فكل الذي يلقاه فيها محبب
(المترجم).

على أن يقسم به حانثاً. ألم ترَ في سقف مسجد الإمام العباس رأس رجل معلق به؟! قيل إنه أقسم باسم الإمام زوراً، فما كان من الرأس إلّا أن يطير عن الجسد ويلتصق بالسقف. فإن أقسم امرؤ بالعباس زوراً فلا معدى من أن يصيبه مثل هذا.

وكربلاء غنية بالأركان الملونة الجميلة، وجمالها ليس كجمال النجف، لكن الشارع العظيم المستقيم المؤدي إلى المسجد الكبير لا حظ له من الخلابة أو الجدة. وتنتهي أسواقها المتعرجة دوماً بأبواب تعلوها طوق مغشاة بالقاشاني. ومن هذه الأبواب يصار إلى مرقد (الحسين) البهيج، وغالبية سكان المدينة من الفرس ووجوههم سمراء شاحبة بيضوية الشكل، وأجسامهم متهدمة. إنهم لا يرمقون المار بنظرة الرضى، وهم لا يغرون أحداً على أن يشتري منهم شيئاً. ولا أظن أن في مقدور المسيحي أن يجد دكاناً واحداً في المدينة يبيعه حجراً نقشت عليه سورة من القرآن، مهما أجزل له في العطاء والثمن، بَله شراء نسخة من القرآن كله.

والدكاكين في أسواق كربلاء مغرية، وفيها كثير من العطارين. ولو سألتهم أن يسمحوا لك بشم إحدى قناني الروائح العطرية الصفراء، أو اختبار ما تريد شراءه منها لما وقفوا دون ذلك. وفيها باعة الأحجار الكريمة والمجوهرات يعرضون عليك الحلي الذهبية والصناديق التي تحفظ فيها التعاويذ، أو جزءاً من القرآن الكريم، والحجول، ذهبية وفضية، وما هو مخصص منها للأطفال ذو أجراس، كذلك الأقراط الفارسية وهي جميلة الصنع ومموَّهة. وفي مقدورك أن تشتري السبح من كل نوع أيضاً، ومنها ما صنع من خشب الزيتون، أو من الكهرمان أو غيره... ومنها ما هو مصنوع من الزجاج الرخيص أيضاً.

وتختص كربلاء بنوعين من الحرف: إعداد الأكفان للموتى، وإنك لتجد على هذه الأكفان سوراً من القرآن، وصنع (الترب) من طين المدينة وتزيينها بالزخرف. وفي مقدور الزائر، لذلك، أن يرجع إلى بلده، ومعه الكفن الذي يدخره ليوم موته، وتربة يسجد عليها كل يوم عند صلاته.

هذا والفواكه والخضر في كربلاء موفورة، ومنها التمور، على أنواعها، والبرتقال والليمون، والباذنجان، والخس، والباقلاء، وما إلى ذلك... وشاهدت فيها السلال مليئة باللوز والجوز. وفي دكاكين الحلواتية كثير من الحلوى الإيرانية، وفطائر وولائق[1] ذوات ألوان فاتحة، وفيها (اللقم التركي).

ويرتدي أهل المدينة الكفافي أو يعتمون بالعمائم. ولعل شوارعها اليوم هي نفس الشوارع التي شهدتها أيام الإسلام الأولى. وللتعصب فوائد، ولا سيما من الوجهة الجمالية.

وهناك صناعة أخرى تجعل السوق فتنة للناظرين ـ تلك هي صناعة السلال الملوَّنة، تحاك في المدينة، ويشتريها كثير من زوّارها.

وتعنى بزوَّار كربلاء، شأن باقي زوّار العتبات المقدسة، طائفة محترفة خاصة من الناس. ولدى كل فرد منها منهج مرسوم لزيارة المساجد، وإقامة الصلاة، وإرسال الدعاء، وهم يحصلون لقاء ذلك على شيء من الأجور والعطايا. وفي داخل المسجد لوحات دونت عليها أدعية خاصة يرددها الزائر التقي، كما أن فيه طائفة من الناس تعيش على نفحاته. وفي مقدمة ما يلتزم الزائر به الطواف حول المرقد.

ويكلف الدفن في الرواق، أو في المزار الداخلي (160 روبية) وفي الأبنية الخارجية 40 روبية.

ويقال إن مرقد الحسين على شيء كبير من النفاسة والجمال. وعلى الرغم من أن الهبات والعطايا التي تنثال عليه لا تضاهي ما ينثال منها على مرقد النجف، فهي كثيرة نسبياً. ونفائس المرقد مخبأة ويعنى بها قيِّمه (الكليدار).

وعدد المقاهي في كربلاء أكبر من عددها في النجف. إنها تكسب شوارع المدينة مسحة محببة. ولا تستنكر الشيعة، على غرار ما يفعله السنيون

---

(1) جمع (وليقة) وهو طعام يتخذ من دقيق ولبن وسمن. (المترجم).

والوهابيون (المتطهرون) رسم الصور البشرية، لذلك فإنك تجد جدران المقاهي مزدانة بالصور. ولقد لحظت منها سلسلة تمثل قصة (رستم وسوهراب) ووقائع حربية، ومناظر في «الحريم» وما إلى ذلك. كما أني رأيت صورة طير كبير له رأس امرأة، ولعله (سمرك) المذكور في الأساطير الفارسية. وهناك صور أخرى مستوحاة من الأساطير والتاريخ أيضاً.

وعلى مقربة من باب الحلة مقهى يختلف إليه كثير من «السادة». إنهم يجلسون فيه بعمائمهم الخضراء الزاهية ويحتسون القهوة... وفوق رؤوسهم بلبل يشدو في قفص... إنه منظر يمتع الناظرين. واستضافتنا في (كربلاء) امرأتان مسلمتان، إحداهن زوج تاجر، والأخرى أمه. أما الزوجة ففتاة جميلة في عفرة العمر، وهي تشد حول رأسها «عصَابة» سوداء تلامس حاجبيها، وتتدلى من رأسها جديلتان سوداوان مخضبتان بالحناء، وتقع كل جديلة على جنبة من جانبي وجهها. أما الأم فامرأة ذكية لطيفة تُعنى بتتبع سير الرجال وأخبار السياسة، وعلى الرغم من أنها لم تغادر وصيد الباب. والمرأتان ليستا متبرمتين بسجنهما البيتي... إنهن يرددن قائلات: «إنها تقاليد، ونحن بها راضيات وإليها مطمئنات».

وسلكنا لدى مغادرتنا كربلاء إلى الحلة[1] طريقاً وعراً، وكتب عليَّ أن أسلكه في زيارتي الأخرى. إنه جد مختلف عن الطريق الصحراوي بين النجف وكربلاء. ولا ينقطع النبت الأخضر القائم على جانبي طريق الحلة ـ كربلاء

---

(1) تقع الحلة على مسافة 104 كيلومترات من جنوبي بغداد، والطريق اليوم بينهما معبد. وينقسم عمران الحلة إلى قسمين: القديم وهو مبني بحجارة بابل القديمة وطرقه ملتوية وشوارعه ضيقة، والحديث وهو يشتمل على العمارات والأبنية العصرية. وفي نهاية البلدة في الجهة اليمنى من النهر ساحة كبيرة للألعاب والمتنزهات وهي مرتفعة، قلدت فيها (جنائن بابل المعلقة). ويرجع تأريخ تأسيس الحلة إلى أواخر القرن الخامس الهجري فاختطَّها (سيف الدولة صدقة)، أحد أمراء (الأسرة المزيدية) في سنة 495هـ وذلك عندما هجر مركز إمارته في بلدة (النيل) القديمة، فأقيمت في المحل الجديد (وهو المحل الذي يسمى اليوم «الجامعين») مدينة سميت (الحلة) لأن بني مزيد حلوا فيها فصارت حلتهم. وتسمى الحلة (الفيحاء) أيضاً. راجع الدليل الجغرافي في العراق للدكتور سوسه. (المترجم).

بتاتاً. وإنك لتشاهد بينه النخل باسقات وهي تطيف ببيوت القرويين، والماشية وهي ترعى، وقنوات الري بمائها الراكض. وإنك لتلحظ عليه الرعيان والزراع وبأيديهم «المساحي»، أو الزوّار وهم يركبون العربات أو يمتطون صهوات الخيل، أو يمشون على الأقدام. ويكثر على جانب منه الحمام البري والغراب.

وقد تمر بك بين الفينة والفينة طائفة من الزوَّار... وقد تعجب إن رأيت المرأة تمشي والرجل يزهو راكباً!

الفصل الرابع

الكاظمين(1)

... وإنك لترى فيها القباب المغشاة بالذهب المطروق، والمنائر المستقيمة النحيفة وكأنها زهور السوسن(2)، والأبواب المزينة بالقاشاني

---

(1) كان مشهد الكاظمين معدوداً في خطط بغداد القديمة من (مقابر قريش)، وكان يسمى مشهد موسى بن جعفر، ومشهد باب التبن نسبة إلى (باب التبن) الذي كان في شرقه مما يقرب من دجلة. وإلى الإمام الكاظم أبي إسماعيل موسى بن جعفر العلوي المتوفى (183هـ ـ 799م) نسبت البلدة التي فيها المشهد اليوم فقيل لها (الكاظمية) وهي في شمال غربي بغداد، وفيها مرقد حفيده الإمام أبي جعفر محمد بن علي الجواد المتوفى (219هـ ـ 834م)، ومنهم من يسميها (الجوادين) وهو الأقوم في لغة العرب لأنها تغلب اسم المفضول على الفاضل. وفي مقابر قريش دفنت أم جعفر أمة العزيز بنت جعفر أبي جعفر المنصور المشهورة بزبيدة، وهي أم الأمين. وحدث في سنة مائتين وستين وألف للهجرة إذ كان الفعلة يحفرون حفراً متصلاً بفناء الروضة الكاظمية أن ظهر قبر عليه صخرة مكتوب فيها اسم أبي يوسف القاضي فبنوا عليه بناء واشتهر أمره. راجع (مشهد الكاظمي للدكتور مصطفى جواد. وهو مخطوط في خزانة كتب مديرية الآثار ببغداد).
ومرقد أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي (القاضي)، صاحب كتاب (الخراج) اليوم ملاصق لسور المشهد الكاظمي من جهة الشرق. وكان أبو سيف من أصحاب الإمام أبي حنيفة. وقد تولى القضاء في بغداد سنة 166 فكان أول من دعى قاضي القضاة في الإسلام وتوفي سنة 182هـ (787) راجع (أطلس بغداد للدكتور سوسه). (المترجم).

(2) في الأصل Lifies واسمه العلمي (Lilium) والرازقي المعروف في العراق وغيره هو (White Lily) واسمه العلمي (Lilium Conditum) (راجع معجم أسماء النبات لأحمد عيسى بك صفحة 109). (المترجم).

البديع، وصحون الجامع الجميلة. ولكنك، من الجهة الأخرى، ترى الأسواق القذرة والبنيات[1] والمقاهي التي لاحظ لها من حسن المظهر أو رفعة الشأن. وتتلألأ القباب والمنائر وهي تلامس أشعة الشمس، فتراها من بعيد متعالية بين باسقات النخل. إن جمالها ليسحر أهل الدنيا جميعاً... ولو دخلت المدينة نفسها وجلت في طرقاتها الضيقة الملتوية، وجوانبها المتعرجة ووصلت باب المسجد الأكبر لما تسنى لك أكثر من أن تتشوف إلى داخله، ومن رواقه المكشوف، بالذات. ذلك أن نظرات الاستنكار تلاحق كل مستطلع غريب أن تلبث طويلاً، أو كان من ذلك الباب قريباً.

وتكثر البيوت والأسواق قرب المسجد. وفي البيوت هذه نوافذ ناتئة مثلثة الزوايا وهي مطلة على طرق المدينة الضيقة دوماً. ومثل هذا الطِرْز[2] في بناء النوافذ ذو فائدة للسيدة الشيعية، قعيدة الدار وحبيسته. إذ في مقدورها أن ترى من النافذة هذه كل ما يجري في الشارع وهي مختبئة وراء مشبكها. فلو سمعت غناء هرعت إليها مستطلعة، وقد تتشوف منها إلى جموع الزوّار وقد غلبهم الحماس ومنهم من يلبس المهلهل من الثياب، ومنهم من يحمل هراوة أو يمشي حافي القدمين والعرق يتصبب من وجهه الطافح سروراً ما دام من (المرقد الشريف) قريباً. وقد تهرع السيدة إلى النافذة عند سماعها ليلاً قرعات الطبول وأصوات المزامير لتشاهد عريساً يحف به أصدقاؤه والموكب في طريقه إلى المسجد لأداء الصلاة. هذا وزغاريد النسوة تملأ الفضاء بهجة وحبوراً، وأيديهن لا تفارق شفاههن أبداً. وفي مناظر الشارع الاعتيادية الأخرى تسلية، تذهب عنها سأم البطالة أيضاً. فهذا المار مثلاً روحاني شيعي يلبس عمامة بيضاء نظيفة، أو سوداء، ووجهه شاحب أمرد متأنث[3] وعليه أمارات التزمت والصرامة. وهؤلاء جماعة من السادة بعمائمهم الخضراء، وذلك بائع متجول

---

(1) البنيات Alleys ـ الطرق الصغار، وفي الحديث الشريف: (عليكم بالجادة ودعوا البنيات)، والجادة ـ وسط الطريق والعطفة خاصة Blind alley (وهي بنية لا تنفذ). (المترجم).

(2) الطرز على وزن شبر ويجمع على طروز وأطراز وهو الهيئة والطريقة والنسق. (المترجم).

(3) في الأصل Niminy-Pininy وهو النازع إلى الأنوثة. (المترجم).

على رأسه سلة مليئة بالبرتقال أو الخس، وقد جنى لساعته من الحقل. وذلك قارىء البخت يكدس الرمل في إحدى الزوايا ويستعد لإخبار كل مستطلع عن طالعه.

وفي المسجد الكبير[1] مرقد الإمامين السابع والتاسع. إنه كالجوهرة المكنونة، وللمسجد هذا 7 أبواب، أحبها إلى قلبي الباب الشرقي الذي يصح أن نسميه (باب الزهور). فالزهور التي ترسم بزلّاجه جد كبيرة. وتزدهي الباب باللونين الوردي والأزرق، وهو مطعم بالصدف Mother-of-Pearl في كثير من الجوانب. وقد تشاهد أيضاً قطع المرايا وقد جعلت جزءاً من بنائه. إن طابعه العام يبعث البهجة في النفس، كفعل الورد. وتشبه أحجار الأساس آنية الزهر أيضاً. وهناك 4 قطع من القرميد، طول كل واحدة منها قدم ونصف قدم، وقد وضعت على كل جنبة من جوانب الباب، ولعلها أشبه ما تكون ببطاقات الزهور وضعت في آنية.

وفي مقدور المرء أن يلحظ من خلال الطاق الوسيع منظر الجامع الجميل بمنائره وقبابه الذهبية وصحنه. إن القاشاني على اختلاف ألوانه يزين غرف الجامع كلها، وعلى جدرانها خشب محفور، وفسيفساء متلألئة ومرايا. وأمام «باب الزهور» نافورة مغشاة بالقاشاني ولا ماء فيها. إنها

---

(1) (. . . والعناية بقبر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام تحققت، واحترامه ازداد في عهد بني بويه مؤسسي الدولة الشيعية في وسط الدولة العباسية. . . ثم في أيام الشاه إسماعيل الصفوي ففي سنة (926هـ ـ 1519م) جدد عمارة المشهد الكاظمي على طرز العمارة الفارسية البديع ـ كما هو ثابت حتى يومنا. وجعل له صحوناً واسعة جداً وأروقة وحجراً لطلاب العلم والمجاورين، وجعله آية من آيات الفن البنائي الخالد الباهر. . . وفضّض الأبواب والقباب، وزين مناطق القبتين من داخل بالآيات من القرآن الكريم، والقرنصات البارعة، وزين الصندوقين بأحسن زينة، وأتحف الروضة بالتحف الصناعية، وشيد منارات شوامخ وكتب على الرواق المقابل للداخل إلى الحضرة من باب القبلة على الآجر الكاشاني كتابة تخلد عمله هذا. . . وفي سنة 1045هـ ـ 1635م أمر شاه العجم ولعله صفي الدين الثاني بتقوية قواعد المنارات الأربع وبناء أربع صغار وهي باقية حتى يومنا هذا (راجع مشهد الكاظمين للدكتور مصطفى جواد). (المترجم).

جميلة جداً، لكن ألوانها أكل الدهر عليها وشرب، وهي مسدسة الأضلاع ومزخرفة.

وفي مقدورك أن ترى منظراً جميلاً آخر من الباب الشمالي. إنه صحن المسجد وفيه المرقد[1]. والباب جميل أيضاً، وعلقت عليها سلسلة ثقيلة من نحاس، ولا أعلم سبباً لذلك. ويضاهي الباب الغربي الكبير الباب الشرقي روعة. إن جماله يطالعك على حين غرة لو نظرت إليه من جانب السوق القذرة. وفي مقدورك أن ترى المسجد بطابقيه من هذا الباب وأن تستمتع أيضاً برؤية القاشاني اللطيف والزخرف والنقوش والقبة الذهبية، وهي تتوهج على صفحة السماء الزرقاء.

وقد يتطوع أحد المارة فيقودك إلى سطح قريب تستطيع أن تشاهد منه منظر الجامع من حالق، وعليك أن تهتبل الفرصة في مناسبة خاصة كيوم عاشوراء لتشاهد صحنه وقد ازدحم بالزوَّار والأنصار وكل منهم يتابع «المأساة العاطفية» التي وصفتها في محل آخر من هذا الكتاب. إنه منظر حريّ بالرؤية شريطة أن لا يكون الرائي سريع الانفعال: هؤلاء رجال سعرت فيهم نار الحماسة والعصبية ودماؤهم تجري مدراراً، وأولئك رجال شبه عرايا وهم يلطمون على الصدور ببالغ التأثر، والجموع الغفيرة تتأسى بالبكاء والنشيج عن الحزن العميق. لقد وصفوا المشهد لي على ما رويت ورأيته مصغراً ببغداد. وسمحت سيدة من الشيعة لخادم الجيران المسيحية أن تشاهد المأساة وهي ممثلة وترقب طغيان الأسى على الجموع. وسرعان ما أخذت دموع الخادم، وهي لهيفة الصدر، تنسكب غزاراً. وما أن رأت ذلك السيدة المضيِّفة إلّا

---

(1) دخل ابن بطوطة بغداد فوصف مشهد الكاظمين قائلاً:
(وفي الجانب الغربي قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد علي بن موسى الرضا وإلى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة).
وأراد بالدكانة (الملبن) ـ على وزن المنبر ـ وهو كالصندوق من الخشب، واتخذ في العصور الأخيرة من الذهب والفضة، وشاع استعماله في مشاهد أهل البيت ﷺ وغيرها في العراق. وفي صحن الحضرة الكاظمية صحن يعرف حتى اليوم بصحن قريش إشارة إلى مقابر قريش. (المترجم).

وهتفت قائلة: (حمداً لله لقد اهتدت إلى الحق فأصبحت شيعية!) وغلبت العاطفة على سيدة أخرى من لُمَّة[1] النساء نفسها فمزقت ثيابها وانهالت على جسمها وكزاً ولدماً.

ويجود الزوَّار على مشهد الكاظمين، شأنه شأن مشاهد كربلاء والنجف، بكثير من الهبات والمنح. وتنذر النسوة نذورهن له، ثم يفدن على المشهد للوفاء بنذورهن هذه، وترمى النقود والجواهر داخل (الملبن) المحيط بقبر موسى الكاظم، والمعروف محلياً بـ (شباك الكاظم) وتجمع هذه الهبات من قبل سدنة المرقد ثم تُسلَّم إلى قيِّمه (الكليدار). ويعتبر القبر عندهم مقدساً للغاية وهم ينسبون إليه كثيراً من الخوارق وإبراء المرضى. ولقد أعلمتني سيدة شيعية: «كنت في يوم من الأيام في الروضة الكاظمية جاءت امرأة تتضاحك، ولا ترعى للحضرة حرمة. وسرعان ما طارت عباءتها، وسقطت على الأرض. ولم تستطع بعد ذلك أن تخرج من الروضة إلا مشياً على اليدين والقدمين. لقد رأيت ذلك بأم عيني!!».

وشبيه بهذا، فاللصوص يحملون على الاعتراف بسرقاتهم عندما يؤتى بهم إلى (الروضة) من قبل من يتهمونهم بذلك، وإلا فإنهم «يسمرون في الحائط فلا يستطيعون بعد ذلك حراكاً» إن إيمان الشيعة بحرمة العتبات المقدسة بالغ قصاراه.

وفي الكاظمية طائفة من الناس تعيش على الزوَّار، أو تحصل على ما يقوم أودها بسبب من تقواها وقدسيتها. وفيها كثير من «السادة» ومنهم صديق حميم لي، ولقد ضيفنا مرات عديدة. إنه أنيس هاش باش، وكريم، سواء في بيته أو في بستانه الأغن حيث يتكاثر النخل وشجر البرتقال. وإذا أقبل الربيع تعطرت أرجاؤها بشذى «القِدَّاح» وملأ جوها نوح الحمام وشدو البلبل الصدَّاح. وإن له وجهاً كريماً عليه سمة الاتزان، وإنه ليكلف بالأضاحيك والمفاكهة. وهذا السيد، ومشهد الكاظمين، بالنسبة إليَّ شيئان متلازمان. وهو جليس حلو العشرة وطابعه

(1) لمة: الجماعة من النساء، و(الحاصب) الجماعة من الرجال، و(الحزقة) الجماعة من الصبيان. (المترجم).

المميز أنه أَثْلَهْ[1]، له لحية مخضوبة بالسواد، ويرتدي جبة زرقاء زرقة البَرونق[2] وهو يعتم بعمامة خضراء، ولعينه بريق. ويقيم السيد لضيوفه مآدب تحفل بالأطعمة الشهية ويختار لها الأماكن الشجيرة الظليلة من بستانه العامر. وما أن تنتهي المآدب إلا ويأخذ بالتنادر مع ضيوفه أو يجمع لهم طاقات الزهر وهو يتبختر بين المماشي التي تظللها عساليج[3] الشجر الحانية.

وزرت بعض النسوة في مشهد الكاظمين أيضاً، كما سعدت بزيارة عروس لم يمض على زواجها أكثر من 10 شهور. إنها تشبه البدر جمالاً، وهي بدينة ولبقة، ولم يكن عمرها ليتجاوز الثامنة عشرة. لقد خضبت أطرافها بالحناء، وجلست على الأرض عارية القدمين، بينما جلست النسوة اللواتي هن أكبر منها سناً على (الديوان). لقد شوه جمال هذه الفتاة اللطيفة بما حليت به من سلاسل عسجدية ثقال، وحجول من ذهب، ولون ردائها الوردي. لكنها، في الحق، أكثر مضيفاتنا أدباً. وكانت تشغل السكائر وهي في فمها ثم تقدمها لنا. وكان سريرها موضوعاً في نفس الغرفة التي استقبلنا بها. إنه لسرير رائع وعليه ستائر وردية اللون وفضية. وعلى السرير غطاء من الساتان وقد طرز بالفضة. إن الفتاة هذه أشبه ما تكون بالأميرة التي يرد ذكرها في قصص الجان. ولدى العروس عدد من البسط الناعمة الحسان، والوسائد المغلفة بالحرير المطرز بشرائط مقصبة. وقد تكون الوسائد هذه خشنة الملمس، ولكنها مريحة عند النوم. وغطوا الآرائك بقماش من الساتان الوردي المفضض. وتزين الطنافس أرض الغرفة وجدرانها. وليس في وصفي هذا لخدر غانية كاظمية، على ما أعتقد، ما يجانب التبصر والحكمة.

والكاظمية تبعد أميالاً قلائل عن بغداد، وترتبط المدينتان بخط ترام تجره الخيول[4]. وقد مدَّت هذا الخط شركة أهلية وتحت إشراف مدحت باشا

---

(1) في الأصل Perennial Youth ومن (الكنايات) هو أثله بمعنى دائم الشباب (راجع «المعجم» لعبد الله العلايلي). (المترجم).

(2) في الأصل Perewinkle والبرونق من الحلازين البحرية. ولونه أزرق أدكن. (المترجم).

(3) العساليج مفردها العسلوج ما لان من قضبان الشجر. (المترجم).

(4) لا أثر لهذا الخط اليوم، وقد كان في زمن تأليف الكتاب ورفع بعد ذلك بأمد. (المترجم).

والي بغداد الشهير. وحالف النجح هذا المشروع منذ البداية، وبخلاف مشاريع الوالي الأخرى[1] وعربات هذا الترام واهية الوصلات Ramskackle وهم يحمّلونها أكثر مما تستطيع، في أيام محرم و«الزيارة» على وجه أخص.

وأجرة الراكب فيه، على ما أظن، قرابة الـ(4) آنات. ويمر طريقه بين البساتين الفيح القائمة على ضفة دجلة. والطريق يبدأ بالمقاهي وينتهي بها. ولا تنس أن كل شيء في الشرق يبدأ بـ(المُقْهى) وينتهي به... إن كانت للأشياء في البلدان الواقعة شرقي السويس بداية معينة ونهاية!.

(1) عيّن مدحت باشا والياً على بغداد في 20 نيسان 1869م وقد نقل من أوروبا ليصلح ويجدد. ومن مشاريعه التي لم يحالفها الحظ: وضع خطة حكيمة لتوزيع الأراضي على أبناء المدن والعشائر وتشجيعهم على الاستيطان فيها وإصلاح الأنهر، (ولم تنجح لأنها لم تستند إلى دراسة عميقة شاملة) واستخدام البواخر في النقل النهري (ولقد حقق هذا المشروع أقل مما كان يؤمل منه) واستخدام «الكراكات» في شط العرب (ولم تبدأ العلم أبداً) ولقد هدم سور بغداد وترك أنقاضه أكواماً مكدسة في غير نسق. ومن مشاريعه الناجحة: تأسيس المعامل العسكرية، وإصدار جريدة ببغداد، وبناء مستشفى ودار للعجزة وميتم ومدارس عديدة ومد خط الترام بين بغداد والكاظمية، وفرض الخدمة العسكرية، وتأسيس البلديات والمجالس الإدارية وتمصير الرمادي والناصرية.
(راجع Longrigg: Four Centuries of Modern Iraq (Midhat Pasha) (المترجم).

الفصل الخامس

سامراء[1]

... وفي يوم من أيام أيار تركنا بغداد بقطار الليل، وقد ازدحم فيه الأعراب والهنود. وكان ضجيجهم يرتفع عند كل محطة، وكأن ثورة نشبت فيه. وبلغنا (سامراء) قبيل الفجر، وكان الجو بارداً. وسرعان ما استطعنا أن نتبين مخطط المدينة المسوَّرة، وإن كنا على مبعدة 3 أميال منها: وهذه قبتها الذهبية تلامس أشعة الشمس البازغة!

وتناولنا فطور الصباح في الساعة السادسة ثم اتخذنا سبيلنا إلى حيث تنتظرنا سيارة من طراز (فورد) أكل الدهر عليها وشرب، فبها نروم قطع أرض موات يباب تقوم بيننا وبين النهر، ودجلة يجري بين المدينة ومحطتها. وحيثما أرسلت البصر رأيت قطعاً زرعت بحب الحصيد... ومنها ما هو في إبان حصاده، ومنها ما تم حصده وكدس على الأرض. وسرنا على الطريق الصحراوي[2] لمسافة قصيرة ثم انتهينا إلى مجمع من بيوت الطين، وبقربها تقف العربات وجماعة من الأعراب والأطفال، وهم... شبه عرايا، يحوم

---

(1) تعتبر أطلال سامراء مهمة جداً من الوجهة الأثرية ـ لأنها ـ بالرغم من اتساعها الهائل ـ تعود إلى دور معين محدود لم يسبقه دور بناء أقدم منه كما لم يتبعه دور بناء أحدث منه لأن المدينة هجرت بغتة واندرست بسرعة هائلة فلم تعش إلا مدة قصيرة تقل عن نصف قرن. وعليه فإن كل ما فيها من آثار يعود إلى دور محدود ومعين وهو دور ينحصر في نحو نصف قرن (خلال القرن الثالث للهجرة والتاسع للميلاد) ومثل هذا نادر في تاريخ الآثار... (راجع النشاط الآثاري في العراق ـ مديرية الآثار العامة 1959). (المترجم).

(2) الطريق يذكر ويؤنث والسبيل مؤنثة تذكر على كلِّ حال. (المترجم).

حولهم الذباب، وهم يحومون حول الزوار والمسافرين. وأعلمنا (سيّد) يلبس عمامة خضراء، سمة النسب الشريف أن «العبَّارة» ferry عاطلة عن العمل. فعلينا أن نعبر النهر بـ (القفَّة) المربوطة على مبعدة ميل شمالي النهر. لقد جعل فيضان دجلة عبوره بالقوارب محفوفاً بالمخاطر. إن (السيّد) الذي أشرت إليه أحد الأدلَّاء المحترفين، وفي كل مدينة مقدسة عدد كبير من أمثاله، إنهم يعتاشون على الزوَّار، ولعل كل فرد من أبناء المدن المقدسة يحذو حذوه بشكل من الأشكال. واستطرد السيد يقول: «إن قسماً من الطريق مغمور بالماء، وسيارتكم لن تستطيع الخوض فيه» لذا فلا معدى من استخدام إحدى العربات. ووسائط النقل هذه مهترئة، ليس فيها وسائد مريحة، وتجرها أربعة من الخيول. إن عجلاتها عالية، وهي تدور حول محاورها بعسر شديد، وكل عجلة منها توشك أن تخرج من المحور في أي حين. وسارت (العربة) بنا على طريق وعرة، ورشاش الماء يتطاير من تحتها ـ حتى وصلنا المكان الذي شدّت فيه (القفَّة) إلى ضفة النهر. والقفّة هذه تشبه سلة كبيرة، ولا ينفذ الماء إليها بسبب القير الذي كسيت به من الخارج. ومنها ما هو كبير الحجم، والقفة التي عبرنا بها النهر تتسع لـ 30 شخصاً بيسر وإسماح. وما أن دخلناها إلا ولفَّ صاحبها حبلاً حول جسمه وخاض النهر مصعداً ساحباً قفته. وكان يسير بجانب (القفة) صبيان صغيران، والثلاثة يجنبونها كل مكان فيه ماء ضحضاح ليس بذي غور. إن الأعشاب نابتة بكثرة على سيف النهر، ويسير على أهل المنطقة أن يستبدلوا العشب الصحراوي بالحبوب في مثل منطقتهم الخصبة الرسوبية.

وبعد أن خاض صاحب (القفة) في النهر لمدة عشرين دقيقة وملابسه مثبتة الأطراف عند خصره اتجه بها صوب النهر، فلم يكن الماء الذي سارت فيه حتى الآن إلَّا من مياه الفيضان. وما أن وصل بها مجرى النهر الأصلي إلا ووثب إلى داخلها ومعه مساعداه، وأخذ يجذب باتجاه سامراء القائمة على الضفة الأخرى من النهر، وإلى الجنوب منّا تماماً. وكان التيار قوياً وسريعاً فوصلنا مرسى المدينة بدقائق معدودات. إنه في آخر المدينة، ثم ارتقينا تلاً ينتهي بها. وسامراء هي النجف مصغرة على ما تبدو من الخارج، أما من

حيث الداخل فالمدينتان تختلفان تماماً. وتتراءى (سامراء) من الخارج وكأنها حصن منيع من حصون القرون الوسطى. وهي تشبه النجف في وجود قبتها الذهبية وفي المنائر التي تعلو أسوارها الآجرية، وبما يأمله كل امرىء من وجود جمال خفي في داخلها. وإن دخلت المدينة الكبرى (النجف) لوجدتها مليئة بأهلها الحضر، وعسير على المرء أن يتخيل أن صحراء الله الواسعة تنتهي عند أسوارها تماماً. إن فيها شوارع ضيقة محجوبة عن الشمس، ويسكنها أناس ذوو وجوه شاحبة متزمتون. أما سامراء فلها طابع يختلف عن النجف: إنها مدينة مفتوحة صحراوية، نظيفة تفوح من أرجائها روائح طيبة. وقد تجد فيها بعض المتزمتين، وعلى غرار ما تجده في العتبات المقدسة الأخرى، لكن مثل هؤلاء لن يثوروا ما لم يتلبد الجو كله بالكره والحقد.

وكان في استقبالنا أناس كرام ذوو مظهر جليل. وسمح لنا بالتشوّف إلى الجامع من فوق سقف بيت مجاور، وفسح المجال لي فصوّرت بابه الكبرى، وفناءه ومنائره وحرمه. إنه على غرار العتبات المقدسة الأخرى، جميل المنظر، تعلوه قبة غشيت بزلاج مذهب لمَّاع وهي متلألئة دوماً في أشعة الشمس. ومنائر الجامع أشبه ما تكون بالزهر، فهي مغطاة بزُلاج[1] ملوَّن بالألوان الزاهية. وما في داخله أنفس مما في خارجه. وتحت المنارة الذهبية سرداب قيل إن الإمام الثاني عشر (محمد المهدي) اختفى[2] فيه، وهو في الثانية عشرة من عمره، ومن السرداب هذا سيظهر من ينصر الإسلام نصراً مؤزراً بأخرة[3]. إن الإمام العاشر والإمام الحادي عشر (أي علي الهادي وابنه الحسن العسكري) مدفونان في سامراء أيضاً.

---

(1) الزلاج كلمة عربية، كانت تستعمل في الأندلس وما زالت مستعملة في المغرب للدلالة على القيشاني أو (الكاشي). (المترجم).

(2) تذهب الأسطورة المحلية إلى أن الجنود الذين كانوا في أثره رموا السرداب الذي اختفى فيه الصبي بمقذوفات نارية ثم غمروه بالماء. ولما لم يجدوا له أثراً أذاعت الشيعة أنه اختفى في داخل الأرض. (المترجم).

(3) إن سرداب الغيبة من سراديب سامراء العميقة المحفورة في الطبقة الصخرية الموجودة تحت الطبقة الترابية فيها. إن الطبقة الصخرية هذه تعرف عند علماء الأرضيات باسم Conglomerate وهي مكونة من حصاة مختلفة الأبعاد، وملتحمة بمادة لاصقة. إنه =

وزرنا أولاً بناية المحاكم، فاستقبلنا فيها كل من الحاكم المدني والقاضي الشرعي، وكل منهما يعتّم بعمامة بيضاء. وشكا لنا الرجلان من صعوبة الحصول على الخضر، فأهل المنطقة يأنفون من زرع أي شيء فيما عدا الحنطة والشعير.

وتقع سامراء قرب النهر، وبمبلغ زهيد يجود به كل زائر يمكن جمع مال يكفي لشراء مضخة مياه[1]. إنهم يشترون الماء من السقائين الذين يأتون به من النهر ويبيعونه على أساس أن (الجود) بآنة، ويكوّن هذا مبلغاً جسيماً في مصروفات البيت، ما في ذلك شك.

واستحالت اليوم مدينة سامراء التاريخية العظمى إلى إحدى العتبات المقدَّسة، ليس غير. لقد تضاءل شأنها فأصبحت بليدة، وعلى الرغم من ذلك التاريخ المديد. وعندما صمم المعتصم على نقل العاصمة من بغداد اختار لها موقعاً يقع خارج سامراء الحالية، وكانت فيه آثار معبد قديم[2]. وبنى الخليفة

= يتألف من 3 أقسام أساسية: غرفة مسدسة الأضلاع، وغرفة مستطيلة صغيرة، وغرفة مستطيلة كبيرة. وكل قسم يأخذ النور والهواء من نافذة صغيرة وطويلة تبدأ من أعلى الجدار وتمتد حتى القسم الأسفل من جدار الجامع الخارجي. والدرج الذي ينزل بواسطته إلى السرداب ويخرج منه متصل مع الغرفة المسدسة ويتألف من عشرين قدمة. وباب الغيبة يقع في منتهى الغرفة المستطيلة الكبيرة، وأمامها حاجز مشبك. وبئر الغيبة يقع في زاوية الحجرة الصغيرة التي تقع خلف هذا الباب، (راجع باب الغيبة في سامراء ـ مديرية الآثار القديمة في العراق). (المترجم).

(1) لقد بنيت على ضفة النهر بناية تحتوي على مضخات الماء ومكائن الكهرباء، كما بنيت دائرة الحكومة والبلدية والمستشفى ومذبحة ومسلخ وما إلى ذلك وقام بناء كل هذه البنايات على أساس هدم أسوار المدينة التاريخية الأربعة وأبوابها وهي: باب القاطول في الغرب، وباب الناصرية في الشمال، وباب بغداد في الشرق، وباب الملطوش في الجنوب. ولقد احتفظ بـ (باب بغداد) وحوّل إلى متحفة محلية تعرض فيها نماذج من الآثار المستخرجة من الحفريات التي تقوم بها مديرية الآثار العامة في أطلال سامراء. (المترجم).

(2) إن أطلال سامراء الحالية مبنية على أطلال مدينة (سر من رأى) القديمة. ولقد وصف القزويني في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد ص258) المدينة القديمة فقال: (إنها أعظم بلاد الله بناء وأهلاً... ولم يكن في الأرض أحسن ولا أجمل ولا أوسع ملكاً منها) =

المعتصم مسجد الجمعة، واختار لمنارته طرازاً يشبه طراز المعابد الكلدانية المسماة بالزقورات[1] والمنارة هذه عبارة عن برج يحيط به من الخارج ممشى حلزوني ينتهي عند قمتها[2]. إنها على غرار (المكان العالي) الكلداني، ذي الممشى الحلزوني الوسيع والذي كانت الماشية تصعده فتذبح على قمته قرباناً للآلهة. ولم يقصد المعتصم من بناء مثل هذا البرج إلى مثل ذلك القصد الوثني، بطبيعة الحال. وكان صوت المؤذن يدوي داعياً إلى الصلاة من قمة الملوية[3] فيتردد في أرجاء المدينة كلها. وبرج الملوية اليوم متهدم، ولكن بناءه ما زال صلباً متماسكاً. إنه في خارج أخربة جامع المعتصم، وعلى بعد حوالي نصف ميل من سور المدينة الحالية. وإذا ما تسلق المرء درجات سلمها الحلزوني لشاهد منظراً رائعاً لسامراء القديمة والجديدة في آن واحد. إن أخربة

ولقد أسسها المعتصم سنة 221هـ الموافقة لسنة 836م ووسعها من بعده ابنه الواثق (227هـ ـ 841م ـ 232هـ، 846م) وأوصلها إلى أوج عظمتها وأقصى اتساعها المتوكل) 232هـ 846م ـ 247هـ 861م. واختلت أسوارها اختلالاً كلياً بعد قتل المتوكل، وتتابع على كرسي الخلافة فيها ـ بعد المتوكل ـ المنتصر فالمستعين فالمعتز فالمهدي وفي الأخير تولى الخلافة المعتمد (256هـ 869م) وبعد أن أقام فيها بضع سنوات، وبنى فيها قصراً جديداً تركها نهائياً فأعاد مقر الخلافة إلى بغداد.

وفي (كتاب البلدان) لليعقوبي شرح مفصل لكيفية تأسيس هذه المدينة، وهو كتاب ألف بعد تأسيسها بـ 55 سنة فقط.

راجع: (سامراء ـ مديرية الآثار القديمة العراقية 1940). (المترجم).

(1) الزقورة: البرج المدرج السومري نشأت بشكل معبد على مصطبة واحدة ثم مصطبتين فثلاث، وشمخ بناؤها وضخم حتى صارت كالزقورة التي نشاهدها اليوم في (أور) وجرى هذا التطور في بنائها خلال ألف عام وأكثر. (المترجم).

(2) مئذنة مخروطية الشكل تمتد إلى قاعدة مربعة يصعد إلى قمتها من سطح مائل عريض يدور حولها ـ من خارجها ـ دوران الحلزون. طول ضلع القاعدة 22 متراً، وقطر القمة 6 أمتار ومجموع ارتفاع المئذنة عن سطح الأرض 52 متراً. وتقع المئذنة خارج الجامع على بعد 25 متراً من ضلعه الشمالي.

راجع: (سامراء ـ مديرية الآثار القديمة العراقية 1940) (المترجم).

(3) تراهن ضابط تركي شاب على الصعود بجواده إلى قمة الملوية فأصاب قلبه الوجل في منتصف الطريق. والتاريخ لا يخبرنا كيف استطاع أن يقفل راجعاً بجواده من هناك. (المؤلفة).

الجامع تقع تحت ناظريه مباشرة وتكتنفها الصحراء من كل الجهات. ولم تبق من عمارة ذلك الجامع إلا الجدران، وتعرضت الجدران، إبان الحرب، لتخريبات أخرى حيث أحدثت فيها ثقوباً لغايات عسكرية. وتقع مدينة سامراء الحالية خلف الجامع وهي محاطة بأسوار، وقبتها متوهجة بأشعة الشمس دوماً.

وفي الجهة اليمنى من الطريق الشمالي المؤدي إلى تكْرِيت تقع أطلال سامراء القديمة أو (اسكى بغداد) ـ سرَّ من رأى العباسية والتي شهدت حكم 7 خلفاء، ممن حكموا البلاد بعز، ورفعة. ولكن مجد هؤلاء لم يكن كمجد آبائهم الأولين، ذلك أنهم أصبحوا حبساء سادتهم الأتراك الذين لم يتركوا لهم إلّا مظهر القوة، والسلطة الروحية، ليس غير.

وكان هناك حرس تركي يرقب مكائد العرب للتخلص من قيود هؤلاء السادة الحقيقيين في العراق. ولعلَّ المعتصم كان يُذْهب نفسَه حسرات، وهو يطيل النظر إلى مدينته الجميلة، ذات الخطط الحسنة المنسقة ويتذكر عهد المنصور ومدينة بغداد عندما بنيت في أوج عهد الخليفة قوة ومجداً.

ومن الأفضل أن يرقى المرء إلى مكان مشرف عال إن أراد الوقوف على مقدار أحكام المعتصم لخطط المدينة. وفي مقدور المرء أن يرى من حالق الطائرة معالم الطرق وآثار المباني العامة والقصور بجلاء ووضوح، بل وكأنه يشهد خريطة المدينة الأصلية وقد نشرت أمامه. وفي مقدور المرء أن يشاهد من حالق أيضاً مخطط المدينة تجلوه الأساس المندثرة، وأن يشهد المدينة الوسيعة كلها بضواحيها، وقد امتدت لمسافة 25 ميلاً.

وصفت مس بيل[1] أخربة المدينة وصفاً مسهباً مفصلاً، وألمعت إلى قطع الزخرف الجميلة الباقية على مبانيها القائمة اليوم. ونشر بروفسور هرتسفيلد الآثاري الألماني وصفاً لتنقيباته الثمينة في منطقة المدينة.

ومن فوق الملوية لا يرى الرائي اليوم إلا آثار أبنية غير واضحة

---

(1) راجع: «Miss Gertrude Bell: «Amurath to Amurath.

المعالم[1]. وهنا أخربة بيت الخليفة، أو قصر المنصور، وطاقة الرخامي ما زال قائماً. وعلى مبعدة آثار لما يسميه الأعراب المحليون (بيت العاشق) وسألت عنه فلم أعدم من يقص علي قصة شائقة محلية لطيفة: ذلك أن الحظ السعيد كتب لأحد الشبان فرأى وجه بنت السلطان إبان تطوافها في حديقة أبيها على دجلة. وكانت الفتاة مرتدية ثوباً وردي اللون، أو بلون اللهب، رقيق النسيج للغاية ولا يخفى تقاطيع جسمها الرشيق. وهكذا شغف قلب الفتى حباً بالفتاة فتقدم إلى أبيها خاطباً. ورفض الخليفة ذلك فأصبح الفتى عاشقاً مولهاً دنفاً. ودأب الشاب على السباحة في النهر ليلاً علَّه يشهد وجه فتاته وهي تطوف بالحديقة، ومن يدري؟ لعله يستطيع أن يختلس نظرة منها. ولكن الخليفة الأب قبل، على ما يقولون، تزويج بنته من ذلك الشاب، ولم يقل أحد كيف تم ذلك. وبنى العريس لعروسه قصراً سمي بـ (بيت العاشق) أو (قصر العاشق)[2]. وتمضي الأسطورة فتروي أن الجسر، وما زالت آثاره باقية على مجرى النهر المندرس، بني للسيدة المذكورة أيضاً، ولكي تستطيع أن

---

(1) منها الجامع إذ لم يبق منه اليوم شيء قائم غير جدرانه الخارجية التي تحيط بساحة طولها 240م وعرضها 160 متراً. إن ثخن الجدران لا يقل عن مترين وارتفاعها يناهز 10 أمتار وهي مدعومة من خارجها بأبراج نصف أسطوانية يبلغ عددها 40 برجاً. وكان في وسط الجامع صحن مكشوف تتوسطه نافورة كبيرة مدورة. وكان يشبه بوجه عام الجوامع التي شيدت في العصور الأولى للهجرة، في الكوفة وواسط والقاهرة والقيروان. والفرق بين جامع سامراء وتلك الجوامع أنه يمتاز عن جميعها بفسحته وفخامته أولاً، وبمئذنته ثانياً. وتاريخ بناء هذا الجامع الكبير يعود إلى عهد الخليفة المتوكل، فاليعقوبي يصرح بأن الجامع الذي بناه المعتصم ضاق بالناس في عهد المتوكل فهدمه الخليفة المشار إليه وبنى عوضاً عنه مسجداً جامعاً كبيراً. ويذكر ياقوت في معجمه بأن كلفة البناء بلغت 15 ألف درهم.

راجع: (سامراء) ـ مديرية الآثار القديمة العراقية (1940). (المترجم).

(2) قصر العاشق: قصر مرتفع مبني على ضفة نهر الإسحاقي في الجانب الغربي من نهر دجلة، وهو القصر المذكور في التواريخ باسم المعشوق بناه المعتمد في أواخر أيام حكمه في سامراء قبل أن يتركها نهائياً ويعيد مقر الخلافة إلى بغداد. وطول بناية القصر 131 وعرضها 96 متراً.

راجع: (سامراء) ـ مديرية الآثار القديمة العراقية. (المترجم).

تعبره فتزور أباها الخليفة في قصره. إن التاريخ وهذه السطور على طرفي نقيض، ذلك أن باني قصر المعشوق هو (المعتمد بن المتوكل) آخر خليفة عاش في سامراء. ولم يقض المعتمد آخر أيامه في (العاشق) هذا، إذ إنه نقل البلاط قبيل وفاته (سنة 820) إلى بغداد، وبذلك زال مجد سامراء وتهاوت إثر ذلك القصور والبيوت الواحدة تلو الأخرى وأصبحت الشوارع والمحلات الأخرى أخربة، وأثراً بعد عين. وأضيفت مدينة دارسة إلى أخواتها الدوارس في العراق. إنه شأن البلد وأهله جميعاً.

ومن معالم المنطقة التي يمكن رؤيتها من فوق «البرج العتيق» تل يسمى محلياً بـ (قبر يوليان). ويؤسفني أنني لم أستمع إلى شرح آثاري مختص عنه. وهناك كثير من الأساطير الدائرة حوله، ومنها ما يروى أن فرسان (يوليان) بنوا هذا التل فوق جدث قائدهم الحبيب، إذ حمل كل واحد منهم غرارة[1] مليئة بتراب الأرض ورماها فوقه. ورواية أخرى تقول إن (يوليان) كان أحد الشياطين فأجمع فرسانه أمرهم على أن يقبروه لذلك رموا عليه أكوام التراب هذه. ورواية ثالثة لا تذكر (يوليان) بالمرة، لكنها تتحدث عن (الباشا الشرير) الذي جمع الحبوب فكدسها في كومة عالية، وكساها بالطين حفظاً لها، وعلى غرار ما يفعله الأعراب اليوم، وباء هذا الجشع بغضب من الله فاستحالت حبوبه إلى تراب. وعندما رفع (الباشا) الطين عن خزينته رأى بذلك وأسقط في يديه جزاء ما جمعه من مال حرام. غريب أن يقرن اليوم اسم (يوليان) بسامراء، إنها تهلكة له. لقد مات هذا القائد في مكان قريب منها وحمل أفراد جيشه جثمان قائدهم الشاب وعبروا به دجلة على ظهر أحد (الأكلاك) العائمة فوق جلود منفوخة، وعندما حاول بعضهم السباحة مستعينين بهذه الجلود (على ما يكلف به اليوم أهل العراق) فشلوا، وكانوا من المغرقين.

وسامراء ـ بعد ـ مدينة فاشلة من وجهات عدة. إن حرمة آل البيت هي التي أبقت للمدينة الحالية أهمية وذكراً. ولا يزيد عمر أسوارها على 100 سنة، وقد بنتها، على ما قيل لي، سيدة فارسية زارت المدينة المقدسة ففكرت

---

(1) الغرارة: الكيس.

في أن تحميها بالأسوار من الغزاة الطامعين. والمدينة، موفورة الصحة يرجع الفضل في ذلك إلى سلطاتها المسؤولة. وهواء الصحراء يتخلل شوارعها دوماً. وزرت في يوم من الأيام (مركز شرطة الخيالة) فأذهلني نشاط رجاله وحيويتهم ونظافة اصطبلات خيولهم، وهم على ما يبدو يعنون بتربيتها عناية فائقة. ودعانا الضابط المسؤول في (المركز)، وهو شاب عراقي وسيم نشيط لتناول الشاي فاحتسيناه بـ(الاستكانات) التقليدية. لم ينس (اللقلق) أن يبني عشه فوق دار الضابط، وعلى بيوت سامراء الأخرى، لكنه اختار لذلك نافذة التهوية العليا المتصلة بسردابه. والسرداب مأوى الناس عند اشتداد الحر. وسراديب سامراء، كسراديب النجف عميقة جداً، وهي تأتلف من طبقات أرضية عدة.

ولم يبق، بطبيعة الحال، أي أثر للحدائق والبساتين[1] التي اشتهرت بها سامراء والتي كان يتبختر بها خلفاؤها زهواً. لقد محيت من الوجود منذ ألف سنة[2]. ولعل من أقوى الدلائل على خصوبة أرضها أن

---

(1) جاء في كتاب البلدان لليعقوبي عن بساتين سامراء وجنانها:
«... وحمل النخل من بغداد والبصرة... وحملت الغروس من الجزيرة والشمال والجبل والري وخراسان وسائر البلدان... وصلح النخل ونبتت الأشجار وزكت الثمار وحسنت الفواكه والرياحين والبقول والرطاب وكانت الأرض مستريحة ألوف سنين حتى بلغت غلة الأجنة والبساتين وخراج الزرع 400 ألف دينار في السنة».

(2) وبعد أن كان الناس يسمونها «سر من رأى» أضحوا يسمونها «ساء من رأى» وبعد أن كان الشعراء يتسابقون في مدح قصورها أخذوا يسترسلون في رثاء أطلالها. وفي الواقع ماتت سامراء ميتة فجائية بعد عمر قصير لم يبلغ نصف قرن وأمست رموساً وأطلالاً لا يقل امتدادها عن الـ 35 من الكيلومترات. ومن الغريب أن آثار دورها المبنية من اللبن، المزخرفة بالجبس قاومت حدثان الدهر أكثر من قصورها المبنية بالآجر المزخرفة بالرخام... والسبب في ذلك هو أن القصور تعرضت إلى تخريبات الناس الذين اعتبروها بمثابة مقالع غنية بالمواد الإنشائية الصالحة للاستعمال في حين أن الدور سلمت من تخريبات الناس ولم تتعرض إلى تخريبات أيد، غير أيدي الطبيعة والزمان... ويظهر أن أيدي الإنسان قادرة على التخريب ـ بوجه عام ـ أكثر من أيدي الزمان.
راجع (الرسالة العدد 344). (المترجم).

فيها اليوم قطعاً مزروعة في الصحراء وهي تسقى ديماً وتحرث بالفدان اليدوي. وما سوى هذه القطع المزروعة حنطة وشعيراً، فالأرض قفر يباب، أما العشب فيمتد فيها حتى مد البصر. وإذا ما مضى المرء مصعداً لمسافة قصيرة لرأى أن الأرض الرسوبية الخصبة في العراق تنتهي حيث تبدأ الهضاب وتلال العراق الشمالية.

الباب الثالث

مدن العراق الكبرى

الفصل الأول

عاصمة العراق[1]... وأهلها...

أسس الخليفة المنصور مدينته المدورة على الضفة الغربية من (دجلة)

---

(1) بغداد «مدينة السلام» ـ هو الاسم الأصلي، وقد ذكر (ياقوت الحموي) في معجم البلدان أنها سميت (دار السلام) أيضاً تشبيهاً بالجنة لأنها دار السلام عاصمة العراق وفي المعلمة البريطانية Encyclopaedia Britannica في مادة (بغداد) ما يلي، (وفيه خطأ ظاهر فإن بغداد عرفت عند مؤرخي العرب في العصر الأموي وقبل انتقال العباسيين كما في تاريخ الطبري وغيره: تعليق: الدكتور مصطفى جواد).
«بين حدود المدينة نفسها وعلى عدوة دجلة الغربية بقايا متراس لاحظها سر هنري روبنصون لأول مرة سنة 1840، عند هبوط النهر، وكانت مشيدة بالآجر وملاطها من القار، وفيها كتابة من عهد (نبو كوراصر)، ملك بابل. وكانت بغداد مدينة بابلية قديمة يرتقي تاريخها إلى 2000 سنة ق.م. على ما يحتمل. وجاء اسمها في القوائم المكتشفة في خزانة آشور بنيبال، وورد أيضاً ذكرها في صخرة ميشو التي وجدت على دجلة قرب موضع المدينة الحالية، ويرجع تاريخها إلى عهد (تغلات فلاستر الأول) 1100 ق.م. لقد أوضح متراس نبو كوراصر المذكور أمراً وهو أن مدينة بغداد القديمة كان موضعها في موقع بغداد الغربية، أي بغداد العتيقة. إن مآخذ (التلمود) اليهودي تبين أن المدينة كانت باقية في بدء التاريخ الميلادي وبعده. أما إذا اعتمدنا على كلام مؤرخي العرب فالظاهر منه أنه لم يبق في ذلك الموضع إلا دير قديم حينما أسس الخليفة المنصور المدينة الغربية، على أن الإنسان قد يشك في صحة هذه الرواية الخرافية إذ إن من الواضح أن اسم الموضع كان ثابتاً فورثته المدينة الجديدة» اهـ. أما ما ورد عنها في المؤلفات الأخرى فمجمله أن محلاً أو سوقاً أو قرية وجدت قبل الإسلام بهذا الاسم في موضع يكاد يكون موضع بغداد نفسه أو في جواره، وقد ألمع إلى ذلك الكتّاب العرب وقيل إن سوقها كانت عظيمة تقام كل شهر مرة. ورأى المحققون هرتسفيلد، وبدج، ودليج أن =

على غرار حصن، وأقام في وسطها القصر العباسي[1]. وتتابع على المدينة الحكام منذ ذلك الحين وتغيرت معالمها وجاوزت، قبيل وفاة مؤسسها، ما رسم لها من حدود ابتداء، فاتسعت وشملت ضفتي النهر وضاحيتي الأعظمية، والكاظمية (كذا)، وأصبحت بقصورها، ومساجدها، ومبانيها العامة تضاهي أية عاصمة في الدنيا، في المشرق أو المغرب. وعانت المدينة كثيراً من التغيير، والتخريب وانطمست بعض معالمها الأصلية، ولكنها لم تدمر كلياً إلا على يد (هولاكو التتري) عند استيلائه على المدينة في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي[2]. لقد أحرقت قصورها، ونهبت مبانيها العامة ودمرت خزائن الكتب فيها ورميت مخطوطاتها النفيسة في عباب دجلة. وفي الحق أن الضربة القاصمة لم تنزل بالمدينة إلا عندما خربت سدود البلاد وقنواتها المشيدة منذ آلاف السنين (كذا) وبذلك استحالت تلك الأراضي الخضراء المنتجة، وحقولها وبساتينها، إلى صحراء يباب جرداء، ومستنقعات هي موطن حُييات (ميكروبات) البرداء.

ونهضت المدينة بعد تلك الضربة القاسية من كبوتها فكانت بغداد أخرى، وأقل شأناً من الأولى. وفي أواخر القرن الرابع عشر منيت بلاد الرافدين بضربة مغولية على يد (تيمورلنك)[3] واستحالت بغداد، كرة أخرى، إلى خرائب وأنقاض. وتتابعت الضربات عليها: أنزلها سنة 1524 الشاه إسماعيل الفارسي فالشاه عباس في مفتتح القرن السابع عشر. واستولى

= (بغداد) اسم فارسي، لكن الواقع أنها عرفت بهذا الاسم قبل الفرس بمئات السنين، ويرى آخرون أن اسم بغداد مكون من (بيت) الآرامية و(كدادا) بمعنى غنم أي (بيت الغنم). (المترجم).

(1) كان قصر باب الذهب يقوم في وسط المدينة المدورة وفيه القبة الخضراء وبجواره المسجد وحوله قصور أولاد المنصور فدواوين الحكومة وكانت للمدينة 4 أبواب: باب الكوفة فخراسان فالشام فالبصرة وكانت القبة الخضراء عالية ينظر الجالس فيها من يخرج منها ومن يدخل إليها. (المترجم).

(2) 656هـ (= 10 شباط 1258م) وبه ينتهي الحكم العباسي ويبدأ الحكم المغولي الأيلخاني. (المترجم).

(3) 796هـ (= 1393م). (المترجم).

السلطان مراد العثماني على المدينة إثر انتزاعها من يد الفرس سنة 1638، وصحبت الاستيلاء هذا حروب ودم مسفوك وهدم وتخريب. . .

وأعيد بناء بغداد من جديد. ولا تنس أن الجيوش الغازية لم تكن السبب الوحيد فيما أحاق بالمدينة من دمار وتخريب، فلقد كان للفيضانات شأن كبير لا يقل عن شأن الجيوش. لذا فليس بغريب أن يبقى، بعد ذلك كله، من المدينة الأصلية إلا القليل الأقل، وإنما الغريب أن يبقى منها شيء.

أشرت في فصل آخر من هذا الكتاب إلى المئذنة القديمة القائمة اليوم في سوق الغزل[1]. لقد بقيت هذه على شموخها وعلى الرغم من ضربات التدمير المتتابعة. كما أشرت إلى بعض المدارس والجوامع التي يرجع عهد بنائها إلى القرون الوسطى. ويصف لسترانج في كتابه (بغداد في عهد الخلافة العباسية) المدينة في أيامها الأولى وصفاً رائعاً، ويرجع في ذلك إلى جغرافي العرب القدامى والأسانيد المعاصرة. كما قام (ماسينيون) بدراسة عملية لمعالم بغداد الباقية حتى اليوم.

هدم مدحت باشا المشهور بـ(أبي الدستور العثماني) ووالي بغداد سنة 1860 جانباً من سوري المدينة القائمين في جنوبها وشرقها وهما يرجعان في تاريخهما إلى العصور الوسطى. إن مدحت باشا في عداد العظماء، ما في ذلك شك، ولكنه، مع ذلك، لم يجد بأساً في هدم السورين، وبيع حجارتهما سداً لعجز طارىء في خزينة الولاية. لكنه لم يمس أبواب السورين بسوء، وهكذا بقي (الباب الوسطاني)[2] و(باب الطلسم)[3] حتى أيام الحرب الأولى.

---

(1) لم تعلم مؤلفة الكتاب أن هذه المنارة أنشئت في عهد الملك أباقا بن هولاكو الطاغية سنة 678 وفي ولاية علاء الدين عطا ملك الجويني على بغداد ونواحيها كما جاء في كتاب «الحوادث» الذي نشر سهواً باسم «الحوادث الجامعة» وليس هو إياه ـ تعليق. . الدكتور مصطفى جواد.

(2) هو متحفة الأسلحة اليوم وبابه إحدى الأبواب الأربع التي أنشئت في سور بغداد ولم يبق منها غير هذه الباب. (المترجم).

(3) أنجز بناء هذه الباب سنة 618 هجرية (= 1221 ميلادية) في سور بغداد الشرقية وكانت تسمى (باب الحلبة) وخربها الفيضان سنة 1067هجرية (= 1656 ميلادية) ورمم بناؤها =

رمم الباب الوسطاني[1] عند دخول السلطان مراد منتصراً إلى بغداد. وكانت هناك أسطورة تتردد في أوساط المدينة أن فاتحاً منقذاً سيمر من طاق المدينة عاجلاً أو آجلاً. ولم يقدر للجيوش البريطانية التي دخلت بغداد أن تمر من هذا الطاق بالذات فالأتراك اتخذوا من الباب دار صناعة، وسرعان ما نسفوها عند جلائهم من المدينة، ولقد سبب النسف تصديع كثير من دور المدينة وتخريبها أيضاً.

والباب اليوم أكوام من الركام والتراب، وما زالت آثار السور، وخندقه العميق باقية في الصحراء. وتقوم قبالة الباب الجنوبي[2] بناية أصبحت فيما بعد كنيسة الحامية الإنكليزية، وقرية اللاجئين الآشوريين.

إن ما تبقى من المباني الدينية ببغداد العباسية جد قليل. ومنها (خان أورتمه) وهو يقوم اليوم في مدخل السوق وقد كان فندقاً[3] ينزل به المسافرون وتنفق موارده على خان مرجان. وفوق بابه اليوم كتابة تقرر ذلك. إنه بناء جميل، واقترح على الحكومة أن تستفيد منه، فأصبح مخزناً للقطن والأقمشة، تتكدس به في غير نسق البالات والجلود، وبانتظار شرائها من قبل باعة المفرد. إن قاعته الجميلة متينة البناء، وهي من طراز القرن الثاني عشر وتصلح لأن تشغل من قبل أحد المجالس، أو الدوائر البلدية. . . ولعلهم يستفيدون منها عندما تشرف خزينة الدولة، في يوم ما على الإفلاس!

= في عهد محمد باشا الخاصكي ونسفها الأتراك سنة 1917 قبيل الاحتلال البريطاني.

(1) خلطت المؤلفة في التعيين بين باب الحلبة الذي هو باب الطلسم وباب الظفرية الذي هو الباب الوسطاني لأنها جعلت الباب المنسوف «الباب الوسطاني» مع أنه لا يزال قائماً فالمنسوف هو باب الطلسم. تعليق الدكتور مصطفى جواد.

(2) هو آخر أبواب السور لبغداد الشرقية في أواخر أيام الدولة العباسية، وكان يسمى باب البصلية نسبة إلى البصلية التي هي شعبة من محلات باب الأزج، وتسمى أحياناً «باب كلواذي» نسبة إلى القرية التي كان يسلك منه إليها على مقربة من بغداد في الجنوب فهو باب لا بناية بالمعنى المفهوم، وقد هدمه أرشد العمري في أيام أمانته للعاصمة. تعليق. . الدكتور مصطفى جواد.

(3) بل كان خاناً للتجار ويعرف باللغة الفارسية باسم «تيم» على وزن تين، ولذلك جاء في أول الكتابة المنقوشة على بابه (أنشأ هذا التيم والدكاكين). تعليق. . الدكتور مصطفى جواد.

وتقوم (القلعة) في الطرف الشمالي من المدينة، وأمامها مدفع قديم تعزى إليه القوى الخارقة! وفيها بقايا قصر الخليفة المأمون بن هارون الرشيد[1]. واتخذ الأتراك من هذه البناية دار صناعة، ثم ضمت إبان الاحتلال البريطاني الدوائر الرسمية. والجيش العراقي يحتل اليوم القلعة، وغرف القصر[2] العباسي وطوقه خالية. إن الغرف هذه عالية وفيها ممرات تقوم فوقها الطوق، وسراديب. . . وكلها مبنية بالآجر العباسي، وهو حسن الصنع، ناعم الملمس. . إن طرازه العام شبيه بالآجر المتبقي في بناء المستنصرية[3]. وإنك لتشاهد الزخرف على الطوق والسقوف والأبواب، كما جادت به قريحة البنائين في ذلك العصر. لقد شغفوا بالحفر والنقش على الآجر، فأصبح ذلك دليلاً على روعة العمارة في العصر الزاهي العباسي[4] ببغداد.

ومن المؤسف حقاً أن تمنى هذه الآثار بالإهمال فالخراب، ولا يتخذ ما يلزم للحيلولة دون اندثار هذه الآثار وذهاب معالمها. لكن الحكومة العراقية لا تملك اليوم المال الكافي لإصلاح ما يفسده الدهر.

---

(1) أخذت المؤلفة بقول بعض من لا علم له بخطط بغداد العتيقة فطرازه وريازته من طراز وريازة المدرسة المستنصرية ويرى بعض الباحثين أنه (دار المسناة) التي أنشأها الناصر لدين الله العباسي (575 _ 622) في أوائل عهده وجعلها دار علم وجعل فيها خزانة كتب فائقة، وأنها القصر الذي ذكر ابن جبير الرحالة أن الخليفة المذكور صعد إليه في زورق، وكان ذلك سنة 580 هجرية ويرى البعض أنه المدرسة الشرابية التي أنشأها إقبال الشرابي بالجانب الغربي من بغداد على أن أحداً من المؤرخين لم يقل إن المدرسة الشرابية كانت على شط دجلة. تعليق. . الدكتور مصطفى جواد.

(2) هو اليوم متحفة للآثار الإسلامية عرضت في غرفة آثار ريازية من مختلف المدن الإسلامية، وفيه مجموعة من المحاريب تبين تطور شكلها منذ أول ظهورها حتى العهد الحاضر. (المترجم).

(3) جامعة دينية كانت تشغلها حتى عهد غير بعيد دوائر الكمرك، ثم أولتها مديرية الآثار العامة في العراق عنايتها فصانتها ورممتها وهي من أهم آثار العباسيين ببغداد. أنشأها أبو جعفر المستنصر بالله الخليفة العباسي وكان ابتداء عمارتها في سنة 625 هجرية وتمت في سنة 630 هجرية ودل على ذلك ما كتب على جدرانها الباقية إلى اليوم. (المترجم).

(4) لم تعين المؤلفة تاريخ العصر الزاهي بعد أن اعترفت بأن الريازة مستنصرية العصر. تعليق. . الدكتور مصطفى جواد.

وعلى الرغم من أن أبنية المدينة الحديثة ما زالت تزخر بحكايات، ولشهرزاد أن تستمد منها مادة لقصصها التي تقصها على سيدها الذي يبقى الليل مسهداً. . . حكايات يرددها (الأفندية) وقد ارتدوا الملابس الأوروبية في المقاهي وتدور في الغالب عن مقارنة الحكم التركي بالحكم الإنكليزي من حيث الفوائد والمساوىء. كما تتلألأ في المدينة الأضواء على واجهات السينمات ليلاً. . . وتعم فيها بعض المخترعات العصرية كالمصباح الكهربائي، والتلفونات، والسيارات من طراز (فورد) وتصبح جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية. ومن عالم قصص الجان هناك شخصيات سوقية أيضاً، كالشحّاذ المغني الأعمى، والعبد الأسود فارع الطول، وهو ذو قامة تناهز الـ 6 أقدام وسواد بشرته كالفحم، إنه لا يرتدي من الملابس إلا كيساً (كونية) ويلف حول رأسه كيساً قديماً أيضاً يشبه العمامة، وفي يده (صولجان) من قصب! وإنك لتجد الصبية الحمالين يهزأون منه ويسخرون ولكنهم لا يقسون عليه. . . ذلك أن للمخبولين عندهم شبه قدسية!

وهنا يجلس النعالون في ضوء خافت، إنهم يعلقون النعال الزاهية الألوان في دكاكينهم، وفي جانب آخر تجد السراجين، وهم يستخدمون في صناعة الجلود الملونة المطرزة ويتخذون لها طرزاً دقيقة، وعلى مقربة منهم يعمل صانعو الأعنة والألجمة. ومما تزين به الفرس العزيزة مفارش صوفية ذوات ألوان فاتحة تخاط فيها الودع والخرز وما إلى ذلك.

وتجلس النسوة المسلمات وقد ارتدين العباءات السود على درجات دكاكين البزازين يساومن على الأقمشة المستوردة من مانجستر، وقد يعمدن إلى اختيار الحرائر من دكان مجاور. . . وإنك لتشاهد البائع وهو يفتح (الطول) أمامهن وهو يتلألأ فيخلب منهن اللب. إن الحرير المباع في الأسواق العراقية أرخص من نظيره المباع في الأسواق الإنكليزية، وعلى ما اكتشفته كل إنكليزية في بغداد. وفي السوق تجد باعة العباءات والمآزر ودكاكينهم مليئة بالأردية الحريرية من كل نوع. إنها مزينة بخيوط من ذهب وفضة.

وهذا طريق ثانوي يؤدي إلى باعة الأحزمة. إنهم يثقبون الأحزمة الجلدية بآلة خاصة، والرجال يلفونها على ملابسهم عند الخصور. إنها سميكة قوية،

ولقد أثارت مهارة هؤلاء الصنَّاع ودقتهم إعجابي دوماً. وسوق صاغة الفضة ضيق متعرِّج وفيه تصنع الأساور والحجول وسائر ما تتزين به النساء. ويعمل في هذا السوق صاغة الذهب أيضاً، وجُلُّهم من اليهود. وإنك لتجد الصبية الصغار يعاونون الصاغة فيديرون لهم المنفاخ الذي يحمى به (الكور)، وقد طرح على الأرض. إن الحجول الثقيلة المصنوعة من ذهب أو فضة مما تزين به النساء. وهناك الخلاخيل الصغيرة التي تزين بها أقدام الأطفال الصغيرة أيضاً. وفي الخلاخيل أجراس لها رنين موسيقى تستطيع الأم بواسطته أن تعلم إلى أين يدرج صغيرها الحبيب.

«بالك! بالك!»... وهذا ما يسمعه كل من يتوغل في السوق الرئيس، وما عليه بعد سماعه ذلك إلا أن يجنِّب رأسه الاصطدام ببالة كبيرة يحملها حمال فارسي (كذا) وهو ينوء تحت وطأة حملها الثقيل. ولهذا الحمال شعر أشعث أسود، وعلى ظهره لبَّاد يضع الأحمال فوقه، ورداؤه لا يكاد يجاوز ركبتيه. إن الحمالين، فرساً وأكراداً، يشبهون، في سحنتهم، أسلافهم في أيام (دارا). وإنك لتشاهد 20 أو 30 منهم في نهاية شارع البنوك عند النهر وهم يجلسون على الأرض ويتناقلون الحديث الودِّي ويحتسون الشاي في أقداح صغار، وهم يجعلونها عادة بين إصبعين: الوسطى والإبهام، وهم يضربون ظهورهم بالسلاسل ويلطمون على صدورهم إبان محرم.

جِنْك... جنك... جنك... إنه الصوت الرئيس الذي تسمعه من الصرافين، وكلهم من اليهود. إنهم يجلسون على الأرض لاعبين بحفنة من الروبيات، والمارة تمر بهم مر الكرام!.

ويجلس في مدخل السوق (العرضحالجية). وهناك عدة منهم في شارع المستشفى، خارج المحاكم. إنهم يجلسون على مقاعد خشبية هي كل عدتهم لمهنتهم الخاصة. وإنك لتشاهد دوماً إحدى النسوة المسلمات وهي تجلس قرب الكاتب هذا وتملي عليه رسالة إلى زوجها أو ابنها الغائب، ذلك أن المسلمات الفقيرات قلَّ من يعرف الكتابة منهن. وقد تشاهد بقربه عشائرياً، أو شيخاً مسنّاً يشكو من مرض عينيه، لنفس الغاية. فإن أخذت سمتك في شارع (البنك) المنحدر صوب النهر لرأيت منظراً قديماً، قدم بابل، إنها بقعة مفضلة

يجلس فيها فتاحو الفأل وقرّاء البخت، وإنك لتشاهد بعد ظهر كل يوم لمّة من النساء وقد تحلّقن حول شيخ يتمتم ببعض التعاويذ، ويلقي بالبيض أو غيره في النهر.

هلو... يا أختاه! انظري إلى هذه السجادة الفارسية... إنه صوت البائع، تسمعه وأنت تمر على باب دكانه. وقد تستفزك هذه الألفة في النداء... ولكن هذا النوع من الخطاب أصبح شائعاً ببغداد عندما لم يكن فيها من النسوة الإنكليزيات غير الأخوات الممرضات! لقد التقط أغلب الباعة بعض الكلمات الإنكليزية، كما التقطها صغار الصبية من الحمالين.

وهناك شارع غريب الاسم إنه «سوق اللصوص» فالشرطة تعثر فيه دوماً على كثير مما يسرقه النشالون بخفة. إنه مكان قذر ولكنك تستطيع أن تساوم فيه على أشياء عجيبة غريبة.

وإنك لتجد في هذه السوق صحوناً كبيرة صنعتها (شيفيلد) وهي ذات شكول مضحكة، وأكواباً من زجاج أيضاً. وقد يرجع المرء من السوق بمثل هذه فخوراً منتصراً، ولكنها على كل حال، سوق مريبة! إنها المكان الذي يبيع فيه السراق ما يسرقون. إنه ببغداد لزقاق بيتيكوت Petticoat Lane اللندني نظير. ولكل شيء فيه ثمن: من جلود الأنعام إلى الدُسُر القديمة، وأغطية علب السكائر لا تنساها!.

أما الجادة، أو الشارع الجديد، فطريق طويلة فتحها الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى. ويبلغ رسوم الإيجار فيها مبلغاً فادحاً، ذلك أن إيجار الدكان الصغير حوالي الـ 600 روبية سنوياً. وقرب (ساحة الصيارفة) صفوف متراصة من النجارين الذين يعنون بصنع المناضد، والتوابيت والمهود... ثلاثة أشياء لا معدى منها لكل مخلوق! والمقابر جميعاً تقع حوالي المدن: وبذلك تحيط مدينة الموتى بمدينة الأحياء!.

خرجت في أول من أمس أسير في شمس الربيع على السدة الشرقية في المدينة فتناهى إلى مسمعي عويل ونواح. إنه الخميس، وهو اليوم المفضل لدى النسوة لزيارة القبور، ويبلغ عدد النائحات فيه المئات. هنا نسوة يعولن، وهناك

أخريات يندبن، والدموع تختلج في عيونهن، ومنهن من ينحن أو يصحن بصوت أجشٍّ فيه برجمة وغلظ. وتقف كل امرأة، أو لمّة من النساء، قرب قبر فقيدها. والنائحات في الغالب من النساء، وقد تشاهد هنا، أو هناك رجلاً يجلس على مرتفع من الأرض وحيداً. والنواح في هذه البلاد أشبه ما يكون بصراخ الأطفال الصغار. وأهلها لا يكتمون الحزن، ولا يلوذون بالصبر الجميل. وتتجمع النسوة في (محرم الحرام) وغيره من المناسبات فينحن ويعولن كثيراً.

وإنك لترى ببغداد النقيضين يجتمعان[1]: الجمال من جهة والأدران، والزواق بلا ذوق أو تنسيق من جهة أخرى. فإن استهوت الإنسان مرة مجموعة من الألوان والطرز التي يحفل الشرق بها حصراً... فقد تتقزز منه النفس ويشفق مرة أخرى. إن المنظر الكريه والرائحة الكريهة والذوق النابي مما لا يطيقه كل إنسان. وقد يشاهد المرء في الندرة العارضة طفلاً يتألق صحة ومرحاً، ولم يغض بعد معين الفرح من نفسه. أو يسمع دهشاً فرحاً قهقهة طفل يدرج في الشارع، ولكن ذلك في النادر القليل. فأغلب الأطفال مرضى تظهر على وجوههم معالم علو السن، كما أن عيونهم حمراء فيها قذى يساقط، وقد تشوه وجه الطفل القروح والندبات. وذوق البغدادي، بقدر تعلق الأمر بالملبس والصنعة، حسن. والصناعات اليدوية التي يرثها الخلف عن السلف حسنة أيضاً. ولكن البغدادي أميل إلى الغوغائية، والعنف، والألوان الصارخة والتافهة وما يثير الرعب والهلع. وفي الحق أنه محب لكل جميل جذاب... ولقد دأب أسلافه على السير في الطريق المؤدي إلى المنفعة الصرفة، ومن الدلائل على ذلك أنهم أنتجوا آنية جميلة وبسيطة من نحاس وفخار تقر بها العيون. أما عراقي اليوم فيفضل، على وجه العموم، صفيحة البترول، لنفس الغرض، وكل آنية زهر المانية، زهيدة الثمن، تبعث في نفسه الرضى وتطمئن ذوقه الجمالي أيضاً. وليست التربية بدواء لمثل هذا الحال، وقد يصعب بواسطتها معالجة الداء، إذ قد يجعل العراقي التقدم صنواً لكل شيء أوروبي، ولا سبيل بعد ذلك إلى أن يفترق الصنوان!.

---

(1) لا شك أن الفرق بين حال أهل البلاد على ما كانوا عليه وعلى ما تصفه المؤلفة عند كتابة كتابها وبين ما هم عليه الآن لا يستهان به تغيراً وتقدماً. (المترجم).

وكانت لدى صديقة لي قطعة قماش من حرير من مطرزات حلب، وحسبت أن بالإمكان محاكاة ذلك في أسواق بغداد، فالطراز هين بسيط. واستطاعت إحدى الصديقات البغداديات أن تجد لها مطرزاً قيل إنه ماهر في صنعته. وتركت الصديقة القطعة لديه ووعدته بأن تعود إليه بعد أسبوعين. ومضى أسبوعان ولم ينته تطريز القطعة، وبعد 3 أشهر اكتشفت صديقتي أن المطرز لم يمر بإبرته عليها أبداً، وما زال يتطلع إلى الطرزة دهشاً متحيراً، مما اضطرها إلى استعادة القطعة لتريحه وتستريح أيضاً. إن المطرز لم يجرِّب غير ما هو مألوف ببغداد، لذا لم يعمد إلى محاكاة الطرزة التي جاءت بها إليه. إن الياباني، والهندي، والفارسي وحتى السوري لا بد وأن يحاول جهده في مثل هذه الحال فذلك المطرز البغدادي لم ير في عميلته إلا امرأة سخيفة لأنها تريد أن تخرج على المألوف المتعارف. إنه لا يشعر بنقص أو تخلّف في مثل هذا الوضع، فهو مطمئن وراض بذلك تماماً. إنه يعرف كل حاجاته وكل ما يميل إليه الناس، فلا يريد، بعد ذلك أن يتعلم من أي شخص آخر. فليس من السائغ عقلاً، وهو على مثل هذه الحال، أن يقبل نقداً. ومثل هذا كائن في الميادين العقلية أيضاً.

ومن المؤسف أن تكون تصرفات بعض البريطانيين في بلاد ما بين النهرين خلال الحرب والهدنة لا تبعث الرضى، فلقد كثر بينهم من أفسد الأمور، وقام بصفقات مريبة... أما الآن فأهل البلاد ينظرون إلينا كما ينظرون إلى الغير..

إن بغداد والعراق كله بأمسّ الحاجة إلى مدارس ثانوية، ذلك أن في مقدور هذه المدارس أن تعد طرازاً أفضل من أبناء الطبقة الوسطى. إن الكلية الجديدة التي تم إنشاؤها على طريق المعظم ستكون عوناً لإدراك هذه الغاية بالذات، شأنها شأن (كلية الحقوق)، و(مدرسة الري) والمدارس الصناعية التي سيتم تأسيسها في الوقت الملائم. إن (الأفندية) اليوم من يستطيع قراءة الجرائد، ويرتدي السروال والمعطف الأوروبيين، والطربوش... ومن يجلس في المقاهي ويبحث في الشؤون العامة دونما هدى أو قدرة بينة. وأغلب الكتّاب لا حظ لهم من الكفاية إلا القراءة والكتابة، وعددهم جد كبير. ويجب

أن تهدف وزارة المعارف إلى أسمى من إعداد الموظفين، فعليها أن تهدف إن كنت أنفذ إلى حقيقة نواياها، إلى ابتعاث شخصية العراقي وخلق التواضع الذي هو من صفات المعرفة والرغبة في التعليم. ولا تحتاج البلاد إلا إلى شيء من المال، أي أكثر بقليل مما هو ميسور لديها الآن. . .

إن كل واحد، حتى القاربي الفقير، يشعر بما ينتاب النظام القائم من قلق واضطراب، ويتساءل متفلسفاً: «وما الذي بعد هذا، يا ترى؟» لقد شهد الأتراك يرحلون، ولكنه يسمع الناس يناقشون بهدوء أمر عودتهم. لقد شهد الإنكليز يدخلون بغداد ويسمع الناس يتحدثون عن قرب رحيلهم. لقد سمع البعض سنة 1920 يهيب بشعب العراق أن يطرد الإنكليز من بلاده، وشهد هؤلاء الإنكليز أنفسهم، بعد ثورة 1920، يأتون بأعدائه السابقين فيولونهم المناصب ذوات السلطة. لقد رأى بأم عينه «أجنبياً»، عربياً وليس بعراقي، يتبوأ عرش بلاده[1]. لقد سمع أن فيصلاً يميل إلى الإنكليز، وسمع أنه عدو الإنكليز. لقد قيل له إن الإنكليز مصممون على البقاء في البلاد، كما قيل له إن الإنكليز جد راغبين في الرحيل. وتحدثوا إليه أن الإنكليز يبغون استثمار موارد بلده، كما تحدث إليه آخرون مدعين أن في ذلك تبديداً للمال المجبى من دافع الضريبة الإنكليزي.

النظريات. . . الإشاعات. . . الإرهاب. . . الكلام. . . والكلام. . . ذلك ما تحفل به المقاهي، والأسواق كل يوم. إن السواد الأعظم من الشعب لا يهتم لذلك كله ويقول «من الله!» ثم يمضون لكد يومهم!. وسواء أحكم البلد الإنكليزي، أو فيصل، أو الأتراك فإن حياة سائق السيارة، والقاربي، والحمال ومن في حكمهم من سواد الشعب هي هي، المفلس في القافلة أمين. . . لذلك فلا فرق لديهم بين هذا وذاك. . .

(1) جلي أن المؤلفة تقصد الملك السابق فيصل الأول.

الفصل الثاني

جوامع بغداد ومزاراتها

سبق أن وصفنا فيما مضى الأسوار والأبواب العتيقة الواقعة شرقي المدينة، وليس ببغداد إلا بقايا آثار ومخلفات قليلة من تاريخها الدابر. والدور فيها لا تبقى على حالها أكثر من جيل أو جيلين ثم تنهار. لذلك يزعم البغداديون أنهم يستعملون الخشب في جدرانها وسقوفها ليحذر ساكنيها إن تداعت وأوشكت على الانهيار. إن لتكسر الأخشاب هذه صوت ينذر السكان فيحملهم على إخلاء البيوت. ورفع أحدهم شكوى إلى إنكليزي يقوم بتشييد بعض الدور، ومفادها أن قصر البناء على الطابوق يحول دون التحذير الآنف الذكر. ومر الملك فيصل يوماً ما في إحدى الطرق فمال بيت وانهار. واتصلت الواقعة بعلم الإنكليزي فكتب إلى الموظف المختص ليحقق في الأمر، ولكنه لم يستطع العثور على المسؤول. ومن الدلائل التي جمعها هذا الموظف خيل له أن المعمار لا بد وأن يكون شخصاً باسم (هيث بن روبن)! فطلب إليه إجراء التعقيبات بحقه، ولا أعتقد أن (سر هيث روبنسن) استدعى أو أجاب عن التهمة المسندة إليه!

قاوم الطابوق العباسي المتقن الصنع صروف الزمان على كل حال. ومنه اليوم بقية ترى في عدد من جوانب بغداد، ولا سيما في بعض المساجد والمزارات. ففي ساحة الصيارفة، وعلى الجهة اليمنى، إن سار المرء شمالاً، طاق قديم يقع قرب مدخل (سوق الشورجة). وأخال أن هذا الباب والمئذنة فوقه صوّراً ورُسماً مرات عديدة منذ مجيء البريطانيين إلى بغداد، فهما، في

الحق، على درجة كبيرة من الجمال والروعة... فسواء نظرت إليهما وأشعة الشمس تلامس الآجر العتيق فتنشر عليه ورساً مزعزعاً، أو عندما ينساب إليهما نور القمر الألّاق والسوق الكائن بمقربة مظلمة خالية من الناس. إنهما جزء من (جامع مرجان) و(المدرسة) وقد تم بناؤهما في القرن الـ 14 من قبل شخص يدعى (مرجان بن عبد الله الأولجاتي)(1) ومن (مرجان) نستدر الشيء الكثير. فالاسم من مادة النبات المرجاني المعروف، وهو اسم يطلق على العبيد. إن (مرجان) هذا مملوك كردي(2) فكَّ رقبته السلطان أولجياتي أو أسرته (والأولجياتي دليل على ذلك). والمعروف أنه وضيع المولد، ولكنه أصبح حاكماً على بغداد وموسراً. إنه مدفون في المسجد الذي شيده، وقد خلف وراءه ذكرى عاطرة، وتراثاً من التقوى والعمل الصالح.

وإن مررت من الباب لرأيت البناء الداخلي مكوناً من طبقتين: سفلى وعليا، ويحيط بفناء. أما الطبقة العليا فخصصت في الأغلب للذين يشدون في طلب العلم. إنه مبني بالحجارة المهندسة المتينة التي امتاز بها عصره، وعليها كتابات وزخارف في الداخل والخارج. والكتابات هذه تمتاز بالدقة والجمال، ذلك أن الخط العربي من أشد ما عُني به العرب وخلفوه في البلاد التي فتحوها. إن النبي ﷺ يمنع تصوير الأحياء لذلك انصبت جهودهم الفنية على: الطرز الهندسية، وزخرف الكتابة.

صوَّر المستشرق الفرنسي النابه (ماسينيون) ما على الجامع من كتابات بعناية بالغة وثبَّتها في رسالة نفيسة نشرها عن (مساجد بغداد).

---

(1) إن المكتوب على ظاهر جدار المصلى في المدرسة: مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن السلطاني الأولجابتي ـ ويحتمل هذه الأوجه: (الأولجتائي) و(الأولجيناتي) و(الأولخياتي). (المترجم).

(2) لم تذكر المؤلفة السند الذي استندت إليه في زعمها أن مرجاناً كان كردياً، وليس ذلك بصحيح، حتى ليصعب في التاريخ الإسلامي أن تجد كردياً مملوكاً في العصور الأولى فما ظنك بهذا العصر، وأكثر ما يكون المماليك في ذلك العصر من الروم، والروم عند العرب يشملون عدة أمم غربية ويمتد إلى الروس أحياناً، أما اسم أبيه «عبد الله» واسم جده «عبد الرحمن» فهي من الأسماء الرمزية لا الحقيقية باعتبار أن كل مؤمن بالله تعالى يكون أبوه «عبد الله» وجده «عبد الرحمن». تعليق: الدكتور مصطفى جواد.

وعلى الجهة اليمنى من مدخل الجامع هذا (مدرسة القرآن)، وفيها يحنو الدُرَّاس النابتون على (كتاب الله)، ويليها مسجد المصلّى. والجامع جميل في بساطته، وكل ما يزينه محراب، والكتابات التي أشرت إليها آنفاً ذات كلمات لها مزايا خاصة لا أستطيع نقلها، فلا معدى لي من أن أنقل ترجمة (ماسينيون) لها:

(بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي وفق المطيعين لعمارة أبنية بيوت العبادات وألهم المخلصين إشادة أعمدة دور الصناعات (كذا: الصواب: الطاعات تعليق ـ الدكتور مصطفى جواد)، ورفع ذكر الولاة بتأسيس معالم المكرمات، ودل أرباب السعادات على سلوك سبل الخيرات، ومنح المحسنين بتشريف ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1] وحباهم بمال: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾[2] والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد المصطفى خير الآنام، وأصحابه مصابيح الدجى وبدور الظلام. أما بعد فيقول المفتقر إلى عفو الملك المنَّان، مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن بدَّل الله سيئاته: إني هاجرت في الأرض مدة سنين وجاهدت في الطول والعرض ذات شمال ويمين، متورطاً في مخاوف البر والبحر، متورداً في متالف البرد والحر، فعلمت أن الدنيا دار الفرار وأن الآخرة هي دار القرار، وأيقنت أن أولى ما أنفقت فيه الأموال، وأخرى ما توجهت إليه همم الرجال، كان وسيلة إلى أبواب رحمته محط الرحال، وذخيرة ليوم المحاسبة والسؤال. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينفع به، وولد صالح يدعو» والصدقة الجارية هي الوقف في عمارة هذه المدرسة المسماة المرجانية وتوابعها المتصلات ببعضها في زمن المخدوم الأعظم الدارج إلى جوار ربه وجناته المستريح على أعلى غرفات جنانه الشيخ حسن نويان[3] أنار الله برهانه).

---

(1) سورة هود، الآية: 114.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 35.

(3) يقول مؤلف (تاريخ مساجد بغداد وآثارها) «المرحوم محمود شكري الآلوسي»: (النويان في لغة ترك المغول، والجغتاي يطلقون على الملوك والسلاطين وأمثالهم).

ثم تمضي الكتابة فتعدد الدكاكين والخانات والأراضي والبيوت والبساتين وما إلى ذلك مما حبس من عين ليدر المال على الجامع والمدرسة «موطن العلماء ومنزل الخلفاء» وجاء فيها «ومن غيّر شروط هذه الأوقاف أو تصرَّف فيها خلاف ما شرطت في الوقفية فهو ظالم عند الله، ألا لعنة الله على الظالمين[1].

إن هذه الكتابة في محتواها وفحواها تمثل التقوى الصادقة والنفس المطمئنة، ومخافة الله في الدنيا والآخرة. إنها صورة صادقة لنفس أحد الأرقاء، كان عبداً مملوكاً فأصبح سيداً موسراً[2] إنه عصامي سعى إلى اتلاد المال في الدنيا الفانية، ثم وجد أن التقوى والإحسان خير سبيلين يؤديان به إلى تبوء المكان المرموق المعد للصفوة المختارة من الناس.

إن قبره في غرفة خارج الجامع، فيها قبر العلامة الكبير نعمان الآلوسي، وهو الذي قام في حياته بترميم الجامع. ولم يتعرض الأتراك بسوء لآثار هذا الجامع أو المدرسة عندما شقوا (الشارع الجديد) وأبقوا لهما ركناً بارزاً فيه[3].

---

(1) إن كثيراً مما ذكر في (الوقفية) من الأوقاف قد اندرس ولم يبق له ذكر، ومنه ما امتدت إليه يد الغصب. فدار الشفاء اتخذها يهودي حانة، وهي الشهيرة بقهوة المصبغة، وباب الغربة هي شرعة المصبغة، وكثير من الحوانيت المكتوب عليها وقف مدرسة مرجان تملكه الناس، ومنه ما صار وقفاً على كنيسة، وما بقي منه أقل بالنسبة لما اندرس (تاريخ مساجد بغداد وآثارها للمرحوم الآلوسي صحيفة 71).

(2) وهكذا نجد أن الإسلام، الشريعة السمحة، لا يسعى إلى تحرير الأرقاء فحسب وإنما يبوء منهم المجد الساعي التقي أرفع مكان ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات، الآية: 13]. لقد أوجب الإسلام أن يصرف جزء من موارد الدولة (الزكاة) على تحرير العبيد، ونهى رسوله ﷺ عن قول عبدي وأمتي، وأوصى بأن يقال (فتاي) و(فتاتي). وورد في الآية الكريمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة البلد، الآيات: 12 ـ 14] ما يمثل هدف الإسلام الروحي (تحرير العبيد) والمادي (التحرر من الجوع) مجتمعين. (المترجم).

(3) ولكن أرشد العمري المنتسب إلى الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هدم القسم الغربي من هذا الجامع أيام أمانته للعاصمة، وقد ذكرنا هدمه الباب الشرقي لسور بغداد في أواخر أيام العباسيين وهو باب كلواذي، قال ياقوت الحموي الرومي في مادة «سياث»، من معجم البلدان: «بليدة بظاهرة معرة النعمان. . . اجتاز بها القاضي أبو =

وفي جانب من الفناء، وقبالة الجامع محل للوضوء معد للطلاب وغيرهم من المصلين. على مقربة منه سلم يؤدي إلى (المكتبة)، وفيها كتب قيِّمة. والجامع مدين إلى حد كبير لفضل الأسرة الآلوسية. وفي المكتبة (اسطرلاب) نحاسي فارسي الصنعة، وفيه أسماء كثير من المدن ومميلات من خشب[1] معلقة بسلك. كما أن فيه شمعداناً نحاسياً دقيق الصنع يرجع تاريخه إلى القرن الـ 14 وعليه كتابة تشير إلى أن مهديه هو مؤسس الجامع (مرجان) نفسه. وفي أعلى الجامع نافذة جميلة لغرفة من غرف الطلاب.

وهناك زقاق صغير يتلوى في جوف المدينة مؤدياً إلى جامع أثري آخر هو (جامع العاقولي)، ومؤسسه رجل يختلف من حيث الجبلة عن (مرجان) مؤسس الجامع السابق ذكره. إنه (عبد الله العاقولي المولود سنة 1240 والمتوفى سنة 1327)[2] كان قاضياً ومدرساً في المستنصرية ولقراراته التي يتخذها في دقائق قضايا الشريعة نفوذ وقوة، فهي مقبولة ملزمة عند كل الناس.

= علي عبد الباقي بن أبي حصن المعري والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر فقال:

مررت برسم في سياث فراعني ... به زجل الأحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما ... رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها شلت يمنك أنها ... لمعتبر أو زائر أو مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ... ولم أر أحلى من حديث المنازل

تعليق: الدكتور مصطفى جواد.

(1) آثرناها ترجمة لـ Clinometers والمميل (أو المزواة) أداة لقياس الميل أو الزاوية. (المترجم).

(2) «هذا المسجد كان منزلاً يسكنه الشيخ جمال الدين عبد الله بن محمد بن علي العاقولي مدرس المستنصرية ببغداد درس فيها نحو 40 سنة وباشر نظر الأوقاف وعين لقضاء القضاة فلم يقبل... وكان قوي النفس له وجاهة في الدولة كم انكشفت به كربة عند الناس بمساعيه الجميلة، وانتهت إليه رئاسة الشافعية ببغداد. قال عبد الحي في تاريخه (شذرات الذهب) مولده في رجب سنة 638هـ ووفاته في شوال ببغداد وله تسعون سنة وثلاثة أشهر ودفن بداره وكان وقفها على شيخ و10 صبيان يقرأون القرآن ووقف عليها أملاكه كلها... وبيته الذي دفن فيه هو المسجد، وقبره إلى اليوم ظاهر وعليه قبة وعلى القبة صندوق من خشب. راجع تاريخ جوامع بغداد وآثارها صحيفة 47 ـ 48». (المترجم).

ولقد دفن «عند المغرب بحضور القضاة» في بيته الذي أوقفه على شيخ يعلِّم عشرة أيتام صغار (القرآن). ولقد أعيد بناء الجامع مرات عديدة، أما الغرفة التي تضم القبر الخشبي المزخرف الذي يضم رفات مؤسسه والتي يوصل إليها من فناء تقوم فيه شجرة سدر، فلم تتغير إلا قليلاً على أغلب الاحتمالات. وعلى القبر كتابة كوفية مزخرفة جميلة جداً، ولم يستطع أحد قراءتها لمدة طويلة. إنها مثال ممتع على استعمال الحروف العربية في الزخرفة. والظاهر أن أحد ألواحه أقدم من الآخر، ولعله منقول من قبر أقدم من قبر العاقولي. ونقشت على القبر الآيتان الكريمتان: **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿21﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[1] **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿13﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿14﴾﴾[2].

وبالإمكان رؤية «مدرسة المستنصرية» التي درس فيها هذا القاضي الصالح من النهر جيداً، وعليها كتابة بارزة تمتد على طول البناء المتخذ اليوم دائرة للكمرك. والباقي من البناء، على كل حال، جزء من البناء الأصلي الذي كان يضم مدرسة زاهرة، يدرس الطلاب فيها العلوم، وعلوم الدين المعروفة في عهدهم، ويناقشون المتألهين (Mystics) وينفذون إلى دقائق الشريعة. ودخل جزء من البناء الأصلي في الأسواق اليوم، وإنك لترى جداراً مزخرفاً خلف دكان خباز، وآجره جميل جيد. وإليك ما على الجدُر من كتابة، وقد جرى ترميمها:

(هذا ما أمر بعمله أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، الذي طبق البلاد إحسانه وعدله، وغمر العباد برُّه وفضله، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله. . . .) ويلي ذلك كثير من المدح والثناء، وفي الختام: (. . . وذلك في سنة ثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وعترته وسلَّم تسليماً).

---

(1) سورة التوبة، الآيتان: 21-22.

(2) سورة الأحقاف، الآيتان: 13-14.

وإلى الخليفة المستنصر بالله يرجع فضل بناء جامع عتيق آخر لم يبق من معالمه اليوم إلا مئذنة عدت عليها عوادي الدهر، وأعمل فيها الحمام يد التخريب. والمئذنة هذه تقوم اليوم في «سوق الغزل»[1] وهو من أحياء بغداد الفقيرة جداً، وعليها كتابات لا سبيل لقراءتها اليوم. واقترح المهندسون البريطانيون عند مجيئهم إلى بغداد هدم المنارة القديمة إذا تراءى لهم أنها لن تقاوم أي إعصار ورفض هذا الاقتراح، وسمح للمهندسين أن يقوموا بما يدعم أساس المئذنة، وقيل إن البرج القديم لن يصمد إلا لسنين قلائل.

ويعتقد ماسينيون ويشاركه في معتقده لسترانج، أن الجامع الذي كانت المئذنة هذه جزءاً منه هو القصر العباسي الرحيب أصلاً[2]. أما اليوم فتقوم في موضعه بيوت عديدة للفقراء وسوق وجامع حديث وكانت هناك كتابة على إحدى الأبواب المجاورة، واختفت الآن، وهي تثبت أن تاريخه هو 633هـ (أو 1235م) ـ وهو تاريخ المستنصرية بالذات. ولكن هذا لا يدل على أن المئذنة لم تشيد قبل ذلك، فلنا من الكتابة الكوفية عليها دليل آخر.

وهناك عدد من المزارات الممتعة تقع عبر النهر وتحمل أسماء بعض النابهين في تاريخ صلحاء بغداد. فإن عبرت (جسر مود) وتيامنت قرب محطة القطار متجهاً نحو الصحراء ثم سرت على طريق الكاظمين لوصلت بعد مسيرة ميل إلى مقبرة، كانت (مدينة الموتى) في أيام بغداد الأولى أيضاً. إن القبور فيها تقوم على نشز من الأرض، وبين النخيل الظليلة، ممشوقة الشطاط. وقد تشاهد هنا قبة، وهناك مزاراً لأحد الأولياء الصالحين، أو الرجال النابهين.

---

(1) ذكرنا في تعليق سابق أن المنارة أنشئت في عهد الملك أباقا بن هولاكو وولاية علاء الدين عطا ملك الجويني سنة 678 والجامع هذا كان يسمى جامع القصر ثم جامع الخليفة ثم جامع الخلفاء ثم جامع سوق الغزل ثم أزيل في الأيام الأخيرة من أجل الشارع الجديد. تعليق: الدكتور مصطفى جواد.

(2) لا ريب في أن اعتقادهما لم يكن على أساس حقيقي ولا قام عليه دليل، فهو جامع القصر الذي أنشأه الخليفة المكتفي بالله في أواخر القرن الثالث للهجرة، ثم إن القصر لا تبنى له منارة!! أما الكتابة الكوفية فلا دليل فيها على العصر لأنها كوفية مشجرة كانت تتخذ زينة للعمارات في العصر المغولي. تعليق: الدكتور مصطفى جواد.

هذه قبة عجيبة، مخروطية الشكل تسمى (قبة الست زبيدة)، ذلك على الرغم من أن زوجة هارون الرشيد الشهيرة، والتي سببت بمكرها سقوط البرامكة، مدفونة في محل آخر[1]، على كل حال. وعلى مقربة من القبة جامع تناثرت حوله قبور، وتسامقت فيه أشجار النخيل. وتم ترميم القبر والجامع في نهاية القرن التاسع عشر من قبل زوج بنت السلطان عبد الحميد، بعد أن انهدم الجامع كلياً. وبعد مسيرة نحو ربع ميل وفي اتجاه عقرقوف تصادفك مزارات ثلاثة تختلف إليهن النسوة كثيراً، ويتضرعن إلى المدفونين فيها ويقدمن لهم النذور. والمزار الأول هو للشيخ جنيد الشهير. إنه من المتألهة وقد عاش ببغداد في مفتتح القرن العاشر، وكان يرتدي الصوف، لباس المتصوفة، ويدرس طلابه العديدين خوارق الباري عز وجل ومعجزاته. واتهمه البعض أنه على مذهب الأحدية[2]، ولكنه مات وهو على الصراط المستقيم، بخلاف تلميذه منصور الحلّاج[3]. لقد سبق لي أن وصفت (بئر الأعاجيب) في فصل آخر من هذا الكتاب والقبر الذي يضمه هذا المزار. وعلى مبعدة أقدام لـ(بهلول) مزار يحيط به فناء يتسامق فيه الشجر الظليل. وفي ظني أن البناء الحالي جديد كله. وشاهد نيبوهر Niebuhr صرحاً من طراز القرن الـ 14 يقوم في هذا الموضع بالذات وعلى بابه ما مفاده: هذا قبر سلطان الوجديين

---

(1) إن قبرها في جوار قبر الإمام موسى بن جعفر، وإن المشهور اليوم «وهو الذي في مقبرة باب الدير قرب تربة معروف الكرخي» لعله تربة امرأة من بنات الأمراء أو زوجاتهم أو تربة ملك من الملوك. وقد جدده ورممه في عصرنا بعض أمراء الأتراك ظناً منه أنه قبر زبيدة أم جعفر. . أما مسجد زبيدة أم جعفر. . فلقد اندرس سنة 1195 وكان واسعاً رصين البناء قوي الأركان ولما بنى سليمان باشا الكبير والي بغداد سور الجانب الغربي استعملت أنقاضه في بناء السور انظر (جوامع بغداد وآثارها للآلوسي). الصحيح أنه قبر السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله وأم الخليفة الناصر لدين الله وقد دفنت معها حظية الخليفة السيدة بنفشة وابن الناصر أبو الحسن علي الملقب بالملك المعظم ثم دفنت تحت القبة عائشة خاتون زوجة أحد الولاة. أما المسجد فهو أما مدرسة زمرد خاتون المعروفة بمدرسة الأصحاب وأما رباطها وكانا مجاورين للتربة ذات القبة هذه. (تعليق الدكتور مصطفى جواد).

(2) «الأحدية» مذهب يقول إن الله، والعالم أحد واحد، مذهب وحدة الوجود.

(3) الصواب «الحسين بن منصور الحلاج». تعليق: الدكتور مصطفى جواد.

المتسامين وقد حلت (أنا) في ذات الله. فبهلول، أو المجنون، اسم مستعار لأحد المتصوفة، وهو (وهب بن عامر الكوفي). وتختلف إلى القبر النسوة كثيراً ويبنين في فناء مزاره بيوتاً صغيرة من الآجر والحصى، رموزاً إلى ما يطلبن، ويصلين عسى أن يشفع الراقد لهن. وأبواب المزارات هذه مخضبة جميعاً بالحناء، هدية لها من الزائرات الشاكرات.

وبعد قبر بهلول يأتي قبر يوشع، وهو ليس بـ (يوشع العظيم) بطبيعة الحال، ولكنه أحد أحبار اليهود المشهورين، واسمه يوشع أيضاً، وقد دفن في هذا الموضع. والاسم يحمل المسلمين واليهود، على حد سواء، على احترام المزار. وهناك خلاف لا ينتهي يدور حول من يملك هذا المزار، وإن أوشك اليوم على الانهيار. ولقد عمد اليهود في حين من الزمن إلى دفن موتاهم فيه، وجعلوا من البناء كنيساً لهم، ونازعهم في ذلك المسلمون، وقدموا في سنة 1885 عريضة إلى السلطان التركي، وصدرت على أثرها إرادة لصالح المسلمين. وهكذا خذل اليهود ونبشت قبورهم وألقي ما فيها من الرمم في الصحراء (وقام بعض صلحائهم بنقلها إلى مقبرة اليهود) وأصبح الكنيس مسجداً. وعندما جاء الإنكليز أعاد اليهود الكرة، وادعوا بحق لهم فيه إلا أن السلطات الإنكليزية لم تسند طلبهم على ما أعلم، والموضع يكاد اليوم يكون صحراء خالية، وسيصبح البناء ركاماً خالياً، وذلك على الرغم من أن الزائرين ما زالوا يختلفون إليه.

وإن سار المرء على الطريق التي يسلكها الريفيون إلى بغداد من هذه النقطة بالذات لوصل محلاً تكثر فيه القبور وفيه قبة زرقاء تضم مزار متأله آخر من متألهي القرون الوسطى، إنه مزار الشيخ معروف الكرخي[1]. وباسقات النخيل تحيط به. ويمكن الوصول إليه من بين صفوف من قبور، وبابه مخضبة

---

(1) الشيخ معروف الكرخي من مشاهير الزهاد. كان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى المؤدب فقال له: إن الله ثالث ثلاثة! فقال بل هو الله أحد، فضربه فهرب وأسلم على يد علي بن موسى الرضا (رض) ورجع إلى أبويه فأسلما، والذي أصلح المسجد وبنى على قبر الشيخ معروف قبة هو والي بغداد سنة 1310هـ (حسن باشا). وهناك بئر تزعم النساء الجاهلات أن من اغتسلت بمائها حملت ولهن مواسم للاغتسال بهذا الماء! (تاريخ جوامع بغداد للآلوسي).

بالحناء كثيراً. وفي المزار أشياء ممتعة، على ما يقال. ذلك أنه مبني، كمسجد العاقولي، حول بيت ولي من أولياء الله الصلحاء[1]. ولكني لم أتشوف إليه إلا من خارجه فقط، ولم يحالفني الحظ فأشاهد ما في الداخل، وبالنسبة لمزار منصور الحلاج أيضاً. وللأخير قبة، وشاهد قبر Cenotaph فقط إذ لم يبق من جسده إلا القليل إثر استشهاده. وليس قبر الحلاج ببعيد عن مرقد الشيخ معروف، إنه ملاصق لمستشفى العزل.

وشخصية الحلاج، من بين شخصيات المتألهين الإسلاميين، أشدها جاذبية وعاطفية. والناس في أقاصي البلدان، كالهند وفارس والأفغان، تكنُّ له احتراماً كبيراً، ومنها تأتي وفودهم تحج مزاره. ويقال إن أتباعه المخلصين جمعوا رماد جدثه من النهر، حيث ألقوه فيه إثر استشهاده، وجاؤوا به إلى هذه التربة بالذات... وغدا يفعل الخوارق والأعاجيب في ميدان الشفاء والبركة. و(منصور الحلاج) حلّاج فارسي، وكان أبوه يحلج القطن أيضاً. وفي بواكير عمره سلك مسلك رجال الدين وتزهد ولبس الصوف الذي كان يرتديه الصوفيون المتألهون في زمانه (ولذلك دُعي بالصوفي)، وتتلمذ أخيراً، على يدي الشيخ جنيد المشهور ببغداد.

وأحس الشيخ، بادىء ذي بدء، بما تمتاز به ذهنية تلميذه من مزايا خطرة، ونقل إلينا أكثر من توبيخ وجّهه الأستاذ إلى تلميذه. وكانت روح الشيخ جنيد سمحة متواضعة بينا كانت للحلاج روح طلعة متعالية. وحب الله، في معتقده يتجسد في محبِّه، إنه الترابط الذي يؤمن به المتألهون، والذي يقوم بين الروح والخالق. ويروى عن الحلاج أنه قال: «ما في الجبة إلا الله». وسرعان ما بعثت أقوال هذا المتأله، المليئة بالوجد، الريب لدى سامعيه. فقال الذين

(1) وهذا من الأقوال الواهية أيضاً فالمقبرة هي مقبرة باب الدير ولم يكن هناك بيت ولا دار، وقد أنشىء قرب تربة معروف مسجد سمي مسجد الجنائز ولعل الموتى كانوا يغسلون ويصلى عليهم فيه، ولا تزال منارته قائمة حتى اليوم مؤرخة بسنة 612هـ وهي من المتانة والفخامة والمقرنصات بحيث تعد آية من آيات العمارة الإسلامية. تعليق: الدكتور مصطفى جواد.

هم على السنن المستقيم: «إن الرجل ينتهك بأقواله الحرمات والمقدسات. إنه يدعي الربوبية».

وقال عنه خصومه إنه يأتي بالخوارق فيؤثر في الجهلة. وسارت بذكره الركبان وبَعُدَ صيته. واتهم بالهرطقة، وألقي عليه القبض وسجن، وعانى من السجن طويلاً. وحوكم، واستمرت محاكمته سنوات عدة، وحكم عليه بنتيجتها بالموت: وجريمته الكفر والهرطقة. ونفذ فيه حكم الإعدام قرب جسر القوارب على دجلة. ضربوه أولاً ضرباً مبرحاً (وقيل إنهم صلبوه) ومزقوا جسده ثم قطعوا رأسه، وأحرقوا جدثه ورموا رماده في النهر. والأساطير تقول إن مياه دجلة طغت إثر ذلك، وإن الرماد الطافي سُمع له تمتمة كتمتمة المتألهين: «أنا الحق!» وإن تلميذ الحلّاج، وتابعه، ألقيا بردائه الصوفي في تيار النهر عسى أن يغيض ماؤه كما عمد مريدو الحلاج إلى جمع رماد الجدث خشوعاً واحتراماً[1].

وللحلاج عند اليزيدية مقام مرموق، وتشيع بينهم أسطورة تقول: إن رأس الحلاج عند قطعه ورميه في النهر طارت روحه فوقه... وكانت أخته تملأ جرتها من مائه، على سبيل الصدفة، فدخلت الروح الجرة، واختبأت فيها، والأخت لا تعلم عن ذلك شيئاً. وما إن عادت من النهر وشربت من ماء الجرة، وهي عطشى، إلا وحملت ثم ولدت بعد 9 أشهر غلاماً كان شديد الشبه بخاله، ولم يكن في الحق، إلا روح الخال حلت في جسد ابن أخته. لذلك لا يستعمل اليزيدية الجرة، أو أي وعاء ذي عنق ضيقة فالماء وهو يسكب منها له قرقرة تشبه بمعتقدهم قرقرة رأس الحلاج وهو يغرق في الماء.

ويرى البعض: «إن لمفسري حب الله اتصالاً خارقاً بالروح لذلك تجدهم يحترمون المتألهين جميعاً، أي أنداد وليهم الأكبر: الشيخ عدي.

وهناك مزاران سنيان كبيران ببغداد أيضاً يقوم أولهما: في ضاحية المعظم، على مبعدة 3 أميال من باب المدينة الشمالي. والآخر في منتصف الطريق، قرب النادي الرياضي، وهو قبر صغير لمتأله آخر، واسمه (بشر

(1) راجع رسالة ماسينيون عن الحلاج. (المؤلفة).

الحافي) المتوفى سنة 840 ميلادية. إنه بين المسلمين يشبه الآباء الفرنسسكان الذين يكلفون بالفقراء، ويعيشون عيشة الكفاف.

وفي الأعظمية مرقد شخصية كبيرة في الإسلام: إنه أبو حنيفة، الفقيه وصاحب المذهب الحنفي وكان قبره، في أيام بغداد الزاهرة، يقوم في (مقبرة الخيزران) ـ مقبرة قريش القديمة[1]. أما المرقد الحالي، والجامع، فلقد تم بناؤهما في أيام الوزير السلجوقي: شرف الدين أبو سعد الخوارزمي سنة 1066 ميلادية[2] ولم يبق، مع الأسف، شيء من العمارة القديمة سوى برج صغير في المدرسة. ويتبرك الناس بزيارة الضريح ويزوره كثيرون. إنهم يعتقدون بخوارق صاحب الضريح، وصاحب المذهب الحنفي الإسلامي، وإنه لا يزال معنياً باتباع مذهبه عناية الأب بأبنائه. والأعظمية بقعة لطيفة جميلة، وللموسرين فيها بيوت صيفية تكتنفها البساتين. ودعينا في إحداها لشرب الشاي مرات عدة. وصاحبها تاجر مضياف. وبستانه في الربيع جنة تزدهي بالورود على اختلافها من قرنفل وياسمين. والبساتين تسقى من ماء النهر مباشرة ويعبق جوها دوماً بشذى الزهر، وزهر البرتقال على وجه أخص،

---

(1) تقدم أن مقبرة قريش أو مقابر قريش قامت في مكانها بلدة الكاظمية فهذه التسمية خاطئة. تعليق: الدكتور مصطفى جواد.

(2) كانت المحلة التي فيها هذا القبر إحدى محلات بغداد في العصر العباسي... وقد دفن فيها كثير من أكابر أهل العلم والصالحين كمحمد بن إسحاق وغيره. ولما توفي الإمام أبو حنيفة سنة 150هـ دفن في هذه المقبرة، وفي سنة 459هـ بنى شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفى مملكة السلطنة ملكشاه السلجوقي مشهداً وقبة على قبره، وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية. ولما فرغ من عمارتها ركب إليها في جماعة من الأعيان ليشاهدوها فبينما هم هناك إذ دخل عليهم الشريف أبو جعفر مسعود المعروف بالبياض الشاعر فأنشد:

ألم تر أن العلم كان مشتتاً   فجمعه هذا المغيب في اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة   فأنشرها فعل العميد أبي سعد

وقيل إن أبا سعد هذا بذل 100 ألف دينار حتى ترك الاستيفاء وإنه هو الذي بنى مدرسة بباب الطاق ومدرسة بمرو جميعها للحنفيين راجع (تاريخ جوامع بغداد وآثارها للآلوسي صحيفة 20 ـ 21) والمدرسة التي بناها بباب الطاق هي مدرسة الإمام أبي حنيفة وذهل عن تعيينها المؤرخ المرحوم. تعليق: الدكتور مصطفى جواد.

وللحمام هديل بين الشجر الظليل لا ينقطع. ويقوم مرقد أبي حنيفة بقبته الزرقاء ومنارته القاشانية شاخصاً في الضاحية. ورأينا أحد الشبان من طلبة العلم وهو يعنى بتجليد كتابه قرب المدرسة. إن أمثاله لا يملكون إلا النزر اليسير من المال، وتسود حياتهم البساطة والضبط وشظف العيش. وقادنا أحدهم إلى الطابق الأعلى وأرانا قاعات نوم الطلاب فوجدناها نظيفة مرتبة. وزرنا مختلف الصفوف. ولمحنا حاجاً شيخاً معمماً يحبه الطلاب على ما قيل لسرعة خاطره وحضور بديهته. ولا يختلف أحد إلى الصف الأعلى في الغالب. أما الصف الثاني فيمثل حداً قياسياً ما أن يبلغه الطلاب إلا ويصبحون معلمين أو في عداد رجال الدين أو ما إلى ذلك. وتدرس في المدرسة: الرياضيات، والفيزياء، والمنطق، والفلسفة، والشريعة، وعلوم الدين بالدرجة الأولى[1].

ومن المدرسة اتخذنا سبيلنا إلى الجامع. وخلعنا الأحذية، بطبيعة الحال، في فنائه قبل الدخول. صحبنا الكليدار، وهو قيِّم الجامع، وكان كهلاً وقوراً ومن رجال الدين الإسلامي. ولون الأعمدة التي تسند قوام الجامع هو الأزرق، وفيه كثير من الكاشي الجميل، كذلك السجاد، إنه يعود إلى 200 سنة في الأقل، ولكنه تمزق، وقد أكلت منه العثة، ولكن ألوانه ما زالت جذابة. أما طرازه وصنعه، فجميل متقن.

ومُكِّنا من زيارة الضريح، إنه تكريم خاص بنا، والضريح في غرفة خاصة به، بابها من الفضة الخالصة المطروقة، والقبر في الداخل محاط بشباك من فضة أيضاً وخشبه مزخرف محفور. وفتح الكليدار مُصحَفاً ثميناً مجلداً، وغلافه من الذهب الخالص وتزينه ماسات. إنه هدية من أنور باشا المعروف. وهناك شمعدانان كبيران جميلان من فضة، هدية من والدة أحد السلاطين الأتراك.

(1) ستضم مدرسة أبي حنيفة قريباً إلى الكلية العربية الجديدة والتي يجري بناؤها قرب طريق المعظم. وستكون هذه الكلية، بالدرجة الأولى، كلية دينية، ولكنها ستدرس قريباً الطب والفنون الصناعية والعلوم وكذلك يختلط الطلاب بشكل ودي للغاية. وستكون قاعات المحاضرات والمختبرات والصفوف جيدة. (المؤلفة).

أما المرقد السني الآخر الشهير ببغداد فهو للشيخ الكبير عبد القادر الكيلاني. إنه شيخ ذائع الصيت، جليل القدر، يحترم في كل مكان يدعو فيه مؤذن إلى الصلاة... ومن الهند إلى الصين المسلمة. ولد هذا المتأله الشهير في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وتوفي سنة 1166، وكان مولده بقرب بحر قزوين، وقدم بغداد وهو حدث صغير جداً، وفيها لبس الصوف الذي كان يلبسه المتألهون، وسرعان ما فاق أساتذته في التمسك بالفضل والزهد والمبدأ. ونسبت إليه الخوارق، وهرع إليه المريدون فأسس (الطريقة القادرية) وما زالت قائمة إلى يومنا هذا، والطريقة تشبه طريقة (العيساوي) في تونس، وطرق الدراويش في تركية.

وإخوان هذه الطرق كلها يدخلون في غيبوبة، نتيجة لبعض التمرينات الرياضية، والخلوات، والاحتفالات الممتعة للغاية. وأرجو أن أوفق إلى وصفها في كتاب آخر يصدر في قابل الأيام.

وتسكن الأسرة الكيلانية ببغداد. والعطايا التي انهالت عليها عبر القرون وتكدست جعلتها موسرة جداً. وشغل رأس الأسرة، نقيب بغداد، رئاسة الوزارة في الحكومة العربية. إن صفاته الشخصية الممتازة، وشرف مولده أضفت على الحكومة هيبة واحتراماً. وعلى الرغم من علو سنه فإن ما أسداه للحكومة ذو قيمة ونفع. والأسرة الكيلانية معروفة بطابع عقلي خاص، إن أفرادها يكلفون بالنظافة إلى حد الهوس. قيل إن إحدى قريبات النقيب تغسل أثاثها كل أسبوع، وتتردد في بغداد إشاعة مفادها أن النقيب نفسه يبادر إلى الاغتسال وتبديل ملابسه إثر الاتصال بأي غريب، تخلصاً من اللمسة المدنسة!.

ومرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني وجامعه يقعان قرب باب الشيخ[1]

---

(1) إنها المعروفة في التاريخ بمحلة باب الأزج. وكان هذا الجامع أولاً مدرسة للشيخ أبي سعد المخرمي، وبعد وفاته جلس فيها تلميذه الشيخ عبد القادر الجيلي... وممن عني بهذا الجامع من ملوك بني عثمان السلطان مراد الرابع فإنه لما جاء إلى بغداد لطرد الفرس... وجد هذا الجامع وجامع أبي حنيفة قد هدموهما وخربوهما فأمر بتشييدهما وأجرى عليهما الجرايات الوافرة. (المترجم).

ببغداد (والشيخ هو عبد القادر نفسه). وعلى الباب أبيات من الشعر قيل إنها للشيخ الكبير نفسه:

أفلت شموس الآفلين وشمسنا   أبداً على فلك العلى لا تغرب
أنا بلبل الأفراح أملأ دوحها   طرباً وفي العلياء باز أشهب

وعُرِف الشيخ عبد القادر بـ(الأشهب) أو الباز الفضي لأن الخيال العربي شبَّه روحه وهي تلامس شمس الشموس بالباز المتلألىء في أشعة القمر. ولن يدخل الأوروبيون (الجامع) عادة ما لم تتستر المرأة منهم بالعباءة والبرقع وتصحبها صديقة مسلمة. واتخذت سبيلي في أحد الأيام إلى داخله. إن فناء الجامع الخارجي واسع جداً، وهو يحتوي، بالإضافة إلى محل الوضوء المعتاد، على مصلى طلق مرتفع عن أرض المسجد، ومحاط بسياج. وفي أحد أركانه برج ساعة تدق مؤذنة بانقضاء كل ربع ساعة. وتحيط بالفناء غرف ينزل فيها الغرباء الزوار مجاناً. لذا كان للفناء طابع بيتي لطيف. وجلسنا على مربع من السجاد ننتظر الخادم عساه يفتح القبر لنا. ورأينا رجلاً يوقد شمعة في الفناء ويذبح دجاجة للطعام، كما رأينا امرأة تنشر الغسيل، وخمسة من القطط الجائعات يلتمسن شيئاً من كعك البائع المتجول. وعلى مقربة جلس في الشمس المحرقة شيخ يقرأ القرآن ويرتله ترتيلاً، ولا يرفع العين عن سطوره أبداً. وجلس عبر الساحة صبية صغار في مدرسة القرآن، والعين لا تجد لمعلمهم أثراً. لم يكن بيد أحدهم كتاب، وسمعناهم يرتلون القرآن، وعيونهم تحوم في الجهات كلها الواحدة تلو الأخرى. ويجلس الفقراء يتكففون من يدخل (الجامع) من الناس. هذا أحد الدراويش وله شعر طويل أشعث يرتدي الخلق من الثياب وبيده صحن يستجدي به وهو يجلس في استغراقة تأملية. وتتعالى القبة فوق الجامع كالجوهرة، وخلفها السماء الزرقاء تحوم حولها الفاختات... وقد ينزلن بين الفينة والفينة إلى ساحة الجامع.

ونفد صبرنا من طول الانتظار فابتعنا شيئاً من المخلَّلات والفطائر من أولئك الصبية الباعة المتنقلين الذين ينادون على بضائعهم بلا انقطاع ويوزعونها على لداتهم من صبية مدرسة القرآن. وسرعان ما أخذ الصبية بتلابيب بعضهم

بعضاً حول تلك اللقيمات اللذيذات... ولكن ها قد ظهر المعلم، إنه يزجرهم ويطلب إليهم المحافظة على الهدوء والنظام.

ودخلنا أخيراً طارمة الجامع، وهي مصبوغة باللونين الأبيض والأزرق، ومفروشة بالبسط وتركنا أحذيتنا بعهدة صبي، وتبعنا قيِّم الضريح، وفتح هذا باباً وأذن لنا بالدخول منه. إنه مصنوع من الخشب وعليه نقوش نفيسة، وعلمت فيما بعد أنه هدية من الهند إلى الضريح، شأنه شأن الأبواب الثلاثة الأخرى الموازية والتي يدخل منها المصلون إلى أماكن الصلاة الثلاثة. ذلك أن الجامع مقسم إلى 3 مصليات: للحنفية، وللشافعية والحنابلة، ولأصحاب كل مذهب أن يقوموا بشعائرهم الخاصة فيه. إن المصليات الثلاثة مفروشة بالسجاد الثمين. وفي داخل الحرم طارمة تؤدي إلى الغرفة التي فيها القبر، داخل قفص متين من فضة خالصة. وعلى القبر أغطية، وعلى جانب منه عمامة كبيرة خضراء، وفوقه ستارة حريرية معلقة. وحول القفص كتابات من آي الذكر الحكيم. وهناك نجفتان من زجاج تدلَّى منهما ما يشبه بيض النعام. إن هذه كل زينات الجامع بالإضافة إلى سجاده الفاخر وقفص القبر. وجلس رفيقي على ركبتيه وقرأ الفاتحة وحذوت حذوه. ثم مررنا بصف من المتكففين وفي مقدمتهم القيِّمون، ومن الضروري أن يكون المرء سخياً لدى زيارة مثل هذا الضريح العظيم. والصلاة في الجامع هذا أمر شخصي، فيما خلا الساعات التي يصلِّي فيها الناس جماعة. ورأيت شيخاً هرماً أعمى يتمتم طويلاً وكله تضرع وخشوع، ثم جاء أعمى آخر وألقى نفسه بقربه وسرعان ما رأيت الاثنين منهمكين في مفاكهة وأضاحيك.

والجامع هذا ليس بعتيق جداً، إنه في حالة جيدة، ويرجع بناؤه الحالي إلى القرن الـ 13 الميلادي، وعندما أعاد بناءه السلطان مراد وأجريت في قبته مؤخراً ترميمات وإصلاحات، وجد حولها تاريخ يؤيد أن قسماً من جامع السلطان سليمان القانوني الذي بناه في القرن الـ 16 ما زال باقياً. وقليل من المسلمين من يجلُّ الماضي ما لم يكن لذلك سبب من التقوى، والمرء يذهب نفسه حسرات على الروح البربري الذي لم يبق من بغداد في القرون الوسطى شيئاً.

ولم أتطرق بعد لجوامع بغداد الحديثة كالآصفية[1]، والحيدرخانة والأعظمية، زينة شمالي المدينة، وجامع السراي. إن العاصمة لتزدهي بقببها الزرق ومآذنها الفنية. إنها من الوجهة الفنية، تتسم بالطابع التقليدي.. ففيها خطوط بسيطة من البناء بالآجر، وهي باردة رحيبة، ذات زخرفة فيها اتزان ورواء.

لقد ثبت أن الدين في العراق هو الحامي الأمين لكل جميل، ولا مجال فيه لزخرفة بلا ذوق أو تنسيق أو البهرجة. و(الأوقاف) بحاجة إلى معماري، والبنَّاء العربي يجري في عمله على ما سار عليه آباؤه الأولون. إنه ينتج ما ينطبق على خصائص البلد، وبذلك يتفوق على الأوروبي بشرط أن يقوم بعمله على الوجه الأتم. إن في هذا البناء العربي لغناء وكفاية.

(1) هو من المساجد القديمة في الجانب الشرقي من بغداد مطل على دجلة... «وعلى كر الليالي ومر السنين تضعضعت بنايته... حتى تداركته همة الوزير داود باشا أيام ولايته على بغداد فرفع قواعده وبنى فيه مصلى واسعاً عليه قبتان وبنى عند جانبيهما مئذنتين بالحجر الملون الكاشاني وجعل فيه مدرستين». وبعد الاحتلال شادت وزارة الأوقاف فوق بقايا إحدى مئذنتي جامع الآصفية مئذنة شامخة.
راجع: (جوامع بغداد وآثارها للآلوسي). (المترجم).
وهذا الجامع كان بعضه من دار القرآن في المستنصرية التي لا يزال إيوانها قائماً وكان متخذاً دكاناً، وهي والمدرسة المستنصرية كانا من دار أمير الأمراء مؤنس المظفر مقدم الجيوش العباسية أيام المقتدر بالله. تعليق... الدكتور مصطفى جواد.

الفصل الثالث

الموصل[1]

كثر الحديث عن مصير (الموصل) وطال. واستقر مصيرها في وقت كتابة هذه السطور[2] إذ أعلنت الدول المتحالفة أن لا سبيل قط إلى فصلها عن بلاد

---

(1) لعل الموصل بنيت أول مرة على بقايا حصن آشوري. والاسم الآرامي القديم الذي كان يطلق على الموضع الذي بنيت فيه هو: (حصناً عبراياً) ومعناه (الحصن القائم على الضفة الأخرى من النهر). ولا تنس أن الآرامية سامية، وليست بالعربية، وكان يتكلم بها السيد المسيح ﷺ. وكانت الموصل تسمى في عهد الساسانيين باسم (نواردشير) ومعناه (المدينة الجديدة). وقد فتحها عتبة بن فرقد في أيام عمر بن الخطاب وقام العرب المسلمون بعد ذلك بإنمائها وسميت (الموصل) لوقوعها بين محل يتوسط بين بلدان آسية العربية. وبقيت المدينة من أهم المحطات للقوافل التي تنقل التجارة من الهند إلى أوروبا وبالعكس إلى أن تم حفر قناة السويس. وزار المدينة كثير من الجوابين الأوروبيين القدامى ومنهم ماركوبولو البندقي الشهير (1260م)، ووصلت المدينة قمة مجدها خلال القرنين الـ 12 والـ 13 وأيام الأتابكة الذين حكموها. وأشهر هؤلاء الحكام (بدر الدين لؤلؤ) الذي استطاع أن يتفاهم مع المغول الغزاة فجنب المدينة شرهم. وحاول ابنه (ملك شاه)، على النقيض من ذلك، أن يقاوم قائد المغول (هولاكو) فما كان من هذا إلا أن ينقض على الموصل (1262) ويسحق حاميتها ويقتل (ملك شاه) نفسه. وجاء (تيمورلنك) بعد ذلك ليضربها في نهاية القرن الـ 14 ضربة قاصمة أخرى ويحيلها خراباً قفراً. وفي القرن الـ 15 أصبحت الموصل تحت حكم العثمانيين، ثم أصبحت في القرن الـ 16 تحت حكم إسماعيل شاه الفارسي. وفي سنة 1516 استعادها السلطان سليم الأول العثماني وبقيت تحت حكم العثمانيين حتى سنة 1918 ثم أصبحت من أهم مدن العراق الحديث. ويطلق على الموصل (الحدباء) لاحتداب في دجلتها و(أم الربيعين) لأن الأعشاب تنبت في أرضها مرتين في السنة. (المترجم).

(2) كان ذلك قبل نحو من أربعين سنة. فإن الكتاب طبع سنة 1923. (المترجم).

الرافدين. وأثار ادعاء الأتراك بملكية الموصل كثيراً من القلق في مؤتمر أنقرة. فالقضية قضية موت أو حياة، لا قضية من يمتلك المدينة، هذه الدولة أو تلك. فلو أعيدت الموصل إلى الأتراك لأجهز ذلك على جميع بوادر الحياة، وقد أخذت تدب فيها الآن، ولقضي على كل أمل لها في التقدم والازدهار، ولرجعت القهقرى إلى أساليب الحكم القديمة: التعصب والاضطهاد. والموصليون يحلمون اليوم بالطمأنينة والرخاء ويتطلعون إلى مستقبل كله، بالنسبة إلى عقيدة المرء ـ يسر وإسماح. إذ سيكون الاعتبار الأول للكفاية والمقدرة. . . إن الموصليين يتطلعون إلى مستقبل تستعيد فيه (مدينتهم) أهميتها القديمة وثروتها. وها قد بدأت حركة الابتعاث اليوم. فلو فتحت كتاباً عن الموصل فيما قبل الحرب لوجدته يصفها بالقذارة، ما في ذلك شك. أما اليوم فقد أزيلت الوصمة هذه إلى غير رجعة، وأصبحت المدينة من أنظف مدن العراق، ونظيفة حتى بالنسبة لمدن جنوبي أوروبا، لا الشرق فحسب. وفي الموصل شوارع واسعة مهندمة، وأبنيتها من صخر ورخام، ولو وقفت في شارع نينوى لرأيت بيوتاً متينة حسنة البناء، وشبابيكها مدرأة[1] وواجهاتها وطوقها من رخام حتى ليخيل للمرء أنه في إحدى مدن إيطاليا. لا أثر في الموصل للقذارة التي يوصم بها الشرق عادة، وشوارعها نظيفة مضاءة بالكهرباء، ويجري تأسيس مشروع لإسالة الماء فيها[2]، كما أن هناك مشاريع عدة لتحسين حال المدينة. وبإيجاز، ستصبح الموصل مدينة عصرية تتوافر فيها أسباب الراحة كلها. ولعل من مظاهر ازدهارها نشاط أسواقها وازدحامها بخلق عظيم. ففيها تشاهد الأكراد وهم مدججون بالسلاح والسكاكين وفي لباسهم طيّات عدة، وإنك لتشاهد أيضاً اليزيدية بملابسهم الخاصة وقمصانهم ذات الفتحة المدوّرة والآشوريين الأشداء من سكان الجبال، والكلدانيين الذين قدموا المدينة من القرى المسيحية وهم يلبسون السراويل الفضفاضة وفوقها صدريات بهيجة الألوان. وإنك لترى البدو وقد لفحت الشمس وجوههم السمر، وغيرهم أناساً مختلفي العقائد واللغة. . . وكلاً يروم بيعاً أو شراء قبل

(1) في الأصل Grilles والمدرأة من دريئة وبمعنى مشبكة. (المترجم).
(2) تم مشروع إسالة الماء في الموصل منذ عشرات السنين. (المترجم).

أن يقفل راجعاً إلى بلده القاصي البعيد. وهناك كثرة كاثرة من كل شيء، وفي كل مكان. فاللحم في الموصل رخيص، بل وأرخص منه في أية مدينة أخرى في العراق. والفواكه والمخضرات معروضة في الأسواق، وهي بمنظرها تسر الناظرين. وعندما وصلت الموصل كان يخيل لي أن كل واحد من أهلها لا بد وأن يحمل القثاء الضخم، وتملكني العجب من ذلك، ولعل السبب فيه أنه موفور، وهو كسائر المخضرات والفواكه في المنطقة ينمو فيصبح كبير الحجم. ولم أر عنب الثعلب Gooseberry. الضخم هناك، وليس بدٌّ من أن يظهر في الأسواق إبّان موسم نضجه، إن نما هذا فعلاً في العراق.

وحظ الموصل دون حظ بغداد والبصرة في أمر واحد: إنها معزولة عن العالم بسبب فقدان السكة الحديد[1]. وهذا جد غريب بالنسبة إلى بلد التجار والتجارة ـ الموصل. إنها تقوم في وسط منطقة زراعية ـ صناعية كبرى، كما إنها في منتصف الطريق بين بغداد وسوريا، وتقع أيضاً على طريق القوافل القديم، كما كانت في ماضيها إحدى الأسواق العالمية في القرون الوسطى. ولم تكن يوم ذاك (قناة السويس) ليتيسر نقل البضائع عن طريق البحر الأحمر، كما كان الطريق البري المعتاد يمر في حلب فالموصل وبغداد فبلدان الشرق الأخرى. واشتهر أهل الموصل في أيام العباسيين بإنتاج نسيج قطني لطيف يسمى بـ(الموصلي) وكانت له سوق رائجة في أنحاء الدنيا كلها. وعلى الرغم من أن التجارة نأت عن الموصل منذ أمد طويل فالاسم (موزلين (Muslin) أصبح علماً على النسيج الرقيق الذي كان الموصليون ينتجونه في الماضي.

والموصل قلب منطقة خصيبة عجيبة من الأرض. فالحبوب موفورة إبّان الحصاد في مزارعها، والأرض المعطاء تأخذ زخرفها وتزيّن بالزهور، ومنها ما يخرج من شقوق الصخر. وليست الموصل اليوم بمركز منطقة بترولية، على أن الأمل قوي بآبار (القيّارة)[2] وغيرها فليس بد من أن تضم ثروة لم يكشف عنها بعد.

---

(1) المؤلفة تسرد الوضع على ما كان عليه إبّان تأليفها الكتاب. ولقد تم بعد ذلك مد السكة الحديد فاتصلت الموصل ببغداد وبالعالم الخارجي. (المترجم).

(2) منحت الحكومة العراقية شركة نفط الموصل بموجب الاتفاق المعقود في 30 نيسان 1932 =

ولعل في التلال ثروة أخرى مصدرها المعادن، وهو ما ستكشف عنه المشاريع في قابل الأيام. إن منطقة الموصل تنتج اليوم العفص والصوف والفرو والزيت والشراب، وما إلى ذلك مما يبهج قلب الإنسان. . . فلِمَ تحرم الموصل إذن ولا توصل بالسكة الحديد؟ لقد وضعوا التصاميم الكثيرة لمشاريع السكة، ولكن لم يسفر عنها شيء. وتحدث الألمان عن إيصال خط برلين ـ بغداد إليها، ولكن لم يتحقق من مشروعهم هذا شيء. ولعل الموصل من هذه الجهة أشبه ما تكون، (الإنسانية) التي أشار إليها الشاعر بوب Pope في بيته المشهور:

«فهو شيء لم يوجد في يوم من الأيام   وهـو الـمـبـارك الـسـعـيـد دومـا»

وأقرب نقطة لسكة الحديد اليوم هي (شرقاط) على بعد 65 ميلاً جنوب الموصل. والخط هذا هو امتداد السكة الحديد التي أنشأها الألمان وربطوا بها بغداد بسامراء قبيل الحرب العالمية. إنهم أنشأوها لمقاصد حربية وعلى ما تؤيده جميع الدلائل، ومنها المحطات التي هي أشبه ما تكون بالقلاع. ولقد قمنا بمد الخط هذا لمسافة 100 ميل، وهو شيء مؤقت، وليس في هذا المشروع أية لازمة من لوازم السكة الحديد كالجسور، والغاية منه تموين القوات البريطانية المحاربة التي احتلت الموصل إثر الهدنة. وشرقاط هي منتهى الخط ولا سبيل بعدها صوب الشمال. ولو سار المرء على طريق خط بغداد ـ القسطنطينية متجهاً نحو الموصل لوجد أن من الضروري الرجوع 10 أميال إلى وراء لكي يتسنى مد الخط عبر صحراء يباب لا ماء فيها، ولأدرك ما يكلفه مد الخط من مال كثير، وبدون جدوى، ما لم يؤخذ بمقترح الألمان القاضي بإيصال الخط إلى سوريا.

= امتيازاً لاستثمار المناطق النفطية الواقعة في غرب دجلة والبالغة مساحتها 42968 ميلاً مربعاً. وقد اختارت الشركة منطقتي عين زالة والقيارة لاستثمار نفطها فمدت خطاً من الأنابيب من قطر 12 عقدة يمتد من حقول عين زالة حتى يتصل بخط أنابيب كركوك الذي ينتهي إلى البحر المتوسط. أما طول هذا الخط فيبلغ 134 ميلاً وقد انتهت الشركة من مدة في سنة 1953 وبلغ مجموع ما انتجته هذه الشركة من حقول عين زالة القيارة حوالي 8،5 ملايين طن وأن الإنتاج سنة 1959 (400 ر170 ر1) طن. (المترجم).

وهناك خط آخر يقترحه البعض، وهو طريق يقتفي آثار سبيل التجارة القديم والذي سلكه المتحاربون والتجار في انتقالهم من الشرق الأدنى إلى الشرق الأقصى ومن سوريا والشمال إلى فارس والهند وما خلفهما. ويعبر الطريق هذا دجلة عند الموصل ماراً بأربيل وآلتون كوبري وكركوك وكفرى ومحاذياً التلال الكردية الكائنة على الجانب الشرقي من دجلة. وتلتقي بهذا الطريق طرق (كردستان) التجارية. ولو تسنى مد سكة الحديد لمكّن ذلك تجار الجبال من أن ينحدروا إليه ومعهم التبوغ والزبيب والفرو وما إلى ذلك، وعلى ما كان يحدث في الأيام الخوالي، وعندما كانت تسير القوافل بمهابة وجلال وهي تتجه صوب الجنوب. لقد تم إيصال السكة الحديد من بغداد إلى كفرى[1]، والظاهر أن الاستمرار على عملية مد السكة الحديد لا تعدو أن تكون قصة وقت ليس غير. إن الخط يمتد في منطقة تزرع الحبوب، وبذلك يمكن إيصال هذه المنطقة بمنطقة مماثلة أخرى ونعني بها المنطقة الكائنة شمال شرقي الموصل وغربها. بذلك كله ستستعيد المناطق هذه ماضيها الزاهر وستسودها الطمأنينة والسلام وستتصل الموصل ببقية مناطق العراق بواسطة السكة الحديد فيلتقي الشمال الغني بأسواق الحبوب مرة أخرى.

إنها صورة ماثلة أمام أعين الموصليين، ولو أعيدت مدينتهم إلى الأتراك لذهبت آمالهم هباء وبدداً. ومن المحقق أن حكومة العراق وأهله لن يقدما على الصرف على مشاريع كهذه ما لم يتقرر مستقبل البلد فعلاً. وتبرَّم الناس كثيراً من تأخير اليوم الذي تتم فيه التسوية النهائية مع الأتراك فذلك معناه تأخير مشاريع الابتعاث واستثمار موارد البلد وثروته. وخير فصل تزور فيه الموصل هو فصل الربيع ففيه تزدان السهول والتلال الكائنة شرقيها بالورود والرياحين والأزهار البرية من مختلف الشكول والألوان. ثم يأتي موسم الحصاد في أعقاب الربيع، والربيع قصير الأمد، ويحل الصيف فيستمر لـ 12 أسبوعاً وترتفع درجة الحرارة كثيراً، وتهب خلاله الرياح اللافحة ويكون لون الأرض في الريف رمادياً وهي قفر جرداء حتى يحييها ماء المطر في الشتاء فتصبح جنة الله في أرضه كرة أخرى. وطريق شرقاط، باستثناء الـ 12 ميلاً

---

(1) هذا الخط استمر بعد ذلك إلى كركوك، ومنها إلى أربيل. (المترجم).

الأخيرة منه، وعرة، فإن هطلت عليه الأمطار انقطع. وإذا ما سار عليه المرء أصابه من سفره نصب ثم تتراءى له بعد لأي الموصل من فوق إحدى التلال، فإذا هي على حافة الأفق وتحتها واد يجري فيه نهر دجلة العريض، وعلى ضفتيه المزارع الخضر، هذه مآذن وقباب جوامعها تتراءى فتضفي على المدينة مسحة من المهابة والقدسية. وسارت بنا السيارة وهي تنحدر على الطريق المؤدية إلى المدينة، وهي طريق شقتها حكومة الاحتلال في محاذاة النهر، حتى أصبحنا على مقربة من جامع (النبي شيت) بمنارته ذات الأحواض الثلاثة[1]. ثم اتخذنا سبيلاً يؤدي إلى المدينة مباشرة وماراً من مقبرتها. والمقابر هنا كالأسوار تحيط بالمدن.

وأسوار الموصل تضفي عليها مسحة مدينة من مدن القرون الوسطى، وذلك على الرغم مما طرأ عليها من تجديد عصري. وهي ليست ضاربة في القِدَم، فقد أعيد بناؤها سنة 1736 وللأسوار هذه تاريخ مشرف ذلك أنها مكنت المدينة من الصمود بوجه نادر شاه حينما زحف عليها في منتصف القرن الثامن عشر. عسكر جند الغازي الفارسي على تلال نينوى واحتل القرى المتصلة بها. وحاصر المدينة ستة أشهر ولكنه بعد ذلك رفع الحصار عنها. إن كل ما أرجوه ممن يتصدى إلى تجديد المدينة وتحسين معالمها ألّا يمس هذه الأسوار بسوء[2]... إنها متعة الناظرين وأخص بالذكر منها الحصن المتهدم الكائن في بابها الشمالي، وعلى مقربة منه بنايات وقبور تبعث الاهتمام.

وفي مطلع القرن الثالث عشر عاش في الموصل السلطان بدر الدين لؤلؤ، (وهو ينتسب إلى أسرة عطار بك)[3] وكان رجلاً على جانب من التقوى

---

(1) يقع في الجنوب الشرقي من المدينة ويقال إنه فيه قبر (شيت) الابن الثالث لآدم قيل إن بناءه تم بإرغام من قبل مسيحي أراد أن يثأر لأمته فجعل المنارة ذات 3 أحواض رمزاً للتثليث وهناك ـ بالمناسبة ـ مذهب مسيحي ينكر أتباعه التثليث ويؤمنون بالتوحيد. «Unitarianism». (المترجم).

(2) أزيلت هذه الأسوار، ولم يبق منها اليوم إلا شيء يسير على ضفة دجلة، وأطلال القلعة المعروفة بـ«باش طابية». (المترجم).

(3) هكذا وردت اللفظة في الأصل مصحفة وصوابها «الأتابكة». تعليق: الأستاذ كوركيس عواد.

وحب العمارة. وكان قصره قائماً على ضفة النهر وضمن سور المدينة الشمالي وكجزء منه، وما زالت زخرفة الظهارة[1] باقية على العقد، وخير شاهد على ما كان عليه البناء آنئذٍ من جودة ومتانة[2]. ويقوم قبر السلطان على مقربة من القصر وبجانبه قبر الست فاطمة (وهي مقبرة السادة). رحمه الله لقد أغنى المدينة كثيراً. وبنى بدر الدين لؤلؤ قبر (الإمام يحيى) على مقربة من النهر، ومزاره جميل وصغير وتعلوه منارة هرمية مثمنة الأضلاع والزوايا، وهي ليست على غرار القبب المعتادة. وعلى واجهة المزار كتابات عربية بالخط الكوفي. وتفيد إحدى هذه الكتابات[3]: إن العبد الفقير لؤلؤ بن عبد الله، ملك الموصل، بنى الجامع ليفيد منه المؤمنون وينعم هو برضاء الله. وعلى جانب من القبر تاريخ بنائه وهو 619 هجرية. ولكي يبلغ المرء الضريح عليه أن ينزل درجات تفضي إلى غرفة مساحتها 24 × 27 قدماً يتوسطها القبر وتعلوه قبة. وعلى القبر غطاء طرزت فيه كتابة. وتحت الغطاء صندوق خشبي، ولكنهم لم يكشفوا لنا عنه. وكاشي السقف مموه، وفيه اللونان الأزرق والأحمر... ولكن لم يبق منه اليوم إلا القليل. وكان البناؤون في ذلك العصر يكلفون بنقر الطابوق الصلد على غرار الحفر في الخشب.. وإنك لتجد فيه اليوم كوى مزخرفة، هنا وهناك... وكلها على الطراز التقليدي المعروف.

وعلى البناء من الداخل كتابات ترتفع عن الأرض بـ 4 أقدام، وتحتها حاجز من رخام فيه زخارف عميقة النقش. وهناك محراب محفور ومصنوع من رخام أسود وعلى المحراب كتابات وأمامه صندوق خشبي محفور أيضاً وبداخله نسخة قديمة من القرآن وهي تأتلف من 40 مجلداً. وفي الحق إنهم صانوا هذه النسخة إذ إن الجانب الأكبر من الرق الأصلي باق... وكل صفحة منه تحتوي على كتابة كبيرة مزخرفة، وهي واضحة جلية.

---

(1) في الأصل Stucco Ornament والظهارة آخر طبقات البياض في جدار. (المترجم).

(2) تعرف أطلال قصر بدر الدين لؤلؤ، في هذا العصر، باسم «قرة سراي». تعليق: الأستاذ كوركيس عواد.

(3) راجع نص هذه الكتابة الأثرية، في كتاب «مجموع الكتابات المحررة في أبنية مدينة الموصل» جمع نقولا سيوفي، وتحقيق سعيد الديوه جي (مطبعة شفيق ـ بغداد ص142). (المترجم).

أما في الخارج فللضريح دعامة قوية بنيت على ضفة النهر لتقيه خطر الانهدام والسقوط في دجلة. والدعامة هذه حديثة، والجدار القائم على النهر يحتوي على كتابة محفورة وزخرف. وإنك لتقرأ عليه (الحمد لله) وكأنها صادرة من أعماق النفس البشرية... إنها الرمز التقليدي الذي يعبر عن فرحة البنّاء إثر فراغه من تشييد بناء.

إذا سرنا على آثار تحصينات المدينة الشمالية مارين بقبر ـ الشيخ محمد أبي الوفاء ـ أحد أولياء الله الصالحين وممن عاشوا في القرون الوسطى ـ وقيل إن زهده وتقواه كانا سببين في إحباط أحابيل زوجة أحد أصدقائه، على ما يقصّه أهل الموصل ـ لوصلنا مزاراً آخر، وقد تهدم بالإهمال ويا للأسف.

إن هذا المزار ويعرف بـ(بنجة) ـ أي الأصابع الخمسة في اليد ـ قائم في منطقة عجيبة. لقد أنشيء بين القرنين الـ 6 والـ 7 للهجرة، وما زال الجدار الغربي قوياً من الداخل، وعليه كتابات ونقوش. ولم يصب المحراب بسوء أيضاً، على الرغم من أن الريح تلعب فيه من الجوانب كافة. وما زالت من الطاق بقية وعليه زخارف غريبة هي من مخلفات عصره المتميزة.

وهناك (بنجة علي) أخرى ببغداد، بل وفي غيرها من بلدان العراق. وإذا ما واصلنا السير على آثار سور المدينة وصلنا إلى قبر متواضع يجل صاحبه رجال الدين، ففيه يرقد، على ما هو متواتر، المؤرخ العربي الكبير: ابن الأثير[1]. وعلى مبعدة من قبره مقبرة لجنود الأتراك الذين هلكوا بالتيفوس إبّان الحرب العالمية.

لم تكن السكنى في الموصل بمستحبة خلال الفترة الأخيرة من الحرب فلقد فشى فيها التيفوس وداهمتها المجاعة. ومن القصص الشائعة ما يدور حول أكل اللحم البشري إبان ذلك العهد المفجع. وقبل أن يحتل البريطانيون

(1) هو قبر عز الدين بن الأثير، المتوفى سنة 630هـ، مؤلف كتاب «الكامل في التاريخ». وقد جدد قبره في السنوات الأخيرة، في بناية تقرب من موضعه القديم الذي أشارت إليه المؤلفة. (المترجم).

المدينة سنة 1918 حوكم بعض أهاليها بجريمة القتل وأكل اللحم البشري، كما شنق أحد الجزارين وقد كان يبيع هذا اللحم علناً في المدينة.

ولعل أقدم جوامع الموصل[1] وألطفها طراً هو (الجامع الكبير) القائم في وسط المدينة. فمئذنته مبنية بأجود أنواع الآجر، وفيها نقوش محفورة. إنها مائلة بشكل مخيف، وبذلك تشبه برج (بيزا) المائل. لقد حاولوا أن يعيدوا توازن قمة المئذنة في يوم من الأيام. وبين الجامع والمئذنة صحن كبير وفيه محراب منقوش بالحفر، كما أن فيه محلاً للوضوء وفيه زخارف مماثلة وبئر لطيفة.

ومما لا شك فيه أن الجامع لا يعود إلى عصر النبي، على ما تقول إحدى الأساطير، فهو لم يُبْنَ إلا في القرن الـ 12 للميلاد وقد بناه الشهيد نور الدين، وكان صلاح الدين (الأيوبي) ضابطاً في جيشه في يوم من الأيام. وعندما مر المؤرخ العربي (ابن بطوطة) بالموصل في القرن الـ 14 زار الجامع الكبير هذا وشاهد فيه حوضاً من رخام مثمن الأضلاع وكانت فيه نافورة ينبعث منها الماء فيرتفع إلى علو كبير. وتدعم سقف المصلّى أعمدة حجرية، وبعض رؤوسه محفور ومنقوش على الطراز الموصلي المعتاد. وعلى المحراب كتابة كوفية، ومثلها على إحدى النوافذ المربعة الموجودة في كوة عميقة قريبة من المنبر. وتمثل هذه النافورة بزخرفها الدقيق الفن الموصلي في ذلك العهد. ويرجع المنبر إلى ما قبل 240 سنة فقط. وليس في هذا الجامع من السجاد القديم ذي الألوان اللطيفة شيء، وأرضه مغطاة بالبسط القطنية. وبنى السلطان بدر الدين لؤلؤ، وهو بنّاء لا يعرف الكلل ولا الملل، جامعاً آخر، هو جامع الإمام عون الدين بن حسن بن علي. وفوق بابه رخام منقوش وملون، والباب نفسه موشًى وعليه كتابة صغيرة تدل على أن بانيه هو المدعو عمر بن حضر والي سيد محمود المالكي البدري رحمة الله عليه. والظاهر أن قد أعيد بناء الباب، وأسكفتها مخضبة بالحناء مما تجود به النسوة الشاكرات إثر استجابة

(1) في الموصل جوامع ومساجد كثيرة، أهمها الجامع الكبير (النوري) ويزيد ارتفاع مئذنته القديمة على 50 متراً ويرجع تاريخ إنشائها إلى القرن السادس للهجرة. إنها من أقدم المآذن في العراق كما أنها أطول مئذنة فيه، وهي منحنية وطرازها غريب. (المترجم).

دعائهن وصلاتهن في المزار. وليست قبة الجامع وما عليها من زخرف بجميلة كقبة الإمام يحيى وإن كان شبه بين القبتين، وهناك إفريز من رخام منحوت يحيط بما في داخل الجامع، ومحرابه مصنوع من رخام أسود وأمامه إطار توقد فيه شموع النذور. وقبر الإمام مغطى بصندوق خشبي منحوت وعليه كتابات دينية.

وعانت كنائس الموصل، ومنها ما هو موغل في القدم، كثيراً من الإغراق في الصيانة والترميم. فالحجر والرخام في الموصل موفوران، فلا فرق بين الصيانة وإعادة البناء من حيث الكلفة. ولهذا السبب بالذات فقد الكثير مما يعنى به الخلف. وتطوع قس كلداني كريم أن يرينا جانباً من هذه الكنائس. والقس هذا يعنى بإدارة معهد لاهوتي يتخرج فيه القساوسة والرهبان، وطاب له أن يرينا صفوف المعهد المرتبة، وقاعات النوم فيه ومطاعمه. كما قدَّم لنا الأخوات الراهبات الباسمات وهنَّ يرتدين المآزر الحريرية، وكان الطلاب ينظرون إلينا بعيونهم السود وهم يرتدون الأردية السود ويمضون إلى الكنيسة لأداء الصلاة.

وأفلتت كنيسة مر شمعون[1]، وهي كنيسة شمعون الصفا التي ترجع إلى القرن الـ 14، من يد الصائن المرمم، أو كادت. إنها حرية بالريازة، وهي دون صعيد الشارع، ويمكن الوصول إليها بالنزول من سلَّم. إنها ساذجة الطراز للغاية، ولا تختلف في طرازها عن كنائس المنطقة: فالمذبح منعزل عن بقية هيكل الكنيسة بستارة ضيقة فيها فتحات، وعلى كل فتحة طاق، ومنها ينفذ إلى المذبح. والستارة في هذه الكنيسة، كما في سائر الكنائس الأخرى ملونة ومنقوشة. وهناك سلَّم آخر يؤدي إلى صعيد الأرض مرة أخرى، وإحدى درجاته مصنوعة من حجر نحت بشكل غريب، ولعله منقول من محل آخر. والبلاطة مزخرفة بالزخرف العربي ومنقوشة نقشاً بارزاً وفي وسطها رأس أسد. وأعلمنا دليلنا، ولست أعلم مدى الحقيقة في قوله ـ أن الحجر هذا كان فيما

---

(1) (مر) وتكتب مار لفظة سريانية معناها السيد وهي لقب يطلق على القديسين والأساقفة. (المترجم).

مضى جزءاً من قبر شخص يدعى عبد الجليل، وهو من أسرة ما زالت تقيم ببغداد. وكان عبد الجليل هذا في الأصل مسيحياً ثم أسلم فغدت أسرته محمدية موسرة.

أما كنيسة القديسة مسكنتة فقد بنيت، على ما يقال، في القرن الثاني عشر، وأعيد بناؤها مرة أخرى فلم يبق شيء من بنائها الأصلي. ومسكنتة قديسة كلدانية شهيرة. وفي يوم زيارتنا لكنيستها كانوا يحتفلون بعيد القديسة، فالنساء وهن يلبسن المآزر الحريرية مزدحمات في القسم المخصص لهنَّ في الكنيسة، وكانت الشموع تتلألأ في ممراتها. والقديسة مسكنتة موصلية وكانت أرملة لها طفلان رأى كل منهما بأم عينيه فواجع الاستشهاد في الأيام الخوالي، أي في أيام التبشير المسيحي الأولى. ويقال إنها ما زالت تفعل الأعاجيب على من تصيبه الأرواح الشريرة بشرِّها.

وقريب من هذه الكنيسة مسكن غبطة بطريرك بابل على الكلدان. والبطريرك هذا رجل محترم جذَّاب، وهو يشغل منصبه منذ سنوات عدة، ويحبه أتباعه حبّاً جمّاً.. إنه مهيب المنظر يرتدي طيلساناً عجيباً فيه اللونان: القرمزي، والأحمر الداكن، ويضع على رأسه طاقية مقرمزة وهو يمتلك صليباً ضخماً ويرسل لحيته البيضاء. وبيته لطيف وفيه فناء بارد، وأرضه مفروشة بالرخام الرمادي. واحتسينا القهوة في بيته لدى زيارتنا له أول مرة، وتفضل فأرانا شقق البيت في طابقه الأعلى، وخزانة كتبه، وغرفة استقبال الضيوف وفيها كرسي هو أشبه ما يكون بعرش صغير. وتزين جدران الغرفة صور البطاركة السابقين وفي وسطها صورة كبيرة للبطريرك الحالي نفسه. والمونسينور توما[1] مولود في (ألقوش) حيث ولد النبي ناحوم. ولقد سافر إلى أوروبا مرات عدة وزار فيها كلاً من المسيو بوانكاره والمستر لويد جورج. ويكلف الرجل بالتحدث عن رحلاته وعمن أصبح في عداد أصدقائه خلالها. وأطلعنا

---

(1) هو البطريرك الكلداني الأسبق يوسف عمانوئيل توما الثاني، المولود في ألقوش سنة 1852، المتوفى في الموصل سنة 1947 وقد لبث بطريركاً منذ سنة 1900 حتى وفاته.
تعليق: الأستاذ كوركيس عواد.

على سجادة حاكتها بنات الموصل وقدمنها له في مناسبة يوبيله. والسجادة معلقة على جدار خزانة كتبه، وموضوعها: عيد الميلاد Nativity.

والموصل مركز ديني كبير بالنسبة للمسيحيين، فلا يقيم فيها بطريرك الكلدان فحسب وإنما يقيم فيها رئيس أساقفة السريان والمونسينور بيري، رئيس أساقفة بغداد، والقاصد الرسولي إلى بلاد ما بين النهرين وكردستان وأرمينية الصغرى، ورئيس أساقفة السريان القدماء (اليعاقبة) وبطريرك النساطرة الآثوريين ـ الكلدان.

وفي الموصل، كما في بغداد، أخوات التقدمة من طائفة الدومنيكان وهنَّ فرنسيات مخلصات عُنين بواجبهن في ميداني التعليم ونشر الثقافة بين بنات المدينة. وأصيبت البناية التي كانت الأخوات يشغلنها إبان الحرب بضرر بالغ كما نهبت إبان احتلال المدينة عسكرياً، ويجري الآن إعادة بنائها تدريجياً. واضطرت الأخوات إلى الهروب من الموصل في نهاية الحرب والالتجاء إلى فرنسا، ثم عدن بأسرع ما يمكن بأخرة. إنهن متوردات الخدود، تغمر قلوبهن الرحمة، وهن وضيئات الوجوه ويرتدين ملابس من الصِّرج[1] وقبعات واسعة منشّاة. إنهن يعنين بالأيتام طوال نهارهن، فهن يلبسنهم الملابس ويصلحنها عند اللزوم. وهن يطعمن الأيتام ويقمن على تنشئتهم النشأة الصحيحة. والأيتام هؤلاء من ضحايا المذابح وقد جاء بعضهم إما كجريح أو مصاب بحروق وقد أفزعه ما رآه من فواجع وأهوال. فلقد تركت إحدى الفتيات الصغيرات النحيلات بين جثث القتلى، وبضمنهم أبويها وجيرانهم، لمدة يومين إلى أن عثر عليها أحد المسلمين فجاء بها إلى بيته ثم سلّمها إلى الأخوات الراهبات. وما زالت إحدى الفتيات وقد قتلوا أمها على مرأى منها، مذعورة مخبولة منذ ذلك الحين وليس بد من أن يمضي وقت طويل قبل أن تمحى الصورة المخيفة من مخيلتها وتستعيد حالها السوي.

وتدار المدرسة والميتم على أساس الاكتفاء الذاتي، فالبنات يصنعن

---

(1) في الأصل Serge وهو ضرب من القماش يكون من صوف أو حرير. (المترجم).

المطرزات، ولا سيما المطرزات الحرير الموشاة بالذهب مما يرتدى كثيراً في الأعراس، ويبعنها. ونهب أثاث الأخوات الراهبات إبان أيام الحرب السود، ولم يسترجع منه إلا كرسي واحد عثر عليه أحد المسلمين الأصدقاء فأرسله لهن. وحتى طبق الكنيسة اختفى عند بعض أهل المدينة ولكنه عاد اليوم إلى محله في مصلَّى الدير المهندم اللطيف!.

الفصل الرابع

الديارات القديمة... والقديسون الأولون

حقَّ للمسيحية في العراق أن تزهو بمعاصرتها لشقيقتها كنيسة روما. لقد كانت دوماً بمنجاة عن الاتصال بسفسطة الغرب، لذلك احتفظت بما ساد الدين المسيحي في عصوره الأولى من بساطة وحماسة. وتاريخ المسيحية هذه تاريخ من الاضطهاد المتواصل. فما أن تحررت من معارضة كهَّان (بعل) و(عشتار) لها إلا وأحنت الرأس للمسلمين إثر فتحهم العراق وكردستان. واستحالت بعض كنائسها إلى جوامع إسلامية. ولكن بعض المواقع القديمة بقيت، على الرغم من ذلك، معابد مسيحية لأكثر من 1000 سنة. ومنها ما بقيت ديارات تضم رجالاً انصرفوا بكليتهم إلى حياة التأمل والاستغراق منذ أن زحف (يوليان الجاحد) تداعب خياله أحلام جريئة، وهو يسعى إلى إرجاع الوثنية إلى أرض الرافدين. ذلك أن هناك كثيراً من الرجال الذين ينحون منحى المرتدين ممن عرفهم تاريخ المسيحية الطويل. والمتواتر أن الرسل: (بطرس) و(توما) و(برثولماوس) و(متّى) و(يهوذا بن يعقوب) و(تدّاوس) وعظوا الناس بالكتاب المقدس في نفس الأرض التي قام فيها الصرح المدرَّج (الزقورة) شاخصاً بين السهول المترامية. ولقد أقلق انتشار الدين الجديد بال الحكومة الفارسية في القرن الميلادي الأول.

وهناك كثير من طوائف المسيحيين في بلاد الرافدين اليوم، ومنها (اليعاقبة) و(النساطرة)[1] و(السريان) و(الأرمن) و(الروم) وغيرهم. وكل طائفة منها لا

(1) النساطرة فرقة من النصارى عرفت باسم مؤسسها (نسطور) الذي أصبح بطريركاً على =

تعامل الأخرى بيسر وإسماح كما أن لكل طائفة هرمها الكهنوتي فيه (البطاركة) تعلوهم المهابة والجلال، وتسر الناظرين ألوان ملابسهم من أحيمر أدكن إلى زنجفرى Vermillion، إنهم يحلّون بالمجوهرات الكنسية، ويرتدون الأردية الخاصة بالطقوس الدينية. ومنهم (رؤساء الأساقفة) و(الأساقفة)[1]، وسائر «أصحاب القداسة» الآخرين، والقسّان[2] من مختلف الرتب والدرجات. إنهم رجال دين، سود اللحى، سود المدارع، ومن يتأمل فيهم يخالهم من الآثوريين القدامى بشعورهم الطويلة وقبعاتهم العالية. كما أن هناك طبقة المتتلمذين، لابسي المدارع السود، والساعين إلى الانتماء إلى السلك الكهنوتي.

ليس من وكدي أن أبحث في مثل هذا المقام في المسيحية المعاصرة في العراق، وسأقصر البحث على ديرين قديمين فيه ما زالا يتسمان بطابع القرون الأولى، وهما بعيدان كل البعد عن مظهر حياة المدينة، وعن مياسم الحضارة العصرية.

تركت الموصل صباح يوم من أيام تشرين الأول قاصدة زيارة أحد الديرين. وكان يصحبني في ذلك رفيقان، أحدهما قسيس كلداني. وهبت ريح عاصف من جهة الجبال الكردية، ونحن نعبر الجسر العائم فوق (دجلة). وانحرفنا صوب الشمال، وتل قوينجق يرتفع فوق رؤوسنا. إنه التل الذي يضم جواسق[3] (نينوى) المطمورة. ثم اتخذنا سبيلنا صوب (تلكيف) وهي قرية

= القسطنطنية سنة 428م ثم زاغ في آرائه الدينية عما هو ثابت لدى رجال الكنيسة وفي سنة 431م عقد مجمع ديني في أفسس حرم نسطور وتعليمه وأنزله عن كرسيه البطريركي. وقد انتشرت بدعته بين كثير من نصارى المشرق من بعده وما زالت بقاياها إلى الآن بين الكلدان النساطرة. مات نسطور في صحراء ليبياء نحو سنة 440م. (المترجم).

(1) الأساقفة جمع الأسقف وقد يجمع على الأساقف، من رؤساء الدين عند النصارى، والأسقف (القسيس) وتحت (المطران)، واللفظة يونانية الأصل Episcopos (المترجم).

(2) القسان جمع قس وهي لفظة سريانية معناها (الشيخ) والمراد به خادم الكهنوت عند النصارى، أي خادم دينهم وإمامهم في أمور عبادتهم وتأتي على وزن فعيل بصيغة المبالغة، ومنها القسيس في العربية (راجع مجلة المجمع العلمي العربي 24 (1949) (ص488)). (المترجم).

(3) الجوسق القصر، أو الحصن، وهو تعريب كوشك الفارسية. (تاريخ العروس 6: 306).

كلدانية معروفة في العراق كله. وتشتهر نساء تلكيف بالجمال وحسن الملبس، ذلك أنهن يرتدين لباس رأس محلًّى بالنقود الذهبية، والمرجان، والزجاج الأزرق، والكهرمان، وما إلى ذلك من خرز... فتنة للناظرين!

ويكلف رجال تلكيف بالمشروبات الروحية القوية. ويهجر القرية كثير من أهلها إلى أميركا، ولست أعرف ما الذي يفعله المهاجرون فيها، ذلك أن التلكيفي ما أن يعود يوم الأحد من صلاته في الكنيسة ومعه نساء بيته الجميلات إلا ويأخذ في احتساء العرق، والنبيذ المحلّي، حتى يصبح ثملاً ثقيل الرأس، ولا يستفيق من سكرته هذه إلا صباح الاثنين التالي.

وفي (تلكيف)[1] استضافنا أحد وجهائها وقدم لنا شراباً منعشاً قال عنه: إنه النبيذ المقدس، لكن الأقداح التي قدم فيها الشراب لم تكن نظيفة أبداً، وإن كان الكرم عند مضيفنا أصيلاً. وكانت زوجته الجميلة تختلس النظر إلينا، على استحياء، ونحن نجلس في الديوان... يقال إن نساء (تلكيف) يعملن وأزواجهن يحتسون الخمرة. ولكنني لن أؤيد مثل هذا القول، فعندما زرت القرية مرات عدة وجدت الرجال دائبين على العمل، يقومون بتذرية الحبوب المكدسة كالتلال خارجها، ويسحقون الجبس، وينقلون حجارة البناء. إن (تلكيف) قرية مزدهرة، ولها مطامح قوية، فأهلها يناقلون الحديث بعضهم بعضاً عن جمع المال اللازم لإقامة مشروع لإسالة الماء. إنهم يسقون اليوم من مياه الآبار، وتقوم نسوة القرية بحمله إلى البيت. وبئر القرية الرئيس كائن في المقبرة، وفي منتصف الطريق المنحدر إلى التل. ولمشروع كهذا تأثير كبير في صحة القرية، ما في ذلك شك.

وتتراءى القرية مظلمة: ذلك أن سحابة من التبن المتطاير غشيتها. إن أهل القرية يفرقون الحنطة عن التبن برمي الحصيد في الهواء، وحجبت القرية الأخرى عن أنظارها للسبب نفسه. وفي مقدور المرء أن يدرك درجة ثراء المنطقة هذه مما تنتجه من مقادير عظيمة من الحبوب. إنها مكدسة حوالي كل

---

(1) تلكيف أو (تل الأحجار) هي اليوم مركز ناحية تلكيف قرب الموصل ولغة أهلها الكلدانية العامية (السورث) لكن الكثير منهم يتكلم العربية. (المترجم).

قرية فيها. وإذا ما سلكنا الطرق الوعرة قاطعين مسافات من الأميال لرأينا الأرض على جانبيها عامرة بالنبت العميم... وعلى غرار ما يشاهده الإنكليزي في سهل سولسبري Salisbury Plain. وقد يشاهد المرء قطعاً متجاورات: هذه متروكة لتبور، وتلك صفراء، وهاتيك سمراء... ويزيل جفاف الصيف الخضرة ويذهب بالزهور من هذه الأرض الخصبة. وما إن تهطل بواكير الغيث في الخريف إلا وتحدث الأعاجيب. وما أن يرد الربيع إلا وتضحك الربى وتغنّي. فهي تَزيّن بكتائب من زهور البرية والعشب الأخضر.

واسم القرية الثانية (باطنايا)[1] أو (بيت الحميَّة)، وخلفناها ظهرياً وانعطفنا صوب (دير مر أبراهام) ـ وهو دير حديث بني على أساس دير يرجع تأريخه إلى القرن السابع للميلاد. لم يبق من آثار الدير الأصلي إلا بئره. ورأينا من فوق سطح الدير الحديث منظراً رائعاً لسهل مترامي الأطراف، يجلو حسنه جو الخريف. وشاهدنا (جبل مقلوب)[2] وهو يقوم شاخصاً في جهة الجنوب الشرقي. إن سفوحه وردية اللون، أو هي بلون الجمشت[3]. وعلى الطريق الذي كان علينا أن نسلكه سور من تلال، وتختفي وراءه بلاد الكرد الجبلية. وعدنا إلى الطريق الرئيس قاصدين زيارة قرية نصرانية أخرى تدعى (تلسقف). وما إن وصلناها إلا وقدَّمنا فيها فروض التبجيل لـ (خوري القرية)، وهو شيخ جلَّله الشيب وقد بلغ من الكبر عتياً. واستضافنا الرجل وقدَّم لنا الشاي في أكوابه المعروفة (الاستكانات) وتجاذبنا معه أطراف الحديث، وما إن عرف أنَّا ذاهبون لزيارة ديار اليزيدية إلا وزودنا بطرف من تجاربه مع أولئك القوم الأغراب.

ولخوري القرية في العراق ما لخوري القرية الفرنسية الصغيرة من شأن. فالرعية يأتون إليه، إن جُوبه أحدهم بأية مشكلة من مشاكل الحياة. وهم

---

(1) هي في منتصف الطريق بين الموصل ودير الربان هرمزد. وأهلها لهم شهرة خاصة بصنع الحصران من البردى الذي يقتطعونه من الوديان المعشوشبة المجاورة لقريتهم. والقرية تلتحق إدارياً بناحية تلكيف. (المترجم).

(2) يبلغ ارتفاعه 3483 قدماً وهو من أهم جبال العراق المنفردة.

(3) في الأصل Amythest وهو حجر كريم أحمر أزيرق (المترجم).

يستدعون الرجل لفض الخصومات وحل المنازعات الدائرة حول المال والعقار. ولن يكتب لمثل هذه الخصومات أن تصل المحاكم المدنية. وهو يسعى بالإضافة إلى ذلك كله إلى حل معضلات الأسر ومشاكل البيت المعقدة. وتعالت التلال عندما خلفنا (تلسقف) ظهرياً، وكنا نمر بين الفينة والفينة بجدول يتسبسب ماؤه بين شعاب الجبل وقد تكاثر فيه السمك والسرطان البحري واصطبغت الأرض على حفافيه بالخضرة السندسية.

وقد ترى أحياناً قرية تتسنم قمة تل، وبيوتها مسطحة السقوف، وتتابعت مناظر التلال حتى أصبحت (القوش) على مرمى البصر. إن التلال الواقعة عند أقدام الهضبة الكردية، والتي تقوم شاخصة كجدار في السماء، تسمى قرية (القوش). لقد ذكرتني الأرض ههنا بالربى في صقلية. فالحليبة[1] تنمو بوفرة، كما هو الحال في (كاتانية) أثناء الربيع. والأرض تشبه أرض صقلية فهي مطرزة ومزركشة بالأزهار والأوراد البرية من مختلف الضروب والأجناس. وقرية (القوش) السمراء، مختفية داخل الجدران لصيقة بالصخور السمراء. وعلى مبعدة ميل منها يقع (دير القوش) وهو أبيض اللون تكتنفه عرائش الكروم. واشتهرت القرية لأنها أنجبت النبي (ناحوم الألقوشي) وفيها اليوم ضريحه. واتخذنا سبيلنا راجلين في شوارع القرية الضيقة، وهي أشبه ما تكون بالأخاديد الصخرية... إلى أن وصلنا الضريح. إن قيّمه يهودي، ومبناه يشبه مبنى أضرحة الأولياء المسلمين. وعلى القبر رق مطوي فيه كتابة عبرية، وهو (سفر ناحوم). وأشار القيّم إلى كلمة (الألقوشي) الواردة في الرق المطوي والظاهر أن النسبة فيه إلى (القوش) نفسها، وهي التي أنجبت هذا النبي لا إلى (القوش السورية). ولعل السبب في ذلك أن الأولى قريبة من نينوى التي دارت حولها تنبؤات جمّة. وقام رجال الدين المحليون بمهمة الأدلاء فأرونا فخورين كنيستهم، وهي مبنية بالمرمر الأسمر المقتلع من المقالع المحلية. وبناء الكنيسة لطيف وبسيط ومتين وعليه سيماء المهابة والجلال. إنه يمثل الطابع

(1) في الأصل Spurges والحليبة نبات طبي، واسمه العلمي Euphorbia وهو علم على كل النباتات الغريونية أو كل نبت له لبن يسيل إذا قطع (راجع معجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى بك ص78 كلمة 19). (المترجم).

الفردي وهو ميسم العمران في هذه المنطقة. وتناولنا طعام الغداء مع الأخوات الراهبات، وهنّ عذارى دمثات الخلق، ويقمن بإدارة مدرسة القرية للإناث. ولا أعتقد أن الطفلات يتعلمن فيها شيئاً أكثر من القراءة، والخياطة، وحسن السلوك. والضبط المدرسي فيها رائع. وراهبات القرية من طائفة الكلدان، وهنَّ يرتدين ملابس غريبة الشكل تذكر المرء عند رؤيتها بتصاوير الفلمنديين في القرون الوسطى. وكان الغداء مؤلفاً من الرز (بلاو) والعنب الجبلي الرَّيان. وما إن فرغنا منه إلّا واتخذنا سبيلنا إلى الدير، والطريق إليه وعرة عسيرة. وللفائدة، لا معدى لي من أن أذكر أن الطريق الصخري يصبح قرب القرية خطراً، فالحجارة مبعثرة عليه هنا وهناك. وهكذا تقطعت دواليب عجلات سيارتنا بسبب ذلك. ويقع الدير على مستشرف صخري وهو محاط بأسوار دفاعية. وعلى الباب الرئيس استقبلنا رئيسه وبعض رهبانه، ورجونا أن نمكث من غير طويل لاحتساء الشاي قبل مواصلة السفر. ويأتلف الدير من 3 أقسام متصلة فيها المكاتب والغرف، وهو على غرار ما نراه من الأبنية بجامعة أكسفورد... وفي وسطه باحة. ويضم القسم الأول أجنحة خاصة بالضيوف، ودوائر عدَّة.

وعلى مقربة منا حظائر للخراف وسائر الأنعام. وفي القسم الثاني بيعة[1]، وصوامع[2] رهبان الدير. وفيه أبصرنا راهباً بلغ من الكبر عتيّاً وهو يعمل طوال يومه في إعداد خرزات السبح. إنه متمنظر، ووجهه يطفح بالبشر وينم عن براءة كبراءة الطفل. وحياة الرهبان هؤلاء يغمرها المرح ويسودها البِشْر، وذلك دليل على أن في حياتهم وداعة ويسراً وإسماحاً، وذلك على الرغم من بساطتها، وطابع التقشف الذي يسود صوامعها.

أما الجناح الثالث فهو مخصص للمترهبنين[3]. وكل بناية في الدير

(1) البيعة (بكسر الباء): متعبد النصارى، واللفظة سريانية بمعنى (البيضة) و(القبة) إشارة إلى شكل بناء الكنائس قديماً. (المترجم).

(2) الصوامع، قلالي الرهبان، وهي تبنى بناء إن كان الدير قائماً في السهل أو تنقر في قلب الصخر إن كان الدير في الجبل. (المترجم).

(3) في الأصل Novices وهم الذين لم يقدموا النذور الرهبانية وما زالوا تحت التجربة. (المترجم).

تتألف من طابقين، وإنك لتشاهد من فوق سطحه، ومن نوافذه، سهولاً، مترامية الأطراف، وتلالاً منحدرة، وتتنسم من جوانبه هواء عذباً طلقاً نقياً.

ويعيش رجال الدين من سكنة الدير عيشة شظف وبساطة، وهم يعملون دائبين، ولم نر بينهم من تظهر عليه إمارات المرض. وفي ليلة وصولنا، ولم أنم خلالها إلا غراراً، سمعتهم (في غرَّة الفجر، والعصفور لم يطر) يمضون إلى الكنيسة ويرتلون الصلاة فيها... وأنغام صلاتهم بدائية، وهي على غرار ما يسمع في الكنائس الآسيوية الأخرى، فهذه البلاد لم تتبدل عما كانت عليه عبر القرون إلا لماماً. وإنك لتخال كهان معبدي (بعل) و(عشتار) نقلوا أنغامهم إلى رهبان يومنا هذا. ولم ينته مطافنا بالدير، بعد. إن (دير القوش) لا يعدو أن يكون مؤسسة عصرية، وسكانه كانوا فيما مضى، يسكنون بناء عتيقاً عالياً كنا بسبيل الذهاب إليه. إن الصخور النائية تتراءى وهي شامخة الذرى في الجهة الشمالية منه. وإنك لتخالها لصيقة بفوهة الهاوية، أو هي جزء لا يتجزأ منها. وأعدُّوا لنا بغالاً مزينة السروج بالمطرزات، ومضى مضيفونا أمامنا خفافاً صوب (دير الربان هرمزد)[1] وهو من أقدم الآثار النصرانية في هذا البلد العريق. وكان الشعب إليه وعراً منحدراً يشق قطعه حتى على بغال العراق القوية. وكلما أوغلنا في سيرنا مصعدين بين عطفات الجبال وثناياها كلما اتسعت أمام ناظرينا مناظر الجنوب الرائعة. وأخذ الهدف الذي نسعى إليه يتجلَّى لنا قليلاً قليلاً... إنه أشبه ما يكون بوكنة طائر. وقيل لنا إن البقع السود التي كنا نراها على سفح الجبل إن هي إلا قلايات رهبانه. إنهم قوم يعيشون عيشة انعزالية صرفة، وسكنَهم هو هذا المدرج العجيب من الصخور الناتئة. ورأينا على سفح الجبل ما يشبه خلايا النحل من كهوف وكوى... وهي على غرار جحور الثعالب، ولن يصدق أنسي أنها مساكن بشر نذروا أنفسهم للتديّن والعبادة.

ومراقي الجبل منقورة فيه بشكل بدائي ومماشيه خطرة، وشرفاته ضيقة.

---

(1) دير قديم جداً ما زال قائماً منذ 1300 سنة وهو مؤسس على جبل بيت عذرى المسمى أيضاً جبل القوش، في شمال العراق.
راجع: (أثر قديم في العراق ـ دير الربان هرمزد للأستاذ كوركيس عواد). (المترجم).

إنها همزة الوصل بين رهبانه المنعزلين وسائر البشر. ولا بد لهؤلاء الرهبان أن يطعموا، ولا بد لهم أن يشربوا، وإنك لتراهم في الكنيسة مجتمعين في أوقات معينة من النهار يحمدون الله ويصلّون له. ولقد تهدمت كثير من شرفات الدير الحجرية الكائنة على سفوح الجبال بسبب إنزال السماء عزاليها في الشتاء. وبعد حوالي الساعة أصبحنا على مقربة من الدير واستطعنا أن نشاهد بعض الشخوص وهي تتسلق سلّماً في إحدى بناياته، كما استطعنا أن نميز من بينها شخصاً يرقب القادمين بناظوره. وأخذت كلاب الدير، حراس أولئك الرهبان العزل، تهر وتنبح وترجع صدى ذلك ثنايا الجبال وعطفات الوديان. وكان نباح الكلاب هذه إبان عهد الاضطهاد والمذابح خير منبه لإخوان الدير. وفي الحق أن وعورة طريق الدير وضيقه، وعطفاته كل أولئك من أسباب منعته بإزاء الهجمات عليه، لكن إهلاك سكانه جوعاً ممكن أيضاً. لذلك فمن سداد الرأي أن يفتح الطريق ولو كان القادم عدواً. واجتزنا، في خاتمة المطاف، طريقاً مرصوفاً بالحجارة الخشنة وهو يفضي إلى الباب الرئيس. وما أن ترجلنا إلا واستقبلنا الشمَّاس ثم تسلَّم منا دوابنا المكدودة وقادنا إلى روشن[1] الدير حيث استقبلنا الديراني[2] وهو شيخ لطيف العشرة، في عينه ابتسامة. وجلسنا على مقربة من آنية تغلي فيها أعشاب طيبة النكهة، وقدمت لنا السكائر وسقينا شراباً مصنوعاً من إنتاج الدير نفسه. والدير مكان جميل، حللنا فيه للاستجمام واتقاء أوار شمس الظهيرة. وكنا نلقي السمع إلى كلمات الترحيب ينطق بها الديراني. وفي مقدور المرء أن يرسل النظر من الروشن عبر الأميال فيرى تلك السهول المترامية والتي تبدأ من أقدام مستشرف الدير الصخري، أو يتطلع، ويكاد الدوار يثقل رأسه، إلى المنهوى السحيق تحته.

وفي الحق لا بد وإن جال في خاطر الرهبان، وهم يتطلعون إلى تلك السهول الخضر وجمال الطبيعة الفطري، إغراء (الشرير) لـ(المسيح) إذ لن

(1) الروشن: جناح السطح، أو المنظرة التي تشرف على خارج البيت. (المترجم).

(2) نسبة إلى الدير على غير قياس، والمراد به الراهب الممتاز القائم بأمور الدير، أو رئيسه، وهي من السريانية: (دير نايا) (راجع الديارات للشابشتي، في الحاشية، تحقيق كوركيس عواد). (المترجم).

تكون الدنيا أجمل وأشد إغراء من هذا المنظر الذي يراه المرء من هذا المستشرف المنيع الشبيه بـ(عش النسر).

ويتلوى الممشى الوعر الذي سلكناه هابطاً، والزهور الجبلية تزين حفافيه في الربيع. وتشاهد (القوش) في أسفل الدير صغيرة، وخلفها مرتفعات بعيدة عند خط الأفق، إنها زرقة بإزاء زرقة، وظلال وردية بإزاء ظلال وردية أخرى.

وقدم لنا الشاي، وأرغفة الخبز والعسل الجبلي والعنب، وكان الديراني يتحدث في أثناء ذلك عن تاريخ الدير وسكانه، وهم اليوم جد قليلين. وحينما زار (الرحالة ريج Rich)(1) دير الربان هرمزد في أوائل القرن التاسع عشر وجد فيه 50 راهباً أما اليوم فلا يزيد عددهم على أربعة. وواصل الديراني حديثه وقال إنهم كانوا في الأصل 350 وإن مدونات الدير تقرر أن مؤسسه هو بطريرك الكلدان في طيسفون، وأن تاريخ تأسيسه يرجع إلى نهاية القرن الرابع. وتدور حول (دير الربان هرمزد) قصص وأساطير عدة. والربان هرمزد أحد ديرانيه، ومن أشهر من حفلت بهم سير قديسي الكلدان. إنه مدفون في الدير نفسه، والأساطير تروي أنه ابن أحد ملوك الفرس، وقد تنصر وأصبح مطراناً ثم لقي حتفه شهيداً. ولا يقطع بصحة هذه القصة تماماً. وكان الربان هرمزد على المذهب الكلداني النسطوري، وهو مذهب البلاد التقليدي منذ التاريخ القديم. وكتب سيرته راهب يدعى (شمعون) وأحد تلامذة (يوصاداق) أحد معاصري الربان هرمزد. ونظم (سرجيوس) أحد رهبان الطائفة في القرن العاشر سيرة حياة الربان هرمزد شعراً، وعلى غرار نظم الموشحات. وكل بيتين

---

(1) كلوديوس جيمس ريج رحالة معروف وممثل شركة الهند الشرقية والمقيم البريطاني في بغداد في أوائل القرن التاسع عشر. ولد على مقربة من (ديجون) من أعمال (بورغوندي) في فرنسا سنة 1787 ثم نقل وهو طفل إلى (بريستول) في إنكلترا حيث قضى السنوات الأولى من حياته برعاية والدته. وفي سني دراسته وتمرسه أتقن اللغات الكلاسيكية والفرنسية والإيطالية وعين مقيماً في بغداد وقضى فيها حوالي الـ 6 سنوات. ولقد زار خلالها الكنائس المسيحية في مواطن الكلدان وتمكن من أن يجمع ويضيف إلى مكتبته عدداً من المخطوطات السريانية والكلدانية القديمة القيمة، ومما زاره هذا الدير. (راجع الجزء الأول من رحلة ريج في العراق عام 1820، تعريب بهاء الدين نوري ـ 1951). (المترجم).

ينتهيان بقافية، وهما يبدآن وينتهيان بحرف واحد. ونشر (سر اي. واليس بدج (Sir Wallis Budge) السيرتين. والمخطوطان محفوظان في دير السيدة[1] وتفيد المدونات أن (الربان هرمزد) ولد في (شيراز) خلال النصف الثاني من القرن السادس، وأنه انحدر من أسرة موسرة عرفت بالسماحة والإحسان العظيمين. ودرس الرجل علوم زمانه في بلدته. وعندما بلغ العشرين من عمره ترك بيت أبيه قاصداً زيارة الأماكن المقدسة. وفي الموصل التقى بـ 3 من رهبان (دير برعيتا) فأشاروا عليه بأن ينتظم في سلك رهبان ديرهم. وخيل إلى الربان هرمزد أن هذه دعوة من الله له واتخذ سبيله إلى الدير توّاً. واختبره فيه الديراني (الربان سبر يشوع) إبان تمرسه في الرهبنة ثم أعطاه مسح الراهب وكان عدد حبساء[2] دير برعيتا في ذلك الوقت 264. وسرعان ما اشتهر اسم الربان هرمزد من بين هؤلاء جميعاً بالتقوى والمواهب الروحية. ويذكر كتَّاب سيرته كثيراً مما ينسب إليه من خوارق، ومنها طرد العفاريت وإبراء المرضى وما إلى ذلك. وما زالت الخوارق المنسوبة إليه دائرة على لسان البسطاء حتى يومنا هذا. ومكث في دير برعيتا لـ 39 سنة ثم صمم على أن يصبح ناسكاً منقطعاً للعبادة. وعملاً بنصيحة مطران قردي (سلفانوس) أخذ الربان هرمزد بالصوم والصلاة وقمع الشهوات والتهجد، وعلى غرار ما يلتزم به نسَّاك التأريخ الكبار. وذاع صيته، وتضاعف عدد خوارقه. وبعد أن عاش حياة عزلة دامت 7 سنوات خيل إليه أن الله تعالى يأمره بالذهاب إلى (دير الرأس) قرب قرية (تنى) في منطقة العمادية. ورافقه في سفره هذا 6 من الصحاب، وعاش الجميع عيشة شظف ودين. ولم يمكث في الدير هذا إلا قليلاً، ومنه رحل إلى (بيت عذرا) ومعه صحبه. و(بيت عذرا)[3] اليوم من مواطن (اليزيدية)، وفيه تجمعت طائفة من النساك المنعزلين. ومن كهف يقوم على مجرى ماء منحدر من الجبل، وعلى سفح تل، اتخذ له سكناً. وأخذ الناس يقصدونه من أقاصي

---

(1) راجع: Journal Asiatique 1906 (3) pp. 63-64 (المؤلفة).

(2) في الأصل Anchorites ومفردها الحبيس وهو الراهب المحبوس في سبيل الله، أي الذي يقيم في محبسه أي صومعته لا يبارحها، ودأبه فيها الصلاة وعبادة الله. (المترجم).

(3) تعرف اليوم باسم «باعذرا». (المترجم).

الأرض للتبرك به، وللاستفادة من لمسته التي قيل إنها تشفي الداء العَيَاء. وممن قصده أمير مسلم موصلي طلب إليه أن يسعى إلى إبراء ابنه، فصدع بالأمر. وقيل إنه أحيا الابن هذا بعد موته. وبذلك نال (هرمزد) حظوة كبرى لدى الأمير فمنحه حق تشييد (دير) بين هاتيك التلال. واختار لذلك شقاً صخرياً وعراً يحمل اسمه وشيد عليه الدير. وأسهم الأمير المسلم في نفقات البناء إظهاراً لشكره وامتنانه.

وعانى (الربان هرمزد) كثيراً من حسد رفاقه المسيحيين. ويذكر بعض مؤرخي سيرته أنهم عمدوا في إحدى المرات إلى اغتياله لكنه استطاع أن يكسب مودتهم بالأعمال الصالحة في خاتمة المطاف. وعاش الربان في ديره بأمن وسلام ولم يهض جناحاه حتى آخر عمره. وتهافت عليه الرهبان، وجمع من المتتلمذين مائة، وعاش معهم، وهو المعلم ملء إهابه، يعظهم ويدرسهم حتى وافته المنية وقد نيّف على الثمانين من العمر.

وعاشت الطائفة بعد موت رئيسها في بحبوحة من العيش لسنوات طوال وأصبح مقرها موئلاً للعلم والروحانيات. وكتب عنها (يوحنا برخلدون) في القرن العاشر يقول: لقد كان في الدير 300 من رفاقه. وحج الديراني يوحنا سولاقا إلى روما في القرن الـ 16 وقدم فيها فروض الولاء والطاعة للبابا يوليوس الثالث وتسلم «الرسامة» منه، فأغضب ذلك أبناء طائفته المستقلين، فكمنوا له في طريق عودته واغتالوه في ديار بكر. وعانى الدير من صروف الدهر كثيراً، ولا سيما في عهدي (تيمورلنك) والأسرة التركمانية. وما أن وصلت زحوف المغول إلى (الموصل) إلا واحتلت الأديرة جميعاً ونهبتها ونكّلت برهبانها. وسرعان ما أخذ الرهبان يرجعون إليها، على الرغم من كل اضطهاد وتقتيل. وفي عهد (نادر شاه) فرق سكان الأديرة وخربها. وهجم نادر شاه على الموصل مرتين (في سنة 1732 وفي 1743) ثم وصل جزيرة ابن عمر وذبح في خلال ذلك خلقاً كثيراً من المسيحيين وسبى نساءهم وأطفالهم ودمر مدنهم وقراهم. وهكذا تحققت النبوءة الواردة في السفر المسيحي «لقد أصبحت آشور خراباً يباباً، تعشعش فيها البوم» ورمى نادر شاه الأديرة بالنار، وأعمل السيف في رقاب رهبانها وحمل معه كل ما كانوا يملكون. وبقيت

أخربة الدير مهجورة لسنوات عدة، وأعيد بناؤه سنة 1808، ويعود الفضل في ذلك إلى تاجر كاثوليكي من الطائفة الكلدانية في ماردين. لقد أعاد هذا فتح الدير وأصبح قديسه ومعه 50 راهباً. لكن النوائب والاضطهادات لم تفارق هؤلاء أبداً..

وفرغنا من تناول الغداء ومضينا لنشاهد التلال الصخرية.. والوصول إليها جد يسير، وما بني من الدير فعلاً قليل جداً، ذلك أن الجانب الأكبر منه منحوت في صخر، ولا معدى من أن يأخذ المرء حِذره دوماً، فعليه أن ينحني إن أراد الدخول ومشاهدة الغرف المنقورة والمعدة للنوم. إنها على غرار غرف (السيكل) التي يتخذها الفلاحون الصقليون حتى يومنا هذا سكناً. والدكات التي كانت توضع عليها جثث الموتى فيما مضى تستعمل اليوم أسرة للنوم. هل اتخذ (الربان هرمزد) وتلامذته مقبرة فارسية لهم؟ وهل تمتم الناسك الصالح بالمعنى المتضمن في مثل هذا، وهو مضطجع يا ترى؟.

«علمني الحياة... فلن أخاف القبر إلا قليلاً. إن خوفي مبعثه الفراش». وتتصل كل غرفة صخرية بالغرفة التي تجاورها. ومن الغرف ما هو على سعة كبيرة. وأراني الديراني المطعم القديم، وهو أشبه ما يكون بكهف... وقد غار اليوم في الأرض. وكان يسع 150 راهباً لتناول الطعام. وانحنينا، ونحن ندخل غرفة صخرية، كانت خزانة كتب فيما مضى، ولم يبق فيها اليوم إلا القليل من الكتب. أما نفائسها فما زالت في مكتبة القوش. وصف الرحالة ريج Rich خزانة الكتب هذه إذ قال:

(... فقدت بعض المخطوطات الكلدانية والسريانية من هذه المكتبة، وهي تكشف عن حقيقة هذا المكان العجيب، ما في ذلك شك. لقد كان في الدير حوالي الـ 500 مجلد من المخطوطات الاسطرنجيلية[1] القديمة. والمخطوطات هذه كانت مكتوبة على رق وقد مزقت إرباً إرباً، وتقاذفتها

(1) الاسطرنجيلية Estrangelo هي الصورة الأولية القديمة للأبجدية الآرامية، ومنها تفرعت الكتابة الكلدانية والسريانية على نحو ما نراهما مستعملتين اليوم. (المترجم).

الرياح فأصبحت هباء منثوراً. وعرضت عليَّ بعض الأوراق المبعثرة فوجدتها من أنفس الآثار القديمة، ما في ذلك شك).

واستطالت الظلال فأسرعنا في الطواف بالكنيسة قبل أن يخيم عليها الظلام. وأمام الكنيسة أحجار رملية[1] تتراءى حمراء والشمس تلقى أشعتها عليها. وللكنيسة برج مزدوج، وواضح أن أحدهما أقدم من الآخر. وأحدث البرجين مبني بالحجارة السمراء وقد قطعت أجزاء كبيرة ملس ناعمة. وهناك قرابة الـ 30 ممراً رصفت بالحجارة، وعرض كل ممر 15 انجاً. إنها تتراءى وكأنها من طراز ابتكره معمار نورمندي. وعلى كل حجارة صور محفورة غريبة، فهنا صورة بطتين، وهناك صورة حية، وهناك صليب مالطي، وتضاف إلى ذلك كله طائفة من الكتابات والزخرف التقليدي. وهناك قبو تحت صخور خشنة، وجوانبه الأربعة قائمة على قطع كبيرة من حجارة الأساس. ومدخل القبو باب منقور ومصبوغ، وهو خرب الآن. ويفضي باب آخر إلى الكنيسة، أو بالأحرى إلى الكنيسة الأولى السفلى، فالمكان لا يعدو أن يكون مجموعة من الكنائس الصغيرة ولا يقتصر على بناء واحد. ومساحة الكنيسة الصغيرة هذه 18 قدماً في 54 وهي على غاية من البساطة. وفوق المحراب قبة ينفذ النور إليها من خلال كوة. وللمحراب باب حجري، وهو في الوقت نفسه شبكته الصلدة، إنها منقورة وطرازها جميل وألوانها زاهية. وفي أعلى درجتي القدس (المحراب) صورة حية[2] غريبة الشكل، ورأس تمساح وكلها ملوَّنة باللون الأخضر. وللحية لسان وعينان وكلها قرمزية اللون، وتقابلها صورة نمر ملون بالأحمر والأخضر ـ وتحت الصور هذه نقوش ملونة بالأصفر والأسود، ومنحوتات أخرى ملونة بنفس الألوان. وتحت القدس Sanctuary (المحراب) كوى ليس فيها صور أو آثار.

---

(1) إن الحجر الرملي الأحمر Red Sandstone هو صخر مكون من حبيبات من الكوارتز. مسك بعضها بعضاً. وتتميز الأحجار الرملية بعضها عن بعض باختلاف المادة التي تحدث التماسك.

(راجع كتاب الجيولوجيا) للدكتور حسن صادق ص68 ـ 99.

(2) الحية: رمز الحكمة والعقل عندهم.

ويستخدم إخوان الدير الأسرجة المنيرة. ولقد مررنا وإياهم بسلسلة من الغرف الصخرية التي تفضي إلى خارج الكنيسة. إنها تبدأ بغرفة المقدسات Sacristy في الكنيسة، وفيها صندوق خشبي مليء بالعظام. وعرضوا علينا صوراً حديثة للعذراء ووليدها واستطردوا قائلين: إن الدم سال من الصورة عندما أغمد (إسماعيل باشا) خنجره فيها. ودنا البعض من الصورة عساه يجد آثار الدم، ولكن هيهات!. وهناك كنيسة أخرى تفضي إلى الخارج، وفي الجانب الشمالي منها دهليز كان فيما مضى يضم قبوراً(1). وانتهينا إلى محل يحتمل أن يكون أقدم جزء من الكنيسة، إذ يرجع تأريخه إلى أيام الربان هرمزد نفسه. ولعل هذه الغرفة الصغيرة التي وصلناها هي الكنيسة الأصلية في الدير. إنها على غاية من البساطة وليس فيها شيء من الزخرف، وهي مظلمة. وعلى درجات (المحراب) سلسلة من حديد، والظاهر أنها كانت تحتوي على أطواق كبيرة... وقال إخوان الدير إن الربان هرمزد كان يستعملها في صلاته، وطريقته في ذلك أن يربط نفسه بالسلسلة، وهي معلقة بصنارة في سقف الغرفة، فلا سبيل له لأن يضطجع أو يرتاح، إن حمله الإعياء على ذلك. ولهذه السلاسل وأطواقها اليوم منافع عجيبة أخرى، فإليها يسعى ذوو الجنة من الناس، فتوضع أعناقهم في الأطواق ويتركوا في الكنيسة المظلمة لمدة 24 ساعة أو لمدة أقصاها 3 أيام، وما أن تنقضي إلا ويهتف البشير أن الروح الشريرة قد فارقت أجسادهم.

وينفذ إلى صومعة الربان هرمزد بوساطة دهليز يقوم فوق سراديب تضم قبوراً. وفي الصومعة أطلعنا الرهبان على الحلقة التي كانت سلسلة القديس معلقة فيها. والظاهر أنها أحيطت بعناية تامة لما لها من قدسية وحرمة.

وبمقدورك أن تمضي من الكنيسة القديمة إلى كنيسة صغيرة أخرى

---

(1) أمثال هذه القبور تسمى بالإنكليزية Catacombs والسبب في استعمالها هو الخوف الذي كان سائداً وقتئذٍ من أعداء المسيحية. وقد شاعت في روما أيام اضطهادها. (المترجم).
راجع: J. S. Northcote: Epitaphs of the catacombs, London 1878.

(كنيسة مر أنطونيوس) وفي الممر الذي يصلهما قبر منحوت وعليه نقوش بديعة. والمكان بما فيه من مخابىء سرية مخروطية الشكل منقورة في الصخر الصلد يبعث الدهش والحيرة. لقد أهمل تاريخ هذه المخابىء ونسي الناس أصلها بتقادم الزمن. وعفى النسيان على مظاهر التقشف والرياضة الروحية أيضاً. وقيل إن النظام الذي ساد المكان كله كان صارماً، وإن النسَّاك الذين وفدوا على الربان هرمزد كانوا في نضارة العمر إلا قليلهم، وإنهم كانوا يموتون أسى أو من السقم وقبل أن تعلو بهم السن. ولكن ذلك الزمن مضى وانقضى. أما اليوم فلقد أقبلت الدنيا على إخوان الدير فهم مرحون ينعمون بجمال المكان ويتيهون فخراً بتاريخهم العريق. ولم ننبذ فكرة زيارة الكنيسة العليا إلا كارهين. ورجوت الديراني أن لا ينسى الصومعة إلى اخترتها سكناً لي، عسى أن آوي إليها في خريف عمري. ووعدني أحد إخوان الدير بذلك وهو يبتسم من قولي ضاحكاً، وقال: (أجل، لك أن تشدي الرحال إلينا إن شئت، لكن عدد النساء في هذا المكان جد قليل!). وامتطينا البغال وتركناها تسير على رسلها فانحدرت بنا صوب (القوش). وكنا نسمع كلمات الوداع يرسلها مضيفونا من عالٍ. وكان القمر الشاحب يرسل ضوءه اللاحب ويتكبد السماء.

وبعد أيام قلائل كتب لي أن أزور ديراً قديماً وشهيراً آخر. إنه في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة الموصل، ولا يبعد عن (تل نمرود) إلا قليلاً. وهو، في الوقت نفسه، على مبعدة 42 ميلاً جنوبي (دير الربان هرمزد) مباشرة. والدير هذا مربع الشكل، وليس فيه من جمال الدير الأول شيء. وهو يقع على السهل المنحدر، وعلى مقربة منه بيوت القرية المسيحية البسيطة. وهو كأغلب الديارات محصن بسور عال. وله كنيسة من أجمل كنائس القطر منظراً...

وراعيها ـ وعلى غرار كنيسة الربان هرمزد ـ قديس كلداني هو (المر بهنام). والشائع المتواتر إرجاع نسب القديسين إلى منبت أصيل. وعلى ذلك فالمعتقد أن المر بهنام هو ابن عم أحد الملوك، أو من سلالة سنحاريب. وحول (استشهاده) تدور روايات عدة، والظاهر أن ليس هناك أي شيء مقطوع

بصدد (المر بهنام) هذا، وكل ما هنالك مجموعة من الأقاصيص تدور على ألسنة الناس. وقد يكون والده سرياً من سراة بلده، ولعله عاش في القرن الرابع للميلاد. وقصته رواها لي أحد القسان: إن هذا الشاب الطيب الأرومة كان يصطاد في أحد الأيام فرأى اسْتَجّاً كبيراً[1] فطارده حتى بلغ جبل مقلوب. وخيَّم عليه الظلام قبل أن يلحق الشباب بطريدته، فاضطر إلى أن يلجأ إلى كهف في سفح تل. ولم يكن ليدري أنه قريب من دير مار متى. وطغت على أحلامه تلك الليلة القوى الروحية. وفي فجر اليوم التالي قطع الأمير بهنام صلاة الناسك القديس متى قائلاً: (لقد أتيتك استجابة لرؤيا أمرت فيها أن أبحث عنك ولأستمع إلى طرف من عقيدتك).

وبدأ القديس يشرح عقيدته، واستمع الشاب إلى شرحه، وسرعان ما دخل الإيمان إلى قلبه. وما إن وثق القديس من صدق إيمانه إلا واقترح عليه أن يعمد. فسرَّ الشاب من ذلك ورحب به، ولكنه رجا القديس أن يصحبه لكي يعظ أمه وأختيه ويشرح لهن مبادىء المسيحية. ولم تكن النسوة وحاشيتهن ببعيدات عن المكان. واستجاب متى لدعوة الشاب ومضى الاثنان لذلك. وقال بهنام لصاحبه في الطريق إن أخته (سارة) مصابة بالجرب. وما أن وصل الرجلان مخيَّم النسوة إلا واستطاع القديس الناسك أن يحملهن على الإيمان بالمسيحية. ولما لم يكن الماء اللازم للتعميد قريباً ضرب الأرض بعصاه فتفجرت عن عين تجري بماء كبريتي فيه منافع علاجية. وشفيت الأميرة من مرضها ساعة التعميد. و«هكذا رجع الأمير وهو مسيحي إلى نينوى» على ما استطرد مخبري قائلاً ـ هذا مع العلم أن نينوى كانت قد توارت منذ زمن طويل تحت اعفار الدهر ولم تخلِّف غير أطلال دوارس وبقايا مشعثة ـ «ودخل بيت أبيه يعلمه عما جرى وعن حواره» وما أن رأى كهان الآلهة القديمة أن الناس تدخل أفواجاً في الدين الجديد إلا وتملكهم الرعب وأخذ منهم الغضب كل مأخذ.

وهكذا أصبح كل منهم أثيراً عند الملك مسموع الكلمة. ولم يأل

---

(1) في الأصل stag واسمه العلمي Cervas Elaphus وهو ذكر الغزال الأحمر. (المترجم).

الملك جهداً لحمل ابنه وزوجه وأخته على إنكار العقيدة الجديدة ونبذها، لكن سعيه ذهب أدراج الرياح وتمسك أهله الأقربون بها بقوة. ورجاه كل من (بهنام) و(سارة) أن يسمح بمثول الناسك القديس بين يديه ليذبَّ عن المسيحية، فاستجاب لهما. وسار (بهنام) يصحبه 40 فارساً للإتيان بـ(متى) من مخبئه في (جبل مقلوب). وهنا غلب على كهان آشور الاسى، وقرروا اتخاذ إجراء صارم بإزاء ذلك. وأعدوا جماعة من المتعصبين، ونصبوا كميناً، وما أن مر بقربه الأمير ورفاقه، وهم في طريقهم صوب الجبل، إلا وانقضوا عليهم وقتلوا الأمير نفسه، فكان «شهيد آشور الأول». وفي رواية أخرى أن الملك نفسه قتل الأطفال ففرَّت أمهم. ثم تمضي الرواية هذه فتقرر أن الأم شيدت ضريحاً بأخرة... تخليداً لذكرى أولئك الأطفال الشهداء. وللأسطورة هذه روايات عديدة أخرى. إنها تنسب الأعاجيب والخوارق التي عرف بها القديسون الآخرون إلى (بهنام). وهكذا ستبقى حقيقة الرجل مظللة بظلال من الافتراض والحدس والتخمين، هذا وإن الكلدانيين جد شغوفين بإسباغ[1] الوصف الخيالي الساحر على قديسيهم ولا يهمهم في سبيل ذلك أن يخطأوا حتى في تاريخ الحوادث.

وإنك لتشاهد في داخل كنيسة الدير تمثالاً ظَهارياً Stucco effigy لـ(بهنام) على صهوة جواده ـ(وذلك بحسب ما يقوله رهبان الدير، ولكن التمثال يشبه القديس جرجس) ـ إنه يطعن الشيطان برمحه طعنة نجلاء، والشيطان يتمرغ تحت سنابك الجواد. ولأخت بهنام تمثال ظهاري آخر في الجهة المقابلة. وليست نقوش الظهارة الناتئة في الكنيسة بذات شأن، وهي ترجع في تأريخها إلى القرنين السادس والسابع للميلاد. ويزعم الرهبان أيضاً أن تاريخ الكنيسة يرجع إلى القرن الرابع للميلاد، لكن ما بقي من تلك الكنيسة جد قليل. وزارها مرة مستر ولسن مدير الأشغال العامة في العراق فأعلمه المنسنيور قليان الديراني آنئذٍ أن أقدم أقسام البناء هو الصرح المتهدم، ولعله القبر الأصلي الكائن على مقربة من الكنيسة الحالية.

---

(1) أسبغ: اتسع وطال. (المترجم).

وتعلو البناء قبة. وعلى المشكاة[1] القائمة فوق المحراب تاريخ يدل على أن البناء يرجع، على كل حال، إلى مفترق القرن الـ 14 والظاهر أنه جزء من بناء واسع، ما في ذلك شك. وإذا ما سلكت ممراً أرضياً قصيراً وصلت إلى غرفة متينة البناء مثمنة الزوايا والأضلاع، تنور من فتحة في قمة تعلوها. وفي هذه الغرفة لوحات ممتعة، وعليها كتابة، إن إحدى اللوحتين مرمرية أو البسطرية Albaster ذات لون فاتح، يميل اليوم إلى الاصفرار بسبب تقادم العهد عليه، على ما يعتقد مستر ولسن. ولعلهم استوردوا هذا المرمر من القسطنطنية أو من بلد غربي آخر. وتكثر في هذه المنطقة الدهاليز السرية التقليدية. والرهبان يرشدون الزائرين إليها ويزعمون أنها كانت تؤدي، في الأصل، إلى (نمرود).

والشائع أن تاريخ القسم الأعظم من الكنيسة المحلية يرجع إلى القرن الثاني عشر. لقد أجريت على البناء الأصلي ترميمات كثيرة وأعيد بناء قسم منه كلياً ـ واستخدم في ذلك الآجر القديم والأحجار وعلى غرار ما يجري في سائر الأبنية الكلدانية.

رسم لي مستر ولسن مخطط الكنيسة وهو يعتقد أن ما رسمه يمثل شكل الكنيسة الأولى التي كانت قائمة في هذه البقعة بالذات. ولم يُعْنَ إخوان الدير البسطاء بإعادة البناء، وقال لي أحدهم: «لقد كان مبنى الكنيسة في هذا المحل عندما زحف الأمبراطور يوليان بجيشه على طيسفون». وللدير جناحان، وتحتل الكنيسة أحدهما، وفي الآخر صوامع الرهبان والمطاعم، ودوائرهم وشاهدت امرأة كلدانية تسوق الأبقار، وهي خارجة من الباحة الكبرى... ساعة دخولنا الدير. ورأيت نسوة أخريات جالسات ويغزلن أمام البوابة الكبرى. ومثل هذا المنظر يكلف به أي مصور فرنسي من مصوري الطبيعة في القرن الثامن عشر. وألقت الشمس الغاربة ورس أشعتها على مبنى الكنيسة القديمة، واصطبغت باللون

(1) المشكاة: كوة غير نافذة. (المترجم).

الأصفر شرفتها ومنقوراتها الرمزية الغريبة من أساود[1] ووحوش... وقديسين. إنه مبنى منخفض، ودون صعيد الأرض بقليل، وهو كهيئة حرف (T). وفي داخله نيف Nave مزدوج مقسم بأروقة تستند إلى أعمدة ضخام. وليس فيه محراب عال. وفي النهاية الشرقية كنيستان صغيرتان وسكرستية Sacristy، ودهليز من دهاليز القبور. وينتهي الجدران، الشمالي والجنوبي، بكنيستين تعلو كل منهما قبة ينفذ منها النور. وعلى الجدار الحجري الذي يفصل بين الكنائس الصغرى، الكائنة في شرق المبنى، وبين الكنيسة الكبرى كتابات بالاسطرنجيلية، والعربية والكلدانية، وهو كثير الزخرف والتماثيل. وأبواب الكنائس الصغرى ذات أروقة منحوتة نحتاً دقيقاً. وباب الكنيسة الصغيرة الكائنة على مقربة من السكرستية وفي الزاوية الشمالية الشرقية، رائع الصنعة على وجه أخص. إنها مزينة بصور الملائكة والمطارنة. وحجارة الأروقة منشورية الشكل، وطرازها متسق. إنها على غرار أروقة بعض مساجد الموصل التي يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر. وهناك لوحة موضوعة في الجهة الشرقية تخلد ذكرى زيارة (هولاكو) التتري الذي زار الكنيسة فاستقبله فيها الديراني وإخوان الدير بالمراسيم اللائقة. وصور الظهارة التي ألمعت إليها قبلاً كائنة فوق الأعمدة الوسطى وهي ذات ألوان باهتة. إنها تمثل الملائكة وهي تحمل (تاج الشهادة) فوق رأس (الأمير). وثمة صورة بشعة جداً تمثل (سارة) الأخت الجرباء!.

والكنيسة هذه ـ بعد ذلك كله ـ من أروع آثار القرون الوسطى في العراق، ما في ذلك شك. وتشير سجلاتها إلى أنها بقيت متعبداً مسيحياً طوال أيام الصراع الديني والاضطهاد، أي منذ نشوء المسيحية حتى القرن الثاني عشر، والذي حفل بالاضطرابات والقلاقل أيضاً. إن ذلك كله يجعلها أثيرة عند المسيحيين العراقيين حبيبة إلى قلوبهم. ومن المؤسف أن تكون غالبية إخوان الدير في عداد الأميين، ولا حظَّ لهم من العلم. وعندما زرت ديرهم هذا لم أجد فيه من يقرأ الكتابة الاسطرنجيلية أو يخبرني عن محتوى كتاباته

(1) الأساود: جمع أسود وهو الثعبان. (المترجم).

وفحواها. وآراؤهم عن تاريخ الدير وعمره مبهمة شحيحة. ولعل هذا هو الذي يبعث القلق في الغريب الزائر عند اتصاله برهبان الدين المسيحي في بلاد الرافدين[1].

---

(1) كتب مستر ولسن إليّ يقول:
(من الصعوبة بمكان أن نقرر على وجه الدقة طراز الكنيسة الأولى بدون دراسة مستأنية. إنني أعتقد أن الأبواب الرخامية ترجع على وجه التقريب إلى زمن واحد. وقد تكون الغرف المجاورة قد بنيت أولاً أو بأخرة. ولقد قام أهل الصنعة الموهوبون الماهرون بتصميم الأبواب وبنائها. وهناك دليل على وجود فترة انهيار، ويؤيده ما أجري عليها من مبالغة في التزويق.
وفي قرية قره قوش، وعلى بعد أميال قليلة من (بهنام) 3 كنائس قديمة ممتعة، وإنها أقدم، من حيث الطراز والبناء، من كنيسة مر بهنام. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن قد أعيد بناؤها من بقايا أبنية قديمة أخرى).
وهناك أسطورة ممتعة تتصل بإحدى هاتين الكنيستين. فهم يزعمون أن الشمس تلقي مرة واحدة بالسنة ظلال الذين سيموتون خلال الـ 12 شهراً القادمة على الجدران. وأخبرني أحد الإنكليز أنه رأى فعلاً موكب الظلال هذه. ويعتقد أن سبب ذلك يرجع إما إلى سقوط أشعة الشمس على شبح متحرك في الخارج، أو إنه من أفاعيل الكهان أنفسهم. (المؤلفة).

الفصل الخامس

البصرة: مدينة السندباد[1]

عسير عليَّ أن أدوِّن حقائق قاطعة عن البصرة، إذ ما زالت انطباعاتي الأولى عنها ذات أثر عميق في نفسي... وسأبقى أسيرة سحر المدينة. لقد شهدت باسقات النخل[2] في الليل البهيم وهي تتسامق فتعكس ظلالها على

---

(1) جاء في تاج العروس: مادة «ب ص ر» (3: 48): «البصرة بلد معروف وكانت تسمى في القديم: تدمر، والمؤتفكة لأنها ائتفكت بأهلها أي انقلبت في أول الدهر. وأصل لفظ «البصرة» مختلف فيه، وفي المعاجم العربية وكتب البلدان ما يفسره بكونه عربياً». (المترجم).

(2) هناك حكاية تعود روايتها إلى ما قبل ميلاد المسيح، فلقد سئل أحد العراقيين القدامى: ـ ما هي أثمار بلادكم، فأجاب: التمر ثم ـ ماذا؟ ـ فأجاب: التمر أيضاً، ولما استغرب السائل من هذا الجواب، قال العراقي: إننا نستفيد من النخل فوائد عديدة، فإننا نستظل به من وهج الشمس، ونأكل ثمرته، وتعلف ماشيتنا بنواته، ونعلن عن أفراحنا بسعفه، ونتخذ من عصارته عسلاً، وخمراً، ونصنع من جريده وخوصه الأواني والحصران وغيرها من الأثاث، ونصنع من جذعه خشباً لسقوفنا وأعمدة لبيوتنا ووقوداً لطبخنا. ومما يدل على أهمية النخل في العراق منذ القديم أيضاً أن شريعة حمورابي قد خصصت جملة مواد من أحكامها لزراعة النخل والمعاملات الخاصة به. وتقدر الكمية التي ينتجها العراق منه بحوالي (350 ألف طن سنوياً) وما تنتجه البصرة وحدها من هذه الكمية حوالي الـ 180 ألف طن أي أكثر من نصف منتوج العراق. ومعدل السعرة الحرارية التي يبعثها الباون منه 1275 سعرة وهي أعلى نسبة لأية مادة غذائية، ويحتوي التمر على جميع العناصر التي يتألف منها الطعام المغذي من زلال وشحم وأملاح وهايدرات الكاربون والسكر في مركب سهل الهضم والتمثيل، ومادته السكرية قابلة للتبلور ليصنع السكر منها، كما توصلت الأبحاث إلى إمكانية استخراج مسحوق (الداتامين)، الذي يشبه مسحوق الكاكاو، منه. كما أن بعض الأدوية التي تصلح لمعالجة الروماتزم وأمراض العيون قد اكتشفت في التمرة. وفيها نسبة مهمة من الزيت =

صفحات الماء البلورية. . . وإنها ليالي الشرق الساخرة. إن البدر ليرسل أشعته من كبد السماء فتتلألأ بها القنوات المائية. ولبيوت البصرة شبابيك مُطِلَّة، وإن قلبي ليهفو لقواربها، التي يشبه الواحد منها (الجندول)، ويشوقني منظر «مهيلاتها» الراسية على ضفاف النهر المظلمة. وقد توقد نار هنا أو هناك على سيف النهر، أو على ظهر إحدى السفن، فتتطاير منها شواظ عبر النهر. أو قد يسرج مصباح هنا، أو هناك، فينير أحد البيوت أو مقهى من المقاهي. وتدأب الضفادع على النقنقة، وهي على حافة الغدير، أو في الجدول الخفي. . . فتعكر بموسيقاها النشاز الهدوء والسحر. . .

والبصرة، كالبندقية، ترتبط بالبحر. . . وفي مقدور المرء أن ينتقل فيها من بيته إلى إحدى القوارب مباشرة، ثم يطلب إلى القاربي أن يوصله إلى دكاكين العشار ماراً من تحت الجسور أو سائراً في محاذاة الشارع. وقد يمضي المرء صعداً في النهر لينفذ منه إلى جدول خفي ومنه إلى اليابسة فيمضي نزهته الخلوية. وسفرات النزهة النهرية من وسائل التسلية التي تشيع في البصرة. وفي بواكير الربيع يتعالى العشب الغض الطري وتزدهر الأشجار فما عليك إلا أن تنساب بقاربك في إحدى الجداول، وعلى حفافيه باسقات النخيل متعالية. . . وبذلك تستمتع كثيراً وكثيراً بالطبيعة وزخرفها[1]. والنخل موجود في كل مكان في البصرة. . . ذلك أن قنوات الماء كثيرة، وهي التي تهيىء ما يلائم زرعه وإيناعه. ويقول المثل العربي: «إن أقدام النخلة يجب أن تكون في الماء ورأسها في النار». والبصرة معروفة بشدة حرارة الشمس وحتى في الشتاء. لذا ينمو فيها النخل وتجود بمادة التصدير الأولى: التمور. إن النخل يجود بكثير من لوازم الحياة، فهو غذاء بالدرجة الأولى، يؤكل ناضجاً وغير ناضج، ومجففاً، أو مسحوقاً، أو أخضر. والدبس شراب لذيذ، ويمكن أن تستقطر منه أنواع المشروبات الكحولية، وللحكومة[2] معمل تقطير تجريبي في

= تجعلها صالحة لصناعة الصابون، كما تصلح لتحضير زيت الطعام، وتبين أن بالإمكان استعمال النوى مادة أولية للحرير الصناعي. (المترجم).

(1) زخرفها: كمال حسنها وألوان نباتها. (المترجم).

(2) ظاهر أن (المؤلفة) تشير إلى معمل كان موجوداً إبان عهد الاحتلال. (المترجم).

البصرة ينتج أنواع المشروبات التركيبية الرخيصة، كالويسكي، والجن، والروم، والعرق و(كريم ده من) و(كوميل) وما إلى ذلك، وكلها من التمر بعد تكييفه. كما تصنع الحبال من ألياف النخل وتنسج، ومن خوصه تصنع المكانس والسلال والحصران. ويستعمل خشبه في صنع كثير من الأشياء وللتسقيف، ولعمل الأسرة والمقاعد والأقفاص، ويستفاد منه في الجسور، وهو مادة للوقود أيضاً. وعلى الرغم من هذا كله هناك من يقول إنه طعام سرعان ما يملّه الإنسان، لذا فإن الأسرى في البصرة تهفو قلوبهم إلى منظر شجرة باسقة من أشجار الخوخ أو البلوط أو البق (Elm-tree).

شكا أحد المصابين بالحمى في البصرة من أن رؤية (الكَرَب) المهتز على الطوف يجعله مخبولاً! وعندما يحل القيظ، وتهفو النفوس إلى الخضرة.. فالنخل مغبر، كسائر الأشياء الأخرى!

وعندما وصلت البصرة سنة 1919 لم تكن المدينة غير مخيم قاعدي كبير. لقد خططوا القاعدة الكبيرة هذه أحسن تخطيط، وكانت كلفة ذلك كبيرة جداً. وهكذا قامت في الصحراء مدينة تتألف من أكواخ تمتد لمسافة أميال عدة، وبيوت للضباط، ومخازن وسيعة، ومقرات لجمعية الشبان المسيحيين، ودور السينما وناد للضباط... ومخزن للميرة، وبمقدورك أن تبتاع فيه ما تشاء من فرش الأسنان... إلى المناضد السفرية.

أما الأرصفة فأمرها عجيب: إنها في شغل شاغل لا ينقطع، وهي مزودة بالروافع الكهربائية، وفيها سكك حديد، ومخازن حسنة. والمستشفيات كثيرة، ومنها مستشفى للعزل وهو قريب، واقع في الجهة الجنوبية، ومستشفى كبير يحل في (بيت النعمة)، على مبعدة أميال قلائل صوب الجنوب. وهناك 3 مستشفيات عسكرية تقع في (المكينة) و(ماركيل)[1] ومستشفى مدني، ودار

(1) تريد المؤلفة (معقل) وهو من مواضع البصرة، واسمه جاء من اسم نهر من أنهار البصرة القديمة منسوب إلى (معقل بن يسار المزني) وكان يعرف بنهر معقل (معجم البلدان، مادة: نهر معقل) وحرَّف الإنكليز هذا الاسم حين احتلوا البصرة فنطقوا به (ماركيل) وجاراهم في ذلك من كان يشتغل عندهم فشاعت هذه التسمية المغلوطة، وهي مثال حديث لما يصيب الأسماء العربية من تحريف. (المترجم).

حضانة مدنية أيضاً. وازدحمت هذه «المدينة الحربية» بالسكان ويضمنهم آحاد القوات البريطانية والهندية المحاربة، والعمال الإيرانيون، لابسو اللباد وذوو الشعور المهتزة. وإنك لترى سيارات النقل العسكرية في جيئة وذهوب، وسيارات حكومية من طراز (فورد) وسيارات الإسعاف، وسيارات كبيرة أخرى يزهو بالجلوس فيها القادة وضباط الركن... كل هذه صيَّرت الشوارع في شغل شاغل وأخص بالذكر منها الشارع الممتاز الذي كلفنا مبالغ جسيمة فأثير موضوعه في البرلمان. إن بغداد تحسد البصرة على مثل هذا الشارع.

وفي هاتيك الأيام الخوالي خصصوا لجل الدوائر المدنية سيارات، ولكل سيارة سائقاً. ولو دفعوا مبلغاً شهرياً زهيداً لأمكن الاستفادة منه للمقاصد الشخصية أيضاً. أما منتسبو الجيش فلن تتعذر عليهم وسائل النقل، برية أو مائية، إنها أيام اليسر، والنعيم المقيم، بالنسبة للمرأة الإنكليزية، والمنافع فيها جد موفورة. والحكومة تدفع عن ذلك كله لذا أصبح اسم (ما بين النهرين) اسماً مباركاً لدى الجميع، فيما خلا دافع الضريبة في إنكلترا، بطبيعة الحال. وحدث تغيير كبير قبل ثورة 1920، وأجري خفض في كل باب من أبواب الصرف، وشاعت كلمة (الاقتصاد) على لسان كل مسؤول، وأغلقت كثير من المستشفيات، وبوشر بسحب الجند من القاعدة تدريجياً لإرسالهم إلى الهند وبريطانيا. وعندما عدت في خريف سنة 1921 إلى المدينة وجدت الحياة فيها على شيء كبير من التبدل، فبعد أن كانت زخَّارة بالعمل والنشاط أصبحت هادئة مقفرة... وكانت السفينة التي قدمت على ظهرها وحيدة في الرصيف، والروافع فيه معطَّلة عن العمل. كما خلت الأكواخ من ساكنيها في الأغلب، وقلت السيارات. وكان القادة وضباط الركن قد غادروا المدينة، ولا أثر فيها للنقل المجاني! إنها لبصرة أخرى، يسودها الحرمان والصرامة، وكان بيتنا ذا نوافذ مُطِلَّة على النهر، وعلى مقربة منه جسر هو جزء من طريق تربط القرى بالأسواق. إن المواصلات من المدينة وإليها دائبة دائمة، وقطارات الإبل تمر بنا دوماً. كما تمر قطعان الماشية يتقدمها الرعاة وهم يستحثونها على المسير بنعيقهم[1] العالي. وتمر بنا أيضاً مواكب الأعراس والمآتم، وكنت أرى النسوة

---

(1) نعق الراعي بغنمه: أي صاح بها وزجرها. (المترجم).

وهن يذهبن إلى السوق كل يوم. وفي البصرة طائفة من العاطلين المتسكعين لا عمل لهم إلا مناقلة الحديث ونقل الشائعات. وإنك لتشاهد أيضاً الصبايا الصغار بعباءاتهن، أو مآزرهن البهيجة وهن يذهبن إلى المدرسة. وفي الحق إن الحياة على ذلك الجسر زاخرة بشكول وألوان شتى وتستأهل أن يفرد لها كتاب خاص.

وعلى مقربة من بيتنا بيوت تعلوها أشجار الجهنمية[1] وتحنو على النهر. وتنعكس لطاقات ورد الدفلى صور على المياه الجارية تحتها. وهناك جسر خشبي لطيف يقوم على مقربة منه مقهى وهو ملجأ واهن يختلف إليه العاطلون فيجلسون تحت ظلال النخل يديرون الحديث بينهم ويحتسون القهوة بلا انقطاع. ويفضي هذا الجسر إلى زقاق قريب يحاذي جدولاً آخر. إن هذا ليزدهي بأشجار الدفلى في الربيع، وتأخذ الأرض زخرفها وتزيّن بالعشب السندسي المخضلّ بقطرات الغيث. وطريق آخر يحاذي جدولاً آخر ويفضي إلى الصحراء ماراً خلال باسقات النخل وقرية للزنوج. وما أن يتشعب الطريق هذا فيحاذي قسم منه جدولاً مائياً إلا وينتهي عند الحصون التركية القديمة.

وإذا ما سار المرء خلال بساتين النخل حيث يتطاير فيها الرفراف[2] وكأنه مارج من نار، فمن الحتم أن يصادف في طريقه الأوانس المليحات «خوات رزنة». إنهن يسكن قرية صحراوية وَيزيِّن بـ(الخزامات)، فيها الشذر واللؤلؤ، وإن حجولهن ومعاضدهن من فضة آلقة دوماً. إنهن يستبدلن دروعهن السود بأخر وردية متربة، وهن يحملن على رؤوسهن المتوجة بالعمائم أحمالاً... فهذه سلة، وذاك وعاء من نحاس، وتلك سمكة يكنس ذيلها الأرض كنساً. إنهن يبتسمن لكل غريب، وقد يعملن في المدينة بنقل الآجر، أو الماء أو ما إلى ذلك. ولقد استخدمت إحداهن لرمي قمامة البيت فكنت تراها تحملها على رأسها وتتبختر في مشيتها كالملكة. وأصوات (خوات رزنة)

(1) أشجار الجهنمية هي الـBougainvillaea (انظر معجم النبات لأحمد عيسى بك) (وبو غنفيلية) اسم مدينة في أستراليا. (المترجم).

(2) في الأصل Kingfisher ويعرف عند فصحاء العراق قرلى وعند عوامهم بالصليلقع على ما يقول (الأب الكرملي). (المترجم).

ليست بمتناسقة تناسق شكلهن. إنهن يجتمعن في غرة الفجر على ضفتي الجدول، ويتبارين في الصراخ والعنف. وما لصراخهن من آخر، وقد يخالهن الغريب مشتبكات في شجار، وما هن في الحق، إلا في حديث يدور حول عملهن اليومي. . . وقد يكون ذلك بسبب فقد إحداهن لـ(آنة، أو آنتين)! وليس الليل كله بالوقت الذي يخلد فيه أهل البصرة إلى الراحة والسكون. فالهدوء ينتهي عند منتصف الليل، وبعده يتساءل المرء إن كان أهل البصرة نياماً أم إيقاظاً؟! فما أن يرتفع المد العالي (في الساعة الثانية بعد منتصف الليل أو في أية ساعة أخرى من ساعاته) إلا وتسمع جلبة وضوضاء وصرخات ولعنات وزمجرات. . . فأهل البصرة لا يستطيعون (كذا!) إلى مناقلة الحديث الهادىء سبيلاً، وفي الليل على وجه أخص. ويبدأ العمل النهاري في الساعة الرابعة، وتعود المدينة إلى ضوضائها وجلبتها. وإنك لتسمع أحدهم يكلم آخر بأعلى صوته فيهب هذا إلى المباراة، وكأن الذي يعلو صوته على الآخر هو الفائز في ميدانها. وتسهم النسوة في ذلك أيضاً فيضطر المرء إلى الاعتقاد أن الصياح هو نمط الكلام الطبيعي في البصرة.

ومن يلقي السمع إلى العربي وهو يتكلم على سبيل الصدفة يخاله لا يحيد عن موضوع الفلوس أبداً. فكلمتا بـ(روبية) و(آنة) في كل حديث يسمعه المرء. ويتبادل القاربيون الصراخ، وروبية، وآنة على لسان كل منهم. وتتطرب ألسنة النسوة، (روبية) و(آنة) وهن يملأن جرارهن من ماء الجدول. وسمعت امرأة تمر من تحت نافذة بيتي وهي تعول وتذهب نفسها حسرات فظننت أنها فقدت عزيزاً، وما أن عبرت إلا وسمعتها تسر القول إلى أحد المارة، فإذا البلوى أنها فقدت 4 آنات!

والبصرة فقيرة في الأبنية العتيقة، أسسها الخليفة عمر في السنة الـ 17 للهجرة[1] أي في الزمن الذي بنيت فيه الكوفة تقريباً. وموقع البصرة القديمة

(1) بدأت المدينة كمعسكر بسيط من خيام وبيوت من القصب لحوالي 500 رجل محارب ثم نمت بسرعة حتى أصبح سكانها بعد حوالي نصف قرن يبلغون قرابة الـ 300 ألف وقد ظلت مزدهرة منذ أواسط القرن الأول إلى أواسط القرن الثالث حيث بدأت منذ ذلك الحين تنحط وتضعف أهميتها وتغيرت مراكز النشاط فيها فتحولت تدريجياً إلى =

غير موقع البصرة اليوم. فالأولى على مبعدة بضعة أميال غرباً وفي الصحراء، الصحراء التي كانت تغمرها المياه في أيامها الخوالي. أما الزبير، التي سميت باسم أحد أصحاب النبي وقد قتل في واقعة الجمل[1] فتقع في حي من أحياء البصرة القديمة، ولم يبق من (جامع علي) ذي المنارات السبع، وأكبر جامع بني في الإسلام أي أثر، كما لم يبق أثر أيضاً للبنايات العباسية التي بنيت بالآجر اللطيف. وهناك برج يسمى محلياً بـ(برج السندباد) ويقع في منتصف الطريق بين البصرة والزبير، ولعله من آثار المدينة القديمة، ولم تبق من مجد المدينة القديم اليوم باقية.

والزبير[2] مدينة صحراوية صغيرة يتردد عليها البدو لشراء ضرورات الحياة. إنها من موانىء البادية، وترتبط بخط من خطوط السيارات بالبصرة. وعربات الخط هذا حقيرة، وتبدأ السيارات بالسير من قرب مقهى صغير يقع

= الشرق... ثم إن مواد البناء في البصرة من اللبن أو الطابوق وكلاهما مما يسهل هدمه فلا تبقى للبناء المهدوم آثار واضحة. ومن المعروف جيداً أن كثيراً من أبنية الزبير الحالية قد بنيت بطابوق أخذ من خرائب البصرة... والزائر لأطلال البصرة القديمة اليوم لا يرى إلا أرضاً واسعة غير مستوية فيها تلال كثيرة غير مرتفعة قلما يستطيع المستطلع فهمها وتقدير أهميتها ما لم تجر حفريات دقيقة تعينها. ولم تجر فيما أعلم حتى الآن الحفريات الأولية التي قد تعين على تعيين إحداثيات لرسم مخطط البصرة القديمة... وإن خير إحداثية يمكن اتخاذها كنقطة البداية لتعيين مخطط البصرة هي جبل سنام، وهو تل عال في جنوبي البصرة القديمة تردد ذكره عند القدماء ولا يزال معروفاً باسمه (راجع ـ خطط البصرة ـ الدكتور صالح أحمد العلي ـ مجلة سومر ـ العدد الثامن).

(1) من الروايات ما يشير إلى أن موقعة الجمل حدثت في (الخريبة) وهي روايات يؤيدها الشعر المروي، ورسالة الإمام علي التي يذكرها الطبري (3228): «... فلما التقينا في النصف من جمادى الأخير بالخريبة فناء من أفنية البصرة...». ويمكن توفيق هذه الروايات مع الروايات القائلة إن الواقعة حدثت في (الزابوقة) وذلك باعتبار أن الخريبة تقع عند الزابوقة. والخريبة كانت محلة كبيرة بقيت إلى عهد ياقوت، وكان بقربها ميدان يتسع لقتال كبير كموقعة الجمل. ويقرر (ياقوت) أن موقعة الجمل جرت في (الزابوقة). (المترجم).

(2) تبعد الزبير عن البصرة مسافة 21 كيلومتراً إلى جنوبها الغربي وبجوارها مدافن طلحة وابن سيرين والحسن البصري وغيرهم، وخرائب البصرة القديمة تبعد عنها 15 كيلومتراً. ومن أبرز آثارها بقية باقية من مئذنة المسجد القديم. (المترجم).

على حافة الصحراء، وفي المقهى يجلس المسافرون للراحة والاستجمام عند الذهاب والإياب. ويتلوى الطريق في أرض رسوبية مسطحة مغبرة، أو هي بلون القطا الذي يتطاير مذعوراً كلما مر إنسي من هناك. فإن هبت عاصفة رملية أثارت النقع في تلك الأرض الوسيعة... ولكنها سرعان ما تمر، وبعد عكرها يأتي صفاء وجو رائق لطيف. ومن بعيد تتراءى الزبير كخط صغير من شجر يمتد في عزلة تامة، وهناك صف من بيوت بنيت بالرِهْص[1].

أصبحت الزبير وهي تدين بما يشبه مذهب المتطهرين Puritan المذهب الوهابي. كما جرت المدينة على عرق من العقيدة المتزمتة التي يكلف بها أهل نجد، فعندما تحين أوقات الصلاة الخمس في كل يوم تصبح المدينة خالية من أهلها، كما تقفر الدكاكين من باعتها. والدخان واحتساء القهوة محرمان على الوهابي، وإن كان العربي عموماً أشد الناس كلفاً بهما. إن الملابس الحريرية، والكماليات محرمة أيضاً شأنها شأن الدخان والقهوة. ولن تجد في (الزبير) أبواباً مزخرفة أو شبابيك يلهو الناس بها، وكل ما هناك جدر بسيطة من الرهص وقد جففته الشمس. إنها خدر الحياة البيتية، تصرف عنها عين كل غريب. وأشكالها إما مربعة، أو ساذجة، وقد تتلألأ هنا أو هناك (كاشية) زرقاء على باب جامع. ولأهل الزبير شبّه بيوتهم، إن ميسمهم البين الجد، والصرامة، والإباء.

وقد تسمع رغاء الإبل وأنت تمر بالميدان. لقد عقلوا ركبة كل واحد منها ليمنعوه من النهوض. وإنك لتجد معهم بعض أهل البادية السمر، ذوي الجرم الصغير والجسم النحيل. إن هؤلاء يأتون الزبير من أقاصي البادية، وإنك لتراهم يمشون مشية من ألف السفر في المفاوز والبراري.

وأسواق (الزبير) نظيفة جذابة، وقد تعثر فيها أحياناً على سجادة جيدة، أو قطعة قديمة من نحاس جاء بها أحد المسافرين على سبيل الصدفة. وهناك كميات لا حد لها من العباءات المخططة المصنوعة من وبر الإبل، ومن النوع

(1) الطين الذي يبنى به ويجعل بعضه فوق بعض. (المترجم).

الذي يرتديه البدو على الأغلب الأعم، وكذلك الكفافي والعقل المصنوعة من حبال وَبَرية أيضاً. إن بيع أمثال هذه البضاعة هين ميسور في كل حين.

وحكم (شيخ الزبير) المدينة في سنة 1919. إنه أحد كبار المُقْطعين Feudal Lords الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال والحرية، وفي الجري وراء أهوائه وملذاته أيضاً. إنه يهوى صيد الغزلان، وتربية الصقور لاستخدامها في الصيد. وقد تصادف في السوق أحد الرجال المكلفين بتربية صقور الصيد هذه. إنها معصوبة العينين، محمولة على الأيدي، وقد صانوها بالقفازات. وقد تترك الصقور لتقف على مساند خشبية وقفة المهابة والجلال، بينما يخلد مربوها إلى الراحة، أو يناقلون الحديث ولعل من أفضل وسائل اللهو وأشدها ملائمة لأهل البادية: الباز الجوال Peregrine: إنه ذو عينين حادتين متوحشتين، وبلون الكهرمان، وله منقار معقوف حاد.

ولقد تبدل الحال اليوم، فشيخ الزبير أساء التصرف في ممارسة واجبات وظيفته وأوغل في المكر والدس ـ على ما يلهو به أمثاله عادة ـ لذا أجبروه على الإقامة ببغداد، ونيطت إدارة الزبير بمتصرف البصرة.

وتقع (الشعيبة) ـ التي شهدت معركة ربيع 1915 ـ على مقربة من الزبير. لقد أحرز في معركتها سرجون نيكسون نصراً مؤزراً حاسماً على القائد التركي سليمان العسكري. لقد كان هذا القائد مجروحاً في معركة سابقة فحملوه على نقالة ليدير معركة الشعيبة، وما أن رأى قواته تتراجع مندحرة إلا وآثر الانتحار. وبمقدور المرء أن يشاهد آثار الخنادق اليوم، أما الحصن التركي الذي قلبوه إلى مطعم للضباط، ومستشفى بعد المعركة، فلقد ترك الآن.

والشعيبة واحة ساحرة، تتلألأ ذرات الملح في أطرافها فيحسبها الرائي ندف الوفر المتساقط، وفيها الأثل Tamarisk[1] الأخضر تلاعبه الرياح دوماً.

(1) أثل جمع آثال وأثول. ثمر الأثل يسمى عذبه وهو عفصها، والأثل في الجبال يسمى نضار ـ معجم النبات ـ الدكتور أحمد عيسى بك.

ولنعد إلى البصرة، فالسوق فيها جميلة جذابة ولكنها ليست بوسيعة تتنوع فيها البضائع كما في بغداد. وإنك لتشاهد في سوق الماشية الأغنام والماعز والحمير والجمال، وما تتوق لرؤيته من خليط متنافر من الرجال، والنسوة العجائز وقد جلسن على الأرض وأمامهن حبات الكهرمان والحصى والبلورات والملابس القديمة وقطع النحاس الأصفر والخرز ـ كلها منثورة على الخرق. وعلى مقربة من السوق الملهى المسمى (ملعب الملكة ماري) ولا أحسب أن ذلك تكرمة للملكة ماري على كل حال!

وفي حي (العشار) سوق يتبختر فيها أمثال (السندباد) من كل جنس، وفيها دكاكين لطيفة تبيع الحرير والأقطان وسبح الكهرمان، وتلك الصناديق الغريبة الصغيرة المصنوعة من فضة ولها أغطية من عقيق.

وفي البصرة، كبغداد، دور للسينما يرتادها في الليل جمهور متحمِّس مشوق. إنه خليط من الأجناس: كالعرب والصينيين والفرس واليهود، وهم جميعاً يتابعون الدراما على الشاشة البيضاء، وقد يصفقون لها ويهتفون عندما ينقذ البطل البطلة! وقد يذهبون النفس حسرات عندما يكون النصر لمن لا يستحق النصر. . . وهكذا دواليك حتى تختتم الرواية بالمشهد الأخير!.

الباب الرابع

أهل العراق...

جوانب من: حياتهم العامة،

عقائدهم وشعائرهم الدينية

الفصل الأول

المذاهب الإسلامية

حَسَن للغاية، على ما يبدو، أن يترك شأن العراق لأهله[1] ولكن. . . ما مغزى ذلك يا ترى؟ إن أهل العراق ليسوا بعرب جميعاً، وليسوا بمسلمين جميعاً، فيه قوميات عدّة، وبقايا قوميات عديدة. . . وفيه طوائف متعددة، وعقائد شتى. وفي الحق، إن بلاد الرافدين العظيمة، وهي التي شيد فيها «برج بابل» الشهير[2]، ما زالت اليوم موطناً لكثير من اللُّغة، والشعوب، والعقائد. ومن مذاهبها الدينية: السنّية، والشيعية، ومن قومياتها: الكردية، ومن أديانها: الموسوية والمسيحية، وهناك الصابئة واليزيدية وغيرهما.

وكانت للأتراك شبه سيطرة على البلاد، وكانوا يحرضون القبائل، الواحدة ضد الأخرى، ويغرون الملل، كل ملَّة ضد أخرى، ويثيرون أصحاب الأديان، كل دين ضد الآخر. . . وهكذا كانت تنطلق الحزازات والأحقاد والثارات. . .

---

(1) تشير «المؤلفة» إلى نزعة الانعتاق والتحرر والاستقلال التي طغت على البلاد إبان تأليف كتابها (1923) وقبل ذلك وتجسدت بثورة 1920 وما تلاها. (المترجم).

(2) جاء في الإصحاح الحادي عشر من (سفر التكوين) ذكر (بابل) حين حاول الناس أن يتخذوا لأنفسهم مدينة عظيمة وبرجاً شامخاً يطاول السماء فبلبل الله ألسنتهم وجعلهم فرقاً وشيعاً لا يعرف بعضهم بعضاً بعد أن كانوا أهل لغة واحدة فانتشروا في الأرض وتعددت لغات البشر ولهذا سميت المدينة (بابل) واشتق اسمها من بلبلة الألسن. وبعض البحاث يرى أن بابل معناها: (باب أيل) أي باب الرب. (المترجم).

ولِمَن لم يكتنه حقيقة الإسلام أقول: إن المسلم مسلم، ولن يأبه لأمر هذه الـ 72 فرقة... التي يتحدث عنها (عمر الخيام). ويرجع الاختلاف المذهبي بين السنة والشيعة إلى أوائل تاريخ الإسلام... وإليك حديث ذلك:

انتقل محمد إلى الرفيق الأعلى ولم يخلف من زوجاته العديدات عقباً. ذلك أن (إبراهيم) ـ وأمه (مارية القبطية) ـ ولد في مضارب الإسلام، ومات صغيراً، وضمته رمال الصحراء. وأصابت الدين الجديد، بموت نبيِّه، رجة. وارتدت قبائل بدوية عدة. وقضى على (الردة) الخليفة الأول: أبو بكر، وهو شيخ أيِّد حازم، وكان ساعداه في ذلك القائدين خالد بن الوليد، وخالد بن سعيد. وحُمِلت بعد ذلك راية الإسلام خفَّاقة مظفرة إلى سوريا والعراق[1]. بويع لأبي بكر بالخلافة، وكانت الشيعة ترى أن علياً، زوج بنت النبي، أحق الناس بها. ولم يظفر بها (علي) بعد وفاة أبي بكر أيضاً، وخلف (عمر) أبا بكر. وعمر هذا هو المثل الأعلى لفروسية الإسلام فلقد كان: قوي الشكيمة، شديد الحمية، حصيف الرأي، حصافة[2] ابن الصحراء، صريح القول، عميق الإيمان، عادل الحكم[3]، ويؤثر شظف العيش[4]، إنه القائد المثالي للإسلام

---

(1) وجَّه الخليفة أبو بكر (رضي الله عنه) الحملات القوية لمحاربة أهل الردة وشكل منها أربعة «أرتال» رئيسة، جعل الأول تحت قيادة خالد بن الوليد وأنفذه لمقاتلة طليحة الأسدي، ومالك بن نويرة التميمي، والثاني تحت قيادة عكرمة وشرحبيل لمقاتلة مسيلمة الكذاب في اليمامة والثالث تحت قيادة العلاء بن الحضرمي لمحاربة أهل البحرين، والرابع تحت قيادة عمرو بن العاص لمحاربة قبائل قضاعة ووديعة والحارث.
وهناك أرتال أخرى عقد لواءها لقادة آخرين بلغ عددهم جميعاً (11) قائداً، وتوالت الانتصارات على يد قادة هذه (الأرتال) في كل مكان واستتب الأمن في الجزيرة العربية ثم كرس جهوده لغزو حوض الفرات الأوسط، وفتح الهلال الخصيب، ولكن المنية عاجلته قبل أن يتم الفتوحات التي عزم عليها. (المترجم).

(2) الحصافة جودة الرأي وإحكام العقل. (المترجم).

(3) كان عمر (رضي الله عنه) كثيراً ما يردد أنه يخشى أن يظلم بعض ولاته أحداً من الرعية ولا يستطيع المظلوم أن يرفع إليه شكاته.. وكان يؤمن بأن أي ظلم يقع من ولاته ثم لا يجدّ هو في إصلاحه فهو الظالم. (المترجم).

(4) وهو الذي كان يقول دوماً ولا سيما بعد أن طعن: وددت لو أخرج منها كفافاً لا عليَّ ولا لي. (المترجم).

المجاهد. وسار جنده، بأمرة القائدين العظيمين خالد ومعاوية، وهم أولو قوة وأولو بأس شديد. وكان الخليفة يدير حركات جيوشه من مقره في المدن المقدسة. وأصبحت دولة الإسلام، قبل أن يوافيه الأجل، مترامية الأطراف عظيمة الشأن[1]. وبقي هو حتى وفاته يؤثر البساطة المتناهية. وختم خنجر (قاتله) صفحة حياة رجل فذ ومن ألمع شخصيات التاريخ في العالم.

وحلت الفرقة في الإسلام إثر موته، فلقد اغتيل الخليفة الثالث عثمان بعد فترة من القلق والاضطراب وانتقلت الخلافة إلى علي، زوج (فاطمة) بنت النبي ووالد سبطيه. وكان علي وديعاً رؤوماً. وسرعان ما عمَّت الفوضى ونشب الخلاف في دار السلام[2]. وكان علي... من الشخصيات التي تلازمها النكبات والمآسي. وفي الحق إن الخيبة غشيت حياته وحياة أبنائه وأحفاده جميعاً وكانت خواتيم حياتهم مفجعة. إن سوء الطالع لم يفارق ولديه: الحسن والحسين. فما أن اغتيل علي إلا ونودي بالحسن خليفة المسلمين. لكن عودة معاوية من سوريا ملأت الحسن رعباً[3] فآثر العافية ونزل له عن الخلافة. ومات الحسن كسير القلب، وعلى يد زوجه. ولما كان معاوية على غير وفاق مع آل علي، ويرى أن جعل الخلافة بالانتخاب سبب في إشاعة

---

(1) وعلى يد خليفة الإسلام العظيم تم فتح البلاد السورية، والفلسطينية والعراقية، والمصرية وبلاد فارس. وأصبحت كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) تدوي كل يوم في مدنها، وقراها، وسهولها وبطاحها، وهو أول من ضرب النقود بالعربية (وكان التعامل يتم قبلاً بالنقود الفارسية والرومية)، وأقر يوم الهجرة مبدأ للسنة الإسلامية، وهو أول من وضع تدوين الدواوين، وترتيب الجنود على الثغور، وأمر ببناء البصرة (سنة 15هـ) والكوفة (سنة 17هـ) والفسطاط. (المترجم).

(2) دار السلام أي بلاد المسلمين، ودار الحرب مناطق سكنى العدو المتربص على حدودها. (المترجم).

(3) بايع العراقيون الحسن بن علي بعد استشهاد أبيه، ولكنه تنازل عن الخلافة تحاشياً من نشوب حرب بينهما تذهب ضحيتها نفوس مسلمة بريئة كثيرة، واشترط الحسن على معاوية (1) أن يعفو عن أهل المدينة والحجاز والعراق و(2) أن يمنع سب الخليفة علي من على المنابر و(3) أن تكون الخلافة له من بعده. وقبل معاوية الشروط أولاً ثم نكث بعهده، وقيل إن زوجة الحسن (جعدة) دست السم له، بإغراء من معاوية، فمات. (المترجم).

القلاقل والاضطرابات، فلقد سارع إلى جعلها وراثية وملكاً عضوضاً، وأعلن أن الخليفة من بعده هو ابنه يزيد. ورفع ابن علي الثاني (الحسين) راية بيته، ومعه قلة من المقاتلين فاستشهد. وكان استشهاده مسبباً عن عدم «تقدير الموقف» على وجه الصواب، وحاصرته قوات الخليفة في (كربلاء)، قرب الكوفة. وكان معه أفراد أسرته جميعاً، ومنع أعداؤهم الماء عنهم، وكل عطشان إليه، ثم أعملوا فيهم القتل، فاستشهد الواحد إثر الآخر. لكن جنود أعدائهم لم يتخلوا عن الرحمة كلياً، فهم يعرفون جيداً الأصل الشريف الذي ينحدر منه هذا البيت ونبالة مولد أبنائه، لذلك نجا أحد أبناء الحسين ومنه انحدر العلويون الذين انتابتهم صروف الدهر ومآسيه ردحاً[1] من الزمن.

ويعاد تمثيل فاجعة كربلاء خلال شهر (المحرم) من كل سنة في (إيران) والمراكز الشيعية الأخرى. وإنك لتشاهد المواكب تمر فيه وفيها اللادمون والواكزون[2] والضاربون بالسلاسل على الظهور. ويتعالى في أثناء ذلك عويل الجموع، ويختلط بأصوات «قراء» قصة الفاجعة وهم يروون ما صحبها من فشل وهزيمة. وتعتبر كل من (النجف) و(كربلاء) من العتبات المقدسة لدى الشيعة جميعاً، فهما تضمان جدث الخليفة الشهيد وأجداث البعض من أبنائه. أما الكاظمية، وهي على مقربة من بغداد، ففيها مرقدا حفيدين من أحفاد الحسين، وهما الإمامان السابع والتاسع. أما الإمام الثاني عشر، وهو الأخير، فقيل إنه اختفى في كهف بسامراء (إحدى العتبات المقدسة) وإنه سيظهر في نهاية العالم ليقود المؤمنين، في خاتمة المطاف، إلى النصر المؤزر.

إن الشيعية والسنية في العراق كالبروتستانية والكاثوليكية في إيرلندة. والشيعة على وجه العموم، تسكن جنوب العراق، من بغداد حتى مصب شط العرب. وجل الملاكين، والمرموقين في البلاد من أبناء السنَّة[3]. وكان كل

---

(1) الردح: الوقت الطويل. (المترجم).

(2) اللدم: الضرب بكلتا اليدين، والوكز الضرب على الصدر. (المترجم).

(3) إن أهل السنة والجماعة من أهل المذاهب الأربعة (الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي) يكبرون الإمام علياً وأولاده وأحفاده من الزهراء وغيرها إكباراً لا مرية فيه وأكبر دليل على =

الموظفين، إبان الحكم التركي، منهم على وجه التقريب. أما الفلاحون والمستوطنون ممن دأبوا على زرع بلاد الرافدين منذ أيام بابل الأولى، ولم يأبهوا في أي يوم إلى حكامها والمرموقين فيها، فهم من أنصار علي الشهيد دوماً. إنهم يقفون دائماً بجانب قضية لم يحالفها التوفيق في يوم من الأيام، قضية بيت فاطمة المضطهد. وسيل الزوَّار يتدفق دوماً على النجف وكربلاء. وفي أضرحة المدينتين ثروة آلقة، وفي قلوب قصَّاد المدينتين المقدستين عاطفة جياشة... ويتوسل بمواكب التعازي في (المحرم)، وبالبكاء والضرب بالسلاسل على الظهور إلى إحياء ذكرى استشهاد علي وأبنائه.

إن المجتهدين يملكون حق تفسير شريعة القرآن في ضوء آراء الأئمة. وفي مقدورهم إصدار الفتاوى للمؤمنين، وهذه على غرار المحلّلات والمرصصات[1] Dispensations، تفرض على الشخص واجبات أو تجعله في حل من بعضها. لذلك كانت لهم سلطة كبرى. ومن هم هؤلاء المجتهدون يا ترى؟.

إن المعنى الحرفي للمجتهد هو «المثابر» أو «الكاد» أو «المواظب». و«المجتهدون» هم رجال الطبقة الأولى من علماء الشيعة ولهم الكلمة العليا في أمور الدين والشريعة، فلا استئناف لحكم يصدرونه أو تمييز. وهناك «مجتهد أعظم» دوماً، ومما يؤهل المرء ليتبوأ هذا المقام الجليل أن يبلغ من الكبر عتياً، وأن يتمتع بسمعة طيبة[2]. ومن أقوم السبل لذيوع صيت «المجتهد» أن

= ذلك قولهم بعد ذكر اسمه: «كرم الله وجهه» باعتبار أن وجهه الكريم لم يسجد لغير الله منذ خلق. أما حبهم لآل البيت فدليله القاطع قولهم (اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد) ومن لا يذكر آل البيت في صلاته عمداً بطلت صلاته. (المترجم).

(1) في الأصل Bulls والمرصوص أي المختوم بالرصاص كتاب يرسله البابا أو منشور منه. (المترجم).

(2) أقفل باب الاجتهاد في منتصف القرن الرابع الهجري وجعل القضاة وأصحاب الفتوى مقيدين بأقوال الأئمة الأربعة المعروفين الذين اجتمعت الأمة على الرضى بهم. وفي ذلك يقول العلامة ابن خلدون المتوفى سنة 808هـ: «ووقف التقليد في الأمصار ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه كما كثر تشعب =

يصدر حكماً شرعياً في قضية عويصة من قضايا الشرع. ولقد بنى كثير من المجتهدين[1] أساس مجدهم على حل قضية شرعية معقَّدة. وإصدار الأحكام الشرعية عند مجتهدي الشيعة قريب الشبه بالتشريع القضائي Judge-made law في إنكلترا. والمراد بذلك أن إصدار حكم ما يجعله سابقة يستطيع أي مجتهد بارز أن يكيفها فيصدر حكماً آخر على أساسها، وهكذا تصبح السوابق مصدراً للواحق. ومن لهم مقام الصدارة من بين مجتهدي الشيعة اليوم: ثلاثة: ـ [إذ

= الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد، ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بذمته. فصرحوا بالعجز والاعواز، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء. . . ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه، مهجور تقليده وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة». انتهى قول ابن خلدون.

ونجحت بعد ذلك حركة مباركة تدعو بقوة إلى ترك التفكير الذي ران على العقول وثقل على الصدور طوال القرون الماضية وإلى فتح باب الاجتهاد لمن هو أهل له والفضل في هذا يرجع إلى رجلين عظيمين من أعيان الفقهاء والعلماء وهما ابن تيمية المتوفى عام 728هـ وتلميذه ابن القيم المتوفى عام 751هـ ثم من بعدهما إلى محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي المتوفى عام 1206هـ. (المترجم).

(1) تقول الآنسة جرترودبيل: «إن المجتهدين من الوجهة النظرية هم من رتبة واحدة، ولكنهم في الواقع ينتظمون في 3 صنوف تبعاً لتأثيرهم في الناس وعدد أتباعهم. وليس هناك من دراسة مقررة يتبعها أحد دراس الشيعة ليصبح مجتهداً، أو تؤهله للانتقال من درجة إلى أخرى. وليس هناك امتحان رسمي يجتازه المرء إثر دراسة أشياء مقررة. ولكي يصبح أي شيعي في عداد المجتهدين عليه أن يسعى إلى ضمان اعتراف أكبر عدد من مجتهدي زمانه وإقرارهم بأنه واحد منهم، وبأن له حق إصدار الفتاوى. ولن يحصل على مثل هذا الامتياز أي شيعي ما لم يدرس حوالي الـ 25 سنة في النجف، وعلى يد المجتهد الأعظم حصراً. ويجب أن يتخلق المرشح إبان دراسته بالخلق المثالي. والعزلة ضرورة من ضرورات الحصول على السمعة الطيبة. ولذلك لم يصبح أحد أبناء الأسر المعروفة مجتهداً في يوم من الأيام. والخطوة التالية بالنسبة للمجتهد أن يجمع حوله طائفة من العلماء ويرسلهم إلى مختلف أنحاء الدنيا يعظون الناس ويدعون له. فإن حالفه الحظ السعيد ازداد نفوذه قليلاً قليلاً حتى يقر الناس جميعاً بأنه في عداد كبار المجتهدين. ثم يقصده الطلاب فيحضرون مجالس درسه وتنهال عليه أعطيات الشيعة الأتقياء من مختلف الأرجاء. ويأخذ هو بتوزيع المال على طلاب وفقراء بلدته. ولم يصبح ابن المجتهد مجتهداً في الغالب، لكن أبناء المجتهدين يتمتعون عادة باحترام الناس والنفوذ بسبب نبالة مولدهم». (المترجم).

لم يتبوأ مقام (المجتهد الأعظم) أحد منذ أن توفي السيد محمد كاظم اليزدي في النجف] وهم: ميرزا حسين النايني النجفي، ومما يناهض دعواه كونه فارسي الأصل وأصم، ثم الميرزا عبد الحسن النجفي، وهو عربي تسنده الحكومة في سعيه لكي يصبح (المجتهد الأعظم) فالسيد علي ابن السيد كاظم اليزدي، وهو أثير عند أبناء العشائر خاصة. أما الشيخ مهدي الخالصي الكربلائي فلقد فقد ما له من نفوذ منذ اجتماع كربلاء (كذا). وإليك حادثة وقعت في النجف بأخرة، وهي خير مثال على ما يستطيع المجتهد أن يقوم به. عين سيدان بصريان أمناء على مال محبوس للخير، والخير هذا إعداد صداق لمن يريد أن يتزوج من السادة «الشبان». وقرر السيدان البصريان، بحسن نية أو خبث طوية، أن يتاجرا بهذا المال، لذا حمل أحدهما مبلغاً منه وقدره 1000 روبية وذهب به إلى النجف. أما الثاني فأخذ الباقي وقدره 4000 روبية وسار به إلى (الحلة) ثم أودعه في مصرف هناك. ولم يكتم الأول خبره وتجارته فوصل ذلك إذن المجتهد، والسيد التاجر البصري من مقلديه وأتباعه. وفي اليوم التالي أصدر إليه (المجتهد) أمراً بأن يقدم إليه سريعاً... فصدع بأمره تواً. ولما جاء إلى المجتهد وجده جالساً في غرفة تزدحم بالناس... وسلَّم عليه بكل تجلة واحترام. لكن المجتهد لم يلتفت إليه، ولما عرَّفه بنفسه انفجر موبخاً البصري. وبعد ذلك أمره المجتهد بالجلوس في أحد أركان الغرفة، ولم يأمر له بالقهوة.

وأصابت التاجر السيد البصري ربكة واعتراه الخجل من ذلك كله، ثم إنه أفصح عن سبب زيارته وأخرج من جيبه رزمة أوراق مالية دليلاً على حسن نيته. وهنا وقف المجتهد مغاضباً وقال: «وأنت يا شيعي أتجسر على أن تحضر مجلسي وجيبك مليء بمال الفقراء؟ ألست المجتهد الذي تقلده وتتبعه، ألست أحق الناس بتسلّم هذا المال. هاته إذن!» وصدع السيد البائس بما أمر. ثم سأله المجتهد مستطرداً: «وأين بقية المال؟ ائتني به!» وهنا بسط السيد له، وهو يرتجف فرقاً، ما حل بالـ 4000 روبية الباقية... ولكن المجتهد عاد إلى غضبه فصاح به: «ماذا! أوضعت مال الفقراء في مصرف ملعون للكفار؟ أأنت شيعي، أم لا؟ إنك مفارق زوجك

حتى تأتيني به» فما كان من السيد إلا أن يترك دار المجتهد مهرولاً ويتخذ سبيله إلى الحلة على جناح السرعة. وما أن وصلها ليلاً، وهي على مبعدة 40 ميلاً من النجف، إلا وحمي وطيس الجدال بينه وبين شريكه حول الأمر. وأسفر صباح اليوم التالي وقفل راجعاً ومعه بقية المال. وتسلّمه المجتهد وعدَّ منه ما يساوي 50 روبية ناولها إلى مقلده الناشز ليستعين بها على العودة إلى البصرة. ثم إنه أمر ساقي القهوة أن يناوله فنجاناً منها. ومما يمتع النفس أن تسمع آراء الشريك ـ بصدد هذه الحادثة ـ في النساء، وقوة العقل.

ويعمد أبناء الشيعة إلى تغطيس كل ما يدخل بيوتهم بالماء الطهور ـ سواء أكان ذلك لحماً أو لباساً أو فاكهة أو غير ذلك.

وطلب بعض صغار الشيعة إذناً من مدرستهم الحكومية ببغداد للذهاب إلى بيوتهم وتأدية الصلاة فيها (والصلاة في مواعيدها الخمسة المقررة فريضة على كل مسلم ومسلمة).

وحصل أبناء الشيعة في عهد الحكومة الحالية على امتيازات لم يحصلوا عليها قبلاً. ومنهم من يتبرم بذلك أيضاً[1]...

وحلية أبناء السنة هذه النظرة السديدة إلى الحياة، وشؤونها. إنهم يتقبلون حقائق الحضارة، وهم قادرون على معاملة الأوروبيين معاملة الند للند. وإن لهم روحاً رضياً[2].

---

(1) لقد أخذت (المؤلفة) برأي الاستعماريين، قصار النظر، من الذين سيطروا على مقاليد الأرض أحقاباً متطاولة، ورأوا في التفرقة بين أبناء البلد الواحد، والدين الواحد، سبيلاً سهلاً لوضع (الربقة) و(الجامعة) في أعناق أهلها وأيديهم، ولكن الوعي القومي والإخاء الإسلامي ذهب بذلك كله إلى غير رجعة. (المترجم).

(2) الواقع أن هذه هي روح الإسلام السمحة. ومن الأدلة على ذلك أن ما يسمى في الفقه الإسلامي (الحدود) وهي عقوبات المحرمات في الإسلام إنما فرضت لصيانة العقل والعرض والمال والنسل والمجتمع ليس غير، وفيها يقول الرسول ﷺ: «ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله فإن الإمام إن أخطأ في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة». (المترجم).

لقد آن للمجتهدين أن يجربوا التعاون وتبادل الولاء مع الحكومة[1] ذلك أن عهداً جديداً سيشهده العراق، سداه الوطنية، ولحمته السير قدماً إلى الأمام.

(1) نقد صبر الحكومة العراقية عندما عثر على ابن الخالصي وهو يلصق فتاوى والده التي تمنع أبناء الشيعة من الإسهام في الانتخابات. وألقي القبض على (المجتهد) و«أرسل إلى الحج» وتبعه المجتهدون الآخرون تاركين البلاد بمحض إرادتهم معلنين السخط والاحتجاج على ما عومل به. (المؤلفة).

الفصل الثاني

المحرم الحرام في العراق

ها قد انقضى المحرم، ولما يقع فيه «حادث»! وفي مثل هذا النبأ ما تهنأ عليه الشرطة، فلقد نيط برجالها حفظ النظام بين حشود من الناس يأخذ الحماس منهم كل مأخذ وتطغى العصبية عليهم إلى أبعد حد. لقد جمعتهم ذكرى محرم الحرام فلا معدى من أن تقوم الشرطة في مثل هذا الحال بما أوتيت من حصافة وسداد رأي.

إن كل ما شهدته هذه السنة وفاة إيراني متأثراً بجراحه وأن يهودياً أهوج نال شيئاً من الضرب، جزاء وفاقاً.

ولم يكن الأتراك، إبان حكمهم العراق، ليسمحوا بإقامة التعازي ومرور المواكب ببغداد خلال العشرة الأولى من المحرم الحرام، بل حصروا ذلك كله في الكاظمية.

والكاظمية ذات القبب الذهبية القائمة فوق المراقد المقدسة على مبعدة أربعة أميال من بغداد، وإليها تتدفق المواكب في العاشر من محرم مع طلوع الشمس. ولن يسمح لأي فرد من «الأنصار» بأن يضرب على يافوخه بالسيف إلا بجوار الكاظمية، وتلزم الشرطة الضارب بألا تزيد ضرباته على ثلاث. وعلى باب المراقد المقدسة يقف شرطي نيط به جمع السيوف من أيدي الضاربين الخارجين إلى الشوارع وهم يتدفقون حماساً وأسى. ويجد من يتأمل هذا الشرطي أنه هادىء يمتلك ناصية نفسه ولعلك تحسبه مأموراً مكلفاً بجمع التذاكر في إحدى محطات السكك الحديد!.

وتدق الطبول في ليالي العشرة الأولى من المحرم الحرام دونما هوادة أو انقطاع. وتتجمع المواكب وتسير، وفي مقدور المرء أن يشاهدها في تلك الليالي إن تشوَّف إليها من حالق، أو من فوق أحد السطوح. فالمشاعل المتوهجة اللاهبة تنير الأزقة الضيقة... ويضرب القوم بأيديهم على الصدور وعلى ظهورهم بالسلاسل، وكلما قاربت الأيام العشرة الأولى من المحرَّم على الانتهاء ارتفع حماس القوم واشتدت حميتهم، ولاسيما إبان الأيام الثلاثة الأخيرة منها. وفي اليوم التاسع تسير (التشابيه) من بعد الظهر ببغداد، وفي اليوم العاشر تسير في الكاظمية.

ومن زار الهند المسلمة، وسائر بلدان العرب، يعرف جيداً أن العشرة الأولى من المحرَّم تفرد لإحياء ذكرى (فاجعة كربلاء). ذلك أن أهل (الكوفة) أغروا الحسين عليه السلام على مغادرة مكة والتوجه صوب بلدهم ووعدوه بالعون والنجدة إن سعى لأخذ البيعة له بالخلافة ونزعها من... يزيد.

وجاءهم الحسين عبر الصحراء ومعه منظومة زاهرة من أهل البيت، وبعض مناصريه، ولكنه سرعان ما وجد القوم، أهل الكوفة، وقد انقلبوا على أعقابهم، فانصرفت عنه قلوبهم وأصبحوا مع أعدائه إلْباً عليه. وكان أعداء الحسين كثرة كاثرة وقطعوا عليه وعلى مناصريه مورد الماء، فلا سبيل للصادي فيهم أن يروي غلته منه. واستشهد الحسين، ومن معه، في مشهد كربلاء، وأصبح منذ ذلك اليوم مبكى القوم وموطن الذكرى المؤلمة، كما غدت تربته مقدسة...

وتنسب الروايات المتواترة إلى (الشمر) قتل الحسين، لذا تصبّ عليه اللعنات دوماً، وعلى كل من قاد القوات الأموية... ضد شهداء كربلاء. فالشمر صنو الشيطان في الإثم والعدوان، غير منازع وغير مدافع.

وتفضل بعض أهل السنة فسمحوا لنا بمشاهدة المواكب من فوق سطح أحد المساجد القائمة في أحد الميادين الواسعة. وكانت المواكب تسلك أزقة صغاراً تنتهي بهذا الميدان، كما كانت الشوارع والمقاهي مزدحمة بالمتفرجين، ولقد شاهدناهم ونحن نمر بسيارتنا قبل الساعة التاسعة. وغصت سطوح

المنازل بالنسوة، وقد ضربت كل واحدة منهن الخمار الأسود على وجهها، وهنَّ يتشوفن من حالق إلى المواكب. وتقوم جماعة كل مسجد بتنظيم الموكب الخاص بها، لذلك فلا يستبعد أن ترى في الليلة الواحدة 6 أو 7 منها في كل محلة. وقد تتنافس فتبدي كل جماعة من الأنصار المتحمسين قصاراها من الجهد والفاعلية.

والتعاون مفقود بين المواكب، لذلك قد يضطر أحدها مثلاً للوقوف في أحد الشوارع الفرعية لمدة ما حتى يمر الموكب الآخر. وبمقدور الإنسان أن يشاهد من فوق سطح المسجد، كالذي وقفنا عليه، مواكب عدة وفيها أناس يضربون على الظهور بالسلاسل ويلطمون على الصدور وينشدون أناشيد الأسى. إنهم شبه عرايا، وما أن ترتفع الأيدي إلا وتتجلى في ضوء المشاعل، ثم سرعان ما تنزل على الصدور في لطمة واحدة لها دوي مرعب. أما موكب الحسين فتحفُّ به المهابة والجلال، فيه الفرسان من حملة الأعلام المقدسة، خضراء وذهبية، والرماح المعدنية المشرعة..

إن كل المواكب تمر من الميدان، وما عليك إن أردت مشاهدتها جميعاً إلّا أن تجلس على السطح المشرف عليه.

ويرتفع دخان المشاعل وتنتشر رائحة الزيت في كل مكان. وتقرع الطبول بشدة، وترتفع أصوات المنشدين، وتدق الصنوج، فيختلط ذلك كله بعويل النسوة من فوق السطوح. ويوحي ذلك للإنسان مشهداً من مشاهد «جحيم دانتي Dante's Inferno».

نحن اليوم في السابع من عشرة المحرَّم الحرام... والقوم لا يلطمون الصدور أو يضربون بالسلاسل على الظهور، قصاراهم. والدم لا يسيل منها ولا تتهشم على ما يحدث في اليومين الأخيرين منها. إن القوم لا يستنفدون منهم القوى كلها بل يختزنونها إلى ذلك الوقت بالذات. وقد يحدث بين الفينة والفينة أن يخرج أحد الأنصار من المواكب فيشعل سيكارة، أو يتناول فنجاناً من الشاي يقدمه له أحد الناس من تلك الجموع الحاشدة. وتختلف المواكب في نظام سيرها، وهي على العموم، كما يلي:

يكون حملة المشاعل في المقدمة، ثم يليهم (المشعل) الكبير وهو خشبة تحمل على عمود وطولها حوالي الـ 15 قدماً وقد علقت بها حوالي الـ 20 صفيحة مصنوعة من (التنك). إنهم يحشونها بالخرق البالية ويشبعون الخرق بالزيت ثم تشعل، ويدأبون على سقيها بالزيت من صفيحة مليئة به فتبقى دائمة الاشتعال. ويتطاير منها دوماً الشرر، وكذلك تتطاير أجزاء من الخرق المشتعلة ويسقط كل ذلك على حشود الناس. . . وقد تصيب أحد البائسين، أو حامل المشعل ذاته. إنه دوماً متسخ الثياب والعمامة. وقد يصاب بعضهم إبان هذا الشهر الحرام بحروق ويدخلون المستشفيات للمعالجة، كما قد تحرق بعض البيوت الكائنة في الأزقة الصغيرة. وقد يشاهد حامل المشعل بين الحين والحين قافزاً راقصاً يدير مشعله الملتهب فتتساقط منه اللهبات ذات اليمين وذات الشمال. ويوضع زيت الوقود في جلود تحمل على ظهر حمار، أو قد توضع في صفائح تحمل على عربة يدفعونها بالأيدي، وبذلك تبقى المشاعل دائمة الاشتعال. وتكون الطبول دوماً في مقدمة المواكب، وعلى أنغامها الرتيبة يضرب القوم ظهورهم بالسلاسل، فإن أسرع الضاربون في ضربهم تسارعت أيدي القوم إلى الضرب أيضاً. وتأتي بعدها الخيول يقودها رجال، وقد زينت بالمخملات الكثيرة، وعلى رؤوسها وضعت قلنسوات فولاذية أنشبت فيها السهام.

ويغطى جواد (الحسين) بغطاء ملطخ بالدم وقد أنشبت فيه نبال عدة. ويليه الحسين، فأخوه العباس، وبقية أفراد أسرته وأتباعه. إنهم جميعاً يركبون الخيول المطهمة، ويلبس (الحسين) و(العباس) دروعاً فاخرة، ولعلها من أنواع الدروع الفارسية المتينة. والدروع هذه مزينة بقطع من ذهب وفضة وقد تستعار من تجار العاديات، وقد تكون ملكاً للمواكب ويحتفظ بها في أحد المخازن وتستعمل في مشاهد عاشوراء سنة بعد سنة. ومنها ما هو ممتاز الصنعة إلى حد كبير. ويلبس أتباع الحسين ثياباً خضراً، ويمثل دور القاسم (وعمه الحسين) شاب وسيم قسيم. إنه كان بسبيل الزواج في يوم المعركة بالذات، ولكنه لقي حتفه فيها ويا للأسف! إنهم يزينون فراش عرسه بستائر حريرية وبالمصابيح، وتضاء (القبة) بنور ساطع وتحمل وتمر مع المواكب. وللرضيع عبد الله مهد

وردي، ويمتطي طفل أو طفلان، صهوة جواد، أو جوادين، يقودهما بعض الرجال. (وقد يُشاهد أحد الطفلين وقد غلبه النعاس على صهوة جواده) ويتبع ذلك كله جماعة من القوم يضربون الصدور ويلهبون الظهور بالسلاسل. ويعقبهم الشمر وأتباعه. إنهم يلبسون الثياب الحمراء ويتدرعون بدروع فاخرة مثل دروع الحسين. وكل فرد من لاطمي الصدور، عارم الفتوة، صلب العود، موثق البنية، وهم يفوقون ضاربي ظهورهم بالسلاسل من هذه الناحية. إنهم يكشفون عن صدورهم حتى الخصور دوماً. وهم في الغالب من عامة القوم كالحمالين، وأرباب القوارب، والعمال، ومن في حكمهم. إنهم لا يضربون على الصدور باستمرار: فقد يقف المتقدم فيهم ويتجه إليهم بين الفينة والفينة ويأمرهم بالتوقف وبترنيمة قوية يثير فيهم الحماس فتهوي الأيدي على الصدور. وقد تعلو أصواتهم باستغاثات قصيرة: علي! علي! أو حسين! حسين! وقد يسرعون في أمثال تلك الصيحات أو يتوقفون عنها فجأة بإشارة من قائدهم ثم يمضون في سيرهم مرتلين وقد اشتبكت منهم الأيدي.

وشهدت في الليلة التالية جمعاً حاشداً من الأكراد قوامه خمسة آلاف رجل أو نحو ذلك وهم جميعاً من لاطمي الصدور. واستمر ضربهم عليها أكثر من نصف ساعة، وكلّ منهم بالغ الحماس مطمئن القلب: وكانت أيديهم ترتفع لتهوي بكل شدة على الصدور، أما الصراخ فحدّث ولا حرج. وهناك فئة قليلة أخرى من المتحمسين تندس بين صفوف هؤلاء المتحمسين وتضرب على صدورها بلطف وبذلك تشاركهم في شعورهم.

وتنتهي كل ليلة بـ(محاربة) وهي معركة صورية لما حدث في كربلاء، وقد يسبقها حوار بين الطرفين.

وتكون المواكب في الليلة الثامنة أكثر اتقاناً. ففيها يُحمل جثمان الحسين، والعباس وعبد الله فيثير في المشاهدين الأسى الصاخب والبكاء المرير. وإنك لتشاهد أيدي الشهداء وهي ملطخة بالدماء، خارجة من بين الأكفان.

ويغطى رأس من يمثل الحسين بقطعة ملطخة بالدماء فتظهر جثته وكأنها

مقطوعة الرأس. وتحرس جثمان الحسين حمامتان مربوطتان به وقد لطخت الدماء الريش من كل منهما، وتجلس على نعشه صبية صغيرة تمثل ابنته، وقد حلّت شعرها فبدا ملطخاً بالطين ويغمره التبن، وهي تعول محتضنة النعش بيدها. ويمشي في ركاب (الشمر) حرس يلبسون الملابس القرمزية. إنهم ينفخون في أبواق خشبية ضخمة لها أفواه تشبه الأجراس. وهم كثيرو الشبه بكهان (أريحا)، فأبواقهم تتجه دوماً صوب السماء. وفي أنغام هذه الأبواق شيء من نشاز، ولكنك لن تشاهد (الشمر) بدون أتباعه من البوقيين. ويزين رؤوس هؤلاء الأشرار ريش الطاووس. أما يزيد فلا يتدجج بالسلاح والدروع، شأنه شأن صاحبه عبد الله بن زياد الكوفي المزيّف والذي ترفع فوق رأسه شمسية حمراء. إنهما يلبسان ثياباً حمراء من الرأس إلى أخمص القدم. ويأتي في أعقابهما عمر بن سعد ومعه جنده وهم يلبسون البزات الحمر، فطفلا مسلم وهما يلبسان ثياباً خضراء وقد ربطا بالحبال الحمراء ويقودهما حرملة.

ثم يظهر محارب هرطقي آخر وهو يقود عدداً من الأطفال وقد شدّ وثاقهم وهم يصرخون ويبكون.

وأخيراً فإنك تشاهد بين الأمويين بعض النصارى والفرنجة. فالمتواتر أن مسيحياً في الكوفة مالأ الحسين، وتبعه، وحارب معه. ويضع هذا المسيحي قبعة على رأسه، ويلبس بزة خاصة كما يضع عوينات على عينيه وفي يديه قفازان ويحمل على رأسه شمسية سوداء. إنه يمتطي جواداً، ويأتي في آخر الموكب البدو الفرسان. كما تختلط مع الجموع حزقة من الصبيان وهم يلبسون القبعات المصبوغة ويمثلون الجان والأرواح. وهذه أعلام كثيرة وجماعات أخرى من ضاربي الظهور بالسلاسل. إن هؤلاء يلبسون بزات غريبة مصنوعة من القطن الأسود، وقد فتحت من خلف حتى الخصر. إنهم حفاة ويلطخون رؤوسهم ووجوههم في اليومين التاسع والعاشر من (المحرَّم) بالطين. إنهم يلبسون الأكفان وهي ملطخة في الغالب بالدماء ويحتفظون بها، كما يحتفظون بكنز ثمين، إلى يوم يدفنون. والسلاسل مثبتة بمقبض نحاسي، وهم يضربون بها بكلتا اليدين ويحركون كل كتف ليتلقى الضربة. وللصبية سلاسل صغيرة

وقد يشاهد بعضهم بين جموع ضاربي الظهور بالسلاسل وهم يضربون على نفس الوتيرة ويرتلون الأناشيد.

التمثيلية الخارقة

وينصرف القوم ببغداد في اليوم التاسع إلى مآتم محرم كلياً، فتبدأ مواكبهم بالسير على قرع الطبول طيلة النهار. وذهبنا بعد الظهر إلى بيت صديق تركي لنشاهد التمثيلية العجيبة. ولقد رُئي أن من الأحجى أن أرتدي لباس المسلمين وأن أسدل على وجهي نقاباً طويلاً. وركبنا في (بلم) حملنا عبر دجلة إلى شريعة بيت علم من أعلام الشيعة حيث يجري التمثيل. وكانت النسوة محتشدات على السطوح المجاورة وهنّ يرتدين العباءات السود، كما احتشد المتفرجون من الرجال في باحة الدار... وتسلق الصبية على إحدى الشرفات الخشبية لكي يستطيعوا رؤية ما يجري فيها من حالق، ومن فوق رؤوس الكبار. وقادنا ابن رب البيت، وهو فتى في الرابعة عشرة من عمره، إلى الجناح الخاص بأمه، ومررنا في طريقنا بجموع تثرثر وانتهينا إلى غرفة عالية لها جانب من زجاج يمكننا من رؤية كل ما يجري في فناء الدار.

واحتشدت النسوة في هذا الجانب بالذات، وجلس بعضهن على الكراسي. ومن كنّ في الصفين الأول والثاني جلسن القرفصاء أو متربعات. وكان نصيبي الجلوس في الصف الأول وبذلك استطعت أن أرى كل شيء بوضوح وجلاء. وبلغ الصديد[1] حداً يند عن الوصف... وعلى غرار ما تسمعه في الحمام في اليوم الذي يخصص فيه للنساء. وأقيم في أسفل الدار مسرح صغير، ونصبت خيمة مشبعة بالزيت استعداداً لآخر فصل في الرواية. وفي خارج باحة الدار غرفة يستعملها الممثلون لإعداد أنفسهم لمشاهد الرواية. وانتظرنا ساعة من الزمن، وبدأ الموكب يدور دوراته التقليدية في باحة الدار. ووضع على الأرض نعش الحسين بحماماته، وهذا جثمانه وقد غطي

(1) الضجيج. وفي التنزيل العزيز ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [سورة الزخرف، الآية: 57] أي يضجون. (المترجم).

بقماش مضرَّج بالدماء، وهذه طفلة تندبه وتنشج نشيجاً يحز في القلب. وتقدم الضاربون بالسلاسل على الظهور لابسين الأكفان فوق ثياب الحداد وألهبوا ظهورهم ضرباً دونما هوادة ورأيت رئيسهم يؤنب بشدة أحد الصبيان ممن ترك الجمع قبل الأوان. ولم أشاهد أحداً من الناس يدخن سيكارة في هذا اليوم وشاهدت ظهور القوم وقد بدت عليها القروح هنا وهناك، كما انتفخت صدور اللاطمين واحمرت من أثر اللطم. وبأمر من رب الدار لفوا أطوالاً من الحرير حول أعناق قادة اللاطمين على الصدور والضاربين بالسلاسل على الظهور. ولم يكن لمثل هؤلاء القادة أن يلطموا أو يضربوا، فجلّ همهم أن يثيروا أتباعهم لذلك.

سبق وأن وصفت فيما مضى «شخصيات» الموكب الحسيني لكن الاستعداد هذه المرة بلغ قصاراه مهابة وجلالاً، إذ لم أر مثله فيما مضى. واستطعت في ضوء النهار الساطع أن أشاهد بوضوح الدروع، والفؤوس، والمخرمات الفارسية، والتروس على وجه الدقة والتفصيل. وكانت الأعلام موشاة بالذهب، ولقد أعد الكثير منها مضيفنا، رب البيت، وأفراد أسرته. كما قدمت الأسرة بعض الضروريات الأخرى كغرفة العرس، والمهود، والمفارش التي توضع على الخيول وما إلى ذلك. واستعير الكثير من الدروع من باعتها، وكذلك الأعلام الفولاذية الجميلة الموشاة بالذهب وعليها ما يشبه الطواويس والحمام، ومواضع للشموع والبخور والريش، و«يد العبّاس» وكتابات أخرى.

قيل إنهم قطعوا يد العباس بكربلاء لذا أصبحت اليد المبسوطة رمزاً أثيراً عند الشيعة. وتسمى هذه اليد في مصر وتونس (يد فاطمة) وتشاهد دوماً يد مقطوعة وضعت على نعش العباس الدامي، كما يوضع فيه جثمان أخفى رأسه فبدا قطيع الرأس أيضاً. إن تلك اليد ما هي إلا دمية من قماش أحمر، ومن المفارقات المضحكة أن الرجل الذي كان يمثل جثمان العباس أخرج مرة كلتا يديه من وراء الغطاء فأصبح للعباس 3 أيدي!!.

وهناك لواء من فولاذ يسمونه (لسان الشمر) وتتدلى منه شرائط، من يشد أحدها ويتمنى شيئاً فليس بدّ من أن تتحقق أمنيته.

وكانت «الجثث» تتراءى وكأنها حقيقية: فالغطاء الذي يغطى به كل منها مضرَّج بالدم، وقد بدت بعض الأرجل من الجوانب. وما أن تمر جثة منها إلا ويرتفع عويل النساء ويشتد ضاربو الظهور بالسلاسل في ضربهم، ويزيد الطبالون من قرعات طبولهم المدوّية.

ثم يسمع صفير، ويسود القوم صمت وسكون. ويظهر اللعينان الشمر وابن زياد على المسرح ويبدأ عرض الرواية. ويجيد الشمر تمثيل دوره بنشاط وحيوية. و«اللعينان» يلبسان ثياباً قرمزية هي من لباس الشيطان، بينا يلبس من يقوم بتمثيل دور الحسين وأدوار أتباعه الأطهار ثياباً خضراء ذات قدسية ورواء... وصوت ابن زياد أشبه ما يكون بالنأمة[1] ولعله أميل من غيره إلى الرحمة والرأفة. لكن الشمر يحمله مكرهاً على الفتك بالحسين. وإنك لتراه يهز السيف ويشرب الماء من أحد الأكواب مرات عدة ثم يرمي الكوب ليرى الناس كيف يحرم الحسين من رشفة الماء ليموت من الجُوَاد[2].

ثم إنه يلقي خطاباً طويلاً، ثم يتوقف. وهنا يقدّم طولان من الحرير إلى الممثل ويلف بهما عنقه. ويستمر عرض الرواية فيؤتى بخوذة، وترس، ودرع، وسيف ويتلبب[3] الشمر للقتال (والحرير ملفوف حول عنقه). وتسقط أكمام ثوبه الطويلة على الأرض فيرفعها ويشدها حول معصميه ويضع على الرأس غطاءه، ويستعد. ثم ينفخ البوَّاقون ذوو الملابس القرمزية في الصور متجهين في نفخهم صوب السماء، ويتجمع الجند وتهتز السيوف العارية ويستعرض الفرسان البدو.

ثم يجرد المسرح من كل ما هو قرمزي اللون، ويظهر عليه الحسين والعباس: ها هما يتخاطبان برائع القول. وتلف حول عنقيهما الأطوال الحريرية أيضاً ويظهر (الشمر) وهو ينحني كثيراً ويطلب إليهما بمعسول اللفظ

---

(1) النأمة: الصوت الضعيف.

(2) الجواد: العطش القاتل.

(3) يتلبب: يلبس السلاح ويشمر للقتال.

مبايعة يزيد والتخلّي عن كل حق يدعيانه في الخلافة. وينهض العباس إليه وقد اربدَّ وجهه[1] فيسرع الشمر بالخروج من المسرح محتمياً بدروعه.

ويعلو اللجب[2] والصخب[3] في معسكر الحسين، ويزدحم القوم على المسرح وبضمنهم ولدا مسلم، والعريس الفتى الوسيم القسيم: القاسم! ويخاطبهم الحسين قائلاً: إن العدو أكثر منّا عدداً، فالموت، والجنة من نصيبنا، ما في ذلك شك! ويأخذ كل منهما الآخر بالحضن والعناق ويبلغ المشهد الذروة من الإشفاق والأسى عندما يشرع الحسين بتوزيع الأكفان على أتباعه، وسرعان ما تراهم يرتدونها فوق الدروع ليستقبلوا الموت عن رضا وطيبة نفس.

ويظهر على حين غرّة ذلك المسيحي (الإفرنجي) ليشرح كيف أنه أصبح في صف الحسين بسبب ما لقيه هذا الطاهر من ظلم وخيانة. وإظهاراً لإيمانه تجده يرفع قبعته (وهي من الطراز المعروف بـ هومبرغ Homburg) ويرميها أرضاً ثم يدوس عليها ويترك مظلته وقفازيه وينخرط في صفوف المصلِّين والحسين يصلي فيهم إماماً.

ويقف المقاتل الكمي العباس يحرس المصلِّين والعدو المهاجم يرشقهم بالنبال. ويغلب على المتفرجين عند هذا المشهد التأثر الشديد.

هذه امرأة تجلس على مقربة مني وهي تنشج نشيجاً يقطع نياط القلب، وتلك فتاة وضيئة لا تتجاوز الـ 14 ربيعاً من العمر والدموع تهتن من عينيها السوداوين مدراراً، وهي تنساب على الخدين بهدوء. ويشتد تشوُّف النسوة فوق السطوح وترتفع من قلوبهن الآهات والأنات، وتتصاعد من صفوف المتفرجين أصوات الحنق[4] والحسرات.

ويتقدم خلسة محارب يرتدي ملابس حمراء والحسين وأتباعه في

---

(1) اربدَّ وجهه: احمر حمرة فيها سواد الغضب.

(2) اللجب: صوت العسكر.

(3) الصخب: الصوت الشديد عند الخصومة.

(4) الحنق: شدة الاغتياظ مع الحقد.

صلاتهم خاشعون. ولكن للعباس عيناً ساهرة لا تغفل فسرعان ما يمسك بتلابيب هذا القادم ويصرعه ويتظاهر بقطع رأسه.

ثم ينهض المصلّون من سجدتهم ويركبون خيولهم ويتقدمون إلى ساحة الحرب.

ويقبض الشمر على ولدي مسلم وينالان منه الخسف والهوان، لكنهما يرفضان نقض بيعة الحسين: ويأخذ كل من الأخوين أخاه بالحضن والعناق ثم يصلّيان، ويجهز عليهما الشمر ويدوس على الجثتين بقدمه.

ويثير هذا المشهد ثائرة المتفرجين كثيراً.

وها نحن نشهد معركة كربلاء. فالنبال تتطاير (ويمسكها البعض بلطف ويعيدونها إلى من يرشقها)، والخيل تنهب الأرض نهباً وهي تدور في الميدان، ويرتفع الوغى[1] هذا يضرب وذاك يتلقى الضربات، وهكذا دواليك.

ويختفي أصحاب الحسين من الميدان الواحد تلو الآخر ليعود كل منهم وقد تضرج كفنه بالدم أو لفَّ حول عنقه لفيفة عليها بقع من دم. ويشد المسيحي نفسه بمشد ويبلى في القتال بلاء حسناً. ها نحن في المشهد الأخير، لقد قتل الحسين والعباس، وحول جثتيهما يدور الجمع الغاضب. لقد انتصر الأمويون وخذل (الحسين) وهؤلاء أنصاره بين مَيْت[2] وبين مَيِّت[3] ومنهم من يضطجع على جواده وهو جريح أيضاً.

وهذا جمل عليه راكب يقاد بالسلاسل. ويحمل القتلى الأطهار على النعوش وتشعل النار في خيمة الحسين ويتصاعد منها اللهب والدخان فجأة، وفي ذلك ما يعني الإجهاز على الجيش كله.

وتدور المواكب المؤلفة من اللاطمين على الجيوب والضاربين بالسلاسل على الظهور في باحة الدار ثم تنصرف. وبهذا تختتم الرواية.

---

(1) الوغى: صوت الجيش في الحرب.
(2) الميت: الذي مات.
(3) الميت: المائت الذي لم يمت بعد ولكنه بصدد أن يموت.

وتخرج الحشود إلى الشارع وتمضي النسوة إلى بيوتهن وهن يثرثرن ثرثرة تشبه سَقْسَقة العصافير وقد بلَّلها وابل من مطر!

وانتظرنا قليلاً لينصرف الناس ثم ودعنا مضيفنا على الطريقة التقليدية المتبعة في البلاد وهي إمرار اليد على القلب فالفم والحاجب وانسللنا إلى القارب.

إن أناشيد الحزن التي رتلتها المواكب وجماعات اللاطمين على الجيوب ذات أنغام بسيطة، وكلماتها مليئة بالأسى وهي منظومة باللغة المحلية...

وأخيراً...

هذه صورة لن تمحى من ذاكرتي...

إنها تتمثل أمام ناظري كلما ذكرت المحرم وأيامه.

إنه منظر زقاق صغير فرعي... وفيه 6 أو 7 من الأطفال يتراوح عمرهم بين الـ 4 ـ 5 سنوات.

لقد ثبتوا الخرق في رأس عمود وأخذوا يتقافزون حوله وقد كشفوا عن الصدور حتى الخصور.

إنهم يرتلون أناشيد المحرم الحزينة، ويلطمون على الصدور بأيديهم الصغيرة... وهم مع ذلك يقهقهون!.

إنها الطفولة، والطفولة هي الطفولة في العالم كله!.

الفصل الثالث

بنو إسرائيل في العراق

عاش بنو إسرائيل في العراق منذ عهد سحيق. فلقد شهدهم تأريخه على مياه بابل يبكون، وللمال يجمعون، وما زالوا على أتلاده[1]، حتى اليوم، يدأبون. إن بعض المهن حكر[2] عليهم، وأغلب الصيارفة، والمرابين، في البلاد منهم. ومن تجار الأقمشة اليهود في العراق من له أقارب يعملون في متاجر مانجستر البريطانية.

ويقال إن أحفاد الأسباط المسماة: (روبين) و(غاد) و(مناصح) ممن حملهم تيغلات بيلصر (وهو الملك الآشوري بول على ما ورد في الكتاب المقدس) إلى الأسر ما زالوا يعيشون في العراق. ومن الأسر اليهودية عدد يدعي أنه ينحدر من أسرة نبوخذنصر، وهو الملك الذي استولى على القدس، وخربها، على غرار ما فعله أسلافه الأولون، ونقل علية القوم فيها إلى بابل. وكثير من أنبياء بني إسرائيل مدفونون في العراق، ومنهم: عزرا، وحزقيال[3]، ويونا، وناحوم وغيرهم. وسيبقى اسم (أور) مقروناً باسم (إبراهيم) وغيره.

---

(1) أتلاد المال: تنميته.

(2) الحكر: الشيء المحتكر منذ ألوف السنين.

(3) إن حزقيال، باتفاق المسلمين والنصارى واليهود العراقيين هو ذو الكفل وسبب تلقيبه بذلك هو أنه كفل يهوذا وإسرائيل باضطجاعه على الأرض ونومه مدة 190 يوماً على الجانب الأيسر و40 يوماً على الجانب الأيمن طالباً من الله أن ينجي هاتين الطائفتين من عقبى آثامهما ففاز بأمنيته وكان حزقيال من بين أسرى السبي البابلي الأول.

ولا يكاد أحد يشك في أن (سفينة نوح)، جرت، إثر فيضان الرافدين بالذات، في موج كالجبال، وأن جنة عدن، إنما قامت في مكان (القرنة) الحالية، على مقربة من البصرة. (كذا!).

واليهودي مرهف الحس، فقد ذاق طعم الأسر[1]، لذلك أخذ يسعى إلى سلب من يتوهم أنهم هم الذين سلبوه. وهو يؤمن بـ (إله إسرائيل) ويعبده، ويسخر ما فطر عليه من عبقرية وقدرة في ميداني المال والتجارة.

يؤكد بروفسور ديلتز Prof. Delitzsch أن قد كانت هناك شركة تدعى (شركة ايكبى «أو يعقوب» وأولاده)، وهي شركة يهودية صرفة عملت في التجارة إبان العهد الأخير للأمبراطورية البابلية. كانت الشركة تتألف من عملاء وصيارفة كثيرين، ولقد عثر المنقبون على لوحات طينية كثيرة محفوظة في جرار وعليها سجلات الشركة وقيودها. ومن هذه اللوحات ما يمكن رؤيته في المتحفة البريطانية اليوم. وبقيت الشركة هذه في ازدهار متصل، وبلغت قمته في عهد نبوخذنصر.

ويقول بروفسور ديلتز: إن الشركة كانت تضطلع بشؤون البلاط البابلي لأمد طويل. إنها كانت تجبي الضرائب عما تنتجه الأرض من محصولات الغلال والتمور وما إليها، كما كانت تستوفي بنفسها الضرائب المفروضة على الطرق العامة، وقنوات الري لقاء الإفادة منها. فهذه الألواح الطينية التي قد يخيل للبعض أنها من التفه بمكان، إنما تعكس لنا صورة جلية مهمة عن الحياة البابلية القومية، إنها تمثل لنا صورة فيها جميع طبقات البابليين، من كبار موظفيهم حتى فلاحيهم البسيطين والعبيد، وهم يتزاحمون في فناء بيت الشركة هذه لإجراء مختلف المعاملات.

---

(1) إن السبي البابلي وبقاء اليهود في بابل سبب في تطور ديانتهم على أساس فكرة الوحدانية الشاملة والتسامي الروحي لقد حدث ذلك واليهود يعانون الاضطهاد. والديانة اليهودية التي نعرفها الآن ولدت في أثناء الأسر في بلاد بابل. كما أن أسفار التوراة الأولى قد دونت معظمها في هذه الفترة أي في أثناء السبي (586 ـ 538 ق.م).
راجع (طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج2).

ومن اللوحات الطينية ما يرجع إلى عهد متأخر عن ذلك، فهي تحمل اسم الاسكندر الكبير. وأول (ايكبى ـ يعقوب) كان في الغالب يهودياً من (سامريا) ولعله كان من أسرى سرجون.

ويرى مؤلف كتاب (الغصن الذهبي)[1] أن (بويريم) عيد اليهود إن هو إلّا شبه الاحتفال الذي كان البابليون يقيمونه استهلالاً للربيع والخصب. كما قد تكون الملكة أستر، بظن المؤلف، هي الإلهة عشتار، ومردخاي، هو الإله مردوخ، ذو المعبد الكبير في بابل. ولكني سألت بعض يهود العراق إن كان في مأثوراتهم ما يؤيد هذه النظرية، فنفوا ذلك.

ويعتبر اليوم الذي خرب فيه نبوخذنصر (المعبد) من أيام الحداد[2].

ومن اليسير أن يؤمن المرء بأن اليهود اقتبسوا (النقود) وهي من اختراع الليديين، في سرع سريع: فمن غرائزهم الأصيلة المقايضة، والتبادل، وهما من الأمثلة الحقة على خصائصهم القوية عبر العصور.

واليهودي جماع للمال حريص عليه، أما العربي، فإن جمع المال بيسر عمد إلى صرفه باسطاً يديه كل البسط. إن المال عند العربي عرض من أعراض الدنيا، وعند اليهودي هو الدنيا كلها.

ارتفع سعر الروبية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ارتفاعاً سريعاً، حتى بلغ سنة 1919 شلنين وستة بنسات. وضارب يهودي بغدادي في سوقها ثم أخذ سعرها في الهبوط... فشاهد الناس هذا اليهودي بالذات يسأل هذا وذاك مشوقاً متلهفاً إن كان السعر سيرتفع تارة أخرى. ولكن السعر استمر على الهبوط، فساءت صحة اليهودي يوماً بعد يوم... وحار الطبيب المداوي في أمره أولاً، إلى أن شخّصه صديق له، قائلاً: «إن مرض عزرا، مرض الروبية

---

(1) هو سر جيمس فريزر Sir James Frazer مؤلف كتاب (الغصن الذهبي The Golden Bough ومن كبار البحاث في تطور الدين). (المترجم).

(2) كان ذلك إثر سقوط أورشليم سنة 586 وتدميرها تدميراً كاملاً وإزالة هيكلها من الوجود وأخذهم سكانها أسرى مصفدين، ويقدر عددهم بزهاء (5000) نسمة وهذا هو السبي البابلي المشهور على يد نبوخذنصر.

ليس غيرا!» وعلى الرغم من أنه شفي في الظاهر، فإن حالته انقلبت إلى حالة أخرى... وإن بقي في عداد الأغنياء الموسرين. واستدعى طبيب بغدادي لعيادة مريض يهودي ثري. وعندما كشف عليه وجده يعاني من قيء متواصل، وأوجاع، وضعف... واستمر على هذا الحال وإن لم ينقطع عن تناول طعامه كالمعتاد.

وخامر الطبيب شك، لعّل السبب في ذلك عقلي... فأقدم على الاستفسار عن شؤون مريضه، وعلم أنه مُني مؤخراً بخسائر مالية فادحة فغدا في غضب متواصل، وأسف مرير. وعندما زاره للمرة التالية قال له: «لن تتصل زياراتي لك ما لم تدفع أجري المستحق». وسأله اليهودي: وكم هو هذا الأجر؟ فعمد الطبيب إلى ذكر مبلغ فاحش فما كان من المريض إلَّا أن يثب من فراشه محتجاً... وزال عنه المرض إلى غير رجعة إثر تلك الوثبة المفزعة. ولكنني لم أسأل الطبيب هل قرر، إثر هذه النتيجة، تخفيض الأجر.

ويهودي بغداد شرقي الطباع دوماً. إنه يتمسك بالعبادات والشعائر الدينية كآبائه الأولين. ولكن من الجيل اليهودي الناشىء من يذهب لزيارة أبناء عمومته، وأعمامه، وأشقائه في باريس، ولندن، ومانجستر فيضيق ذرعاً بالقيود المحافظة المفروضة عليه. إنه يكره مئزر المرأة اليهودية وبرقعها، وينادي المتجددون من اليهود بتغيير كثير من التقاليد التي يجري عليها من علت به السن من أبناء جلدتهم. ولا معدى من هذا كله، بطبيعة الحال. ومما يدعو إلى الأسف حقاً أن نجد اليهودي البغدادي الذي عاش شطراً كبيراً من عمره كما عاش أسلافه يعمد إلى تكييف نفسه على نمط اليهودي الأوروبي، والذي فقد الكثير من خصائص قديمة لقاء ما حصل عليه من خصائص جديدة، هي جد قليلة. ثم ما رأيك في التربية والتعليم، ليس هناك من سبب لأن تجهز التربية على كل ما هو جميل محترم خلّفه لنا الماضي. وسيأتي اليوم الذي لا تخضع فيه التربية في الشرق إلى مؤثرات غوغائية. وحتى ذلك الوقت فلن أميل لفوائدها كل الميل.

وأعياد اليهود واحتفالاتها ببغداد هي، بطبيعة الحال، نفس أعياد اليهود واحتفالاتهم في سائر أنحاء العالم. وأشد هذه الأعياد بهجة ومرحاً هو عيد

الفصح[1]، وفيه تخرج اليهودية بمئزرها الحريري ذي الألوان اللطيفة الفاتحة، فتخال الشوارع مزدهرة، ازدهار الحدائق في حزيران. وهم يتمسكون بما يفرضه هذا العيد من إعداد الخبز الفطير، وطهو الحمل وما إلى ذلك... وهم يقيمون الولائم الكبيرة في الليلتين الأولى والثانية منه ويتبادلون الزيارات مع المعارف والأصدقاء. ومن العادات المتبعة إرسال الهدايا (كالزهور والحلوى) بأسماء مستعارة ومن بيت إلى آخر. ويزور اليهود جميعاً في آخر أيام العيد الحدائق والبساتين.

وهم يتمسكون بشعائر عيد الكفارة Atonement جداً. إذ لن تجد إلّا في الأقل النادر من يفطر فيه، وهم يصومون لمدة 25 ـ 26 ساعة ويلبسون البياض من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ولا يلبسون فيه نعلاً جلدياً أبداً.

أما عيد المظال The Feast of Tabernacles فهو عيد تتوق إليه كل أسرة يهودية وتنصب فيه عرائش من سعف النخل كي تنام فيها الأسرة وتأكل، وقد يعلق في العريش شيء من فاكهة البرتقال وغيرها، تذكرة للجنس اليهودي وذكرى ما كان له في أمسه الدابر من نشاط زراعي. ويتجمع اليهود في آخر يوم منه في القوارب النهرية، أو قد يجلسون على ضفة النهر جماعات ووحداناً.

ويؤمن فقراء اليهود بقوة العين الشريرة، والجن، والسحر إلى أبعد حد. ولقد ذكرت في الفصل الخاص بالسحر أن اليهود يراجعون (السادة)، كما تذهب كثير من نسائهم، صحبة جاراتهن المسلمات، إلى المزارات الإسلامية، وأخص بالذكر منها ضريح الشيخ عبد القادر الجيلي (الكيلاني)، ومن اليهود من يعتقد أنه كان يهودياً (كذا!).

وكثير من نساء اليهود يحترفن السحر ويدعين بالمقدرة على شفاء كثير من الأمراض، بما في ذلك العقم، والجنون، وإن بإمكانهن جلب الطالع

(1) إنه عيد اليهود الأكبر Passover، ووصف خروج اليهوديات في هذا العيد بمآزرهن يرجع إلى العهد الذي كتبت فيه (المؤلفة) كتابها هذا أي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، ويندر أن تراه اليوم في شوارع بغداد. (المترجم).

السعيد، وإحلال الحب في القلب. وهن يزعمن المقدرة على إعداد الناعوظ[1] وطرد الأرواح الشريرة، ومخاطبة الموتى، والإتيان بأخبار الغائبين. وقد جيء، في إحدى المرات، بساحرة يهودية لتشخص داء أعيا نطس الأطباء. وسرعان ما أعلنت أنه مسبب عن الجن. والجان إما أرضية، أو مائية. فإن لم تفد المريض الرقى والتمائم في طرد الروح الخبيثة الحالة فيه، عمدت إلى مداهنته فيؤتى بالمريض إلى بيت خال ليمضي الليلة وحيداً، ومعه الساحرة. وهذه تطلب من ذوي المريض، بالإضافة إلى أجرها، خضروات ودجاجاً ولحماً وما إلى ذلك. وعندما يخيم الليل بسكونه تقوم الساحرة بإعداد وليمة تدعى إليها الأرواح. وهذه الأرواح لا تستطيع أن تقاوم الإغراء المنبعث من رائحة الأطعمة اللذيذة هذه. لذا تترك الروح الجسم المريض وتسعى إلى المائدة، وهي لن تستطيع الرجوع بعد ذلك إلى الجسم لفقدانها القوة اللازمة لذلك. وقد تكون الجنّية من جان الماء، فهي لا تميل إلى الدجاج أو اللحم، وفي مثل هذه الحال، يؤخذ المريض إلى سيف النهر، وهناك تعمد العجوز إلى كسر البيض، ذلك أن الجان المائي شديد التوق إلى أكل البيض.

وهم يعتقدون أن المرض يأتي أحياناً إلى البيت عن طريق الروائح على اختلافها. وفي مثل هذه الحال يؤخذ الطفل المريض، أو الرجل العليل إلى إحدى المدابغ ويطلب إليه فيها أن يشم الروائح المنبعثة منها، وبذلك يطرد المرض منه إلى غير رجعة. وعكس هذا صحيح أيضاً.

فإن استهوت الجان الروائح الكريهة أمكن طردها بالروائح الطيبة. وسبق (السحر)، برقاه وتعاويذه، (الطبيب) وعمله، وما زال ناشطاً مع وجوده.

ويحمل الناس (الطلسم) في الدنيا كلها، إنه قرص معدني رسمت عليه رموز سحرية، أو هو رق دوّن عليه أحد أحبار اليهود، أو السحرة، سطوراً.

ويعتقد المسلمون واليهود بكثير من الخرافات، فأرجل الطير، والبصل، عندهم مما يبطل أفعال الجان. فإن حلّ في بيت مرض، أو عرف البيت

---

(1) الناعوظ: شراب العشق وآثرناه ترجمة لـ Love-potion الواردة في الأصل. (المترجم).

بالنحس جيء إليه بأحد «الحكماء» أو إحدى «الحكيمات» ورشت أركانه بقطرات من الزيت. ومما يلجأون إليه في مثل هذا الحال استخراج مسمار دق في جسر، والهتاف في المقبرة. وفي الحق أن الأمثلة على الاستشفاء عن طريق السحر جد كثيرة.

استخدمت يهودياً في بيتي ردحاً من الزمن، وكانت والدة خادمي هذا من الساحرات «البيض» المعروفات، تدرّ عليها مهنتها دخلاً مرضياً. وعندما كان يمرض هذا الخادم كنت أسعى إلى حمله على مراجعة الطبيب، ولكنه كان يفضل دوماً مراجعة إحدى عجائز محلته، فتعالجه بما تمارس من ضروب السحر والدجل. ويكلف أهل محلته باستشارة حبر يهودي عرفه الناس بالمقدرة على «مخاطبة الأرواح» وكثيراً ما كان قصّاده يرونه، والفزع آخذ منهم كل مأخذ، ضارباً الأرض بعصاه، ملقياً السمع إلى همسات عجيبة تنبعث منها.

ويمارس فقراء اليهود عموماً شعائر دينهم ويلتزمون بفرائضه أشد الالتزام. ومن ذلك رفض أحد كتّاب الدوائر اليهود إشعال المصباح الكهربائي في يوم السبت، ذلك أن إيراء النار محرم على بني إسرائيل في مثل هذا اليوم. ولا يطبخ الطعام في بيوتهم اعتباراً من ليلة السبت (أي من الساعة السادسة من بعد ظهر الجمعة حتى الساعة السادسة من بعد ظهر يوم السبت التالي). لذلك فلن ترى ناراً موقدة طيلة هذا الوقت، وهم يأكلون خلاله طعاماً بارداً.

ويعنى اليهود بالمدارس على أحسن وجه، فالمؤسسة المعروفة بالأليانس الإسرائيلية Alliance Israelite مدرسة جيدة للبنين، ولها مدرسة أخرى للبنات لا أعتقد أن مستوى تدريسها، من حيث الجودة، بمستوى تدريس البنين. وتدرب البنات على التخاطب بالفرنسية، ويدرسن قليلاً من الإنكليزية، ويتلقين دروساً في صنع المطرزات، والمخرّمات. لكن معلوماتهن في الموضوعات الأخرى قليلة. وهن يتركن الدراسة في بواكير العمر ويتزوجن. وتضرب الفتيات اليهوديات القناع، شأن المسلمات، على وجوههن، ولكنهن لسن بمتحرجات جداً في ذلك كالمسلمات. واليوم تزدري الحجاب الفتيات اليهوديات، بسبب ذيوع الأفكار العصرية. إن هذه الفتيات مخلوقات صغار، كالأطفال، ولكنهن ذكيات مشرقات ولا يحفلن كثيراً بفتيان المدرسة.

حضرت حفلة لتوزيع الجوائز في مدرسة كبرى ينفق عليها أحد سراة اليهود في المدينة. . . ولشد ما أدهشني اعتداد الفتيات فيها بأنفسهن، وسرعة خاطرهن. ومما يسترعي إعجاب كل إنسان في الطلاب الشرقيين ظاهرة عدم الارتباك أو الارتعاد عندما يقومون بتمثيل إحدى الروايات، أو عندما يلقي أحدهم خطاباً.

وسن زواج الفتاة اليهودية يتراوح بين الـ 12 ـ 17 إطراداً. ويتقاضى «وسيط الزواج» من أحد طرفيه أو من كليهما، ولقاء أتعابه، أجراً. ولم يكن خادمي يعرف فتاة بغدادية تصلح له زوجاً، ما دام عن محيطها غريباً، لذلك استخدم ثلاثة من (الدلالين): امرأتين ورجلاً. واستطاع الوسطاء أن يعثروا على الفتاة المنشودة، وسعى خادمي إلى بيتها في أحد الأيام، يصحبه الدلال ونفر من أصدقائه. وسمح له بأن يكلم عروسه المنتظرة لأول مرة، ويبحث معها في أمر الصداق. وعندما عاد إلى بيتي سألته عما دار بينهما من حديث، فأجاب: «جلست على كرسي وجلست على آخر بقربي، وسألتها: أحقاً أنك تعرفين الإنكليزية؟ فأجابت: قليلاً منها فقط، ودار الحديث بيننا بهذه اللغة لأمد قصير. ثم سألتها عن مقدار الصداق فأجابت: 3000 روبية، فقلت لها إنه لا يكفي، واطلب 6000 روبية. وبعد مساومة طويلة استقر مبلغ الصداق على 4000 روبية، وأضيفت إليه ألف أخرى لسد نفقات الزواج. وشرب الجميع القهوة، وهلهلت النسوة فرحاً، وعزف أحد الأجواق، وقد استؤجر خصيصاً لهذه المناسبة، أنغامه المعتادة. . وانتهى الأمر كله عندما قام الحبر (الحاخام) بإجراء مراسيم الخطبة التقليدية».

وللخطبة عندهم قوة إلزام، كالزواج. ودفع إلى الحبر حلوانه، وإلى الدلال أجره. . . لكن خادمي لم يدفع إلّا 5 روبيات، هدية صغيرة (بقشيشاً) إلى الدلال. أما الذي تولى دفع جميع هذه النفقات فهو والد الزوجة.

إن هذا كل ما وقفت عليه من أمر زواج خادمي، ولو طرحنا منه ما يحتمل من مبالغة في أرقام الصداق، وجدنا ألّا مكان أبداً للعاطفة المشبوهة والغرام في صفقات زواج عامة اليهود.

وبما يتصل بالطبقات الأخرى، أي التي هي أحسن حالاً، فالأمر مختلف بطبيعة الحال. فالشاب الخطيب عادة يعرف خطيبته، ويدبر أمر الزواج كله على وفق الأساليب الأوروبية. وكل يهودية مصيرها الزواج. وقد يقوم أحد أفراد الأسرة بإعالتها إن لم تتزوج بسبب مرضها، أو تشويه في خلقها، أو بسبب مانع آخر. وهذا في النادر القليل. ولا ترث اليهودية من أبيها مالاً، ومهما كان الأب موسراً.. فمال الأب يرثه أولاده، وأقاربه الذكور حصراً. ويراد بصداق المرأة التعويض عن ذلك، وشمولها بالعدل والإنصاف. وتعطي بنات الأثرياء من اليهود صداقاً كبيراً. فإن هجرت إحداهن زوجها، أو افترقت عنه عادت بالصداق كله إلى بيت أبيها.

حضرت مؤخراً حفلة زواج يهودية ثرية، وبدعوة منها. وأقيمت هذه الحفلة في مدرسة الأليانس الإسرائيلية، وكان عدد المدعوين كبيراً. وفرش فناء المدرسة بالطنافس، كما وضعت فيه صنوف من الآرائك الخشبية، مغطاة بالمفارش القطنية البيضاء. جلس العريس على مقعد في آخر الصف، وهو يرتدي حلّة أوروبية أنيقة، ويضع على رأسه طربوشاً، وجلس على يساره صديق، وعلى يمينه صديق آخر. وجلس سائر المدعوين على المقاعد وقد نظمت صفوفاً متوازية، وكل منهم يرتدي الملابس الأوروبية والطربوش الأحمر إياه.

أما النساء فلقد وقفن حانيات على الشرفات العالية المحيطة بفناء المدرسة الطليق، وهن يرتدين المآزر الحريرية الجميلة ذوات الألوان المختلفة والخيوط العسجدية والفضية. وضربت كل واحدة منها القناع على وجهها. والقناع هذا أسود سميك في الغالب، ولقد شهدت بعض الحاضرات يتقنعن بالقناع الأوروبي الحديث.

والتزمت النسوة الصمت، لا تنبس إحداهن ببنت شفة، وكن ينحنين على حواجز الشرفات ويتشوَّفن[1] إلى من في فناء المدرسة. وجيء لنا، نحن

(1) (تشوفت إلى الشيء أي تطلعت إليه، يقال النساء يتشوفن من السطوح أي ينظرن ويتطاولن) الجوهري في الصحاح.

الأوروبيات، بأريكة وجلسنا عليها نتشوّف أيضاً. وجاءت العروس للترحيب بنا وكانت مرتدية ملابس الزواج الأوروبية التقليدية، فرداؤها من الساتان، ونقابها، وإكليل زهرة البرتقال وطاقة الورد. . . كل أولئك على أتم ما يكون ويرام. وحيَّتنا بتحية قصيرة وانصرفت، فالتقاليد تلزمها على الانفراد في غرفة يفتح بابها على الشرفة، ومعها أمها. وقدموا لنا كثيراً من الأقارب. وكنت أشاهد اليهوديات الطاعنات في السن وقد لفت كل واحدة منهن كفية تحت الحنك، ووضعت على رأسها غطاء صغيراً غريباً يرفع المئزر على رأسها قليلاً. ويستقر هذا الغطاء على قمة الرأس، وهو مطرز بالذهب، وخيطت فيه حبات اللؤلؤ أيضاً. إنه يشبه الغطاء المعروف بالـ(بانجادورم)، إذ يعلوه زر مدور صغير مصنوع من الذهب الكاذب وقد ثبتت فيه الشرائط وقد خيطت بها حبات اللؤلؤ. ولم تقدم لنا القهوة، وإنما قدم (الملبَّس)، وطاقات صغيرة من الزهر.

وكان هناك جوقان موسيقيان، يجلس أفرادهما تحت الجانب الذي كنا نجلس فيه من الشرفة مباشرة. وكانا يعزفان بالتناوب. ويتألف أحد الجوقين من الآلات العربية وهي: (الزرنة) ـ وتشبه المزمار ـ و(السنود) ـ الصنجان ـ والطبل الكبير، و(النقارة) وهي عبارة عن وعائين من نحاس، غطي كل منهما بجلد خروف. وعزف الجوق العربي أنغامه جيداً. أما الجوق الآخر فكان يتألف من آلات أوروبية يشوب عزفها شيء من فقدان الضبط ويعزف أنغاماً تركية، ولم يحالفه التوفيق في ذلك.

وأنشد بعض الصبية الصغار أناشيدهم، وكنت تراهم فاغري الأفواه يرفعون أصواتهم عالية مدوية.

وانتهى العزف وصعد العريس إلى فوق بعد أن أمضى الوقت كله والابتسامة لا تعرف إلى ثغره سبيلاً. وأطل الحاخام. وأجلس العريس بجانب عروسه على إحدى الآرائك. ورأيت في يد الحاخام فنجاناً خزفياً مليئاً بالنبيذ الأحمر. أما سائر المدعوين فلم يبارحوا أماكنهم. ورتل الحاخام صلاة قصيرة، رد عليها الصبية الصغار. ثم ناول العريس الشراب، فشرب وصبّ قليلاً منه في فنجان وقدمه لعروسه. واحتست العروس ما فيه ثم تناوله العريس

مرة ثانية وألقاه أرضاً فانكسر. هذا، بإيجاز، ما هو متبع تقريباً في الأعراس اليهودية في العالم كله. ويسود الاعتقاد في هذه البلاد أن حطام الفنجان يطرد الجان.

لم يكلم العريس عروسه أو يلحظها طيلة الحفلة، وما أن انتهت وأصبحا زوجين إلا وتركها نازلاً إلى الطابق الأسفل ليجلس إلى أصدقائه. وكان العروسان أشد ما يكون سآمة، وهو ما كنت أتوقعه بالذات، ولم يكن هناك من مخرج يخرجان منه مباشرة بعد انتهاء الحفل. ولو كان نصيب الأسرة من التمدين أقل لشهدنا إجراء بعض مراسيم الزواج التقليدية القديمة الأخرى كذبح أحد الديكة، وإحدى الدجاجات، وتقديمها إلى العروسين، ولشهدنا الشموع توقد فوق الحنطة والشعير ليصبح الزواج مثمراً خصيباً.

وإن مات اليهودي تقاطر أقرباؤه كلهم على بيته وعلا البكاء والعويل. وقد يحثو بعضهم التراب على رأسه. وقد يمزق البعض الآخر ثيابه حزناً عليه وأسفاً. ويستخدم اليهود المسلمون «ندّابات» محترفات يبكين على الميت ويعددن فضائله ويذكرن المصيبة الفادحة التي حلت بأهله. وليس من المستساغ أن تترك المرأة الحزينة بيتها إلا بعد مرور شهور على الوفاة، فيما خلا قضاء بعض الأمور المستعجلة. وتستقبل الحزينات زائراتهن، ولا تعلو وجوههن الابتسامة طيلة أيام الحداد. وهن يزرن قبر الميت كل يوم من الأيام الأولى المارة على وفاته، ثم يزرنه بين الفينة والفينة بعد ذلك.

ولدى كل زيارة يعلو عويلهن ونشيجهن، وهن دوماً لابسات السواد، شأن الأوروبيات.

وهناك عادة لطيفة بارزة لدى بعض يهود بغداد فلو توفي شاب لم يتزوج سارت فرقة موسيقية في تشييعه.

وقيل لي إنهم كانوا يؤجرون فتاة تمشي بجانب نعشه، وهي ترتدي ملابس العروس، والفكرة التي تنطوي عليها هذه العادة هي عدم حرمان الشاب المتوفى من مباهج الحياة. والظاهر أنها، ككثير من العادات الأخرى سائرة إلى الاندثار، ويوشك أن يعفي على مغزاها النسيان.

الفصل الرابع

الصابئة[1]

إنه مكب على عمله في دكان صغير... وهذه نار تتوهج بين الفينة والفينة، يذكيها، بمنفاخ من جلد المعز، طفل صغير...

وله لحية سوداء ملساء، وعينان سوداوان، ترتفع إليك بين حين وآخر فتنبعث منها نظرات عميقة آسرة، نظرات الدارس الفاحص المتعمق!.

وقسمات وجهه لطيفة متناسبة، وبشرته بيضاء...

---

(1) فرقة دينية قديمة اسمها «مندايا» والعامة تسميها «الصبة» والفصحاء يسمونها (الصابئة) وسلفنا الصالح سماها «صابئة البطائح». والطابع المميز لهذه الفرقة أنها كاليهود، واليزيدية تحصر نفسها في نطاق ضيق، ولا تختلط بمن يحيط بها، وإن تزوج الصابئي، أو تزوجت الصابئية، خرجت من الطائفة تلقائياً. إن موطن الصابئة في العراق هو منطقة البطائح والعمارة والناصرية والبصرة والقرنة وقلعة صالح وحلفاية وسوق الشيوخ. وقد توجد منهم جماعات في سائر مدن العراق أو في بيروت ودمشق والاسكندرية. وقد كان عدد كبير منهم في خوزستان من أعمال إيران ولكن العدد هذا آخذ في التناقص. ولقد ذكر اسم الصابئة 3 مرات في القرآن الكريم مقروناً باسم اليهود والنصارى وباعتبارهم من أهل الديانات المعترف بها. والراجح أن المقصود بالصابئة على ما ورد في القرآن الكريم هم (الحرانية) وقد كان الكثير منهم في بلاط الخلفاء وقام بعضهم بترجمة الكتب الإغريقية إلى العربية، كما كان منهم الأطباء والمنجمون والفلاسفة والشعراء. ولقد ألفت العالمة الإنكليزية مؤلفة هذا الكتاب الليدي درور كتاباً مفصلاً عنهم بعنوان: The Mandaeans Of Iraq and Iran.
وطبعته جامعة أوكسفورد فليرجع إليه من يريد استقصاء خبرهم على وجه التفصيل والتدقيق. (المترجم).

إنه يرفع إبريق القهوة الفني من فوق منضدة صغيرة، صفت عليها بضاعته، فيعرضه عليك. والإبريق منقوش بالميناء، وعلى جوانبه صور من خطوط، هذا مسجد، وهذه سفينة (مهيلة) ـ وقد أرسلت أشرعتها لتسير باسم الله مجراها ومرساها، وهنا خروف، وهناك إبل، وهنالك نخل باسقات لها طلع نضيد...

وإنك لتلمس في هذه الصور جميعاً روح الفنان، فيخيل إليك أن السفينة تجري حقاً، وأن الإبل تباري الريح في سيرها حثيثاً، وأن النهر يتدفق بمائه غدقاً... ولعلك تسأل عن سعره فيجيبك بصوت خفيض، فهذا الإنسان لقّن منذ طفولته، والتزم بذلك... وهو يشتد ساعده ويترعرع، إن خفض الصوت في الكلام من الفضائل البشرية.

وعلى جانب من الدكان (لافتة) سوداء كتب عليها ما ترجمته: (من أتباع القديس يوحنا المعدان: صائغ الفضة العماري) وعلى مقربة منه دكاكين أخرى لا تختلف عن دكانه من حيث المظهر، وفيها رجال عليهم سيماء الجد، ومظاهر الوسامة.

وهناك طائفة من هذه الدكاكين في كل مدينة من مدن العراق تقريباً، وقليل ممن يرحل عن البلاد ولا يصطحب معه نماذج من مصاغات الفضة، والتي يحذق صنعها أبناء هذه الطائفة الغريبة.

فمن هم هؤلاء (الصابئة) يا ترى؟!.

إن العرب تسميهم (صُبّا) وهم يسمّون أنفسهم (المنداي) أو (الأغناطسيين) Gnostics. ولقد نجوا من الاضطهاد إلى حد ما بسبب أن المسلمين يعتبرونهم من «أهل الكتاب» و«الصابئة» الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وهم من عبدة الله الحق، وهم يزعمون أن صلة روحية تقوم بين عقائدهم وبين المسيحية، لذا يسميهم البعض «بمسيحي القديس حنا» وإن لم يكن في عقيدتهم، وفلسفتهم من المسيحية إلا القليل... إنهم يعيشون في شبه عزلة، ولهم لغة خاصة بهم، ولا يتزاوجون مع الأجناس وأهل الأديان الأخرى إلا في النادر.

ولما كانت الطهارة تلي القدسية في المرتبة، فلا بد وأن (الصابئة) هؤلاء أقرب مجاوري من في السماء! ذلك أنهم يمضون شطراً كبيراً من حياتهم اليومية في الاغتسال والتطهير، ويلتزمون بواجب الوضوء المقدس في كل حين. . . ولو انعدم الماء الجاري، أو النهر، في سكنهم لما وجدت فيه من هؤلاء دياراً!.

لقد عُنيت بهذا الشعب العجيب، وعولت على أن أكتشف، قبل رحيلي عن بلاد ما بين النهرين، شيئاً أصيلاً مما يتصل بحياتهم الخاصة. يقال إن أبناء هذه الطائفة يحرصون على أسرار دينها وطقوسه، ويجعلونها في حرز أمين، ولقد تأيد لي أن لا سبيل للوقوف على شيء من ذلك خلال محادثاتي مع من اتصلت به منهم في بغداد. ولما سمح لي بالسفر إلى (العمارة) وجدت فيها من هو أقرب إليَّ من حبل الوريد! ودارت بيني وبين (الشيخ جودة) أحاديث شتى عديدة. إنه «حبر الصابئة» ومن أظرف وألطف الشيوخ الذين اتصلت بهم إبان إقامتي في العراق. إنه لم يتردد في الإجابة عن أي سؤال وجهته إليه. ولو لم يكن وقتي ضيقاً لتسنى لي الوقوف على أكبر قسط مما كنت أتوق إليه من المعلومات.

يشترط في رجل الدين الصابئي أن يكون في منجاة من الشوائب الخلقية، وسالماً من الأمراض والعاهات البدنية. والشيخ جودة، كآبائه الأقدمين، من رجال الدين الصابئة. . . لذا نجده حسن الشكل ظريفاً متودداً، وعلى الرغم من أنه جاوز الستين من عمره المديد، فإن مظهره المريح يذكرك بـ(البطارقة)، ولعله خير نموذج لمن يشاء من الرسامين.

وهو جاز لـ(زهرون). . . وهذا أبعد صاغة الذهب والفضة من الصابئة صيتاً، وتدر عليه صناعته هذه رزقاً حسناً. إنه في الخمسين من عمره، ولو وضع اسمه على أي مصاغ لارتفعت في الحال قيمته أضعافاً مضاعفة. وفي إحدى المرات أهدى إليَّ ولي عهد إنكلترا (برنس أوف ويلز) علبة سكاير نقش على جانب منها منظر عراقي، وعلى الجانب الآخر صورة (الأمير) نفسه. والإشاعات تقول إن هذا الفنان، كغيره ممن سبقه من النابهين، مولع بالنبيذ الأحمر!، ولقد سبق أن قدم إلي (سريرسي كوكس المندوب السامي) طرفاً مما

يصنع فسأل (سريرسي) عما يرضى به (زهرون) كمكافأة على ذلك.. فأجيب: اهده صندوقاً من الشراب المعروف بـ(بورت Porte)! . لقد لمع اسم (زهرون) في سماء الصيت البعيد، والشهرة الواسعة وعرفه الناس في البلدان القاصية كأمهر أبناء طائفة الصابئة، غير مدافع، وغير منازع!.

وزهرون، بعد، رجل لطيف منتصب القامة، صبوح الوجه تعلوه ابتسامة ساخرة. إنه اليوم ثري، لا يعمل إلا أن صادف العمل هوى في نفسه، وهو يسخر لعمله طائفة من الصناع الماهرين والمستجدين، تعمل بإشرافه وبوحي منه.

ولنعد إلى الشيخ جودة، إنه بمثابة حبر الطائفة الأعظم ويسمونه الـ(كانزورو أو كانزفيرو)، وهو لا يميل إلى معاقرة الشراب، أو احتساء الشاي أو القهوة، أو التدخين، ولا يصيب شيئاً من السكر، فهي محرمة عليه جميعاً، وعلى سائر الروحانيين الآخرين أيضاً. ولهؤلاء أن يتزوجوا وينجبوا الأطفال، لكن هناك من الأشياء الخاصة بهم، كالخبز الذي يأكلونه، ما هو محرم صنعه أو لبسه على زوجاتهم. وهناك بعض المناسبات يحرَّم فيها على هاته الزوجات الاتصال بهم. ذلك أن دين الطائفة دين طهارة قبل كل شيء، ولا يقتصر ذلك على طهارة الجسد فحسب وإنما يشمل طهارة الفكر والعمل، إن للاغتسال والوضوء والتعميد، وهي من طقوس الطائفة الرئيسة، أهمية خلقية وتألهية أيضاً. وعلى الصابئي الصالح أن يزدان في حياته بضبط النفس وطهارة الذيل.

وإنك لتجد الشيخ جودة جالساً في أغلب الوقت إما في بيته الصغير تظلله شرفة خشبية. إنه يجلس القرفصاء على (الحصيرة) وأمامه منضدة صغيرة فوقها مواد الكتابة، وصندوق يضم الكتب المقدسة. هذه عصاه الروحانية، اللاعقفاء، تقوم على حائط البيت، خلفه، وتلك بعض الآنية والجرار المقدسة مبعثرة في أحد أركانه. وفي الساحة التي تقوم أمام بيته خليط من الحيوان. ففي ركن منها زريبة مفتوحة، وفيها بقرة تأكل العلف وترنو إلى الحبر وهو يصلي، أو يقرأ في أحد كتبه المقدسة. وهنا خروف سادر... وهذه بضع دجاجات باحثة في التراب، في قوقأة ونقنقة، وهاتان أوزتان تحدقان بعيون

زرقاء باهتة في الزائر... وتلك هرة تجري لسانها على جسمها، وتظللها الشرفة، وهي بجوار سيدها الكريم!

وهذا هو المطبخ خارج البيت وعلى جدرانه (الجَلَّة) وهي أقراص مجففة من روث الحيوان تستخدم وقوداً، وتلك خيمة عليها أستار أعدت للضيوف من النساء. ويمر عدد من أهل هذا البيت أمام الشيخ، وقد يبحث بعضهم معه طرفاً من الشؤون المنزلية بصوت مسموع... وسواء أكان هذا مستغرقاً في صلاته أم لا!!.

حقاً إن بيت هذا الرجل الديني ـ على بساطته ـ مغمور بجو عائلي ودي، نساؤه على أهبة الاستعداد دوماً، وتعلو وجوههن ابتسامة الرضى والترحاب. لقد تزوج الشيخ مرتين، والأخيرة من زوجتيه شابة لطيفة رزق منها البنون والبنات. لكن سيدة البيت، على ما يخال لي، ليست إلا أخته، وهي امرأة طويلة ظريفة وإن بلغت من الكبر عتياً. لقد أسهمت في أحاديثنا دوماً، وكثيراً ما ساعدت أخاها في شرح الموضوعات العديدة التي تتصل بشعائر الطائفة، وردت على استقصائي لمعانيها. وأول هذه: (الرستة)، إنها (العباءة المقدسة) التي تلبس عند إجراء فروض التعميد والزواج، أو أي جانب آخر من المراسيم الدينية. فالعروس والعريس يلبسانها في حفلة الزواج، وهي آخر رداء يرتديه الميت! إنها لباس الرهبان والأحبار إبان قيامهم بالمراسيم الدينية. والنساء، كالرجال، ترتدي (الرستة) عند التعميد، وفي المناسبات التي يجب عليهن ارتداؤها فيها. لقد أسميتها بالعباءة ولكنها في الحقيقة بدلة كاملة، ومعها غطاء للرأس. إنها مكونة من قطع عديدة... وقد يهمل بعضها عند اللباس فيما خلا العباءة.

وهذه القطع هي: (1) (الشالوالو)، وهو سروال قصير (لباس) قطني واسع يرتفع إلى الخصر، وله مشد قطني أيضاً (تكة)، ولا يخاط أحد طرفيها أبداً. و(2) (السدرو)، وهو قميص قطني طويل. (3) وعلى السدرو هذا، وعلى الجانب الأيمن منه بالضبط، تخاط قطعتان من مادة قطنية، طول كل منها حوالي البوصة، وتسمى القطعتان (ديش ـ شو). (4) ثم عمامة طول قماشها حوالي 4 ياردات ونصف، ولا يلف قسم منه بل يترك سادراً على

الكتف الأيسر و(5) الحزام أو الـ(هيميانو) وهو نسيج يتألف من 60 خيطاً قطنياً، ويحيط بـ(السدرو) في الخصر. و(6) شريط قطني طويل أشبه ما يكون بلفيفة، ويسمى (الكبوغة ـ أو الكنزالا) ويلف حول الرقبة. وهذا الأخير يستعمل كثيراً في الاحتفالات الدينية ويعلق عادة في الحزام. ويموت الصابئي فيكفن بـ(الرستة)، وتوضع الـ(كنزالا) فوق رأسه، ويخاط طرفاها تحت حنكه. ويجب أن تكون (الرستة) كلها بيضاء، لكن ما رأيته منها لم يكن ببياض الثلج بسبب غسلها دوماً بماء النهر. . . وماؤه عكر في الغالب مما يحمله من الطمى. . وعلى الرغم من ذلك كله فالرستة مطهرة على وفق ما تؤمن به الصابئة، وهو الأهم المطلوب.

ويستعمل الحبر الأعظم إبان قيامه بالشعائر الدينية قطعة من شريط صوفي خشن الملمس، ولا يزيد طوله على نصف اليارد وعرضه على البوصة. وطرفاه موصولان فيحاكي بذلك الحلقة، يضعه الحبر تحت عمامته، ويسمى (تاغه). كما أني وجدته يختتم بخاتم ذهبي منقوش يضعه في الأصبع الصغير من اليد اليمنى، ويسمى (ايساختو). أما عصاه الروحانية (ماركنو) فلا تفارق يده إبان القيام بالمراسيم الدينية أبداً.

ولا يُعَمَّد الصابئي عند مولده فحسب، وإنما يجري تعميده في كل أحد، وعندما يخالف قواعد الطهارة، فيصبح نجساً. . . وعندما يصيب من لحم لم يذبحه (الجزار الروحاني). . . ففي مثل هذه الحال لا معدى من التعميد مجدداً، وعلى ما ورد في أحد الشعائر الدينية. وإن لمس جسم أخيه الصابئي (ذلك أن جسم غير الصابئي كجسم الحيوان (كذا!) ليس بنجس ما دام من الطين!) وجب عليه التعميد أيضاً. وإن أكل من فاكهة أو خضر لم تغسل، وإن دخل السجن، أو لدغته أفعى، أو لسعته عقرب، أو أكل من زبدة أعدها غير الصابئيين Gentiles، أو أخذ منه الغضب كل مأخذ، أو قفَّ شعره فرقاً، وجب عليه التعميد أيضاً. وإن نسي، أو أهمل شيئاً من فروضه الدينية، أو أصبح نجساً إبان قيامه بشعائرها، فلا عبرة بالساعتين اللتين قضاهما وهو يمارس هذه الشعائر، وعليه أن يبدأ الأمر من جديد.

والقديس الذي تُجِلُّه الطائفة كثيراً هو: (يحيى) أو (يوحنا المعمدان)

على ما يسميه النصارى. ويدَّعي الصابئة أنهم أخذوا بالتعميد منذ أقدم الأزمان، لذا لم يأت (يوحنا) بشيء جديد فيه. لكنه ظهر في زمن كاد اليهود فيه أن يغلبوا (الطائفة) على أمرها.

وتقول أساطيرهم إنهم كانوا يسكنون (أورشليم) في هذا الزمن بالذات.

وسيرة (يوحنا) مدونة في أحد كتبهم المقدسة، وهو المسمى (يحيى درافشود) وإنك لتجد فيه سرداً لما يتصل بمولده العجيب، وتربيته في الجنة، ثم نزوله إلى الدنيا يبلغ رسالته، وأخيراً وفاته، وصعوده إلى السماء صحبة أبيه السماوي (ماندو ـ صناي) «روح القوة في ميادين الفخار».

إنه عمَّد المسيح (يشو) إبان نزوله إلى الأرض وتبليغه الرسالة، فكان في ذلك منفذاً لإرادة السماء. وتردد في التعميد هذا أولاً لأن المسيح، في طفولته، أمر اليهود بالتبتل، وهو بنظر (يوحنا) عصيان لأوامر الله. وتبجل الصابئة (يشو) وتعتبره من القديسين، لكنها تؤمن بـ(يوحنا) حصراً، تدين له بالولاء كله، ذلك أن تعميده، بالغطس، أسمى وأقوم.

وتؤمن الصابئة، إيمان المسلمين والمسيحيين، بالله الواحد الحق ولا يعبدون غيره[1]. إن اسمه في لسانهم (الاها)، ويعتقدون أنه فوق الجميع، لكنه أناب طائفة من (الأوصياء) يمارسون سلطانه، ويسيطرون على العالم المنظور. إن (الأوصياء) هؤلاء مبعث القوة وسبب الطهارة، وقد تم خلقهم بمجرد نطق الخالق بأسمائهم. ومن هؤلاء الأوصياء الذين خلقوا: 360 (ملكي) وهم يخضعون جميعاً إلى عالم النور (أولمي دانهورو). إنهم يرتفعون عما عليه البشر من أحاسيس وعواطف لكنهم يتزوجون وينجبون الأطفال. إنهم

---

(1) يذكر ابن النديم في الفهرست قصة خلاصتها أن المأمون اجتاز ديار بكر قاصداً غزو الروم فتلقاه الناس وكان بينهم جماعة من الحرانيين يلبسون الأقبية وشعورهم طويلة فأنكر عليهم المأمون زيهم وسألهم أنصارى أنتم؟ قالوا: لا. قال أفيهود أنتم؟ قالوا: لا. قال أفمجوس أنتم؟ قالوا: لا. فغضب المأمون وقال إذن أنتم عبدة الأوثان. وأنتم حلال دماؤكم فذهبوا إلى شيخ فاضل من فقهاء حران وسألوه عن دينهم أهو من الأديان السماوية فأجابهم إنهم الصابئون المذكورون في القرآن.

على درجات ومراتب، وعالمهم يتسم بالخلود، ولا يعرف الفناء. وهم ليسوا بأرباب، كما أنهم ليسوا بملائكة، لهم سلطات روحية وأعطيات، وتقوم الملائكة على خدمتهم. والأوصياء المخلوقون الـ(ملكي) هؤلاء يقيمون الصلاة كسائر البشر لوجه الله العلي وهم يأتمرون بأوامر (الاها) في كل شيء.

ولهم أسماء يعرفها الصابئة، وإني لا أعرفهم جميعاً. ولست بسبيل إيراد هذه الأسماء، وإن عرفتها فعلاً. ومن أهمهم:

(1) (مورو ـ ايدار بوثو) وهو كبيرهم.

(2) (اواثر موزانيا) ويسكن فيما وراء النجم القطبي، وهو الذي يفصل في أمر أرواح البشر وهم يمرون من (المطهر)[1]، فيقرر إن كان التطهير بدرجة تؤهل الروح لدخول الجنة.

(3) (بتاهل) وهو المهيمن على مكان العقاب، والتطهير.

(4) (هيفل ـ زيفو ـ) وهو الذي عاد، وعلى رأسه إكليل الغار، من الأصقاع المادية السحيقة، تصحبه زوجة دنيوية اسمها (روحية)، وبذكراها يحتفل كل سنة، وهو العيد المسمى (ديهفو ـ هينو). ولقد حملت منه (روحية) ولداً جباراً عتياً اسمه (أور)، ثم بنيت على ظهره العوالم المادية كلها واستقرت على منكبيه العريضين، وستستقر أمد الدهر.

وتعاني الأرواح الشريرة، بعد موت أصحابها، من عذاب زفيره اللاهب المحرق، ومن زمهرير الهواء القارص الذي يستنشقه ويملأ به رئتيه الواسعتين. ولعل أفظع تهديد يمكن أن يوجه لآثم هو: «فليلتقمك أور!!»... وعلى ذلك عقب (زهرون) قائلاً: لا أدري كيف أن امرأة صغيرة كروحية استطاعت أن تلد مثل (أور) الجبار، يا خاتون! وتبسم من قوله ضاحكاً، لأفهم ما في دخيلة

(1) المطهر أو (المطراثي) عند الصابئة هو الشيء الثالث بين الجنة والنار وفيه تعذب الأرواح التي ارتكبت الذنوب البسيطة، ويكون عذابها لأمد محدود، ثم تنتقل إلى مواضعها في عالم الأنوار الذي يسمونه (المي دنهورا).

نفسه، وتابع حديثه: «وأنت تعلمين أنه يحمل الدنيا كلها على ظهره!!»... وأفتر ثغره عن ابتسامة تشكك معبرة.

فقلت: «ومن يستطيع أن يدلي بفصل الخطاب في هذا الباب؟!» ثم انثنيت إلى الحبر الأعظم وسألته:

«وما الذي يراه جنابك؟».

ولم يشأ الأخير أن يتورط في جواب، ولكنه تقبل بروح سمحة ما ذهبت إليه من أن الأمر لا يعدو أن يكون من باب المجاز... أما (المتشكك فلاذ بالصمت المعبر العميق).



الاسكندولة
خاتم الصابئة المقدس وشعارهم القديم

إن صور الحيوانات الأربعة فيه ترمز إلى العناصر الأربعة: فالحية ترمز إلى التراب، والعقرب إلى الماء، والأسد إلى النار، والزنبور إلى الهواء، والاسكندولة كلمة مندائية معناها (سكين الدولة) وقد تعلق بالحزام للوقاية من الشر، وقد توضع فوق موضع القبر قبل حفره.

ويتضرع الصابئة إلى (الملكي) إبان إقامة الصلاة علّه يمنحهم البأس، والقوّة...

وأوصياء الله، على ما يفرض فيهم، أرهف الجميع سمعاً إلى تضرعات المتضرعين وأسخاهم عطاء، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وتمر كل روح بعد موت صاحبها بالمطهر (ماتا راثو) حتماً، وسواء أكان صاحبها من الأخيار أو من الأشرار، وليس هناك من روح طاهرة كل الطهر فتتخذ سبيلها إلى (عالم النور) سراعاً... إن القديسين هم الذين يمرون به مسرعين، أما مرتكبو الذنوب فيمكثون فيه حتى يطهّروا منها، وما أن تنتهي مدة مكثهم إلا ونجدهم ماثلين أمام (اواثر) وهو يزن أرواحهم بالقسط! وإن بقي، بعد ذلك كله، وضر كثير على الروح، فلا معدى من إرسالها لتتطهر كرة أخرى. وفي خاتمة المطاف، يصل الآثمون، شأن القديسين أنفسهم، (موطن النور)، وينتهي الأمر كله، ثم يطوى الـ(ماتاراثو) طي السجل للكتب، ويختفي إلى غير رجعة. ولعل أغرب ما تراه الطائفة في خلق العالم أن هناك دنيا، ثانية، خفية، شبه مادية، وهي كهذه الدنيا تجري إلى مستقر لها، هو يوم الآخرة. وتزعم الصابئة أن هذه الدنيا الثانية تعايش دنيانا، ولكن لا سبيل إلى رؤيتها، وإن سلطنا عليها أبصارنا جميعاً. إنها دنيا مثالية تشبه (مدينة الله) على ما تخيلها (أوغسطين) أو (الدولة الخيالية) التي تصورها أفلاطون أو كما قال الشاعر هرك Herrick:

«... وإلى (جزيرة) كلما فيها ينبعث من الصميم دوماً» والعالم الآخر الذي تسميه الصابئة (مشوني كوشتو) أتم ما يكون طهراً وأمناً ودعة. ومن تلده أم دنيوية لن يدرك الكمال الذي يتسم به أهله، فهم خلق غريب، وإن أشبهوا البشر. وهم يتزوجون وينجبون الأطفال ولكنهم لا يستشيطون غضباً ولا ينتابهم الهلع، ولن تسيطر عليهم المشاعر الخسيسة.

والملك عندهم مشاع، وهم يصفِقون في الأسواق، ويُعَمّدون. إنهم كالصابئة لا يحلقون شعورهم ويرتدون أنصع الثياب ولا يقربون ما هو نجس. وما أن يأزف وقت الرحيل إلى الجنة إلا ويسيرون إليها خفافاً. إنهم لا يمكثون في المطهر إلا أمداً قصيراً، فهم على أشد ما يكونون طهراً، وليس الطاهر بحاجة إلى التطهير.

وهم لا يموتون، والدمع يترقرق في مآقيهم، ولا ينتابهم وصب، ولا تَرداد بينهم كسائر الناس. إن (ملك الموت) يزورهم بالذات داعياً. وعلى ذلك يتوضأ الـ(مشوني كوشتو) ويرتدي الـ(رستة)، تاركاً جسده شبه الروحي، ثم يسير في هدوء وطمأنينة إلى المكان الموعود.

قلت إن البشر يموتون والدمع يترقرق في مآقيهم، لكن الصابئي الصالح، والروحاني على وجه التخصيص، يموت ويفتر ثغره عن ابتسامة مشرقة. أما نساؤه فلا ينتحبن، أو يُعولن عند موته. وتقرر أساطير الطائفة أن كل دمعة تهمع[1] تؤلف نهراً كبيراً يشق على الروح الراحلة المتحررة عبوره.

وفي الحق أن مما يجعل القلوب تهفو إلى هذه (العقيدة) هو أن الصالح، بموجبها، من كان هاشاً باشاً طيب القلب ضحوكاً، والضحك له إعزاز خاص ما دام ذلك دليلاً على راحة الذهن، وأمن القلب.

فأعظم القديسين من كان أسرع الناس إلى الابتسامة طراً. وهناك سبيل آخر يسلكه الصابئي فيصبح في حال من القدسية، بل على مقربة من سكنة الـ(مشوني كوشتو). فالغرباء، من غير أهل الأرض، يلجأون إليها غالباً. ولكي يبلغ الإنسان هذا الشأن عليه أن يخلف آرابه الدنيوية، وملذاته الجسدية ظهرياً. والسبيل جد عسير، وهو أشد عسراً من السبيل التي يتخذها القس الكاثوليكي، ما دام الإنسان ملزماً أن يعيش بين الناس كواحد منهم، وأن يساكن أسرته وهو لا يصيب من مباهجها شيئاً.

وفي الحق ما أن تتم مراسيم (النبذ)، وتتلى على الميت الصلاة إلا ويتحول إلى شبح حي، ولا شيء أكثر من ذلك. بمقدور من ينبذ أن يتابع عمله كمزارع، أو كأحد بناة القوارب، أو صاغة الفضة، لكن حياته تتسم بالنبذ، والحرمان، والفناء الذاتي. وله أن يمتنع عن التدخين ومعاقرة الشراب، واحتساء الشاي أو القهوة. وهو حر في الامتناع عن إصدار أي أمر، أو الإفصاح عن أية رغبة. فإن احتاج إلى شيء وجب عليه القيام إلى ذلك بنفسه، أو فليستعفف عنه! وعليه أن يعتزل كل ما هو دنيوي، فلو اندلعت

(1) إذا سالت الدموع قيل همعت. (المترجم).

النيران في بيته وأتت على ما فيه من متاع، وماتت زوجه وهلك أطفاله اختناقاً فليس له أن يطلق ما تضيق به نفسه من أحاسيس ومشاعر!

وفي سنة 1880 كتب مسيو سيوفي عن الـ(شالمونو) وهو اسم تطلقه الصابئة على (الزاهد) فقال:

«. . . فلو جلس إلى طعامه وافتقد الخبز والملح فيه فليس له أن يسأل عنهما، وبمقدوره أن يقوم ليهيىء منهما ما يريد. وإن سألته زوجه عما يريدها أن تطبخ له من صنوف الطعام فليس له أن يشير عليها بنوع معين، وعليه أن يجيب: ذلك من شأنك حصراً. وعليه أن يلبس البيض من الثياب، ووجهه يجب أن يطفح بالبشر دوماً»[1].

وتدعى الإجراءات التي تعزل الـ(شالمونو) عن عالم الأحياء (ساختو). وهي تبدأ بذهاب من يطلبها إلى حبر الطائفة الأعظم أولاً، فيقوم الحبر بالتحقيق عن نواياه السليمة مؤكداً له أن خطوة كهذه لن يرجع عنها، وتلي ذلك سبعة أيام يستعد خلالها الحبر والطالب للأمر، فإن أثبت الطالب أن رغبته مصممة ثابتة وجب عليه أن يشرع بالصلاة في (المعبد) طوال سبعة أيام بلياليها وفي كل يوم منها يأتيه الحبر الأعظم أو الكاهن. أما طعامه اليومي فلا يعدو 3 أرغفة رقاق من الخبز المقدس، وكل رغيف منها بحجم البسكت المعروف بـ Osborne ومعها شيء من لحم حمام[2] وقد غسل مسبقاً وأسبغت عليه البركة.

وتعرف هذه الإجراءات الدينية بـ(مورو ايدا ربوثو): يطحن دقيق الخبز

---

(1) «Etudes Sur La Religion des Soubbas» M.N. Siouffi 1880.
وكان سيوفي هذا نائب قنصل لفرنسا في الموصل. والظاهر أن الكتاب يزخر بمعلومات صحيحة تتصل بعقيدة الصابئة. لكن حبرها الأعظم يعتقد بأن فيه بعض الأغاليط ومنها ما اتصل بالمراسيم الدينية كالتعميد كما أن مصطلحات مسيو سيوفي تشوبها أخطاء هنا وهناك. وكتب أحد المستشرقين الألمان (بترماين Petermann عن هذه الطائفة قبله بسنوات عديدة). (المؤلفة).

(2) أكد لي حبر الطائفة الأعظم أن دم الحمامة لا يمص، على ما ورد في بعض الكتب خطأ. ذلك لأن الدم محرم على الطائفة في كل زمان. (المؤلفة).

المقدس ثم يعجن ويشوى في داخل المعبد، ويصنع منه مقدار 60 رغيفاً في اليوم الواحد، الرغيف تلو الرغيف. ذلك أن عدد الملائكة الذين يوكل إليهم حراسة الـ(شالمونو)، وإسداء العون له: ستون. وما لا يؤكل من أرغفة الخبز هذه يوارى التراب في المعبد، والمراد من ذلك أن الرغبات الدنيوية والملذات الجسدية التي تراود الإنسان الأول قد تم دفنها أيضاً. فإن لم يسعفه اللحم سمح له بشيء من الزبيب والجوز ليقيم به أوده، ولا يسمح بما هو أشد صلابة من ذلك.

وفي آخر الأسبوع يقام حفل يدعى إليه الـ(شالمونو) المستجد في بيت الحبر الأعظم. وما أن ينتهي الحفل إلا وينهض الروحانيون جميعاً وبيد كل منهم آخر لقمة من طعامه. ثم تقام صلاة الميت على الـ(شالمونو) بخشوع، وتلتقم اللقمة الأخيرة على غرار ما يجري بالنسبة لمن يموت حقاً. إن اللقمة الأخيرة بزعمهم هي التي تقيم أود الروح في رحلتها عبر المطهر.

إن نفسي لتمتلىء أسى وكمداً على زوج مثل هذا الإنسان. وفي الحق أنها قد تطمئن بقولهم إن لو قتل الزوج ولم تجر له مراسيم الدفن الدينية فإن روحه المحررة ستمضي سراعاً من المطهر إلى الجنة، لكن هذا عزاء لا غناء فيه لمن تزوجت كائناً حياً فأصبحت زوجة اسمية. إنها تقوم له، مع ذلك كله، بكل ما تستطيع من أمور البيت في غير إلحاف أو لجاجة. وقد تثور الزوج، على الرغم من كل شيء، في وجه الروحانيين وإن أصرت على أن تعيد زوجها من روح بلا جسد إلى جسد بروح أصبح طلاقها أمراً مقضياً، ولن تتزوج المطلقة في عرف الطائفة غالباً، فعليها إذن أن تستسلم إلى القدر المحتوم.

إن حياة الـ(شالمونو) أشق من حياة الروحانيين. فلا ضير أن يتزوج الروحاني وتتزوج الروحانية، وقد يكون زواجهما في عرف الطائفة إلزامياً. ومن يروم الانخراط في سلك الكهانة أن يبدأ تدريبه لذلك في سن مبكرة. وابن الروحاني، في الأغلب الأعم، روحاني الطائفة في قابل الأيام. ويعمد على وجه خاص عند بلوغه السابعة ثم يكون في المرتبة الابتدائية من نظام الروحانيين قبل أن يبلغ العشرين من العمر، وهو يقوم خلال هذه المدة بمساعدة الروحانيين المتقدمين عليه، كما يحفظ كثيراً عن ظهر قلب. وعليه أن

يرتدي الـ(رستة) إبان إسهامه في المراسيم الدينية. وتمر سنة أخرى فيصبح مرشحاً إلى درجة روحاني وعندئذٍ يسأل القوم عنه، إذ لا أمل لمن تشوب سلوكه شائبة في هذه الدرجة أبداً.

ثم تعقب ذلك طقوس رمزية غريبة يستهل بها الروحاني حياته الخاصة: فيُبنى أولاً كوخان متباعدان من القصب، ويمضي المرشح ليلته الأولى في أحدهما مسهداً طوال الليل ومصلياً. ثم يحرق هذا الكوخ ولا يبقى له أثر، فيمضي المرشح إلى ثاني الكوخين ويقضي فيه 6 أيام بلياليها مسهداً طوال الليل ومصلياً أيضاً. ولقد أكد لي الحبر الأعظم أن المرشح لن ينام طوال الأسبوع، فيغالب في ذلك الألم الجسمي بقوة الروح. ولو نجمت أي حال تحيله إلى نجس، أو أخذته سنة من النوم، أو رآى في نومه ما يراه الإنسان من حلم، لوجب عليه أن يعيد المراسيم والطقوس كرة أخرى. وفي كل يوم توضع عليه (رستة) جديدة. والمرشح ملزم بأن يتصدق خلال هذه الأيام على الفقراء فيطعمهم، ويؤدي الزكاة. وفي اليوم الثامن، وهو يوم الأحد، تقام على هذا الرجل المكدود مراسيم الدفن، ثم يؤخذ إلى النهر من قبل 4 روحانيين، ويعمد فيه. وعليه بعد ذلك أن يتعمد 3 مرات يومياً خلال الـ 60 يوماً القابلة والمخصصة لذلك دونما عرقلة أو تأخير.

ويقتصر طعامه إبان هذه الفترة على بعض الأنواع، كما يطلب إليه أن يختبز[1] بيده، ويجب أن ينقى الخبز سبع مرات قبل أكله فإن انتهت الـ 60 يوماً فيهمد الروحاني مرة أخرى ومعه نساء بيته هذه المرة. وفي اليوم التالي يقيم الروحاني مأدبة يوزع خلالها الصدقات والملابس على الفقراء والبائسين فيها. قد أصبح الآن روحانياً له سلطات تامة، وواجبات معينة وفي مقدوره أن يقوم بمراسيم التعميد، وسائر الطقوس الدينية، باستثناء مراسيم الزواج، فهي من اختصاص الحبر الأعظم حصراً.

ثم يأتي دور الحبر الأعظم إذ يقرأ عليه عند تنصيبه الـ(مساختو)، ولكن ذلك لن يصيره شبحاً حياً كما يحدث للإنسان السوي. فله أن يعتزل زوجه

---

(1) يصنع الخبز ويتخذه. (المترجم).

شهرين، ولا يعلق به أي شيء من المحرمات Taboo. وهناك بعض المراسيم الممتعة التي تجري إبان تنصيب الحبر الأعظم، ويضيق عن سردها مجال هذا الفصل. كما لا مجال أيضاً لوصف حفلة العرس التي تقام لأبناء الصابئة وبناتهم، وما يتخللها من طقوس التطهر، ولكن سأصف عملية كتب لي أن أشاهدها من أولها إلى النهاية:

ففي أحد الأيام (والصابئة تهدي أول أيام الأسبوع إلى الشمس شأن الغربيين) دعاني الحبر الأعظم إلى بيته قبل الظهر، حيث تبدأ المراسيم في مثل هذا الوقت من النهار. وما أن دخلت البيت إلا رأيت الحبر الأعظم يهرع لارتداء الـ(رستة) ويتوضأ. وسرعان ما عاد، وبيده عصاه الروحانية وقد لبس البياض، ليقف على حصير، والشمس خلفه، وبذلك أصبح قبالة النجم القطبي... ثم بدأ بصلاته.

أما أخته فقد جلست وراء ظهره وهي تلف سيكارة وترنو إليَّ بإعزاز، وتنطق بين الفينة والفينة كلمة توضيح، أو تدلي ببعض المعلومات المتصلة بأسرة (الحبر) بصوت غير منخفض...

وكانت كتب الحبر الأعظم موضوعة في حقيبة صغيرة رميت على الأرض. وهناك وعاء صغير وسميك مصنوع من الطين المفخور يتوسط إناء له مرشفتان في الجانبين، وقد وضع الإناء على مسند مدور مصنوع من الطين المفخور، وهو مجوف في الوسط قليلاً. (وجيء بالخشب ووضع عليه الفحم وأشعل جيداً). وعلى مرشفة الإناء وضع شيء أشبه ما يكون بدواة مربعة، وبها بخور مسحوق. وعلى مقربة من ذلك، وعاء نحاسي وقنينة زجاجية، وشيء من الطعام، وبعض أغصان طرية من شجر الآس[1]. ووقف ابن الحبر الأعظم، وهو ممن يسعون إلى الدخول في سلك الروحانيين، قريباً ليكون في

(1) ذكر الآس وقيمة شرائه في الكتابات القديمة في العهد البابلي القديم والعهد الآشوري القديم. وهو يستعمل في القبور ويوضع في التابوت وقد يزرع حول القبور وهو مذكور في (التلمود). إن الراقصين في مقدمة موكب الزفاف يحملون بأيديهم الآس. واسم الآس بالبابلية مثل العربية (آسو) وبالسريانية (آسا).

عون أبيه. لم أر رجلاً في حياتي يصلي بنفس طويل، واستمرار كالحبر الأعظم. ولقد دأب على صلاته ساعتين تمت خلالهما عملية التعميد. ولم يستخدم أي كتاب إبان ذلك ما خلا بعض أقسام صلاته. إنه يتلو صلاته عن ظهر قلب، ولم ينقطع صوته خلالها أبداً. فبدأ أولاً بإسباغ بركته على كل قسم من أقسام (الرستة) التي يرتديها، ثم أخذ يرمي شيئاً من البخور في الصحن، ويقوم في أثناء ذلك بطقوس متقنة جداً. وهنا وضع (الحبر) شيئاً من الطعام في آنية، ثم اختفى ليصنع الخبز المقدس (بيثو). وما أن عاد من ذلك إلا وشرع في اختبازه. أما أخته فألبست ابن أخيه الصغير الرستة، وأخذ الطفل يرنو إلي مبتسماً على الدوام. وأسهم الطفل في المراسيم الدينية هذه وأخذ يكرر بعض ما يرتله (الحبر الأعظم)، ثم التقط أفانين الآس، وجمع الحبر جمع أدواته ومشى الجميع وأومأ إلي بأن أسير في أثرهم. وأكدت لي الأخت أن كل هذا سيعاد كرة أخرى في الغد.

وسرنا على حافة شارع صغير حتى بلغنا النهر، وقد قام على ضفتيه بيت كانت المرأة التي يراد تعميدها تنتظرنا فيه. ولم يكن هذا بالتعميد الذي يجري في يوم الأحد عادة، ولكنه التعميد الذي يتم في أعقاب الولادة. ومهما كانت برودة ماء النهر، أو سرعة جريانه، فلا معدى من أن تعمَّد المرأة في الأحد الرابع من ولادة طفلها، وما لم يتم غسلها فهي غير طاهرة، ولن يجرؤ على لمسها أحد. وتفرد لمثل هذه المرأة أواني الطبخ والأدوات اللازمة الأخرى، ومن الضروري أن يجري تطهيرها في نفس الوقت الذي تعمد فيه المرأة.

والبيت الذي وصلناه بيت لطيف نظيف تحف به الأشجار وينمو في باحته النبت العميم. ووجدنا فيه بعض الروحانيين والروحانيات في انتظار مقدمنا... وسرعان ما بدأ الجانب العلني من الصلاة. ولست بسبيل الإسهاب في وصف تلك الطقوس المعقدة، والبخور يتصاعد خلالها فيملأ الجو، وما جرى من اغتسال ولّي لأغصان الآس وجعلها تشبه الحلقات وما إلى ذلك. ذلك أن أهم ما في ذلك كله هو التعميد الفعلي. وكانت المرأة التي يراد تعميدها مرتدية الـ(رستة)، وفوقها عباءة، وهي تقف على حافة النهر، وتنتظر. إنها ليست بطاهرة فلا سبيل لدخولها الدار. وخاض الحبر الأعظم في النهر،

حتى بلغ ماؤه الركبتين، وبيده عصاه الروحانية. وبعد أن قام ببعض المراسيم دعا المرأة إلى خوض النهر والاتجاه إليه. وصدعت المرأة بما أمرت ثم غمرها الماء كلياً لثلاث مرات، وكان الحبر الأعظم يرمي عليها الماء ليتوثق من أنها ابتلّت تماماً ثم أعطاها من ماء النهر لتشرب. وأخذ برأسها بعد ذلك وجعل يغطسه تحت مائه مرات عديدة.

وخاضت المخلوقة المبتلة ماء النهر خارجة وهرع الأطفال وكل منهم يحمل أحد الآنية «الملوثة» إلى الحبر الأعظم الذي أخذ يتناول كل إناء ويدخله في ماء النهر وهو يرتل صلواته بلا انقطاع.

وعاد الكل إلى البيت، والمرأة مبتلة من رأسها إلى أخمص قدميها، فوقفت أمام الحبر الأعظم ليسبغ عليها بركته، ثم تلت ذلك بعض المراسيم الأخرى... وسمح لها بأن تنصرف. أما طفلها فيجري تعميده في فرصة قادمة.

إن مثل هذا التعميد المستدام لا بد وأن يجعل من أبناء طائفة الصابئة صلاب العود، أشداء، ذلك أن ماء النهر إبان الربيع، والثلوج تصب ذوبها فيه، على أشد ما يكون برودة. وإن امرأة حملت طفلها وهنا وزادتها (الولادة) وهنا على وهن، لا بد أن تتجلد إزاء قسوة الماء البارد في مثل هذا النهر. ويقال إن كثيراً من الأمهات الضعيفات يمتن إبان التعميد.

وتجري جميع المراسيم الدينية بلغة المنداي، وهي لغة قديمة يتكلمها جميع الصابئة ويكتبون بها... وذلك على الرغم من أن لسانهم العربي يتفصح بطلاقة.

إنهم يتكلمون العربية في بيوتهم، أما المندائية، وهي من اللهجات السُريانية، فيتعلمها أطفال الصابئة جميعاً ويتكلمون بها.

وهذه الطائفة تسير إلى فناء، إذ لا يزيد عدد أبنائها اليوم على بضعة آلاف شخص، وذلك على الرغم من لطافة بنية هؤلاء الأبناء وأمانتهم والتزام النظافة في معيشتهم.

ومما يملأ قلوب أبناء الطائفة بالأسى أن تعمد بعض الصابئيات إلى

الزواج من جيرانهم المسلمين. فقد تهوى إحدى العذارى الصابئيات شاباً، ثم تسعى إلى استمالة رجال الصابئة وإقناعهم بأن الاصهار إلى أسرة مسلمة سبب في حمايتها من الاضطهاد، أو القتل في يوم من الأيام.

وأراني الحبر الأعظم كتب الطائفة المقدسة. إنها لم تطبع، ولكنها مكتوبة بخط واضح جميل. والروحانيون يكتبونها لقاء دريهمات معدودات، وقد يستغرق استنساخ (كتاب الله) شهوراً عدة. والكتاب الرئيس من بينها هو كتاب الـ«كنزا ـ رابا» وهو في جزأين، وأحدهما مكتوب بوجه مقلوب. ويقول البعض إن ذلك ييسر قراءته من قبل راهبين فوق الماء الجاري. ولقد أنكر مثل هذا القول الحبر الأعظم، وقال إن القسم المقلوب يتضمن الصلاة على الموتى.

ويأتي بعد هذا الكتاب ما يسمى بـ(يحيى درافشود) وهو عبارة عن سيرة ومعتقدات القديس حنا، ثم (نيان الراحاني) وهو من كتب الصلاة، و(كتاب المسوتيا) وفيه مراسيم التعميد، ثم (كتاب القلستا) وفيه مراسيم الزواج، وأخيراً (النشيترا) وهو مجموعة من الصلوات، ويتضمن نظام الطقوس المختصة بـ(المساختو) أيضاً. هذا وإني لا أعتقد أن الحصول على نسخها بالأمر الصعب البعيد، إن كان المرء على استعداد لدفع الثمن. ذلك أن استنساخ الكتب المقدسة هو من موارد الدخل لدى الروحانيين، يضاف إليها رسوم التعميد، وخمس الدخل السنوي، وهو ما يقوم الصالحون من الصابئة بدفعه إلى الروحانيين.

ويحترف صابئة العمارة والناصرية وسوق الشيوخ حرفة واحدة، تكاد تكون مقصورة عليهم ونعني بها بناء (المشاحيف)، وهي قوارب مجوَّفة تستخدم في البطائح (أهوار العراق). ولعل هذه الصناعة اليدوية قديمة قدم بناء القفة. وهناك كثير مما يحملنا على الاعتقاد بأن الصابئة شعب قديم، ذو تاريخ موغل في القدم. ولعل من أخص ذلك هذه الأسماء التي يطلقونها على النباتات، وهي في كثير من الحالات أسماء الآلهة القدامى، وعلى ما عرفتهم هذه البلاد بالذات ـ منها: شماش، سن، سيرا، ليفت، نيراغ، كيوان، امنبو، بعل. إن هذه تعود إلى الزمن الذي كانت المعابد الزقورية قائمة في سهول هذه البلاد، ما في ذلك شك.

ومن الكلدانيين استعار الصابئة إجلالهم النجم القطبي. وخلف هذا النجم يجلس (اواثر) ليحكم بين الناس بالعدل. إنهم يعتقدون أن السيارات أرواح، ولكل روح منها واجب يقوم به في العالم المنظور. فشماش إله الشمس العريق، يحكم النهار، وسيرا (القمر) يحكم الليل. أما ليفت (الزُهْرة) فهي التي توحي بالاختراع وتوجه الصناعةْ البشرية ـ لذلك فإن الطائرة والتلفون من آثار فعلها في عقول البشر. و(نيراغ) ـ المشتري ـ هو الذي يجلب البرق ويسبب الحروب، و(كيوان) سبب الرعد، و(رابنوا ـ أو نيبو) الذي ينزِّل المطر، ويرسل السحاب. أما (بعل) الذي كان للبابليين ربّاً أعظم فإنه يحكم النجوم غير المأهولة.

ولا تصلي الصابئة لأرواح السيارات هذه، ولكنهم يعتقدون أنها تؤثر في البشر والحوادث. لذا فإن علم النجوم محترم لديهم، ولن يقدم أحد على مغامرة ما بدون استشارة النجوم. فإن ولد طفل عني أبواه بالكشف عن طالعه على ما تنبىء أيام السعد، وأيام النحس، وعلى ما يقرره سحر النجوم. ولنسأل أنفسنا (أنحن أكثر من هؤلاء علماً ولدينا من أمثال كتاب Almanach وOld Moore's، والفلكيين، وقراء البخت؟!.

إن الصابئة[1] من المتألهين وليسوا ممن يؤمن بالخرافات، ودينهم يؤمن بعالم آخر، ولهم مثل عليا تتصل بالروحانية والسلوك. وتمثل جميع الطقوس الدينية والصلوات المطولة أمراً واحداً: ميلاً شديداً إلى طهارة القلب ونقاء الروح، وبذلك تتصل حياتهم بالسماء، وإن طهارة أرواحهم هذه تشبه طهارة أرواح المخلوقات المعصومة والتي تسكن العالم الغريب (مشوني ـ كوشتو).

---

(1) يعتقد الصابئة «المندائيون» أنهم يتبعون تعاليم آدم، ولديهم كتاب الكنزا ـ أي صحف آدم ـ غير أن تقادم العهد على الرسول الأول للدين ونشوء بعض المذاهب الزائفة والأديان الوثنية، كل هذه أدخلت تعاليم غريبة في الدين، فجاء (يحيى) ليخلص الدين من هذه المذاهب الدخيلة، ولم يكن رسولاً، بل نبياً خاصاً بهم، الدكتور عبد الجبار عبد الله (رئيس جامعة بغداد): في هامش كتاب (العراق في القرن السابع عشر) ص103 (بغداد 1944م).

الفصل الخامس

اليزيدية(1)
و(عبادة الشيطان ـ طاووس ملك)

(1)

... وفي خريف 1922 كنت نزيلة الموصل.

ومن بغداد جاءني ما يفيد أن لا سبيل لامرأة أن تزور كردستان، فهي تمور آنذاك بالقلق والاضطراب. وساورني من جراء ذلك شعور الخيبة والأسى أولاً، لكن مقابلة مع (المشاور الإداري) أسفرت عن السماح لي بزيارة التلال

---

(1) تنحدر طائفة اليزيدية في العراق من الأكراد، ولعلهم هاجروا إلى موطنهم الحالي بجوار الموصل (في قضاء سنجار وبعض قرى الشيخان) من شمال البلاد. إنهم ينفردون في مساكنهم الجبلية، لذلك احتفظوا بدينهم القديم الذي خالطته على مر الأيام بعض البدع. أراد العثمانيون إبان حكمهم الطويل في العراق تبديل دين هذه الطائفة وجعلهم مسلمين فجردوا لذلك حملة عسكرية استولت على بعض قراهم إلا أنها أخفقت في تحقيق هذا الهدف. وفي خلال الحرب العالمية الأولى أخذ اليزيديون يغيرون على خطوط مواصلات العثمانيين مما اضطر هؤلاء إلى إرسال حملة عسكرية تأديبية.
والطائفة تخضع في أمور عقيدتها إلى (أمير) ـ والأمير الحالي يدعى تحسين (بك) ـ وهو يسكن قرية (باعذرى)، وأفرادها يحجون إلى مزار الشيخ عدي بجوار القرية، ومن هذه الطائفة فئة تسكن القفقاس وغيرها. ويقدر عدد أبناء هذه الطائفة بحوالي 40 ألفاً منهم 25 ألفاً يسكنون في لواء الموصل وهم جماعتان: الجماعة الأولى تسكن جبل سنجار (17،500) والثانية تسكن القرى المتناثرة بجانب جبل مقلوب وأول التلال الكردية، ولا سيما في منطقة قضاء الشيخان. (المترجم).

الواقعة خلف (القوش) ـ على حدود المنطقة الكردية. إنها المنطقة التي كنت شديدة الشوق لزيارتها بالذات، ذلك أنني كنت أتطلع إلى التعرّف على (اليزيدية) و(عبادة الشيطان) عن كثب.

وأمير هذه الطائفة (سعيد بك) يسكن قرية (باعذرى) فيما وراء (القوش) ببضعة أميال. ومزار الطائفة الرئيس هو (مرقد الشيخ عدي) ويقوم بين شعاب التلال الكائنة خلفها.

... واتخذنا سبيلنا إلى (القوش) حيث استضافنا نفرٌ من رهبانها المسيحيين الكرام. وفي بكرة الصبح رحلتُ منها، مع رفيقيّ، بالسيارة. وكانت الطريق وعرة عسيرة، وغارت عجلات السيارة في أرض رويت حديثاً تقع بجوار أحد التلول الآثورية. وأخفقت الجهود المضنية التي بذلناها لإخراج السيارة من الوحل... فتعالت صيحاتنا طلباً للنجدة... وسرعان ما لمحنا حاصباً من الرجال الأشداء، وفي أثرهم حزقة من الصبيان، يندفعون إلينا من قرية يزيدية دانية، وهم يتضاحكون. إن كل واحد منهم يرتدي اللباس اليزيدي الخاص: قميصاً ذا عنق مستديرة، له أكمام واسعة، ويحيط به في الخصر، مشدّ، وهو يعلو سروالاً واسعاً.

وبتلك الأكتاف القوية، والإرادة المصممة زحزحت السيارة من الوحل، واستقرت على الأرض اليابسة. وناولناهم عن مجهودهم نقوداً، جزاء وفاقاً لكنهم رفضوا ذلك بإباء وشمم، فالنجدة تشيع في نفوسهم سروراً، ومن العيب أن ينال المرء على النجدة أجراً!

وانحدرت سيارتنا من قريتهم المسماة (جراحية)... وعبرنا جدولاً تسلسل ماؤه الغدق الرقراق فوق الصخور الملساء، ثم سارت بنا بعد ذلك على أرض قوية صلفاء، فترة من الزمن... حتى تراءى لنا، من بعيد (بيت الأمير) ـ أو بالأحرى، حصنه المنيع... وقد نحت في تل صخري.

وتناثرت هنا وهناك بيوت قرية (باعذرى)[1] على أقدام الحصن المنيع،

---

(1) هناك أسماء عديدة لقرى ومواقع مجاورة للموصل وكلها تحمل في مقدمة أسمائها (با) أو =

ولم نستطع رؤيتها بجلاء ووضوح إلّا عندما قاربتها سيارتنا، وهي تسير على طريق ملتوية في الوادي الأخضر، يرويه ماء ينحدر عن عين ثَرة في أعلى الجبل، وقد تعالت في جوانبه أشجار الزيتون، واللوز والفاكهة الأخرى. وفي مشارف القرية (شجرة مقدسة) يحيط بها سور صخري يقيها اللمسات النكراء!.

ولشدّ ما تملكنا العجب!... فالأمير لا يستقي من ماء هذا الجدول الصافي العذب، إنه ينفرد بساقية تقع خلف الحصن، ولا يسمح لأي فرد من عامة (رعيته) أن ينال من هذا المورد الطهور!.

وتناهت إلى أسماعنا، ونحن نغادر السيارة على وصيد باب بيت (الأمير)، قرعات طبول ونغمات مزمار... تنبعث من القرية الوادعة الصغيرة. إنها حفلة عرس، والقوم يرقصون رجالاً ونساء على حفافي جدول يتسبسب بين بواسق الشجر.

وحصن (الأمير) مشيّد بالحجارة الضخمة، وله باب كبيرة عليها قرنان... وتفتح الباب على باحة خارجية كبيرة، فيها باب ثانية تفتح على باحة داخلية صغيرة، تضم (المضافة) الواسعة، حيث أمضينا ليلتنا الأولى، وتحت المضافة غرف عديدة خصصت للخدم وبجوارها اسطبلات الخيل. ومن الباحة الداخلية الصغرى يمكن الوصول إلى بناء مربع آخر هو مسكن الأمير الخاص، وفيه سيدات الحصن.

وأديرت علينا فناجين القهوة، رمز الترحيب بالضيف. واصطحبنا الأمير إلى حفلة العرس، فلقد شاء أن يشرّفها بحضوره. وفي غمرة الحفل خطر ببالي أن أزور العروس في خدرها، ففعلت! لقد وجدتها بنتاً صغيرة لا يزيد عمرها على 12 سنة وهي تجلس منكمشة، متوردة الخدّين خجلاً، في ركن من أركان غرفة، شبه مظلمة. ذلك أن تقاليد اليزيدية تلزمها بقضاء أيام عرسها الثلاثة الأولى في شبه عزلة، لا ترى فيها وجه النهار! أما العريس فشاب يناهز عمره الثلاثين، ولقد وجدته شديد التوق إلى أن أصوّر له عروسه، لكن الضوء القليل

= (بي) وتكتب هذه اللفظة دائماً في المخطوطات الكلدانية.. أو بيت مثل باطناية، باقوفا، باعذرى، بي مريم ولعلها من أصل آشوري قديم. (المترجم).

الذي كان ينساب إلى الغرفة حال دون ذلك، كما لم يكن بمقدور العروس أن تخرج من خدرها أبداً.

لليزيدي أن يتزوج أربع نساء، ولا يحلّ له طلاق زوجه كما يفعل المسلم، إذ لن يفرّق اليزيدي عنها إلَّا الموت، ومن تجلب معها صداقاً محترماً من اليزيديات تحتلّ في بيت الزوجية مقاماً محموداً مرموقاً. ولا تضع اليزيدية النقاب على وجهها إلا خلال الأسابيع الأولى من زواجها، وحقها في الملك والتملك مصون محترم. و(الأمير) له حق مطلق في التصرف بشؤون (أتباعه) وبمقدوره أن ينكح ما طاب له من نسائهم لا تثريب عليه في ذلك ولا لوم، إنه (رأس الطائفة الديني والدنيوي) فلن (يخطىء في تصرفاته مطلقاً)!!.

ويفضل اليزيديون اللون الأحمر على سائر الألوان، وتتزين نساؤهم بحلي بدائية. ويبارك الزواج عندهم بكسر الرغيف، وبحضور الشيخ. وهو الذي يأخذ بيد العروس إلى بيت زوجها، وعلى وصيد الباب لا بد أن ينحر خروف عند قدميها[1].

وقفلنا راجعين إلى بيت (الأمير) حيث احتسينا الشاي، وقمت بعد ذلك بواجب زيارة السيدة زوجه.

ثم جاء دور زيارة مرقد الشيخ عدي. ذلك أن الأمير أعلمنا أنه أرسل من يخبر قيّمه بمقدمنا، وإعداد القِرَى[2] لنا، كما نصحنا بأن نصطحب، بالإضافة إلى الشرطي الذي يرافقنا، حرّاساً مسلحين... فالطريق إلى المزار غير أمينة، يسرح فيها اللصوص ويمرحون... إنها طريق وعرة صاعدة، تتلوى كالأفعى بين التلال، فلا معدى لنا من ركوب البغال... لذلك أمر الأمير أن

---

(1) وعندما تزف العروس إلى بيت عرسها لا بد لها من أن تمعن النظر في كل فرد، أو شبح مقدس ـ (كالشجرة المقدسة مثلاً)، أو الكنيسة المسيحية ـ، تمر به في طريقها. وعندما تلج بيتها المقبل، على العريس أن ينثر فوق رأسها أجراساً صغيرة وضعت في آنية. وعليه بعد ذلك أن يكسر فوق رأسها الرغيف لتصبح من أهل الخير والإحسان، تطعم البائس والجائع الفقير. (المترجم).

(2) القرى: طعام الضيف.

تعدّ لنا وتسرج... واتخذنا سبيلنا بين التلال المحيطة بالوادي المقدّس، وبعد نصف ساعة كنا نسير على الطريق التي يسلكها حجاج اليزيدية في زيارة المرقد، ورأينا على جانبيها الحصى التي يرمونها، وهي من شعائر حجهم هذا، كما مررنا بكثير من الأشجار المقدّسة المسوّرة، من نوع الشجرة المقدسة التي رأيناها أول مرة... وانتهى بنا المطاف إلى قبة مزار صغير، إنها تربة (الشيخ المصلَّخ)، ولست أعرف إن كان هذا الشيخ يزيدياً بالفعل أم لا؟ ولست أعرف لم سمّي بهذا الاسم الغريب؟!. لعلّ قطّاع الطرق تصدوا له في أحد أسفاره فسلبوا منه لباسه فانطبق الاسم على المسَمى؟!. وليس هذا ببعيد في مثل هذه الأرجاء.

وتياسرت قافلتنا، وتيامنت، في سيرها على الطريق الصخرية... لقد برهنت البغال على أنها شديدة الجلد، فهي لا تعرف كلالاً ولا ملالاً، ثابتة الأقدام، لا تباريها في ذلك الخيول أبداً.

وكانت الشمس مشرقة ساطعة، والجو رائقاً... وكان حراسنا ينهلون من النسمات اللطيفة وتنطلق منهم بين الفينة والفينة، أغان تُعلي من شأن الشجاعة، والأقدام في الوغى... يسري في ألفاظها روح عذب، وهي البديل الأوحد عن أغاني الصبابة في مثل هذه الربوع.

وتسلقت البغال قمم التلال تباعاً... ومزار الشيخ عدي لا تقع عليه العين. وبعد ثلاث ساعات وصلنا قمة تلّ كثيف الشجر تنحدر منه طريق إلى الوادي المقدّس. ومن القمة هذه سلكنا سبيلاً متعرجاً تضلله أشجار البلوط، وسرعان ما تراءت لنا قبة المزار البيضاء! وقبب المزارات اليزيدية ومراقد شيوخها تزدان بهذا اللون الأبيض اليَقَق الناصع!.

وشاهدنا في الطريق حجراً مربعاً يرشد الحجاج إلى المكان الذي يجب أن يخلعوا نعالهم فيه، وعلى الحجر بقع تخلفت عن الزيت الذي يوقدون به ذبالاتهم... فالوادي في ليالي الأعياد يلتمع بأضواء هذه الذبالات في شكل عجيب.

وقيم المزار يضع في الداخل ما يضعه هؤلاء الحجاج في هذا الوادي،

فهو يمر كل مساء حاملاً أحزمة من الذبالات (الفتائل) وجرة مليئة بزيت الزيتون، ويضع في كل شق من شقوق جدران المزار ذبالة في قليل من الزيت ويشعلها ليخنق لهبها داخل المزار ويتطاير سناجها حتى تنطفىء قليلاً قليلاً.

حقاً إن الوادي الشجير هذا، وقد توج بالمزار الأبيض، لأروع روعة وأبهر جمالاً من أن يستنفد فيه القول...

وفي نهاية الممر المنحدر استقبلنا قيم المزار المسمى (حسن فقير)، عند باحة المزار الخارجية، مرحباً باسماً. إنه في الخامسة والخمسين من عمره، قوي الجسم، طويل الأنف، وطول الأنف من مميزات اليزيدي الجسمية.

وفي باحة المزار قامت أشجار التوت معرشة، إنها باحة واسعة رصفت بالحجارة، وفيها ثلاثة أحواض، ينصب فيها ماء عذب بارد زلال وهو ينبجس من شقوق الحجر الصلد. وسرعان ما اندفعنا صوبه ننهل منه فيشفى منا الغليل ويبرد اللظى.

وكان القيم حسن فقير يرقبنا سمحاً كريماً، فما كنا لندري أننا نشرب من الماء المقدس الطهور الذي يعمد فيه أطفال اليزيدية حالما يدرج أحدهم. وللماء في جريه خرير لا ينقطع، وهو ينحدر تارة في ساقية صخرية، وآناً يحل في حوض، ومرة ينساب تحت الأرض، وليظهر، في خاتمة المطاف وقد انطلق من اساره على الأرض الفضاء.

SCRIPT USED IN YAZIDI HOLY BOOKS

الحروف التي تستعملها (اليزيدية)
في تدوين كتبها المقدسة وما يقابلها من الحروف العربية

ويعتقد اليزيديون أن مصدر هذا الماء هو (بئر زمزم) بمكة، وأنه ينساب إلى بلادهم بأعجوبة، وأنه جماع للمزايا والفضائل. وهم يصنعون من سكب ماء الشيخ عدي على ترابه ألواحاً من الطين ويجففونها ويتبركون بها في كثير من مناسباتهم الدينية واحتفالاتهم. ففي حفلة الزواج تكسر لوحة منها نصفين ويعطى كل من العروسين نصفاً، وبذلك يعقد النكاح فعلاً، وإن غاب عنه الرجل الديني. وهم يضعون لوحة منها بين شفتي الميت قبل دفنه، وهم لا يحضرون الأعياد، أو المناسبات الدينية الأخرى، إلا صحبة هذه الألواح التي يرسلها لهم شيوخ القرية.

وقادنا مضيفنا إلى باحة أخرى أحيطت بجدار فيه أطواق كثيرة، كل طاق منها يتخذ حانوتاً أيام الحج المعدودات، حيث تقام خلالها سوق كبيرة. ومنها سرنا لنجلس في عريش نثرت تحته الوسائد المريحة. وأديرت علينا أقداح الشاي ثم جيء بعد ذلك بقليل بصحن كبير من الرز وعليه ما يشبه الأكلة الغربية المعروفة بـ(أومليت). إنها تحتل المحل الذي يحتله عادة الدجاج فهذا محرم على اليزيدية أكله. واستخدمنا الأصابع في تناول الطعام، على ما هو مألوف في هذه المنطقة وفي غيرها، وسقينا المخيض[1] (شنينه) وتلتها فناجين القهوة اللذيذة.

وأخيراً اقترح القيم المضياف أن نطوف بالمزار. إنه أشبه ما يكون كنيسة مسيحية، ولقد أعيد بناؤه مرات عديدة. وإنك لتجد على بابه رموزاً سحرية غريبة، لعل أبرزها ما يمثل حية[2] لها رأس أسود، وقد حفر الرمز هذا على أيمن الباب. ويقبل كل حاج رمز الشيطان هذا إبان حجه. وخلعنا أحذيتنا عند وصيد الباب، إنه مقدس لا يلمس باليد أبداً. وفي داخل المزار يسود الظلام إلا أضواء قليلة تنبعث من ذبالات أو قناديل يضعها الحجاج فيه. وبناية المزار تأتلف من طاقين يرتكزان إلى أعمدة ستة، مربعة الشكل، تزين كل عمود منها ستارة، أو علم له ألوان ثلاثة أصفر، وأخضر، وأحمر بلون الكراز.

---

(1) المخيض: إذا مخض اللبن واستخرجت منه الزبدة.

(2) يلاحظ أن (الشيطان) أو (الحباب) في العربية من أسماء الحية الخبيثة ـ فقه اللغة للثعالبي.

ويقع مزار الشيخ حسن في الجهة الشمالية، وهو يضم صندوقاً من صناديق الموتى غطي بستار كثيف، ومن هذا المزار يلج الزائر باباً واطئة تؤدي إلى مرقد الشيخ عدي نفسه. إن طول القبر حوالي 7 أقدام، وعرضه 4 ويعلو عن الأرض بـ 5 أقدام. والظلام يسود المرقد أيضاً ما خلا بصيصاً من نور ينفذ إليه من فتحات صغار تقع في أسفل العتبة. وعلى جدار المزار لوحة كتبت بحروف عربية، كما حفر فيها ما يرمز إلى الشمس والقمر. وعلى مقربة منه مزار صغير آخر للشيخ شمس الدين، وفي هذا المزار تقضي شعائر اليزيدية أن يذبح ثور كل عام قرباناً للشمس! كما تقضي هذه الشعائر بأن تقوم نخبة من شبانهم بجر الثور ليطوف المزار ثم يذبح ويؤكل!.

يحتفل اليزيدية بعيدهم الكبير في تشرين الثاني، أي في الخريف. وعلى جميع أبناء الطائفة الأتقياء الصالحين أن يحجوا إلى مزار الشيخ عدي ما استطاعوا إليه سبيلاً. ولهم أعياد موسمية أخرى تقع في الشتاء والربيع والصيف والخريف. فعيد الربيع من الأعياد التقليدية الموغلة بالقدم، وهو يذكرنا بتلك الاحتفالات البدائية التي شهدتها أوروبا منذ قرون سحيقة وما زالت لها رواسب في احتفالات (يوم أيار)! وعلى كل أسرة يزيدية أن تذبح خروفاً عشية هذا العيد أو تشتري لحماً يقدم طعاماً إلى الموتى. وفي فجره يقوم شبابهم وشوابهم بجمع باقات من زهور البرية، وتزين باب كل دار من الدور اليزيدية بإكليل منها. وتذهب النسوة بما أعددنه من طعام إلى القبور ومعهن ضاربو الطبول والزمارة والصناجة. وهن يضعن الطعام على قبور موتاهن أولاً ثم يوزعنه على الفقراء وعلى أنغام الأناشيد التي يرتلها الكهّان، ولن تغفل النسوة عن تقديم الحلوان إلى الكاهن أيضاً. ويحتفل اليزيديون ببعض أعياد الأديان الأخرى، فهم يحتفلون بعيد الميلاد المسيحي، والسيد المسيح بنظرهم من كبار الأنبياء المرسلين، وهم يحتفلون بعيدي الفطر والأضحى الإسلاميين... كما يحتفلون بعيد آخر يسمونه (عيد خضر الياس)، وعلى من كان اسمه (الياس) أن يصوم ثلاثة أيام في هذا العيد.

ولم ننس، قبل أن نغادر المزار، حُلْوان[1] قيّمه المسمى حسن فقير، فهذا القيّم ملزم بدفع حوالي الـ 8 آلاف روبية سنوياً إلى (الأمير)، كما أن قيّم مزار شمس الدين ملزم بدفع 5 آلاف روبية لقاء ما يحصلون عليه من الزوّار والحجاج.

وكنت أشد ما يكون شوقاً لرؤية (ملك طاووس)، أو (السنجق) ولجلجت في صدورنا فكرة الطلب إلى القيّم عسى أن نراه، ولكنه راوغ في الأمر وادعى أن السنجق في (سنجار)، الموطن الآخر للطائفة اليزيدية. ولقد شرح لي أمر هذا (السنجق) فيما بعد فعلمت أنه تمثال طاووس صنع من حديد، وله مسند يقوم عليه، وأن منه نسخاً عدة إحداها في تربة الشيخ عدي، والأخرى في سنجار، وفي سوريا أيضاً.

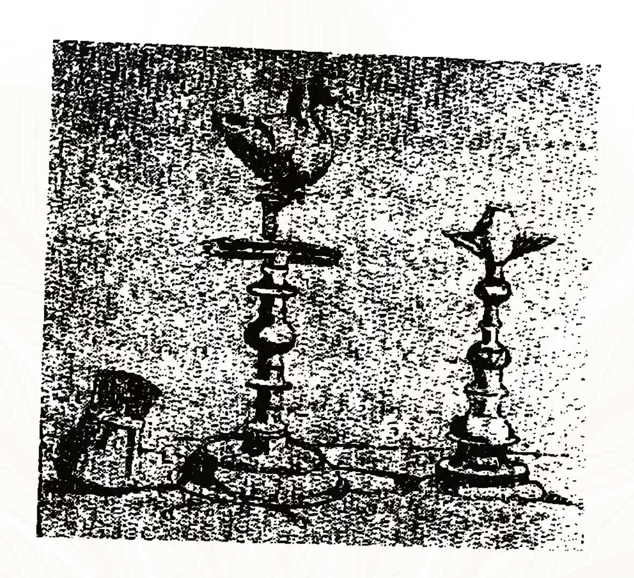
ويوضع حق عرض هذه (السناجق) بالمزاد ومن يرسو عليه صوره من الروحانيين يسمح له بجمع الأعطيات من أبناء الطائفة عن سبيل عرضه عليهم تبركاً، ولذلك فالتمثال ينقل من قبل الروحاني من قرية إلى قرية.

لقد فقد سنجق روسيا خلال الحرب الأولى، واختفى تمثال (طاووس ـ ملك) منها، واختفى روحانية أيضاً ولم يعد يسمع للاثنين ذكر أبداً.

وتركنا (المزار) وقد علت وجوه روحانييه وأتباعهم ابتسامات الرضى... ومررنا بالوادي النضير الشجير، وتاه البصر في جمال هاتيك المناظر الخلابة...

---

(1) الحلوان: أجر الكاهن.



السنجق (طاووس ـ ملك)

ويتكون من: الطائر، والشمعدان، والكأس. وفي الكأس يوضع ماء ويوزع بين زائري السنجق على أنه مقدس. ومن يحصل على (السنجق) لقاء مبلغ يدفعه إلى «أمير اليزيدية» يدور به على أبناء الطائفة لجمع النذور والأعطيات.

(2)

... وفي ربيع سنة 1920 كنا نقيم بالبصرة.

وجاءني الخادم في يوم من أيامه ببطاقة زيارة، وهو يقول: إن (أمير اليزيدية)، وتابعه، في الطابق الأسفل من الدار، ويسرهما إن سمح لهما بالإقامة معنا حيناً من الدهر! والظاهر أنهما ضلّا السبيل فظنّا أن دارنا هي المضافة الرسمية؟!.

وتناولا القهوة، وبعد حديث ودي أرشدناهما إلى المضافة فخرجا مودعين. ولاحظت على البطاقة كلمات كتبت بالحبر الأحمر، وعلى اسم (المير) صورة طائر أشبه ما يكون بالديك، أو الحمامة... لكنه لم يكن في الحقيقة إلا رمزاً للطاووس، أو (الشيطان).

وليس (المير) بقادر على أن يلفظ هذا الاسم الأخير أبداً، كما أن النطق به من قبل أهل الأديان الأخرى يعتبر ازدراء بـ(أمير الظلام)... وهو أثم لن يقارفه يزيدي أبداً، وإنه أثم، لو تعلمون، عظيم!.

واليزيدية تسميه (طاووس ـ ملك)، وعلى الرغم من أنها تعبد (الله) لكنها تعتبره، سبباً أولياً قاصياً، و«رباً فوق الجميع»... وليس هو بـ«سيد العالم الناشط الفاعل»، ذلك أن سيد الدنيا هذا، واسع الحيلة، شديد الأيد، وموجود في كل مكان. إنه الملك «الهابط» (طاووس ـ ملك) الذي يدين له اليزيدي بالطاعة والولاء. واليزيدية، بعد ذلك كله، طائفة تجنح إلى السلم، وهي نشطة، نظيفة، محسنة، لا تقترف إثماً ولا تعرف العدوان. ونسبة جرائم العنف التي يقترفها بعض أبنائها تقل كثيراً عن نسبة ما يقترفه منها أبناء الطوائف الأخرى.

إن «أربابها السود» لا ينطوون على نيات سيئة سوداء. وهذا الرب الذي يؤمنون به لا يعصي (من) في السماء أبداً. فالله تعالى منحه السطوة في هذه الدنيا، وهو ليس بجبار عنيد كـ(يهوه) المذكور في (العهد القديم)، ومن يلعنه يلق جزاء لعنته، ما في ذلك شك. إنه الذي يجعل الناس تمرض، أو يجعلهم رافلين في بحبوحة من السعادة والصحة. إنه (الأحجى) لذا نجده يضع دوماً حدود سطوته فلا يستعمل من الكلم «إلا ما لا يلائم نواميس الزمان والمكان»[1] بقدر تعلّق الأمر بسلطانه على العالم المادي.

ويقول اليزيدية إن الغربيين أساؤوا التصرف بإزاء (الشيطان) وكان الأحرى بهم أن يجعلوه سبباً لما يعتور حياتهم من هنات... أي أن يخترع (الغاوي) أولاً لكي يصبح عذراً للغواية!!.

إن صفاته الشريرة سلبية، كما أن فضائله سلبية أيضاً!.

وعند اليزيدية طائفة من الطقوس الدينية، وليس لديهم شيء من السنن الخلقية. فاليزيدي ملزم بأن يكون نظيفاً، ولكنه يفتقد الأوامر والنواهي

(1) على ما ورد في كتابهم عن الوحي المسمى «جلوه». (المؤلفة).

الإلهية. إنه ملزم بإطاعة الروحاني، وإعطائه (الحلوان)... ولكنه غير ملزم بأن يحب جاره.

إن اليزيدي منصرف كلياً إلى القيام بواجباته المقررة تجاه روحانييه، وليس له من وقت، أو جهد، يستنفده في اقتراف الخطايا بإزاء جاره، أو أي فرد آخر.

يصرف المسيحي، على ما هو مفروض فيه، 1/ 10 دخله على الكنيسة. أما اليزيدي، فيصرف، في الأقل، ربع هذا الدخل، يناول جانباً منه كلاً من قيّم المزار، والروحاني، كما أنه يجود بزكاة ماله، وقد يتجاوز ما يصرفه ربع دخله أيضاً.

ولليزيدية شهرة خاصة شائعة في حب الخير والإحسان. فلقد بلغني أن قرابة الـ 400 لاجيء، خلال الحرب العالمية الأولى، اندفعوا صوب (سنجار)[1] واستجاروا شيخها اليزيدي المعروف (حموشرو)، فأجارهم هذا السري وقد عرفه الناس دوماً ينقذ المكروب، ويسعف المحروب، ويعين الناس على نوائب الدهر، وهكذا وجدت 100 أسرة لاجئة بائسة المأكل والمأوى في قرية الشيخ المذكور نفسها. وعندما جاءه المسيحيون اللاجئون خاطب قومه قائلاً:

إن هؤلاء الناس لم يتكففوا فينا منذ عهد المسيح حتى الآن، فلا معدى لنا من إطعامهم ومن يرفض ذلك منكم ستحل لعنتي عليه.

ورؤساء اليزيدية الدينيون، و(المير) فوقهم جميعاً، هم آباؤها الروحانيون أيضاً ـ وهم كسائر رجال الإكليروس لا يخطئون أبداً... والقس لا يمس! ولقد حدثني (دكتور ويكرام) وهو من الكتاب الذين وصفوا الأيام التي قضوها في (كردستان) أمتع وصف، وأطرافه، حديثاً عن أحد أمراء اليزيدية، وكيف لاقى حتفه، قال:

---

(1) تقع بلدة سنجار على بعد 70 ميلاً غرب الموصل وفيها خرائب المدينة ـ الحصن الرومانية سينكارا وظاهر أن اسم المدينة الجديدة مشتق من الاسم الروماني.

(إن خليفة الأمير، وابن أخيه، كان غائباً عن ديار اليزيدية في بعض شأنه، وما إن آب إليها من غربته إلا واستقبله عمه بحضور أبناء طائفته، مرحباً، وفي حفل بهيج. وكان الأمير يتقلد سيفاً أهدي إليه، وعرضه على ابن أخيه، وهو يزهو به، ويقول «ألا ترى، في هذا السيف، يابن أخي، جودة صنع ونفاسة معدن؟» فما كان من ابن أخيه إلا أن يتناول السيف من يد عمه ويقول: «حقاً إنه من أجود ما رأيت... وإن فرنده قد صقل على يد صَنَّاع وسأجربه!» وبهجمة مفاجئة فاتكة أجهز بالسيف على عمه فأرداه قتيلاً على التو... ثم انثنى إلى حشود اليزيدية وقد تملكها الهلع، والروع، والجزع، وقال:

«أنا الأمير من هذه اللحظة...!» فرددت الحشود، بخضوع ووجل، وخنوع: «أجل، إنك الأمير، بلا منازع».

وقليل من أمراء اليزيدية من يموت حتف أنفه[1].

ولكل جماعة من أسر اليزيدية شيخها الخاص، وهو رأس الجماعة الديني، إليه تنهال الأتاوة الدينية المقررة، ولديها (البير) ـ وهو الروحاني الوراثي. ومن يمتنع عن الدفع تحل عليه اللعنة ويصبح خارجاً على الطائفة ويقضي حياته شريداً طريداً منبوذاً. وتدفع الرسوم الدينية عند (الولادة) و(الزواج) و(دفن الموتى). وهي تدفع إلى المزارات، وإلى الروحانيين، عندما تنتاب اليزيدي الكوارث، والنكبات، كما تدفع شكراً لله على نعمائه.

وللشيخ أن يختار شيخاً آخر ليكون محاميه في الآخرة، وكل شيخ سماوي يجب أن يكون قريباً من أخيه الدنيوي ساعة موته. وللشيخ السماوي واجبات عدة منها السماح لأخيه الدنيوي بتقبيل يده الكريمة يومياً!.

ونظام الروحانيين اليزيدي ذو درجات وطبقات، فالأمير، أو (ميرا) أو (المير) هو، كما قلنا، الأمير ـ البابا فيه. ويأتي بعده في الدرجة (الاختياري ـ المرغاهي) أو (الشيخ الأعظم) ويعين من قبل الأمير نفسه، ويشترط فيه أن

(1) أي من غير قتل، وأول من تكلم بذلك النبي ﷺ ـ فقه اللغة للثعالبي.

يكون من نسل (الولي) حسن البصري، وإصدار الفتوى من اختصاصه حصراً. وتلي هذا طبقة من رجال الدين المتقدمين بحكم الوراثة، وواحدهم يسمى (البير)[1]، وليس لهم من الواجبات الدينية إلا قليل، ثم طبقة الشيوخ، وهم أصحاب السلطتين الدينية والدنيوية، وتفوق سلطتهم الدنيوية نظيرتها الدينية. أما (القوّالة) فهم الروحانيون الاعتياديون وهم «يضربون على الطبول، وينفخون في المزامير، ويرتلون الأناشيد الدينية» و(الفقراء) هم القيمون على المزارات، الأماكن المقدسة الأخرى، ولهم نظام يشبه نظام اللاويين عند اليهود.

ولعل أكثر هذه الطبقات إمتاعاً «طبقة الكوجيك». إنهم العرافون، والوسطاء المحترمون، وصانعو المعجزات في طائفة اليزيدية. والزعم الشائع أن قواهم الروحانية وراثية، وقد يمتلكها فرد من خارج الطبقة بسبب مواهبه الخارقة فيصبح في عدادهم. والكوجيكي من أرباب الرؤى، وقد يدخل في غيبوبة، فيتزبّد فمه، ويأتي بالتنجيمات[2] وقد تشتد سطوة أحدهم على أبناء الطائفة إلى أبعد حد، فيطمع بأن يرقى إلى مقام «الشيخ الأعظم».

ولقد سمعت عن شاب من الرعاة أصبح واحداً من طبقة الكوجيك بعد أن تجلت فيه قابليات غيبية خارقة، منها إخراج السكر من فمه. وإن فتح أحد أردانه ظهرت فيه شجرة من شجر الرمان، وأشجار (جنتهم) الخضراء، وفي الردن الأخرى يكمن لهيب المطهر!

ويرتدي الكوجيكي الملابس السوداء، ولا يختتن على سنة اليزيدية ولا يتزوج إلا من طبقته الخاصة، شأنه في ذلك شأن الشيوخ و«الفقراء». ويرتدي «الفقراء» الملابس السوداء أيضاً، وهم يستعملون في صبغ قماشها صبغة مستخرجة من أوراق شجر الجنار[3]، ويغلى القماش بها 12 ساعة ضماناً لديمومة اللون. وتعتقد اليزيدية أن مجرد تعليق سترة الفقير على شجرة يحول

---

(1) البير ـ أي الرئيس، وشيخ الشيوخ بالفارسية. (المترجم).

(2) في الأصل Oracles (المترجم).

(3) جنار أو (شينار) الفارسية هي شجرة الدلب، أو صنار وهي بالإنكليزية Plane-tree معجم النبات ـ الدكتور أحمد عيسى (بك).

دون الخصام والشجار. ويلجأ ذوو الميّت إلى الكوجيكي، وكل منهم مهموم دنف، فيصيبون لديه أمن القلب وطمأنينة النفس، فهو يُعلمهم أن فقيدهم خالد في العالم الآخر، وأن روحه ستبعث كرة أخرى. ويقوم بغسل الميت إما شيخه، أو بيره، وتوضع بين شفتيه (تربة) من ترب الشيخ عدي، على ما سبق لنا القول، ويرفع الكفن عن وجهه عندما يوضع في القبر وترش عليه حفنة من تراب الشيخ عدي. . . ومن الغريب أن (العرق) يشرب بكميات كبيرة وأبناء الطائفة اليزيدية تحيي ذكراه، أيام العزاء!. ويلجأ الكوجيكي إلى أفعال عجيبة ليطمئن ذوي الميت بصدد عودة روح الفقيد، فهو يدخل غرفة ويغلّق أبوابها لينصرف إلى إقامة الصلاة للشيخ عدي، ويزيد، ومحمد رشان، وغيرهم من قديسي اليزيدية. وفي أثناء ذلك تظهر عليه علائم الصرع، ويدخل في غيبوبة ويتزبَّد فمه. . . وكلها دلائل على أن روح التنبؤ قد حلت فيه، والشائع أنه يتصل، وهو في مثل هذه الحال، بالعالم الآخر. ثم تذهب عنه الغيبوبة ويولى الصرع فينام الكوجيكي نوماً هادئاً طبيعياً إلى أن يتعجل ذوو الميت خبر فقيدهم فيعمدون إلى إيقاظه بتقديم الطعام والشراب له. فإن كان الفقيد حسن السيرة والخلق، وإن كانت العطايا التي قدمها ذووه مرضية أفصح الكوجيكي عن النبأ السار: إن روح الميت المتحررة خلقت من جديد وحلت جسم رجل ـ طفل من أبناء الطائفة. وإن كان الميت من المعروفين بسوء السيرة والطوية، أو كانت العطايا التي قدمها ذووه ليست بذات شأن فإن الكوجيكي يبادر فيخبر أهله بأن روح فقيدهم حلت في جسم كلب، أو حمار، أو حصان أو ما إلى ذلك، وهذا بلاء لن يدفع ولا يعاد الميت إلى حظيرة البشر إلا بقيام ذويه بدفع العطايا السخية إلى قيّم المزار والحلوان إلى الروحانيين.

ومهما كان الأمر بشأن بعث الميت، وخلقه من جديد فإن جميع ملابسه، ومقداراً من الطعام يكفي لإطعامه لسنة يجمع ويعطى إلى الشيخ. ومن الضروري أن تقام في مطلع كل شهر قمري وليمة يحضرها الفقراء تصدقاً على روح الفقيد.

ولا تؤمن اليزيدية بالجحيم، فلهيبها منطفىء منذ سنين عديدة، وكان إطفاؤها على يد طفل يدعى (إبريق شوثه). وهم يعتقدون أن الطفل هذا كان

يشكو من أمراض في عينيه، وأنفه، وأذنيه، ويديه وقدميه، وكان يندب سوء طالعه طوال سنوات ست، سالت خلالها دموعه مدراراً وانسكبت في إحدى الجرار الصفر، وما أن حلت السنة السابعة إلا وامتلأت الجرة وطفح منها الدمع على لهيب الجحيم فأطفأه، وأصبحت البشرية منذ ذلك اليوم، بمنجاة من عذابها!.

وتختم الوثيقة السريانية التي أنقل عنها هذه القصة الكلام فتقول:

«لقد أزجى الأرباب السبعة شكرهم الجزيل لهذا الطفل على حسن صنيعه». ولليزيدية معتقدات أخرى تتصل بالقصص الواردة في كتب الأديان الأخرى، ومنها ما يتعلق بقصة الطوفان، فهم يعتقدون أن الطائفة كلها تنحدر من نوح ويسمونه (ملك ميران ـ أي ملك الأمراء) ـ بينما بقية البشر تنحدر من صلب ابنه الذي عصاه. فلا عجب بعد ذلك إن ادّعت أن لغة (الجنة) هي اللهجة الكردية التي يتكلم بها اليزيدية بالذات. فالجحيم إن لم تكن من معتقدهم، فالجنة موجودة، وهي لمن تحررت روحه من الحلول، وطناً مستقراً. وهم يعتقدون أن الماضي الدابر والمستقبل القابل مسطوران في كتاب مفتوح الصفحات لهم، وهو لمن يتخبط في أمر الخلق والبعث خير معين. وكل هذا يفسر لنا ما ينطوي عليه اليزيدية من إكبار وإعزاز للقديسين ورجال الدين.

ولنكسر القول قليلاً على الشيخ عدي الذي يزور أبناء الطائفة كافة قبره[1] في كل حين، حاجين متبركين، ومن كل مكان، سواء أكان قاصياً أم دانياً.

والروايات بشأنه جد مختلفة، وفيها تخليط. فهناك من يقول إن الرجل من سوريا، التجأ إلى موطن اليزيدية الحالي في القرن العاشر الميلادي حيث تأثلت فيه صفته الدراسية، كما حرر لهم كتبهم المقدسة. ومن قائل إن مزار الشيخ عدي الحالي كان في الأصل كنيسة مسيحية هي كنيسة المار يوحنا والمار يشوع صبران، وإن القرن الـ 12 الميلادي شهد قبراً عامراً يقوم في

(1) يبعد عن شمال ـ شرقي الموصل بقرابة 30 ميلاً.

هذا الوادي ذي المياه الغمرة الغدقة، والذي يسمى اليوم بوادي الشيخ عدي. وإن رهبان هذا الدير كانوا يستخدمون أحد الأكراد (المسمى عدي بن مسافر) (كذا!) والذي نشأ وترعرع في ظل ديرهم، أصبح وكيلاً عنهم في جباية الأجور والعشور.

وأصبح (عدي) بسبب هذا شديد الأيد، كما استغل فرصة غياب رئيس الدير، وقد سافر هذا إلى القدس حاجاً، فتآمر مع أبناء عشيرته من بني أمية (كذا!) ورجال آخرين من قبيلة (زدناية) وانقضّ على رهبان الدير، واستولى عليه واتخذه سكناً له ومعه أبناؤه الثلاثة: شرف الدين، وشمس الدين، وفخر الدين. وفي نفس الوثيقة السريانية ما يفيد أن الشيخ عدي أصبح نبياً في قومه، يصدقون كل ما يقول، وحتى ما يدعيه أنه من أصل إلهي؟! لقد حظر الشيخ على أتباعه القراءة والكتابة، وعيّن بنفسه رؤساءهم الدينيين، للإرشاد وجمع العطايا والهبات.

وأسر جنكيز خان الشيخ عدياً وأرسله إلى فارس حيث تم إعدامه. كما طلب قواد التتر إلى أبنائه تسليم الدير فسلموه على كره منهم، ولاذوا بالفرار، لكن شرف الدين قتل إبان هروبه، وذهب شمس الدين وزوجه وأتباعه إلى سوريا، والتجأ فخر الدين إلى جبل سنجار.

وتهدّم من بعدهم الدير، لكن أحد أحفاد الشيخ عدي التمس من سلطان التتر أن يعيده إليه، فلبى السلطان الطلب فبناه هذا الحفيد مجدداً وبقي بيد أبنائه من ذلك الحين.

والحقيقة التاريخية هي أن الشيخ عدي بن مسافر كان من المتصوفة، ولد في بيت قار، قرب بعلبك (مدينة الشمس) الشهيرة في القرن الـ 12 الميلادي. ولقد تتلمذ الرجل على عدد من الفلاسفة وجاب في سبيل العلم كثيراً من البلدان. ولقد ورد عنه في السفر النفيس الذي ألفه المونسنيور هوار عن (الأدب العربي) ما يلي:

(اعتزل في التلال الكائنة غرب الموصل، وسكن خرائب دير مسيحي متهدم وفيه أقام «زاويته» وقد مات في الدير سنة 1163 بعد أن أسس الطريقة

المعروفة بـ«العدوية». ولقد جعلت منه اليزيدية التي تسكن تلال سنجار حامياً لها ونسبت إليه «عقيدة» لا تمت إلى الإسلام إلا بأوهن صلة، وبقي حتى اليوم، وبنظر اليزيدية، القديس الأعظم، وقبره المحج الأول لهم).

والشيخ عدي بن مسافر الهكّاري مؤلف كثير من كتب التأله[1]، وله قصائد أيضاً، ومن مؤلفاته (عقائد السنة) وهو موجود في مكتبة برلين.

وعند اليزيدية كثير من الأساطير والمعتقدات الغريبة. فهم يقدسون الشجر إلى حد العبادة. وإنك لتجد، أينما طوّفت في ديارهم، أشجاراً مقدسة مسوّرة. فإن تمرض اليزيدي نذر إلى «ست حفيظة» وهي شجرة من أشجار التوت كائنة في قرية (بعشيقة). ومثلها شجرة مقدسة موجودة في قرية (كبارة)، وأخرى في (بحزاني) وتسمى (الشيخ باليكو). وبقرب هذه الشجرة الأخيرة منبع يعمد اليزيدي، إن أصيب بالحمى، إلى ربط خرقة بها واصطياد السمك من منبعها، وتحل اللعنة على من يرفع الخرقة عن الشجرة. إن عبادة الشجرة، وعبادة الماء الجاري، عند اليزيدية، صنوان. وترجع عبادتهم للشيطان، في بعض أصولها، إلى التثنية، وهي من خصائص (المانوية)، ما في ذلك شك. عاش (ماني) صاحب هذه العقيدة في عهد (سابور)، ومحصل التثنية فيها: إن عاملي الخير والشر في اصطراع دائم. ولما كان مهد (المانوية) هو أرض ما بين النهرين، وفيها ازدهرت إبان انتشار المسيحية أيضاً، فمن المحتمل أن اليزيدية ألحقت بـ(الشيخ عدي بن مسافر) بعض العقائد المانوية. وكانت دقائق فلسفة الشيخ المذكور فوق مدارك (عبدة الشيطان)، ومن المحتمل أنه أزاح طائفة من المسيحيين كانت تسكن الوادي المعروف باسمه اليوم. ومن الممكن تلمّس بعض ما يدل على أصل العقيدة اليزيدية، وعمرها، في كتب الطائفة نفسها: إن وجود هذه الكتب لم يكن سراً، في أي وقت من الأوقات. لكن الحفاظ عليها، والعناية بها، أدى إلى أن تبقى أسماؤها مبهمة لمدة طويلة. ومن يجرؤ من أبناء الطائفة على إفشاء الأسماء لغير أبنائها يعاقب بالموت.

---

(1) في الأصل Mysticism ونحن موردون ترجمة هذه المفردة كما أقرها مجمع اللغة العربية في القاهرة. (المترجم).

ومن واجب كل يزيدي أيضاً أن يجعل ذهن السائل عنها مشوشاً مختلطاً عن طريق تلقينه معلومات مغلوطة.

كان الاعتقاد السائد خلال فترة طويلة من الزمن أن ما يسمى (مصحف رأش)، أي الكتاب الأسود، لم يكن إلا (القرآن) نفسه، وقد حذف منه كل ما يمس الشيطان بسوء.

وبالإضافة إلى الترجمات العربية العديدة لهذه الكتب اليزيدية المقدسة قام (الأب أنستاس ماري الكرملي) بإنماء معلوماتنا عنها. ذلك أنه استقى كثيراً من الفوائد من شاب يزيدي اسمه (حبيب) أراد أن يعتنق المسيحية فاشترط عليه (الأب) أن يثبت إخلاصه في رغبته هذه عن طريق الكشف عن أسرار عقيدته اليزيدية السابقة وما يحويه كل من (كتاب الجلوة) و(الكتاب الأسود)، فجاءه حبيب بما فيه الغَنَاء. واليزيدية نفسها لا يعرفون شيئاً عن مخبأ الكتب هذه، وهم لا يرونها إلا إبان المواسم الدينية الخاصة. ومخطوطا الكتابين المذكورين موضوعان في صندوق خشبي يحتفظ بمفاتيحه الثلاثة كل من: (المير)، و(الشيخ الأعظم) و(أمين خزانة كتب اليزيدية السرية) التي في سنجار. والصندوق مخبأ في كهف تم إغلاق بابه بالحجارة. ولن يسمح لأي يزيدي، عدا من يوكل إليه ذلك، أن يقرأ الكتابين. . . ولا تنس أن القراءة والكتابة محرَّمتان عليه أصلاً. وعلى الصندوق المذكور صورة طاووس، وهو رمز (طاووس ـ ملك)، وعلى يمينه الشمس وعلى يساره القمر، وفوقه إحدى النجوم، ولعلها (نجمة الصبح).

واستطاع الأب الكرملي أن يمحص ما جاءه به (حبيب) إثر زيارة شخصية قام بها في (سنجار)، ذلك أنه أغرى أمين خزانة كتب اليزيدية السرية بالمال الكثير وحمله على استنساخ ما في كتبها، فأتم (الأمين) ما أُغري عليه بظرف سنتين!! و(كتاب الجلوة) مدون على صفحات دقاق من رق الغزال، وعلى كل صفحة منه 16 سطراً، وكل صفحة منها مستقلة عن الأخرى ولا تحمل رقماً من أرقام التسلسل المعتادة. والصفحات تتخذ أشكالاً غير متقنة، وهي تمثل الهلال، والأرض، والشمس، والنهرين، أو رأس إنسان وله أذنان وقرنان، أو لهيب نار لها ثلاثة ألسنة، وما إلى ذلك. وفي أسفل كل صفحة

منه توجد الكلمة التي تبدأ بها الصفحة التالية. ويتألف (مصحف رأش) من لفيفة من رقوق الغزال فيها 152 سطراً من كلمات ضخام نوعاً ما.

والوثيقتان مكتوبتان بلهجة كردية شبيهة بلهجة اليزيدية اليوم، ولعلها أكثر منها إيغالاً في القدم، وهناك خصائص تمتاز بها، ولعلها اخترعت لتضمن لها السرية. ومما ساعد الأب الكرملي على فك رموز هذه الحروف واللهجة التي تنطبق بها ما حصل عليه من طبعات عربية لبعض كتب اليزيدية. لكن المخطوطات، بوجه عام، ما زالت لغزاً لم يفك سره بعد. وأكثر الكتابين قدسية لدى اليزيدية هو (كتاب الجلوة) ولكنهم لا يقرأونه إلا لماماً، والروحانيون منهم يكادون ينفردون بمطالعته. إن الكتاب هذا هو (البيان الأكبر) وهو الذي يفصح عن سطوة طاووس ـ ملك، وتتردد فيها لفظة (أنا) دوماً، ويطلب من اليزيدية أن يعبدوه، وهو يعد من يبجله بالثواب، ومن يزدريه بالعقاب.

وليست هناك مبادىء خلقية في الكتاب، أو كيف يجب أن يتصرف الإنسان بإزاء أخيه الإنسان، ما خلا الأمر الذي يطلب فيه إطاعة أوامر (وزرائه). ويعتقد الأب أنستاس الكرملي أن هذا هو أقدم الكتابين. إن فيه جميع مظاهر الوحدة، وما يدل على أنه كتب في مكان واحد، وزمان واحد، ومن كتاب شخص واحد. وكاتبه مشبع بالأفكار المانوية إلى حد كبير. وعلى النقيض من ذلك (مصحف رأش)، إنه مفكك الأوصال، وفيه تكرار كثير، كما أن فيه كثيراً من المتناقضات. ومن يقرأ فيه يجده أشبه ما يكون بسلسلة من المتواترات دوّنت، وكأن مدوّنها حاطب ليل. وفيه من المحرمات القبلية أيضاً ولقد أوردت لغير ما سبب معقول.

إن الأساطير العديدة الواردة في (مصحف رأش) والتي تدور حول خلق الإنسان جد مختلفة عما يتواتر على ألسنة أبناء الطائفة. وذكر المسيح والمحمديين فيهما يدل على أنه مدون بعد زمن محمد. والتناقض في ذلك يدعو إلى الدهش. ففي أحد المواضع ما يفيد أن الله قسّم اللؤلؤة التي هي أصل الكون بضربة قوية، وفي موضع آخر إن الملك فخر الدين هو الذي قسّمها بصرخته المدوية. وفي إحدى العبارات إن الله خلق السماوات كلها،

وفي عبارة أخرى إن جبرائيل هو الذي خلقها من أحد أجزاء اللؤلؤة الكبرى. وهناك عبارة تفيد أن أول الأرباب الستة الذين خلقوا هو الذي أقام قبة السماء! ومثل هذا أيضاً بصدد خلق الإنسان: فإلى فخر الدين يرجع خلقه، وذلك في أعقاب كسر اللؤلؤة، وعلى ما ورد في الصفحات الأولى من الكتاب. ثم إنك لتجد، في الصفحات التالية منه أن الله نفسه هو الذي خلق الإنسان من التراب والهواء والنار والماء، وقد جاء بها (جبرائيل) جميعاً.

ولكن ما الذي يستنبط من هذا الخليط... القصصي؟.

إننا نستنبط منه أن اليزيدية، قبل قرون من كتابة مصحف رأش، كانوا يعتقدون الكائن الأعلى، وإنه خلق من روحه الخاص 7 أرباب أو ملائكة، وإن أهمها شأناً هو ملك طاووس والمعروف أن له سطوة الشر، وإنه الذي يغري الناس على عصيان أوامر الله، وهو بذلك يشبه الشيطان في غوايته أما الثاني من هذه الأرواح السبعة فيمثل بالشمس، والثالث، بالقمر، والبقية تمثلها العناصر الأخرى.

إن الأرباب السبعة هم الذين خلقوا العالم المنظور، وهم الذين يسيطرون عليه، وإن أشدهم أيداً، وأكثرهم نشاطاً، هو ملك ـ طاووس. ألا يذكرنا هذا بالمعبد الزقوري الكبير «الصرح» الذي تقوم القرية اليزيدية اليوم على أرضه، والأبراج البابلية والآشورية التي أقامها بناتها تخليداً لآلهتهم، والطوق السبعة المنقوشة بمختلف الألوان والتي يهدى كل واحد منها إلى المتألقات المختلفة: الشمس، والقمر، والكواكب الخمسة.

إن العقيدة اليزيدية هذه كلها لا تعدو أن تكون مُتحفَة تضم الأساطير والمعتقدات وخزانة للأديان، ما بقي منها وما اندثر، وعلى سبيل المثال، إن قيام اليزيدية بذبح ثور أبيض في مرقد الشيخ عدي سنوياً وقرباناً إلى شمس الدين، أو الشمس، لا شك في أنه دليل على تمثيله بالإله ميثرا.

ولنرجع إلى (مصحف رأش) مرة أخرى: فالمحرمات فيه ممتعة حقاً. وبعضها يتعلق بحرمة الشيطان، والبعض الآخر، كتحريم اللون الأزرق، والذي هو حرز شائع في بلاد ما بين النهرين يقي من العين العائنة الشريرة،

يدل على أن اليزيدية، وهم الذين يدينون بالولاء لرب البشر، يتخذونه لهذا السبب أيضاً.

أما المحرمات الأخرى فلا تعدو أن تكون للمحافظة على الصحة، والاحتفالات، ومن أبرزها منع استعمال الحمام العام في هذه البلاد التي تشيع فيها الأمراض الجلدية.

وهناك كثير مما يمكن أن يقف عليه الإنسان من أمر اليزيدية، ولعل الإقامة في سنجار ومعرفة لهجة هذه الطائفة بالذات، وهو من الأهمية بمكان بالنسبة لدُرّاس المأثورات الشعبية (فوكلور)، ومن يسعى إلى إلقاء الضوء الكاشف على دين هذه البقعة السحيقة من العالم، وتأريخها. إن اليزيدية من أبرز سكان هذه البلاد، وهي بلاد تنطوي على معتقدات عريقة، وأصول منسية، لذلك فهي حرية دوماً بالدراسات المستأنية.

الفصل السادس

سكان البطائح[1]

تشغل البطائح، أو الأهوار[2] مساحة شاسعة واسعة من الأرض، لا يكاد النخل ينمى فيها أبداً، أما طرقها فمائية، كما أن دروب قراها مائية أيضاً. وينبت القصب فيها بكثرة.

إنها شبه صحراء مائية، وهي موطن الملايين من البعوض... فمن يصدق يا ترى أن الإنسان يختارها لسكناه؟! وواقع الحال أن كثيراً من القرى الآهلة تقوم في هذه البطائح بالذات. إنها تمتد من دجلة إلى الفرات، جنوبي بلاد ما بين النهرين. وساكنوها بشر لم يتح لهم النفوذ من حدودها، وهم، لذلك، كالطيور المائية لا تعرف عن اليابسة إلا قليلاً[3].

(1) تفضل الدكتور شاكر مصطفى سليم مشكوراً فعلق على هذا الفصل تعليقات قيمة، وله كتاب نفيس بعنوان (الجبايش) ـ دراسة أنثرويولوجية لقرية في الأهوار في جنوبي العراق بـ(جزأين) وبحوالي 500 صفحة، وطبع سنة 56/ 1957.
فليرجع إليه من أراد التوسع في هذا الموضوع. (المترجم).

(2) «أنا أفضل كثيراً كلمة (الأهوار) على (البطائح). فليس للكلمة الأخيرة على ما أعتقد وضوح مفهوم كلمة (الأهوار) رغم كثرة ورودها في الكتب التاريخية القديمة. كما أن كلمة (البطائح) لا تكاد تستعمل الآن في العراق لا في كتب الأدب ولا في كتب الجغرافيا».
تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

(3) «ربما صح هذا الحكم على الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى ولكنه بعيد عن الواقع في الفترة التي ألف فيها الكتاب (عام 1925) وهذا غلط فاحش بالقياس لواقع الأمر الآن. =

ولا تبنى بيوت البطائح من الطابوق، أو الحجر، أو حتى الطين. . . إنها مشيدة بالقصب، والقصب وحده. إن القصب يتلألأ كالعسجد والشمس تلقي عليه ضوءها الوهاج فتنعكس له صور على صفحة الماء الأزرق. وإذا ما أردت أن تتخذ سبيلك في مسالكها المائية فعليك أن تركب في أحد القوارب البدائية التي يستخدمها السكان في تنقلاتهم. إنه مطلى بالقار، وإنك لتجد الكثير منه في القنوات الملتوية بين مزارع الرز، ومنابت القصب.

في سكان البطائح شيء كثير من طباع الطيور المائية، إنهم مرحون، يستمتعون بالنكتة، ويكلفون بالضحك، ويولعون بالغناء. إن موطنهم: اليابسة والماء على حد سواء. وما أن يدرج الصبي إلا وتجده سابحاً في الماء، والرجال إبان نهار الصيف يقضون جل وقتهم فيه أيضاً. وفي الشتاء لا تجد عليهم إلا القليل من اللباس. أما الأطفال في القرى فهم عرايا وحفاة دوماً. ومن ينشأ على مثل هذه الحال لا بد أن يكون سليم البدن صلب العود، لذا تندر فيهم أمراض العيون، ولا تجد من أصيب بعاهة في أطرافه، وعلى غرار ما تجده في المدن الكبرى. والشائع أن أخلاق هؤلاء الناس متردية، ولو تأملنا طبيعة سكنهم، وهذا الجوار المتلاصق، وطبيعة أولاعهم المحدودة ما استغربنا وجود شيء من التعقيد في تصرفاتهم الخلقية.

* * *

= فلقد بدأ سكان الأهوار يتصلون بالعالم الخارجي وبالحضارة ممثلة في حياة المدن القريبة من منطقتهم بعد الحرب العالمية الأولى وبصورة شديدة منذ بدء الحكم الوطني في العراق. وكما دخلت المدرسة والمستشفى والإدارة المدنية وحتى السيارة إلى أهوارهم وقراهم فقد خرجوا هم منها إلى المدن والمدارس وحتى إلى العاصمة بغداد. بل لقد حدثت هجرات واسعة تحت ضغط عوامل دافعة قوية من الأهوار وعوامل جاذبة شديدة من المدن أدت إلى أزمات ذات آثار واضحة في المنطقة التي هاجروا منها وفي تلك التي هاجروا إليها.

أما الآن فالاتصال شديد ومستمر والهجرة إلى المدن واسعة شاملة بل هي أدت إلى الأزمات الاقتصادية والاجتماعية الحادة التي تعانيها البلاد».

تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

وفي فجر يوم من أيام آذار تركت العمارة صحبة ضابط يقوم بجولة تفتيشية في منطقة البطائح وكانت معنا إحدى صديقاتي المولعات بالصيد. ومخر بنا القارب البخاري في نهر دجلة، ومضت سويعات قبل أن ندخل المنطقة بالذات. وكنا نشاهد أن طراز البيت أخذ يتغير تدريجياً، ذلك أن بيوت الآجر أصبحت متداخلة مع أكواخ الحصر، ثم أصبحنا لا نرى إلا بيوت القصب حصراً.

وفي العاشر صباحاً وصلنا إلى أول موضع نحل فيه: إنها قرية كبيرة تعود إلى الشيخ حمود شقيق الشيخ مجيد الخليفة، ووكيله في استنبات إحدى المقاطعات.

يزرع الرز في منطقة الأهوار بكميات كبيرة. وتعطي الحكومة، ولها رقبة الأرض في المنطقة، مساحات شاسعة منها إلى الشيوخ المحليين بقصد زرعها. ومدة التصرف في هذه الأراضي حوالي الـ 5 سنوات، والحكومة تحتفظ حالياً بحق معاودة النظر في أجر الأرض وزيادته بعد 3 سنوات، إن كان هناك ما يبرر ذلك.

ولقد تمت فعلاً زيادة أجرة الأرض التي يستنبتها الشيخ مجيد من 5 إلى 6 الكاك الروبيات سنوياً، واستطاع هذا أن يدفع المبلغ الضخم من أرباحه الزراعية[1]. وينتمي الشيخ مجيد الخليفة إلى عشيرة محلية (ألبو محمد)،

---

(1) بعد أن تمّ للجيش البريطاني احتلال العراق سنة 1918 رغبت القيادة العامة في المحافظة على مصالح الإدارة البريطانية العسكرية، وحفظ مؤخرة الجيش فسنت نظاماً خاصاً لإدارة المناطق العشائرية قيل فيه إنه مستمد من نظام الحكم الذي أنشأه وطبقه في بلوجستان سر روبرت ساندمان الذي يوصف بأنه إداري استعماري كبير. فالإدارة البريطانية أرادت تعزيز النظام العشائري فأناطت بشيوخ العشائر مسؤولية المحافظة على الأمن، والقبض على المجرمين وحماية طرق المواصلات، وجمع الضرائب وزودتهم بالهبات والسلاح وفوضت لهم الأراضي التي كانت تتصرف بها العشائر، مما أدى إلى حرمان كافة أفراد العشيرة. . . لذلك فلا غرو أن يطلب عدد غير قليل من العشائر، وخاصة رؤساء العشائر في العمارة استمرار وضع الاحتلال ونجدهم يتفانون في إظهار الولاء في مختلف المناسبات للبريطانيين. (المترجم).

ويجري اختيار كبار المُقْطِعين Feudal Lords من بين شيوخ المنطقة الأثرياء، فهم يعرفون السكان والأراضي التي يزرعونها وأساليب الزراعة التقليدية.

وما أن قاربنا القرية ونحن نمخر في شط العدل إلا وبدأ المطر ينهمر مدراراً... إنني، إن نسيت، فلن أنسى بيوت القرية يساقط عليها المطر.. إن أكواخها على نوعين: فهناك بيوت بسيطة شيدت من القصب فقط وقد تكون واسعة أحياناً، وذات أطواق ضخمة، ولكنها دوماً تشبه أعشاش الطير. ومضيف الشيخ مبني من القصب أيضاً وهو واسع جداً، وقد يضاهي في سعته ما لدينا من مخازن الحبوب والكنائس. أما النوع الآخر فهو النوع المعروف بـ(الصريفة) وليس فيها من الأعمدة أو الطوق شيء، إنها تتألف من أربعة جوانب مربعة وسقف بارز، وفي الوسط عمود من القصب هو دعامة الكوخ[1]. وأرض الأكواخ هذه مفروشة بالحلفاء والقصب أيضاً. وتحفر على جوانبها أخاديد وسدود، ولا ترتفع السدود عن مستوى الماء إلا ببضع بوصات. وكان الموسم إبان زيارتنا موسم الفيضان، وكلما ارتفع الماء رفعوا من مستوى سدودهم بإضافة حفنات من التراب تكفي لوقاية البيوت من خطر المياه، وباعتبار أن ضغطها يسير.

وتساكن (أهل الأهوار) دواجنهم وأنعامهم وأبقارهم وجواميسهم، وفي كل بيت كلب «يطرد الطراق عنه»، وأنت تشاهد الأطفال وهم عراة يحدقون في وجوه الغرباء العابرين، كما أن الكلاب تنبح في وجوه هؤلاء بصوتها الأجشّ. ويختزن أهل الأهوار الرز في مخزن طيني واسع، وهم يكسون فتحة المخزن بالطين أيضاً، وقاية لما فيه. وكلما تقادم الزمن على الرز الخزين، كان أجود. وقد يعمد أهل الأهوار إلى إخراجه بين الفينة والفينة وغربلته. ولا يزرع أهل الأهوار الخضر، وهم يأكلون الرز

(1) «هذا وصف مبني على المشاهدة الخارجية والخيال فالصريفة مستطيلة دائماً وليست مربعة ولا تشاد على عمود وسطي من القصب، بل تبنى على أعمدة أربعة تغرز في زواياها الأربع ويستند سقفها على جسر يمتد من (الكوسر) وهو أحد الضلعين القصيرين فيها إلى (الكوسر) المقابل وقد يكون هذا الجسر حزمة من القصب أو عموداً من «الخشب».
تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

بدلاً من الخبز[1]. وقد يصيبون مع الرز شيئاً من اللحم والسمك والخضر من أنواع القصب[2] أيضاً. وتقتات الأبقار على القصب أيضاً[3]، ذلك أن العشب قليل، وسطح اليابسة محدود. كما أنهم يتخذون من القصب وقوداً، ويبنون به الجسور والأكواخ، ويصنعون منه الحصران والقوارب[4].

وتركنا القارب. . . واستقبلنا الشيخ حمود الذي قادنا إلى مضافة مبنية

---

(1) «هذا حكم عجيب. فسكان الأهوار يأكلون الخبز والرز إن كانوا موسرين ولا يكادون يجدون طعاماً غير خبز الذرة إن كانوا معدمين. ولا يستعمل الرز في الأهوار كلها إلا في طعام وجبة المساء».
تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

(2) «لا يعرف سكان الأهوار اللحم طعاماً مطلقاً. وربما أطلقت المؤلفة حكمها قياساً على موائد الشيوخ الأثرياء الذين نزلت في بيوتهم، وقد تمر سنون على ابن الهور دون أن يذوق اللحم. أما (الخضر من أنواع القصب) فلا وجود لها فيما أعرف في الأهوار الشيء الوحيد الذي يقرب مما تدعيه المؤلفة هو ولع الأطفال بأكل كعوب القصب الأخضر الطري حين يعضهم الجوع وهم وسط الأهوار أثناء رعي الجاموس أو جمع القصب، وقد يأكلون في حالات نادرة بعض الحشائش البرية التي تنبت على سطح ماء الأهوار وكلها يشبه ما يسمى في العراق بالـ(خبيز)»!!
تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

(3) «لا تأكل الأبقار القصب مطلقاً بل تأكل (الحشيش) قبل أن يكبر وييبس فيصبح (قصباً). وقد يأكل الجاموس عندما يندر (الحشيش) القصب اليافع الأخضر الطري فقط».
تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

(4) «لقد وقع كثير من الأجانب الذين كتبوا عن الأهوار في نفس الغلطة التي وقعت فيها المؤلفة، وهي ادعاء أن القوارب تصنع من القصب. فالمؤكد أن ليس في أهوار العراق كلها قارب واحد مصنوع من القصب. صحيح أن (الشوش)، جمع (شاشة)، وهي حزم مربوطة جنب بعضها البعض على شكل لوح مستطيل من القصب، ويستخدم للعبور ولتنقل الأولاد إلى أماكن قريبة ولا تحمل أثقالاً ولا متاعاً، تصنع من القصب، ولكنها ليست بالقارب ولا هي مطلية بالقار. ولقد استقصيت هذه الحقيقة الغريبة إبان إقامتي الطويلة في الأهوار ودراستي لها فما وجدت أحد سمع حتى مجرد سماع باستعمال القصب في صنع القوارب في السنين الخاليات بقدر ما تمتد له ذكرى أهل الأهوار. ويقيني أن مصدر هذه الغلطة هو الربط الاستنتاجي بين حقيقة وفرة القصب وحقيقة كثرة استعمال القوارب».
تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

بالآجر، وهي حقاً من ترف منطقة الأهوار! وكانت المضافة مفروشة بالسجاد، وفيها وسائد اتخذناها متكأ. . وطال انتظارنا للغداء الذي كان يجري إعداده، ذلك أن الشيخ لم يأمل وصولنا في مثل ذلك اليوم المطير.

وسئمنا احتساء القهوة، والشاي، والحديث فقمنا نتجول ونشاهد ما نستطيع: رأينا أولاً مضيف الشيخ الكبير، وهو على مقربة من المضافة التي حللنا فيها. وعندما دخلناه من بابه الصغير المربع وجدنا أنفسنا في قاعة واسعة معتمة، وشاهدنا الحزم القصبية التي تكوّن أطواق البيت فوق رؤوسنا ولم يكن فيه شيء من الأثاث فيما خلا الحصران، وقد فرشت عليها البسط. وتجري تهوية المضيف بواسطة فتحات سفلية مزخرفة. وفي المضيف جلس قهواتي الشيخ وأمامه عدد كبير من دلّات «القهوة» وبينها كبيرة الدلال، وما فيها من القهوة يكفي لوحدة عسكرية كاملة! وكان الهاون الذي تطحن فيه القهوة كبيراً أيضاً. وبكلمة من الشيخ أصبحنا نستمع إلى نقرات تنبعث من هذا الهاون، والقهواتي يطحن فيه!! ولعله كان يعنى بالنقرات الموسيقية هذه قدر عنايته بإعداد القهوة للضيوف. . . ذلك أنه كان يضرب جوانب الهاون أربع أو خمس مرات بينما كان يضرب قعره ليطحن القهوة مرة واحدة!. وقال الشيخ: «إن سمع الناس هذا بادروا بالمجيء إلينا لاحتساء القهوة!». . . حقاً، إن نقرات الهاون هذا تسمع من بعيد! إن الأريحية[1] طبع أصيل في العرب، والشيخ يقري عدداً كبيراً من الناس يومياً. وكان عدد الزوار في المضيف في ذلك اليوم بالذات حوالي الـ 20، وعندما دخلناه هبوا جميعاً واقفين بكل أدب واحترام، وبقوا على مثل هذه الحال طيلة مكوثنا فيه. وكان الشيخ نفسه يقوم على خدمتنا في بيت الآجر، واعتذر عن عدم تناول الطعام معنا بسبب ذلك. ولقد فرشوا قماشاً على الأرض ثم بدأوا بجلب الصحون تباعاً، وتناولنا ما فيها من الطعام كالدجاج ولحم الخراف الصغار والرز، الذي كدّس كالرواسي العاليات، والحلويات مرة واحدة. ولم يكن هناك شيء من الشوكات أو السكاكين، بطبيعة الحال: ذلك أننا تناولنا طعامنا على الطريقة العربية الصرفة: بالأصابع! ولم أستطع شخصياً

(1) والأريحي: الذي يرتاح للندى. (المترجم).

أن أجعل من الرز كرة في راحة اليد أولاً، ثم أدفع الكرة هذه إلى فمي بالإبهام، وعلى ما يصنعون، بكل مهارة!!.

وكدليل على تكريم الضيف العزيز يؤتى بصحن فيه حمل مشوي كامل، وبالتوّ يقوم المضيف بقلع عينيه ووضعهما في صحن أمام هذا الضيف ليصيب منهما فهي أكلة مفضلة لديهم لا يجدر بالمرء أن يرفضها أبداً. ثم يؤتى بعد الطعام بإبريق وصحن ومناشف يدوية ويبدأ الضيوف، حسب أهميتهم بغسل أيديهم ويكون المضيِّفون في المؤخرة. ثم يهرع الأتباع بعد ذلك ليجلسوا إلى مائدة الطعام ويجهزوا على خُشَارتها[1]!!.

وكان علينا أن نقطع مسافات شاسعة أخرى من رحلتنا هذه لذلك بادرنا إلى توديع الشيخ إثر تناول الطعام وركبنا (المشاحيف) التي كانت بانتظارنا. إن هذه القوارب غريبة الشكل، فهي طويلة، ضيقة وليست بذات غور بعيد. وقد يخيل إليك بادىء الرأي أنها قد تنقلب رأساً على عقب لأقل حركة، لكنها في الحق أمينة. ووضع مضيفنا فيها البسط والوسائد ضماناً لراحتنا، كما أنه خصص 3 من الرجال لكل واحد منها. إن كل واحد منهم يمثل سكان الأهوار أصح تمثيل، وآسف لأنني لم أستطع أن أصوّر واحداً منهم بالذات. كانت لحية الرجل مربعة الشكل وبارزة، وأنفه أعقف، وكانت معالم وجهه واضحة... فإن نظرت إليه خلته أحد الآشوريين وقد خرج لساعته من المتحفة[2] البريطانية!. أما ثيابهم فقصيرة لا تكاد تصل ركبتي أرجلهم

---

(1) الخشارة (والخشار): فضالة المائدة.

(2) إن الهياكل البشرية في أريدو السومرية (الموقع الأثري المعروف الآن بتل «أبو شهرين» في جنوب غربي أور) ـ ومنها نموذج معروض في المتحفة العراقية ـ أثبتت نتيجة دراسة الأستاذ كارلتون كون الاختصاصي الأمريكي أن سكان هذه المدينة من بداية الألف الرابع قبل الميلاد لم يكونوا يختلفون في شيء ملحوظ عن أهل العراق الجنوبي في الزمن الحاضر، كما توصل إلى ما يشابه ذلك سر أثر كيث الذي درس الهياكل العظيمة المكتشفة في المقبرة الملكية في (أور) من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. (المترجم).
«أنا لا اتفق وهذا الرأي مطلقاً. فجملة المؤلفة تعطي انطباعاً بأن كافة سكان الأهوار يشبهون في ملامحهم البشرية السومريين وهي إشارة إلى أنهم نسلهم المباشر النقي.
ولقد أوضحت رأيي في أصل سكان الأهوار من الناحية الأنثروبولوجية الطبيعية في =

النحاسية، وعضلاتها ضخمة. أما مهارتهم في دفع المشاحيف القلقة فتبعث الدهش والإعجاب، إذ مهما كانت القناة المائية ضيقة، أو ملتوية، فلن يصطدم المشحوف بالضفة أبداً. إن المشاحيف تجري ذات اليمين وذات الشمال وتوجهها في ذلك (المرادي) التي بأيديهم. وسرنا أولاً في المسالك المائية الواسعة خلال قرية الشيخ حمود ثم صرنا إلى إحدى البطائح الواسعة التي كونتها مياه الفيضان. وكنا نمر تارة بقرية، وتارة بإحدى البطائح. واضطر رجال (المشاحيف) إلى سحبها لأنها استوت في إحدى المرات فوق (الفكّة) وهي حاجز مبني من القصب والطين يقوم بتحويل ماء الطمي من إحدى الأراضي الزراعية العائدة للشيخ إلى مزارع الرز الأخرى العائدة له. وعلى الرغم من وجود قرى مبنية بالقصب في هذه المنطقة إلا أننا لم ندخل منطقة القصب الحقيقية بالذات ذلك أن نبات القصب والبردى اللذين مررنا خلالهما لم يكن ليزيد على ما نعهده في أنهر بلادنا. وكنا نمر بمناطق تزرع الرز، إنه أخضر الآن ولكنه سيصبح فيما بعد صلباً متلألىء وتكمن فيه ثروة السنة القابلة. وكان رجال المشاحيف أعلم الناس بمجاري المياه العميقة، وكنا أحياناً نصطدم باليابسة لهنيهة من الزمن، فسرعان ما كانوا يخوضون في الماء ويدفعون المشاحيف. . . أما في المياه العميقة فقد كانوا يستعملون «الغرافات». وكان هؤلاء الرجال في غناء وضحك دائمين ويداعبون بعضهم بعضاً دوماً. وإذا ما تعثر أحدهم في عمل له ضحك منه الآخرون كثيراً. وكنا نمرّ بكثير من المشاحيف المتنقلة، منها ما هو مشحون بعلف القصب، ومنها ما لا يعدو أن يكون دكاناً مائياً تكدست فيه الأقمشة القطنية وما إلى ذلك وهو يمضي من قرية إلى أخرى. وكنا نمرّ بين الفينة والفينة بإحدى مقابر القرى، ويبني سكان الأهوار مقابرهم من طين، وقد تضم بعضها جثثاً عديدة إنها تشبه

= الفصل الأول من الجزء الأول من كتابي الجبايش وخلاصته أن الصفات البشرية لسكان الأهوار حصيلة تفاعل طويل معقد بين بقايا سكان العراق الأصليين، السومريين وغيرهم، وموجات هبطت المنطقة من الهضبة الإيرانية وموجات أخرى سكنتها قادمة من الجزيرة العربية».

تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

مصغر مساكن الأحياء، فيما خلا أن الأولى من الطين والثانية من القصب. إن بيوت القصب تشبه أيضاً خيام البوادي شكلاً. ورأينا إحدى الرايات ترفرف فوق أحد الأكواخ وعلمنا من رجال (المشاحيف) أن ذلك يدل على حدوث وفاة فيه[1].

ووصلنا إحدى القرى وقد لفّنا الليل بشملته: هذه أكواخها العديدة، والشفق يطل خلالها على صفحة الماء، وهذه شوارعها ودروبها المائية، وعندما نزلنا إلى اليابسة حيث يقوم بيت مضيفنا الجديد شعرنا بآثار مياه الفيضان التي انزاحت عنها، إنها مقاطعة لشيخ آخر يدعى (شواي الفهد) ومن عشيرة الأزيرج. ولهذا مضافة مبنية بالآجر أيضاً، ومضيف من القصب أيضاً، وفيه جلسنا نتحدث لساعات طوال. يلازم الشيخ حمود الصمت الطويل، أما الشيخ شواي فيمتاز بمرح النفس وسهولة الطبع. وجلسنا مع حاشية الشيخ الأخير على أرض المضيف نتكلم ونشرب الشاي والقهوة، وكان أكثرنا كلاماً (الملّا) التابع للشيخ. ذلك أن لكل شيخ من شيوخ الصحراء أو البطائح (ملاّ) خاصاً به. إنه على شيء من التعليم، وبذلك يستطيع معاونته في كتابة رسائله. ويشير عليه بما يتعلق بالقانون، وعلى وجه أخص بما يتصل بمعاملات الشيخ مع أهل المدن الماكرين. وملا الشيخ شواي من طراز الرجال الذين يمتازون بحلاوة اللسان والاطلاع الواسع والأدب الجم والدهاء. أعلمني أحد الإنكليز أنه كان يتصل بالملا أولاً قبل إجراء أية معاملة مع شيخه. وتحدثنا طويلاً، وتناول حديثنا كثيراً من الشؤون ومنها ما اتصل بقضية حساسة: الاختلاف بين

---

(1) ترفع الراية فوق (المضايف) والبيوت في منطقة الأهوار في حالات ثلاث فقط، الأولى عند إقامة مجلس فاتحة على روح رئيس أو شخص بارز وفي هذه الحالة لا ترفع الراية إلا على المضيف حيث يقام مجلس الفاتحة وتكون الراية عادة راية العشيرة الحربية التي تستعملها في المعارك وهي كبيرة وقد تكون من أي لون من الألوان وقد تحوي زخارف ونقوشاً. والحالة الثانية حين تطلب امرأة مراداً من أحد الأئمة. وخاصة من الإمام العباس ولا تكون الراية عندئذٍ إلا بيضاء. والحالة الثالثة حين نستعمل الراية كلافتة تشير إلى دكان، إذ يرفع أصحاب الدكاكين رايات بيضاء صغيرة فوق دكاكينهم لتدل المستطرقين عليهم.
تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

الديانتين الإسلامية والمسيحية. وكان الملا لبقاً جداً في الحديث حيث اختتم بأن الفروق العقائدية بين البروتستانية الإنكليزية والشيعة تكاد أن تكون معدومة وتافهة! واستأذنت لأقوم بزيارة حريم الشيخ، وبعد أن مضى وقت قصير، أخبرنا بأن السيدات على استعداد لمقابلتنا. وفي غرفة من الآجر، شبيهة بالغرفة التي كنا فيها استقبلتنا 5 أو 6 نساء... لكن الغرفة هذه أكبر من الأولى وقد تناثرت فيها الوسائد الحريرية وفرشت بالسجاجيد، وفي أحد أركانها أريكة عالية عليها فراش كثير، وأعدت لجلوس سيدات البيت وضيفاتهنّ. ولو لم نكن قد اصطحبنا فراشاً لكان أجود هذه الفرش في متناول أيدينا، ولكان فراشنا من الحرير وأغطيته من الدمقس ووسائده مطرزة... وكأننا العرائس في ذلك البيت.

وجلسنا على مقربة من السيدة المتعالية المتقدمة على البقية من نساء الدار[1] ودار حديثنا حول موضوعات تقليدية عدّة: عن سفرتنا، والجو، والصحة، وحدث ما لم يكن بالحسبان عندما أبدينا الإعجاب بالقلادة اللطيفة التي تتقلدها السيدة المضيفة فالسيدات جميعاً أخذن في عرض ما لديهن من الحلي والمجوهرات: من معاضد ضخمة، وقلادات من ذهب وفضة، وما إلى ذلك. وتغطية لما نحن عليه من واقع، شرحنا للسيدات أن رجالنا يكرموننا أيضاً بهدايا في بعض الأحوال، لكننا لا نلبس المجوهرات في أسفارنا، وأن ما لدينا منها في بلادنا جد قليل.

وسُرت النسوة بما أبديته من اهتمام بوشم أذرعهن، وسرعان ما نزعن ثيابهنّ ورفعن أرديتهنّ لكي يبدين ما يخفين من زينتهن بهذا الوشم الشامل لأجسامهن، ومن الركبتين فصاعداً. ذلك أن حسناوات البطائح متخصصات بوشم حضورهنّ الضوامر. وحاولت أن أقف على ما بين النسوة من صلات لكن الأمر كان على شيء من الدقة، فلم أوفق إليه، ولكنني علمت أن السيدة

(1) إن تعددت نساء الشيخ فهناك دوماً الزوجة المتنفذة المسيطرة الأولى في بيته، وتدعى هذه (أم البيت) أو (العزيزة) وهي في الغالب أولى أزواجه وقد تكون أجملهن، أو أصغرهن سناً، على وفق مشيئة الشيخ ذاته. (المترجم).

التي كانت تدير الحديث هي زوجة الشيخ شواي الأولى، وأن الشاب الذي قادنا إلى بيت الحريم هو ابنها.

وبعد أن تناولنا وجبة دسمة أخرى من الأكل، أعدت لنا، في كوخ كبير قريب، الأفرشة وتركتنا المضيفات لنخلد إلى النوم. وكان من المقرر أن نبكر في السفر، ذلك أن (الملّا) تعهد بأن يرينا قرية قصب حقيقية، أي غير القرية التي تبنى على الأرض اليابسة، فهي ـ على ما يقال: «في بطن الماء» ومن ثم نقفل منها راجعين إلى الشيخ حمود، مارين بالبطائح. واحتسينا أقداح الشاي، والصباح غض ندي، وتأهبنا للسفر... وتجمعت النسوة والرجال وهم يتطلعون إلى وجوهنا، كما رأيناهم منهمكين في قضاء أعمالهم الصباحية من طحن دقيق الرز، وغزل، ورعي الماشية. وقد تصادف من بين الرجال، لا النساء، من له ملامح دقيقة بارزة... ولكن ذلك في النادر القليل.

ها نحن الآن في أرض القصب الواسعة، إن سيقانه قوية عالية... وقد تقل في بعض أرجائها، وقد تتكاثف في أرجاء أخرى. وقد تتناهى إليك أصوات تنبعث من بين تلك السيقان فتعرف أن الناس منك على مقربة، وإن اختفوا بينها. وأعلمني أحد الإنكليز الذين عاشوا في الأهوار خلال الشطر الأول من الحرب أنه كان في إحدى المرات يتخذ سبيله بين أعواد القصب في أحد المشاحيف، فسمع على فوت[1] صوت امرأة ينبعث من تلك الأجمة الخضراء، وهي تسأل:

ـ « ما هو اتجاه الريح اليوم؟» فرد عليها أحدهم ـ «الريح اليوم شمالية» ـ وكان تعقيب المرأة على ذلك: ـ الحمد لله!.

واحتار الإنكليزي في الأمر، فهو يعلم أن المرأة تستعمل الألغاز في كلامها، فالعربي لا يحتاج أن يسأل غيره عن اتجاه الريح. فقال لصاحبه، وهو يحاوره: ماذا تعني المرأة؟ فأجابه هذا: «إنها تسأل عمن له الغلبة في الحرب، الأتراك أم الإنكليز، فأجبتها: الإنكليز».

---

(1) على فوت: على بعد.

وفي الصيف يصبح ماء البطائح الضحل حاراً، فإن أردت ماء للشرب فما عليك إلا أن تدخل الجرة إلى أعمق نقطة فيه، وعندئذٍ تحصل على ماء بارد عذب سائغ شرابه. ويسمى هذا الماء بـ«ماء العروس».

ومن الأمور التي جئنا للاطلاع عليها رسمياً حالة الحدود. إنها تتراءى من مبعدة، وقد تمَّ وضع علامات عليها، وبهذا ختمت سلسلة مشاحنات طويلة بين شيوخ المنطقة. إنها مخروطية الشكل، وطينية، أقيمت في وسط الماء وقد دق عمود طويل في مركز كل منها. ولقد رأينا اثنين منها، ثم رأيناهما بعد أكثر من 6 أشهر فكانا على حالهما كما تركناهما أول مرة. وارتفع صوت الملّا عالياً يمجد الأجنبي الذي استطاع بحكمة سليمان فض مثل هذه المعضلة الصعبة. ولقد وجدنا هذا (الملّا) واسع الاطلاع ونحن نوغل في سفرنا. فلقد سمّى لنا الدغل المائي الذي يشبه ورقة الأقحوان المائي وهو يطوف على سطح الماء ـ (كعابو)[1] على ما أعتقد، ثم أعلمنا أن مسحوق هذا الدغل يشفي عُوّار[2] الماشية.

وفي حوالي الظهر وصلنا القرية التي وعدنا بها (الملّا)، إنها حقاً في «بطن الماء» إذ لم يكن هناك من اليابسة شيء. وكل بيت قصبي مبني على بساط قصبي أيضاً، وهو يرتكز إلى أساس من الأكداس القصبية الغاطسة في الطين[3]. فإن ارتفع الماء قام أهل البيت بتكديس بسط أخرى، وهي لا ترتفع

---

(1) الصحيح (كعيبة) وليس (كعابو) وهو نبات مائي بري كثير الوجود في الأهوار وكثيراً ما يكون كثيف السيقان والجذور تحت سطح الماء لدرجة يعرقل معها سير القوارب خاصة في المجاري المائية الضيقة.
تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

(2) عوار: كل ما أعل العين.

(3) «معنى النص الإنكليزي حرفياً (وكان كل كوخ قصبي مبنياً على حصر كدس بعضها على بعض وتستند من الأسفل إلى أعمدة مغروزة في الطين). ويخيل إلي أن (المترجم الفاضل) تعمد التستر على خطأ المؤلفة فترجم النص بتصرف أخفى به الكثير من فشل المؤلفة في فهم واقع الأمر. والصحيح أن أكواخ الأهوار تبنى على (جبايش)، جمع (جباشة)، وهي جزيرة اصطناعية صغيرة تتكون من تكديس طبقات من القصب والبردي، والتراب في حالات نادرة، يعلى سطحها كل عام في موسم الفيضان بإضافة =

عن سطح الماء بأكثر من بوصة. وإن أراد المرء أن ينتقل من بيت إلى آخر فعليه أن يستخدم (المشحوف)، وقد تجد بين الفينة والفينة قنطرة من القصب أيضاً. وتساكن أهل هذه الأكواخ الدواجن والجاموس لذا تنبعث منها روائح كريهة، وقد تكون مسرحاً للجرذان على ما يخيل لي. وبناء على دعوة رئيس هذه القرية وقف المشحوف الذي يقلّنا قرب مضيفه. هذه نار موقدة في داخله وبقربها «دلال» القهوة: أما الفناجين فقليلة، وعندما يحتسي المرء القهوة في حسوة عاجلة ورشفة خاطفة يسلّم الفنجان إلى جاره وهكذا تمر الفناجين من يد إلى أخرى دائرة على القوم[1]. وما لم يجرؤ المرء على الاعتذار فلا معدى له تأدباً من أن يحتسي القهوة معهم على هذه الشاكلة[2].

ولم نر على رجال القرية إلا القليل من اللباس، أما الأطفال فقد كانوا عراة حفاة. إنهم أطفال الماء فما أن يشب الواحد منهم عن الطوق إلا ويتعلم دفع المشحوف بـ(المردي)، وهم كما رأيناهم على أتم ما يكون من الصحة وصلابة العود، وإن كانوا على شيء من القذارة. كان حشد من الناس، رجالاً ونساء، ينشط إلى قطع القصب، ذلك أن في مقدمة ما يقوم به سكان البطائح من عمل هو صنع (البواري)[3]. إنهم يحتذون في ذلك حذو آبائهم الأولين. ومنهم من يقطع القصب لعلف الحيوان. ومنهم من يلتقط (البردى) لكي تشد

= طبقات جديدة من القصب والبردي ولا تستعمل فيها الحصر مطلقاً كما أنها تتصل بقعر الماء مباشرة ولا يمكن أن تشاد على أعمدة من قصب».
تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

(1) «هذا خيال غريب. فتقاليد شرب القهوة معروفة ثابتة لدى البدو وسكان الريف والأهوار على حد سواء. فالذي يدير القهوة يسلم الفنجان للشارب فيعيده الأخير للأول بعد أن يشرب ما فيه فإذا ما ارتوى الشارب أو إذا ما صل قدم الساقي للشارب عدداً معيناً من الفناجين، وهو عادة ثلاثة، يمر الساقي منه إلى شارب آخر. ولم يعرف قط أن أديرت القهوة بالطريقة التي تخيلتها المؤلفة لا في الأهوار ولا في البوادي».
تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

(2) الشاكلة: الطريقة، أو الجديلة.

(3) البارية، أو البورية فارسية لا تحتمل شكاً، ومعناها الأصلي نوع من القصب تتخذ منه الحصران والبواري، وهي تضفر ضفراً أو تجدل جدلاً. (المترجم).

به الحزم الضخمة المتخذة أطواقاً للبيوت. وهم من أشد الناس كلفاً بأكل السمك، ولقد رأيت رمحاً ذا ثلاثة رؤوس مما يستخدم في صيده مرمياً في أحد جوانب المضافة. وهم يستعملون الشباك والخيوط في صيد الأسماك أيضاً، وقد يستخدمون مخدراً يرمى في الأهوار فما أن يصيب السمك منه إلا وتراه يطفو ميتاً فوق سطحه[1].

ورأى رئيس القرية أن يصحبنا في بقية السفرة، لذلك دخل مشحوفه ومعه بضعة من رجاله، وابنه، والمشحوفي الخاص به. وكان مشحوف الرئيس هذا يجري على مقربة من مشحوفنا، فالسبيل المائي ضيق. وبينا نحن نجري في اليم إذ طرقت سمعي كلمة (حميرة) ـ وهي بلغتهم الحمارة الصغيرة ـ كما أنها تدل على السعال الديكي، ولعلهم وجدوا في سعلته ما يشبه نهيق الحمار، فأطلقوا عليه ذلك الاسم.

وما إن رأيت الطفل منكمشاً في حضن أبيه إلا وسألت إن كان حقاً قد أصيب بهذا المرض، فأجابوني بالنفي وأضافوا أن اسمه الحقيقي هو (حميرة) فعندما كان صغيراً أصيب بهذا السعال وعرف به فبقي اسمه علماً عليه.

وهنا تذكرت أن عرب الأهوار يولعون بتسمية أطفالهم بأسماء غريبة، ما أنزل الله بها من سلطان، وهم يعتقدون أن هذا النوع من التسمية حرز حريز يعمي العين الحاسدة الشريرة ويقي أطفالهم... وإلا فهل من قوة شريرة تستطيع أن تصيب من يسمى (حصبة) بشرّ؟!! إنها ولا شك «تبتسم» من هذا الاسم وتمرّ بصاحبه مرّ الكرام!

وقفلنا راجعين إلى (بيت حمود) ثم بالفلك البخاري إلى العمارة...

إن كل الذي شهدناه، ومتعنا به، ستبقى ذكراه عالقة بالذهن أبد الدهر. لقد عاش سكان البطائح السنين الطوال على هذا المنوال. لا يعنيهم من أمر

---

(1) «يسمى الرمح (الفالة) ويكون ذا ثلاثة أو خمسة أسنان ويستعمل أداة لصيد السمك كما يستعمل عند الحاجة سلاحاً لقتل الإنسان. والمادة المستعملة كمخدر في صيد السمك تسمى (الزهر)».

تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

الدين شيء (كذا!)، وإن كانوا على المذهب الشيعي. وليست هناك مساجد في قراهم، وقد يؤمهم (الملّا) في صلاتهم، كما قد نجد هنا أو هناك من زار (العتبات المقدسة) فهو (زائر) تفريقاً عمن زار (مكة) وهو (الحاج). إنهم لا يلتزمون بشعائر الدين إلا قليلاً. والتعليم يكاد يكون مفقوداً بين ظهرانيهم.

إنهم كطيور الماء، وسيبقون كذلك، على الراجح، أبد الدهر.

الفصل السابع

السحر في بلاد الرافدين

يزعم البعض أن بلاد الرافدين هي مهد السحر، وتسخير الأرواح الشريرة، وما يتصل بذلك كله من تعاويذ، ورموز، وترنيمات، فطبيعي أن تزخر بثروة تليدة من (مأثورات العامة)[1] وأساطير الأولين[2].

(1) آثرناها ترجمة لـ(فولكلور Folklore) وهي تدل على ما يرسم (البيئة الفكرية) للعامة من آدابهم، ومعلوماتهم، وأساطيرهم، وأغانيهم، وأمثالهم، وألعابهم، وعاداتهم، وأخلاقهم وإلى ما جرى هذا المجرى. (المترجم).

(2) ليس صحيحاً ما يزعم البعض من أن بلاد الرافدين هي مهد السحر وتسخير الأرواح الشريرة. والواقع أن السحر تراث بشري عام نجده في شعوب الأرض على اختلاف أنواعها. ويجوز القول بأن السحر يضعف تأثيره في الناس كلما تقدمت المدنية بهم وازدهر العلم. إن السحر والعلم وسيلتان متفاوتتان لهدف واحد هو السيطرة على الطبيعة وتجنب كوارثها وأخطارها فإذا كان الشعب قليل العلم لجأ إلى السحر يحاول به التغلب على الظروف السيئة المحيطة به، ولكنه لا يكاد يتخذ سبيل العلم وينظر في الأمور نظراً موضوعياً حتى يأخذ بإهمال السحرة شيئاً فشيئاً. وهذا هو ما لاحظناه في العراق في الآونة الأخيرة، فقد كان أبناء الجيل الماضي في العراق شديدي التعلق بخرافات السحرة يعتمدون عليها في معالجة أمراضهم وحل مشكلاتهم، ولا لوم عليهم في ذلك، إذ كانوا يعيشون في وضع ليس للعلم والمدنية الحديثة فيه نصيب كبير. فالأم التي ترى طفلها مريضاً مشرفاً على الموت وهي لا تجد فيما حولها طباً راقياً يمكنه من شفاء طفلها، لا بد أن تندفع مولولة نحو السحرة والمشعوذين وفتاحي الفال تناشدهم أن ينقذوا طفلها من الموت. ومن الظلم أن نسخر من مثل هذه الأم اليائسة أو نحاول منعها من هذا العلاج الخرافي. إن التحذلق عليها بالمقولات العقلية لا يجديها نفعاً ولعله يزيد في ألمها وبؤسها. إنها كالغريق الذي يمد يده نحو القشة الطافية على =

أجهز الإسلام، بتحكيم العقل، على كثير من باطل المعتقدات، ما في ذلك شك. لذلك نجد أبناء العراق لا يأبهون، عموماً، بما هو من عند غير الله... فهم ليسوا كالزنوج الذين يكلفون بطقوس غريبة، ما أنزل الله بها من سلطان. ولا تهيمن على العراقي الفرد غمرة شعورية قوية تجعله أسير (الآخرة) فحسب[1]... فهو لا يشبه، من هذه الناحية، الفلاح الإيرلندي مثلاً، وإنه لا يرهب الموت، شأن سكان جزائر المحيط الهادي أيضاً.

ولا تسكن أشباح الموتى البيت العراقي... إنه قد يكون سكناً للجن، وخلق الله الجان من مارج من نار، فهم أبناؤها. وقد يعمد مؤلف كتاب (الغصن الذهبي)[2] إلى تدوين مشاهدات عدة تتصل بحياة أهل العراق اليومية، وما يمارسونه خلالها من طقوس قليلة يعتقدون أنها تقيهم سوء الطالع، أو ما يصطنعونه من طرائق سحرية تحميهم من الأمراض.

وفي الحق أن (الخرافة)[3] تسيطر على جانب من حياة العراقي، شأن

= الماء، والقشة لا تنقذ الغريق فعلاً ولكنها تعطيه على الأقل أملاً وإيحاءً بالنجاة، وكثير ما ينفع الأمل والإيحاء...

لقد بقيت البشرية على مدى مئات الآلاف من السنين وهي تلجأ إلى السحر والإيحاء السحري في مواجهة الأمراض والأخطار. ولما جاءت المدنية أخيراً لم تستطع أن تقتلع من البشر هذا التراث النفسي القديم اقتلاعاً تاماً. فلا يزال السحر عالقاً في عقول كثير من المتمدنين على وجه من الوجوه. ولا يختفي السحر نهائياً حتى تستطيع المدنية والعلم أن يكتشفا جميع أسرار الطبيعة ويتغلبا على كل أخطارها وآفاتها وأمراضها. فهل هذا أمر ممكن؟ علم ذلك عند الله.

تعليق: الدكتور علي الوردي.

(1) منهجه المستقيم: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً). (المترجم).

(2) تشير المؤلفة إلى Sir James Frazer مؤلف الكتاب المعروف The Golden Bough هو كتاب ثبت ومرجع صحيح في دراسة تطور الدين والسحر لدى مختلف الشعوب ويقع في 12 مجلداً. (المترجم).

(3) الخرافة حديث مستملح كاذب، والمشهور أنها الحديث الباطل مطلقاً ـ (محيط المحيط) والخرافات ترى حتى عند أكثر الأمم تمدناً فعند الإنكليز مثلاً إذا شاهدت العروس على ثوب عرسها نسيج العنكبوت تعد ذلك بشرى بحسن مستقبلها والفرنسيون وغيرهم من =

الإيطالي مثلاً، ومن ذلك الخوف من (العين الشريرة). فما هذه (العين) يا ترى؟! إنها قوة يمتلكها فريق من الناس، وأنفهم راغم. . . فيوقعون بها الشر بغيرهم ويجلبون لهم سوء الطالع. ومن يعرف بأن له عيناً شريرة يخشاه الناس جميعاً وينبذه جيرانه نبذ النواة، ويزدريه أبناء أسرته بالذات، فهو الداء الوبيل، والضيف الثقيل في حلّه وترحاله. وقد يعمد العشائري إلى تطليق زوجه إن خيل إليه أن لها عيناً شريرة.

أخبرني أحدهم أنه يعرف إنساناً ذا عين شريرة، يستطيع بها أن يكسر صاري سفينة! وأن الناس تراهنوا على قوة عينه هذا وكانت النتيجة أن خسر الرهان من أنكر ذلك، فصاري السفينة انكسر فعلاً.

والشائع في إنكلترا أن العروس يجب أن ترتدي، فيما ترتديه ليلة الزفاف، لباساً أزرق اللون. فهذا اللون حرز حريز يقيها من عيون الحساد، ومثل هذا الاعتقاد شائع في الدنيا كلها.

وفي العراق يتخذ الناس، شأنهم شأن سكان إيطاليا وصقلية، من الخرز الزرق حرزاً يقيهم شر العين الحاسدة، لذا فإنك تشاهدها على ظهور الأطفال، والخيول، والحمير. . . وتزدان القفف التي تنساب في (دجلة) دائرة، بها أيضاً. ويعلّق سائق سيارتي البعض منها في مفتاح المحرك إن رحلنا إلى مكان قصي. وقد يضعون بعض القطع الخزفية الزرق في بناء البيت، وإنك لتجد بعض الخرز الزرقاء والودع معلقة على سروج الخيل وأعنتها. والودع منذ قديم الزمان حرز آخر يقي الإنسان من (العين ـ الشريرة)، وأهل جنوب أوروبا يؤمنون بذلك أيضاً.

= الأوروبيين يتشاءمون بعدد 13 فلا يركبون في مركبة ولا على مائدة وعددهم 13، والخرافات إما بقايا معتقدات وثنية، أو أنها تصدر عن جهل القوم لدواعيها فتنسب إلى علة ليست علتها أو أنها قد تكون نتيجة لمشابهة شيء مفقود لشيء موجود، أو تكون منبثقة عن أكذوبة اخترعها رجال امتازوا بحصافة إدراكهم وذلك تملصاً من التماس أو طلب أو خطر كما في حكاية كولومبس عندما أراد به أهل أمريكا سوءاً فهددهم بأن يجعل الحوت تلتقم حمرهم. (المترجم).

مما يتردد في بغداد: (ودعة[1] ودهاشة... من عين اللاشة). و(الدهّاشة) هذه زر زرقاء فيها (7) ثقوب تخاط في الأردية، أو أغطية الرأس. ويندر أن تشاهد طفلاً صغيراً وليس على ملابسه عدد منها، فهذه واحدة بين كتفيه، وتلك على ظهر سترته، فالعين الشريرة قد تصيبه من وراء أو من قدّام، على حد سواء. وفي العباءة العراقية المعروفة، والتي تصنع في (النجف) من الحرير، قطعة من الخيوط الزرقاء (بلون الشذر) مخاطة في أحد جوانبها. واللون الأزرق هو الغالب في (الكاشي) الذي يشاهد على المنائر والقبب ببغداد. وليس كل أزرق بجالب للطالع السعيد دوماً. فالأزرق الفاتح (الشذري) هو المقصود حصراً. وهناك حرز آخر يقي من العين الشريرة وهو العفص Gall nut فالعفصة تخاط في غطاء رأس الطفل جنباً إلى جنب مع الودع والدهاشة.

وقد يشاهد المرء حذاء قديماً سمر إلى إحدى نوافذ البيت أو بابها، وهم يعتقدون أنه يقي ساكني الدار من العين الشريرة أيضاً. وعندما شق الأتراك الجادة الجديدة ببغداد قام أحد سكانها ببناء داره مجدداً فسقط عدد من العمال، ومن كان يشتغل بالبناء، من على الرافعة الخشبية إلى الأرض فأصيبوا بأضرار.. لذا امتنع بعد هذا أي عامل من العمل في ذلك البيت ما لم يتم وضع حذاء قديم مسمّر فيه. ومما يأتي بالطالع النحس أن تعجب بشيء ولا تقول (ما شاء الله). وقد تسمع امرأة تقول لأخرى: «ما أبدع هذا المئزر الذي ترتدينه!؟» فتجيبها هذه «لا تصيبيني بالعين» وهو جواب لا يعدو إظهار الخوف والوجل. وتعنى النسوة بترك شيء من الوضر على وجوه أطفالهن، أو في إلباسهم المهلهل الخلق من الثياب لئلا يسترعي جمال الطفل «العين» فيصاب بشرها. ولو طاوعت إحدى النسوة النفس الأمارة، إبان الاحتفالات، فأظهرت وليدها على أبهى حال... لوجدتها قد خاطت في لباس رأسه، قبل كل شيء، التعاويذ وألبسته سترة من حرير، كما وضعت في رجله (جناجل) من فضة وحملته إلى مكان الاحتفال حيث التراب المتطاير وأشعة الشمس المحرقة. فإن عادت به إلى البيت تحمله وقد ظهرت عليه أعراض الحمى طار

---

(1) الودع: خرز بيض تخرج من البحر تتفاوت في الصغر والكبر شقها كشق النواة تعلق لدفع العين الواحدة. ودعة الجمع (ودعات). محيط المحيط.

صوابها فزعمت أن تعاويذه لم تكن كافية، ومن الحتم أن عيناً شريرة أصابته، فعليها أن تبحث عن صاحب العين، وعسى أن تكون جارتها التي يأكل الحسد قلبها من حسن الوليد؟ ويبدأ المسعى على هذا المنوال: تأخذ المرأة كرة صغيرة من الرصاص وتذهب بها إلى العذارى السبع على التعاقب. فهي تعرف عدداً منهن في بعض البيوت، لذا فإنها تزورهنّ فيها، فتأخذ كل عذراء الكرة وتضعها في فمها ثم تبصق فيما بين ردائها وجسمها من جهة العنق. ثم تمضي الأم بالكرة إلى بيتها وتذيبها في ملعقة على النار، ثم يصب ذوب الرصاص على قرص من (الجلّة) وضع على رأس الوليد المريض، وتراقب الأم الشكل الذي يتخذه، وقد تستدعي جارتها لتسهم في المراقبة أيضاً. ثم سرعان ما تهتف الأم: «عباءة! هذه امرأة بدينة، وأظنني رأيت امرأة بهذا الشكل تتطلع إليه قرب سوق الصفارين!».

«كلا! انظري إن هذا منشار» ثم يتم الاتفاق على هذا، لذا فالحاسد يجب أن يكون ذلك النجار الذي يعمل بجوار بيت السيد حسين، فالشائع أنه ذو عين شريرة، وهنا تنصح الأم بالذهاب إلى شيخ، أو شيخة، للحصول على تعويذة تبطل الشر. ومثل هذا الشيخ عرفه البابليون في شخص الـ (اسيبو)، وهم يسمونه (فتاح فال) وإن كانت امرأة فهي (فتاحة فال) ـ فكل منهما يفتح كتابه لمن يستنصحه، فلو شُغل فتى بحب فتاة أحبَّت غيره وجدته يهرع إلى (فتاح الفال) عارضاً عليه أمره. وسرعان ما تظهر على الشيخ أمارات الجد والتعقل، ثم يكتب له تعويذة على جذاذة من ورق يناولها المحب الولهان، ومعها قليل من (البخور). ثم تجده يضع (كتابه) على رأس الزائر ويقرأ فيه مستفتحاً. وبعد أن يستخبر تنجيماته، يقول: «ارم التعويذة التي أعطيتها لك في الماء في اليوم الفلاني، ثم اشرب قليلاً منه، وحاول أن تحمل من تهوي على الشرب منه أيضاً. وبخّر نفسك بهذا البخور عند مغيب الشمس، فلو لحت لها آنئذٍ أحبتك ونسيت الآخر...».

ولنكسر القول مرة أخرى على (العين الشريرة)[1]: والعادة الشائعة في

---

(1) كثير مما جاءت به المؤلفة في شأن «إصابة العين» عند نساء العراق صحيح. وأود أن أضيف إلى ما قالت شيئاً آخر هو أن اعتقاد النساء بإصابة العين أدى إلى بعض الضرر في تكوين شخصية الطفل العراقي. فالأم تخشى أن تمدح طفلها بشيء مخافة أن تصيبه =

البلاد، كما سائر بلدان الشرق، تفضيل الأولاد على البنات كثيراً. وإنك لتشاهد بعض الأولاد وقد ألبسوا ملابس البنات، لئلا تصيبهم العين الشريرة بسوء. وجاءت غسالة الملابس إلى بيتي بطفل تحمله وقد ألبسته ملابس البنات فسألتها: «ما اسم هذه البنت الصغيرة؟» فأجابتني: «إنه ولد، وليس ببنت، وهو وحيدي ولي 3 بنات غيره».

ولا يرجع المحب الفاشل في أمره إلى (فتاح الفال) دوماً. فهناك (وصفات) جاهزة لمن يفشل في حبه، أو ينتابه وصب، أو يألم من وجع. شاهد أحد أصدقائي مرة شاباً من الطبقة المتعلمة (الأفندية) يغسل يديه في النهر. ثم شاهده يخرج بيضة ومنديلاً من جيبه وهو لا يدري أن عيناً تراقبه. ثم إنه غسل يديه مرة ثانية، ووضع المنديل على الأرض وغسل يديه مرة ثالثة، ثم إنه وضع البيضة فوق المنديل ورماها في النهر فانكسرت واختفت. وعيّن الشاب المكان الذي اختفت فيه البيضة، ثم أعاد الاغتسال، وتناول حجراً وضعه على المنديل وصرّه فيها ثم رماه في نفس المكان. وغسل يديه آخر مرة ثم نهض وانصرف. وقد يغلب الحياء على المتعلمين فلا يقرّون أمثال هذه الخزعبلات، لكن صديقي استطاع بواسطة كاتبه أن يعلم أن ما رآه هو من ضروب السحر القديمة وأن القصد منه استمالة المرأة التي يهواها الشاب والحيلولة دون حبها لغيره. والبيض كثير استعماله في السحر و(فتح الفال). سبق أن بينت فيما مضى شيئاً عن الركن الذي تزوره الساحرات اليهوديات وما

= هي بالعين. إن كل مدح مهما كان نوعه ومصدره قد يؤدي في زعمها إلى الإصابة بالعين الشريرة. ولهذا فهي تميل إلى ذمه دائماً، وهي لا تدري أن الذم المستديم يؤدي إلى نمو عقدة الخيبة في طفلها.

مما تحرص عليه التربية الحديثة هو إنماء عادة التفاؤل والثقة بالنفس في الطفل، ولا بد للمربي الناجح من أن يمدح طفله أحياناً في سبيل تشجيعه على عمل من الأعمال أو عادة من العادات. ولكن الأم العراقية القديمة لا تفهم هذا. إنها تحاول في كثير من الأحيان أن توحي في عقل طفلها بأنه سيىء الحظ وأنه دون غيره من الناس.

ولهذا أسباب متنوعة، ومن جملة هذه الأسباب في رأيي أن الأم تخشى أن تمدح طفلها على شيء فيصاب بنكسة من جراء العين الشريرة أو غيرها.

تعليق: الدكتور علي الوردي.

فيه من قشور البيض المكدسة. والركن هذا هو على مقربة من مكتب زوجي، وكان يشاهد فيه عجوز تقوم بضروب السحر مستخدمة البيض دوماً. فالأطفال يجلبون إليها فتمر بيدها على رؤوسهم مرات عديدة. ثم تخرج بيضة من صدرها وتتمتم ببعض تعويذات، وتكسر البيضة وترميها في النهر... وتغسل العجوز يديها لتستقبل وليداً مريضاً آخر. أنا لا أفقه ما تمارسه هذه العجوز من سحر!.

ويعتقد البعض أن من نحس الطالع إعطاء البيض بعد مغيب الشمس، فإنك بمثل هذا تضحي بطفل. وأعلمني مخبري أن أمه رفضت مرة إعطاء جارتها بيضة بعد غروب الشمس، وطلبت منها أن تعود في اليوم التالي لتعطيها ما تريد، ولو كان 100 بيضة[1].

ويستخدم أهل العراق ما يسمى بـ(سحر المحبة) على ما أظن. وإليك تعويذة تستخدم وقاية من الحمى والصداع: يؤتى بسعفة نخل، وتشعل، ثم تتناولها إحدى النسوة وتمضي بها، ثم تقف عندما يطلب إليها الوقوف. وما أن تنطفىء النار المشتعلة إلا وتولّي الحمى، في الوقت نفسه، إلى غير رجعة. وإذا ما أشفقت المرأة على الطفل الذي تحمله ذهبت إلى (السيد الأفعوان) ـ أفعوان السحر ـ وأعطته عصفوراً ليبتلعه وما أن يتم ذلك إلا ويقتل الأفعوان، ويخرج العصفور من جوفه ويخاط في حقيبة جلدية وتعلقها المرأة على ظهرها دوماً.

ويشفى الزكام بكي الصدر، كما تشفى آلام المعدة لدى الأطفال بكي بطونهم بسيكارة. وإن أحسّ الراشد بألم في معدته فلا دواء له إلا الكي، وتستخدم لذلك قطعة من قماش أزرق صبغ محلياً. وأعلمني أحد المسيحيين ممن أقاموا مع البدو أن رجلاً أصيب بتضخم الكبد فغمسوا ذراعه في ماء حار ثم قطعوا وريده، ومن الدم الذي سال منه صنعوا كعكة ما أن تم جفافها إلا وتماثل الرجل إلى الشفاء!.

---

(1) الخرافة الشائعة عند عوام العراق أن إعارة بيضة في الليل تجلب المنية على أطفال المستعار منهم. (المترجم).

ولكي يشفى المصاب بـ(حبة بغداد) أو (الأخت) ـ ولم يوفق إلى علاجها علم الطب حتى الآن، تستخدم الطريقة البسيطة الآتية: يؤخذ عصفور ويقتل فيسيل دمه على الحبة، ثم يعلق العصفور ليجف، ويشفى المصاب في الوقت نفسه. ويشفى المصاب بالحمى، على ما يعتقدون بإرسال شخصين من بيت المريض ليشدا خيطاً في الجهة المقابلة من الشارع، ومن يفك الخيط من المارة يصاب بنفس الحمى، ويشفى المريض[1].

وشبيه بـ(العين الشريرة) ما يسمونه بـ(النفس الشريرة). قيل إن أحدهم ساوره شك في وجودها فأروه رجلاً استطاع أن يقتل كلباً بنفسه، بل وبمجرد التأوه. ولقد أصاب أحد من عرف بـ(النفس) جميع أطفاله فماتوا، فما كان منه إلا أن يرجع إلى (الملا) يستخبره فأشار عليه هذا بألّا يخنق أي طفل يولد له، واتبع الرجل النصيحة فكان له البنون. وقبل أن أختتم هذا الموضوع لا بد لي أن أذكر العلاج المحلي الذي يرون فيه ما يشفي السعال الديكي. فاسم السعال المحلي (حميرة ـ مصغّر حمارة) بالنظر للشبه بينه وبين (نهيق الحمار) وقد يسمى (خنيزيرة ـ مصغّر خنزير)، وليس من اللائق أن يذكر اسما هذين الحيوانين.

ويصحب الوالد ولده المصاب بالسعال الديكي إلى حد الخفافين، وهم صانعو الأحذية الحمر والصفر التي يرتديها المسلمون واليهود، ويقول له: «يا كلب سوي لي كلب خاطر الكلب ابن الكلب!». إن مخاطبة أي شخص بيا كلب بن كلب إهانة لا تغتفر، ولكن الخفاف، في هذه المناسبة، يبتسم من هذا السؤال ضاحكاً، ويقطع من الجلد قطعة بشكل كلب ويعلقها برقبة الطفل. ومن العلاج الشافي لهذا المرض أن يشرب المصاب من ماء سبق لكلب أو خنزير أن شرب منه، أو أن يذهب إلى جزار فيأخذ هذا خنزيراً إلى النهر ويخنقه فيه. ثم إن الجزار يمسك برقبة المريض ضاغطاً عليها، وبذلك يطرد السعال المزعج.

وتختص بعض الأسر بالمقدرة على شفاء أمراض معينة، فإني أعرف

---

(1) هذه من خرافات «كبش الفداء». (المؤلفة).

شخصاً لطيفاً متقادم السن، كان حتى عهد قريب يشغل وظيفة حكومية، وله مقدرة موروثة على شفاء الناس من الحمى. فهو يكتب (سورة الفاتحة) من القرآن الكريم على لوزة نزع عنها القشر ليأكلها المريض ويشفى، فإن استمرت الحمى أعد لوزة أخرى، ولم يعرف عن مريض احتاج إلى لوزة ثالثة ليشفى! والمرأة العاقر لها وصفات عدة: ومنها أن تحبو المرأة بين رجلي بعير واقف. ومن لا طفل لها من المسيحيات تزحف تحت تابوت مصغر مليء بالزهر يطاف به في الكنيسة يوم الجمعة الحزينة. وتشد النسوة على اختلاف أديانهن خرقاً بسلسلة مدفع قديم يدعى (أبو خزامة) موضوع على باب القلعة ببغداد[1]. والأمهات يأتين بالرضع ويدخلن رؤوسهم في فوهة المدفع استجلاباً للطالع السعيد.

ومن لا طفل لها من النساء تزور جامع الشيخ جنيد، وهو على مبعدة من بغداد، خارج مرقد زبيدة. وعلى الجهة الشرقية، خارج الجامع، بئر يقال إن الشيخ كان يتوضأ فيها. وتمتح المرأة من البئر بجردل ثلاث مرات وتصب قليلاً من مائها على كتفيها، وهي تردد: «نحبل» وبذلك تتحقق رغبتها المشبوبة. على المرأة أن تقوم بهذا يوم (الأربعاء) وأن تدفع إلى قيِّم المرقد قليلاً من المال. وشبيه بهذا، أن المرأة التي لا ولد لها، ولها البنات فقط، تنال بغيتها بواسطة (البئر) أيضاً. وهناك صخرة شافية محفوظة في المسجد، فلو فركت باليد وأمرت اليد على العضو المصاب زال عنه الألم حالاً، وقد يكون من الأفضل أن يلمس الحجر بالعضو نفسه، أو أن يطوف بالحجر حول مرقد الإمام. ولعل أفضل من يزار من القديسين الأبرار في النائبات هو (خضر الياس) وكلمة (خضر) تعني (الخضرة الدائمة) والمراد منها تخليد قدسيته المستدامة وسطوته. ويؤمن بالخضر المسلمون والنصارى واليهود، فهو من الصالحين يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، سواء أكان الداعي امرأة عاقراً، أو حبيباً مهجوراً، أو أماً ثكلى. وهو يحضر بمجرد ذكر اسمه فهو شديد التوق للشؤون البشرية. وتنذر له النذور، كما توقد له الشموع وتمنح باسمه العطايا.

---

(1) نقل هذا المدفع فيما بعد، إلى متحف الأسلحة، في الباب الوسطاني، أحد أبواب بغداد القديمة. (المترجم).

وهو يدعى أيضاً بـ(شيخ الشط)، ومن المألوف أن يشاهد المرء سعفة نخل لطخت بالطين ووضعت فيها 3 أو 5 أو 7 شموع وهي تطوف منحدرة في دجلة. ومن يرمي السعفة لا ينفك عن متابعة سيرها، فلو وصلت نقطة معينة في النهر، وبقيت فيها شمعة تشتعل، لكان ذلك دليلاً على أن (خضر الياس) قد قَبِل النذر، وسيتحقق المراد. ويصوم البعض أياماً معدودات وهو (صوم نينوى)، ذكرى تخريبها أو صوم خضر الياس، ومن لا طفل لها تصوم وتنذر لخضر الياس الحلوى توزعها على الفقراء وتدعو الله أن يرزقها ولداً. فإن رزقت الولد دأبت على التصدق سنوياً. وقد تشتاق مثل هذه المرأة إلى أمر قبول نذرها، فتعمد على وضع صينية كبيرة حافلة بالكعك في إحدى غرف الدار وتوقد فيها الشموع، كما تضع فيها صحناً مليئاً بالماء، ومشطاً، وفرشاة وشيئاً من الكرفس. وهي لا تغفل عن فرش طبقة كثيفة من الطحين والسكر على الكعك، فإن قبل نذرها ظهرت عليها آثار عصا الخضر، أو انطبعت سلسلة لجام فرسه. والكرفس لهذه الفرس، أما المشط والفرشاة فللقديس نفسه يسرِّح بهما لحيته الطويلة ويتأنق. أعلمني من قصَّ عليّ كل هذا، وهو من المتعلمين، أن آثار الخضر تظهر واضحة جلية في الغالب. فإن لم يعثر عليها تعمد المرأة إلى تسلية النفس فتقول: «لا بأس عليه، فسيزورنا في السنة القادمة». والشائع لدى العامة أن الخضر يعود إلى الدنيا بمجرد ظهور (المهدي) الإمام الثاني عشر.

نذرت زوج تاجر معروف ببغداد، ومن أسرة موسرة جداً فيها، إثر مرض ابنها أن تلبس الخلق من الثياب وتطوف على 7 بيوت من بيوت الفقراء وتستجدي من فيها. فإن أعطيت حسنة كان ذلك دليلاً على قبول النذر، ومن الغريب أنها حصلت على شيء قليل في تطوافها وأن ابنها شفي من مرضه. إنها اليوم، وقد بلغت من الكبر عتياً، أكثر الناس على الفقراء تصدقاً، وتخلد ذكرى شفاء ابنها سنوياً. وهناك الكثير من الحرز ضد موت الأطفال الضعاف، فالمعروف أن نسبة وفيات الأطفال في المدن هي 70%، وهي نسبة تضفي على تلك الخرافات أهمية فاجعة. فالمرأة الموسرة وقد فقدت أطفالها لدى الولادة تجلس على قارعة الطريق متنكرة، وتنادي على المارة (من بركاتكم)

مستجدية وبما يتجمع لديها من مال تشتري به قطعة صغيرة من ذهب أو فضة ثم تنقش عليها اسمها وتخاط في سترة الطفل، أو غطاء رأسه، مع كلمة (يعش). أو تعمد إلى زيارة أم ذات حظ عظيم لبقاء أولادها جميعاً على قيد الحياة، فتستجدي منها الملابس لطفلها الواهن. وعلى شيء من الأهمية كبير حرز (محمد). . فالمرأة تذهب لرؤية 7 أولاد، اسم كل منهم (محمد) وتستعطيهم قطعة فضية، من كل واحد منهم، ثم تذاب القطع فتصبح قطعة واحدة يكتب عليها (محمد) فإذا ما علقت القطعة بمشد حول عنق الصبي أصبح قوياً سليماً. والعذراء البغدادية التي تخشى البقاء عانساً تحج 40 سبتاً، فهي تنهض في عماية الصبح وتمضي حافية القدمين، أو بالجورب فقط، إلى جامع الإمام موسى الكاظم، أو الشيخ معروف الكرخي، ولا تكلّم في طريقها إنسياً. وما أن تصل الجامع إلا وتدخله وتطرق على الضريح المقدس فيه قائلة: «أتيتك؟ فلا تقل إني لم أزرك» ثم تقفل راجعة إلى بيتها وهي جد مطمئنة إلى زواج آت لا ريب فيه. ويزار مرقد الإمام الأعظم، لنفس الغاية، وبنفس العدد من المرات، أما زيارة الشيخ عبد القادر الكيلاني لنفس القصد فتتم بـ 43 سبتاً. والفتيات الإنكليزيات يعمدن إلى وضع قطعة من كعك الزواج تحت وسائدهن ويحلمن بالزواج المرتقب. كذلك البغداديات، إنهن يكلفن بالملبّس الذي يوزع في الأعراس، ومن تأكل منه يصبح زواجها قريب المنال.

وهناك أيام للبؤس وأيام للنعيم[1]. فالفترة الأولى من محرم، وأيام صفر كلها من أيام البؤس لدى الشيعة، ففي الأولى وقعت فاجعة كربلاء، وفي الثانية انتقل محمد إلى الرفيق الأعلى. ويعتبر المسلمون يومي السبت

---

(1) التشاؤم من الأيام قديم، وكان شائعاً بين عرب الجاهلية، يدلك على ذلك الحديثان الشريفان: (لا تعادوا الأيام فتعاديكم) والثاني (لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر) ومن المحتمل أن قد جاء هذا التشاؤم لأهل العراق، والاعتقاد بكثير من الخرافات والأساطير من الأقوام البائدين كالبابليين والأمم التي جاورتهم كالرومان والفرس والأقباط والأحباش واليهود. واليهود من أكثر الأمم كلفاً بالأساطير واعتقاداً بالخرافات، وفي التلمود جانب كبير من الحوادث العجيبة والأمور الغريبة. (المترجم).

والخميس من أيام النعيم ويبدأون مشاريعهم في أحدهما (لعل اختيار السبت ناجم عن فقدان منافسة اليهود لهم فيه). ومن طوالع النحس أن يرى المرء القمر وقد علته حمرة خلال شهر رمضان، وهو شهر الصوم لدى المسلمين جميعاً، فيه يمتنعون عن الطعام والشراب والتدخين فيما بين الشفق والغسق. واستيقظنا في أحد أيام رمضان الأخير على جلبة القوم، وقرع الصفائح، ونفخ الأبواق وإطلاق العيارات وأصوات منكرة أخرى. فلقد اصطبغ القمر باللون الأحمر، وهو في نظرهم مسبب عن اقتراب الحوت منه، ساعياً لالتقامه. فإن تم ذلك بقي رمضان أبد الدهر ـ وذلك شيء مروع حقاً. وإن الصرخات والقرعات والنفخات والإطلاقات التي سمعناها يراد بها تخويف الحوت لئلا يقدم على فعلته النكراء، وعساه أن يولّي الأدبار.

وهناك الصالح والطالح مما يؤديه الإنسان من أفعال في حياته اليومية. إن تقليم الأظافر على الوجه القويم مثلاً، يجب أن يتم على الوجه الآتي: تقلم أظافر اليد اليمنى على هذا الوجه: أظافر الخنصر، فالوسطى، فالإبهام، فالبنصر، فالسبابة. أما أظافر اليد اليسرى فتقلم كما يأتي: الإبهام، فالوسطى، فالخنصر، فالبنصر، فالسبابة. وإني أذكر هذا لأبين إلى أي حد تسيطر الخرافات على حياة الشعب اليومية. وهناك أساطير عديدة تتصل بالسادة، وهم الذين ينحدرون، من صلب محمد وعلي، وعددهم جد عظيم. ويرتدي السادة عمامات خضراء دلالة على قدسيتهم (واللون الأخضر مقدس عند المسلمين). إن المسيحيين واليهود يراجعون السادة أيضاً ليكتبوا لهم التمائم والأحراز. وفي (بعقوبة) سيد اشتهر بين الناس بمقدرته على طرد الأرواح الشريرة، فأقارب الممسوس[1] يأتون به إلى هذا السيد، فإن لم يخرج «الجني» ـ أو الروح الشريرة ـ بأمر منه، عمد إلى شد يدي المسكين ورجليه وانهال عليه ضرباً وهو يصيح: «اطلع». وكثير من هؤلاء المخبولين المساكين لقي حتفه بسبب ذلك، ولكن السيد يصرّ، حتى في حالة الموت، على أن الروح الشريرة فارقت الجسد أيضاً. وطلبت غسالة يهودية شابة من صديق لي 10 روبيات كسلفة، فسألها هذا الصديق: لِمَ تطلب ذلك؟ فأجابت: إنها تريد مقابلة

(1) من به مس من الجن، والملموم من به لمم من الجن أيضاً. (المترجم).

(السيد) المقيم في الجهة الأخرى من النهر، فهو من الذين يتنبأون عن المستقبل. لقد نفى الأتراك خطيبها ولم تعد تسمع له ذكراً، فهي أشد ما تكون شوقاً لمعرفة خبره. إنها لن تستطيع الزواج من غيره ما دام حيّاً، ذلك أن الخطبة لدى يهود العراق ملزمة، ولعل لها قوة إلزام الزواج. وسألها صديقي: ما الذي يستطيع أن يقوم به هذا (السيد) في هذا الباب؟ فأجابت: سأشتري قطعة من اللحم، وأعطيها له، مع 10 روبيات، وسيضع اللحم تحت وسادته، فإن أخلد إلى النوم فسيرى فيما يراه النائم من حلم، مكان خطيبي، وهل هو في قيد الحياة حتى الآن؟

وحوكم مؤخراً في الحلة «سيد» اتهم بقتل صبي. فلقد ألقى السيد القبض على الصبي وهو يحتطب خارج المدينة، فقتله، وأخرج قلبه. وتجلت البينة قوية ضده عندما عثر في حوزته على أحد المواس[1] وعليه آثار دم. وأشيع عنه أنه قتل صبياناً آخرين على هذه الشاكلة، والظاهر أن علاج أحد الأمراض هو أن يأكل المريض من قلب صبي انتزعه (سيد) من جسمه. وتدفع أحياناً جوائز ثمينة جداً، سراً، إلى أحد (السادة) ممن لا يتورعون عن ارتكاب الجريمة والحصول على العلاج. ويجب أن يكون الضحايا ممن لا يدخنوا أبداً. ولقد أعلمتني إحدى السيدات أن خادمها أخبرها بأنه تمكن مرة من الخلاص بشق الأنفس، فإن أحد (السادة) سعى لقتله لهذا الغرض بالذات[2].

---

(1) جمع الموسى، وهو المستعمل في الحلاقة. (المترجم).

(2) إن ما ذكرته المؤلفة هنا يفسر لنا الأساطير المختلفة التي كانت شائعة في العراق في الجيل الماضي حول ما كان يسمى يومذاك بـ«الخناق». وأتذكر أن أمي كانت أثناء طفولتي تخوفني بالخناق وتحذرني من الذهاب بعيداً عن الدار لئلا أقع في قبضته الرهيبة. ولما كبرت ظننت أن قصة الخناق غير صحيحة وأن الأمهات اختلقنها لمنع الأطفال من التجول بعيداً عن البيت. ويبدو لي الآن أن قصة الخناق لم تكن مختلقة من أساسها كما كنت أظن. وأرجح أن الخناق كان شخصاً من السحرة يصطاد الأطفال ويستخرج قلوبهم ليعالج بها بعض الأمراض حسبما تقول بعض الخرافات السحرية الشائعة في ذلك الحين، وربما كان هناك بعض المرضى ممن كانوا يصدقون بصحة هاتيك الخرافات فيدفعون ثمناً غالياً لمن يأتي لهم بقلب طفل ليأكلوه ويتوقعوا الشفاء من مرضهم المستعصي.
تعليق: الدكتور علي الوردي.

وهناك تعويذات عدة تمكن حاملها من أن يصبح منيعاً سالماً. ولقد أعطى أحد أحبار اليهود في البصرة ضابطاً سياسياً من معارفي إحدى التعويذات. إنها حزيمة جلدية تضم 5 أبر، و5 خيوط حريرية مختلف ألوانها، واسم أمه، وتاريخ ولادتها، وتاريخ ولادته، وصام الحبر لمدة 24 ساعة قبل إعداد التعويذة، كما طمأن مخبري أن التعويذة تقي حاملها من شر الرصاص وطعنة الرمح. وهناك تعويذة أخرى تقي حاملها من الجرح وهي تعد كما يأتي: يصطاد المرء قنبرة سالمة، وتؤخذ والبدر في تمامه إلى المقبرة. وعليه أن يختار قبراً ويشعل النار فوقه، ثم يضع آنية مليئة بالماء على النار ويجعل القبر دوماً خلف ظهره. ثم تقتل القنبرة خلف ظهره أيضاً ويضعها في الإناء وهو يغلي بمائه، حتى يصبح كل ما فيه سائلاً ما خلا أحد العظام الصغيرة. سيسقط ضوء القمر عليه فيلتمع، وأخيراً ليأخذ هذا العظم ويضعه في وعاء جلدي ويحمله. إنه درع واق من شر الرصاص. ويستعمل الهُدْهُد بالطريقة نفسها، لكن عظمه يختار بعد غليه ورمي جميع العظام في الماء الجاري. فالعظم الذي يطوف مصعداً في النهر وبعكس مجراه، هو العظم السحري المطلوب. هذا وأن التكلم إبان العملية خطر ماحق. ولقد أشير إلى أخرس كان جالساً في إحدى المقاهي باعتباره ضحية لخرق هذه القاعدة. ذلك أنه فقد خاصية الكلام عن هذا السبيل. كان الرجل يقوم بإعداد تعويذة الهدهد في المقبرة والطير يغلي... وسمع جني يناديه باسمه: «أحمد، أين أنت؟» ونسي الرجل شرط العملية فأجاب: «أنا هنا» وهكذا فقد النطق فوراً. وقد تلطم الأرواح الشريرة من لا يلتزم بذلك أيضاً.

والجن، منهم الصالح ومنهم الطالح. إنهم يكلفون بالسراديب، وإليها يخلد الناس للراحة خلال أيام الصيف. والجن تغني فيها ليلاً وترقص ولا تصيب أحداً بسوء ما لم يعكر عليها صفوها. وقيل لي إن عامراً[1] يسكن شجرة تقوم في جوار بيتنا، وإنه يطرق عليّ النافذة أحياناً. كما قال لي أحدهم: إن العُمّار استعاروا ملابس جدته ليحضروا عرساً

---

(1) إن العرب تنزل الجن مراتب فإن أرادوا أنه يسكن مع الناس، قالوا: عامر، والجمع عمار (راجع فقه اللغة للثعالبي). (المترجم).

لهم. فسألته: «كيف عرفت ذلك؟» ذلك أن جميع الملابس وجدت في الصندوق المقفل صبيحة اليوم التالي. فأجاب: «لقد كان على الملابس شيء من الحناء، لذلك عرفت أن العمار استعملتها في تلك الليلة». ومن يرغب في الحيلولة دون استعارة الجن لما يمتلك من متاع عليه أن يضع بينها سكيناً، ودبوساً، وإبرة، و«حبة سودة». ومن الجن ما هو شرير جداً فقد يعمد إلى حرق متاع البيت أو تهشيمه، وقد يغطي الطعام بطبقة من التراب أو الأوساخ، أو قد يتصرف تصرفات شائنة أيضاً. ومنهم النشط الفعال يقوم بخدمة البيت قبل أن تنهض ربته من فراشها، وقد يقوم بشراء الحاجات من السوق بدلاً منها.

ويستهوي الجمال البشري الجان، فيشغفون بالعذارى الإنسيات حباً. فقد تجد الفتاة اللطيفة عندما تهب من فراشها في الصبح قطعة نقدية على الوسادة فتشعر أن محباً من الجان زارها ليلاً. ولا تكتفي الجان بالزيارات العابرة: فلقد حكي أن فتاة هبت من نومها على سماع صوت يناديها باسمها، وسرعان ما نزلت إلى السرداب، ثم استيقظت أمها وتبعتها فوجدت أن باب السرداب مغلق. ونادت ابنتها، فسمعت صوتاً ضعيفاً بعيداً يجيب: «أنا هنا» وعندما شق طريق بالقوة إلى السرداب لم يجدوا فيه إلا ثقباً في الأرض.

ولا تلحق الجان الضرر بالأطفال، أو بمن يصطحبون الأطفال، والبنات الصغيرات منهم بوجه أخص. وكثير من الأمهات لا يغامرن بالدخول إلى غرفة مظلمة بدون اصطحاب فتاة صغيرة. وتعتقد الصابئة أن الجن تسرق الطعام، لذا فإنهم لا يطبخون الطعام إلا بعد أن يذكروا اسم الله. وهم يأكلون صامتين، فلو نطق أحدهم بكلمة إبان الطعام عمدت الجن إلى اقتطاف لقمات منه. وتكلف الجان بالنكات البارعة. أعلمني أحد البغداديين أن جده شاهد في إحدى الليالي خروفاً يسير في عقد النصارى، فجاء به إلى البيت، وطلبت زوجه منه أن يخرج الخروف، لأنها أحست بشيء غريب فيه، فلم يصدقها الزوج، وربط الخروف في باحة الدار. وفي صباح اليوم الثاني شاهد أهل الدار جثة غريب ملقاة فيها. فما كان منهم إلا أن يسحبوا الجثة إلى الشارع،

والفزع آخذ منهم كل مأخذ، وفيه انقلبت إلى خروف يسير على رجليه مولياً[1].

وهناك غيبيات أُخرى فـ(السعلوة) من بنات السحر ولها شعر طويل أخضر اللون. وهي تغشى دجلة، وقد تشاهد وهي تضفر جديلتها. ولقد أخبرني أحد الأوروبيين ممن يسكنون منطقة الأهوار قرب العمارة أن هناك من الأمراض ما لا سبيل إلى شفائه إلا بتعويذات يعدها أناس عرفوا بأنهم ثمرة الاتصال بين عذارى النهر وأحبائهنّ من البشر، الأحباب الذين تجذبهم العذارى إلى قعر النهر، ثم يطلقن سراحهم بعد أن يقضين منهم الوطر، وفي القانون التركي نص يحرِّم زواج الإنسي من بنات البحر.

وهناك ذكر من هذه الغيبيات، يسمى (فرج الأكرع). إنه مخلوق غريب، نصفه إنسان، وله رجلان ضعيفتان ورأسه خال من الشعر، وهو يغشى دجلة فيصطاده السماكون أحياناً فيعمد إلى استعطافهم، ويعدهم بالآلىء.والجواهر والنفائس. وما أن يطلقوا سراحه إلا وينكث وعده، ويسبح في النهر هارباً، يسخر منهم ويرميهم بأقذع السباب. وكتبت جريدة (المفيد) البغدادية بعددها الصادر في 1 آب 1922 تصف حيواناً غريباً لا يمكن أن يكون إلا عفريت النهر هذا بالذات. وقيل إن البعض شاهده قرب (نورية) السيد لطوفي الآلوسي بنهر الفرات: وإنه يشبه البعير عموماً، لكن

---

(1) كان أبناء الجيل الماضي من العراقيين يؤمنون بوجود الجن وطالما كانوا يتحدثون عن مشاهدتهم لها في زوايا البيوت والأزقة المظلمة. وقد خفت عندهم هذه العقيدة الآن حتى كادت تختفي. وأظن أن من جملة الأسباب التي جعلتهم يتخيلون مشاهدة الجن في تلك الأيام هو قلة ما كان لديهم من وسائل الإنارة لا سيما في الشوارع والأزقة الضيقة. فكان أحدهم يسير ليلاً في زقاق مظلم مثلاً فيوحي لنفسه أنه يلمح جنياً في إحدى الزوايا والمنعطفات ويساعده الظلام على التخيل فيأخذ قلبه بالخفقان وربما أطلق ساقيه للريح من شدة الخوف، وهو لا بد أن يتحدث في اليوم التالي عن صورة الجني المرعبة وعن سيقانه الطويلة وعيونه التي تقدح ناراً. والسامعون له قد يتأثرون بحديثه وربما جاء دورهم في الليلة التالية والويل لهم حين يظهر لهم أحد الجن في منعطف الزقاق المؤدي إلى بيوتهم... والله الساتر على أي حال!
تعليق: الدكتور علي الوردي.

قائمتيه الأماميتين ووجهه مما يشبه الإنسان. إن له شعراً أخضر اللون، وذنباً كذنب السمكة.. وأيد كثير من الأهلين أنهم شاهدوا المارد المخيف فعلاً، فأطلقوا الرصاص عليه ولكنهم لم يصيبوه بأذى. أما (الطنطل) ففظّ قبيح الشكل، وهو يقفز على ظهور المارة ليلاً ويضع قدمه أمامه فلا يستطيع أحدهم حراكاً. ومن رآه يقول إنه أعلى من المنارة طولاً، وإنه يكلف بالحيل الغريبة. ولليهود عفريتهم الخاص أيضاً، ويسمونه (شاباتم) وهو يشبه (الطنطل) ولكنه فارع الطول. إنه يقطع الطريق على السابلة فيسألهم عن دينهم، فإن كان المسافر يهودياً صالحاً أفسح له الطريق ليمضي بسلام، وقد يحمله بأعجوبة إلى ما يقصد، وإن كان مسلماً أو نصرانياً انهال عليه ضرباً ولكماً، وسرق نقوده وتركه بلا حراك.

والحب العنيف عندهم ضرب من الجنون، ولا يشفى إلا بالتعاويذ والرقى. أحبت شابة يهودية شاباً متزوجاً فلم يجدوا لها علاجاً إلا الاغتسال، والصوم، والضرب، والصلاة، والتعاويذ. وفي خاتمة المطاف زارت بيت (الحاخام) ومكثت فيه ردحاً من الزمن ثم خرجت منه وقد امتلكت قواها العقلية كاملة. وتقوم العجائز بإعداد «وصفات الحب» للعشائريين. أعلمني أحد الضباط السياسيين أنه تلقى من أبوين شكاوى مفادها أن شاباً استطاع الحصول على علاج، وطعام، وقطعة قماش بُللت بالناعوظ (شراب الحب)، وأنه هرَّب كل ذلك إلى ابنتهما، فأوقعها في شباك حبه حالاً، أي بمجرد أن أكلت من الطعام وشربت من الناعوظ والعلاج الناجع في مثل هذا الحال استدعاء (العالم) ليقرأ على البنت عشراً من القرآن، وأن يجري غسلها يومياً عدة مرات، وأن تتناول طعاماً معيناً.

ويتم الحفاظ على الطفل بشتى التعاويذ وضروب السحر، مما يخطر على بال أمه... وهي في ذلك تنسى الوقاية الصحية الحقة. إنهم يضعون سيفاً عارياً بجانب الوليد ليطرد عنه الأرواح الشريرة، ويعلق جزء من القرآن في عنقه. ولو سقط الطفل على الأرض، وهو ما يحدث غالباً في بلد يوكل فيه أمره إلى أخته الصغيرة، بادرت الأم إلى (تبخير) الأرض. وقد تذهب في

مغيب الشمس إلى نفس المكان ومعها ملح[1]، وبيضة ونخالة. ثم إنها تعمد إلى إيراء النار، ملقية فيها الملح والنخالة. وقد تكسر البيضة على الأرض، ثم تقلبها قائلة: «يا ملائكة الصالحين لا تلحقي بنا الضرر، فلن يصيبك منا ضرر» وقد تكتفي أحياناً بإبقاء شمعة مشتعلة في المكان الذي سقط فيه الطفل. وإن حال دون فطامه حائل أخذته إلى النهر وغسلت وجهه ويديه، ثم ترمي فيه بيضة وتتركها تنحدر في النهر. وقد تكرر ذلك في 3 أيام متتالية. وتدعي النسوة أن ذلك «يبرِّد» قلب الطفل فيكفّ عن طلب ثدي الأم.

وهناك خرافات كثيرة تتصل بالبيوت. فهم لا يستأجرون البيت قبل أن يعرفوا كنهه، أطالعه حسن أم سيىء؟ لذا فمن الصعوبة بمكان تأجير الجديد من البيوت، والتجربة أكبر برهان. وهناك من يزعم أن بعض الأمراض تلازم بعض البيوت، وهكذا، حذّر أحد معارفي الإنكليز من أن البيت الذي يريد إشغاله (مسكون) وليس كل بيت تسكنه الجان بسيّىء الطالع، فقد يكون ساكنوه من الأخيار، أو من الخلان الأوفياء.

إن الأساطير الشائعة بين العراقيين جد كثيرة، ومن يشرع بتدوينها ينهال على ذاكرته الكثير منها، وموضوعها يستأهل مجلداً ضخماً، ولكنني لا أريد أن أسهب في ذلك، لذا أقف عند هذا الحد وأختم فصلي هذا.

---

(0) ومن الخرافات الشائعة عند عوام العراق عن الملح: إذا دخل زائر ثقيل على قوم فما لهم سبيل للتخلص منه إلا أن يحرقوا ملحاً. (المترجم).

الفصل الثامن

صور صغار!

ـ 1 ـ

وفتحت أبواب السماء بماء منهمر. . . إنها «فاختية اللون»، أما الطرق فموحلة، ومنها ما يشبه الحقول وقد غمرتها المياه في شهر تشرين الأول المطير. ويخوض الإنسان في وقعية[1] فيبلغ الماء الركبتين، فإن سعى إلى إنقاذ رجله الغائصة في الطين اللازب[2] سمع لها حسيس وزفير. . . وقد يكبو فيسقط في الوحل إن حاول نزع رجله الأخرى.

وينزل الودق[3] من السماء فيتقيه الأعراب بالخَلَق من ثيابهم وبما يسترون به الرؤوس من كفافي، ومنهم من تراه ملثماً في يوم البرد القارص الشديد. ويتجمع اثنان أو ثلاثة من الأهلين حول مدفئة «منقلة»، أو قد تتحلق جماعة منهم على الأرض الموحلة، وحول خشبة موقدة، وعلى رأسهم تقوم إحدى الطوق البغدادية.

وهؤلاء الناس حفاة في الغالب. والفقير منهم لا ينتعل في اليوم

(1) مستنقع الماء في الطين.
(2) اللازب: الطين العلك اللاصق.
(3) المطر المستمر.

المطير. والنعال تعلّق على الظهور، ولا معدى من الخوض في المياه والأوحال بأرجل حافية.

وتشق السيارات طريقها في الشارع الجديد الموحل وهي لا تلوي على شيء. وتسير العربات أيضاً فيكون لسيرها عقابيل كاسحة، فأقدام خيولها ترمي وجوه المارة برشاش من طين.

إنهم يعلقون في مؤخرتها سلكاً شائكاً يصيب الصِبية إن أرادوا التأرجح بها بشيء من وخزاته.

ـ 2 ـ

نحن في اليوم التالي... وفي المساء، إنه الأصيل، والشمس ترسل أشعتها العسجدية فتصبغ البرك، والأطيان، وجدران المسجد الصغير باللون الذهبي. هؤلاء الصبية الصغار، ذوو الوجوه السمر ما زالوا يخوضون في الوحول القذرة غائصين حتى الركبتين.

إن كل شيء في الدنيا يتوهج ويصطبغ بلون الشمس الغاربة.

ـ 3 ـ

وهذه عاصفة ترابية هوجاء. لقد أطبقت الظلمة على الشوارع والبيوت وعلى كل شيء... ويتخذ الهباء[1] سبيله إلى الأنوف، والحلوق، والعيون، والصدور. وعلى الرغم من شدة حرارة الطقس، تجد الناس ملثمي الوجوه ملتفين بعباءاتهم. ولا فائدة ترتجى من إغلاق النوافذ بإحكام، فالغبار ينفذ منها على الرغم من ذلك كله، إنه يكسو المناضد والكراسي بطبقة رقيقة.

إن لون السماء، والنهر، والطريق، والبساتين واحد: إنه اللون الترابي المغبر...

---

(1) الهباء التراب الذي تطيره الريح فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم يلتزق لزوقاً.

لقد توقفت الفراشات عن طيرانها، والببغاء عن المحاكاة.

هذا (طفل) لفّ بعباءة برتقالية اللون، وقد ذوى فولت نضارته.

وهذه (يهودية) تصارع الريح العاتية، ومئزرها الوردي المصنوع من الحرير السميك منتفخ، وكأنه شراع سفينة تجري وقد حبست الريح فيه! إن هذه المرأة خجلى كاسفة البال، فلقد كسا الغبار جسمها كله.

لقد أصبحت الدنيا معتمة، ومن عليها يكاد يختنق أو يصاب بالدوار والغثيان.

إن النفايات تتطاير في كل مكان، وتلوث الغبار... فكأن روحاً خبيثة غشيت المدينة كلها.

ـ 4 ـ

إنها ساعة الأصيل، هذه صفحة دجلة[1] كمرآة مصقولة واسعة تعكس السحاب الوردي، وتضاعف الشعاع العسجدي فما أَحَيلى ذلك!؟.

ونزلت «مليكة الأنوار» إلى خدرها في مهابة وجلال. وأعقبت الغسق المتورد ظلمة أطبقت على حوائط[2] النخيل الممتدة على سيف[3] النهر. فإن نظرت إلى السماء وجدت أسراب الزاغ فيها متزاحمة ولخفق أجنحتها صوت يشبه المطر في تسكابه. وقد تغزو الطيور هذه السماء كلها فترى الأسراب متتابعة، متلاصقة لا تنتهي إلى مد البصر. وقد تمر الأسراب فوق الرؤوس

---

(1) سمى البابليون والآشوريون هذا النهر «اي ـ دكلات I - DI - Ik - LAT» على ما جاء في الكتابات المسمارية، وسماه العبرانيون «حداقل» وبذلك ورد اسمه في التوراة. وأصل الحاء في حداقل «هـ» وهي «الـ التفريق» في العبرية وسماه الفرس «تيكرا» أما في العربية فهو دجلة وقد انحدر من الاسم البابلي.

راجع أصول أسماء الأمكنة العراقية ـ بشير فرنسيس وكوركيس عواد ـ سومر المجلد الثامن ص261.

(2) الحوائط: جمع حائط وهو البستان.

(3) سيف النهر: ضفته.

وتتكاثف كالسحاب الثقال، وقد يصحبها أحد الصقور الجوارح، ولكنه لا يهاجمها إلا لماماً وقد ينقضّ على طير تخلّف عن سربه أو كاد!.

ـ 5 ـ

وهذا شيخ من الصحراء يقدم إلى بغداد ونحن مدعوون لديه لتناول الطعام. إنه سيد الخيام والقطعان، ولقد استأجر لنا السيارات لتقلنا إلى داره مارة بالدروب الضيقة. وتصطدم هذه بالجدران، ويتراجع الناس عنها إلى أبواب دورهم حذراً من الدهس والدعس، أما الباعة الذين يجلسون على قارعة الطريق فسرعان ما يجمعون بضاعتهم ويولّون هاربين في إحدى الطرق الصغار.

ووصلنا البيت فإذا به صغير ساذج، واعتذر الرجل عن ذلك مفيداً أن الأجدر به أن يستضيفنا في بلده. وقادونا إلى الطابق الأعلى، وقدمت لنا السكائر، ثم قدموا لنا أولاده، وهم صبية تتراوح أعمارهم بين 13 ـ 15. ولا يجسر أحد منهم على الجلوس بحضرة أبيه، أو معنا. إن سلوكهم حسن وهم يحسنون الكلام أيضاً. وقد تعلموا التخاطب بالإنكليزية في مدرسة مستر فان ايس بالبصرة.

وسألتهم: «كم لكم من الإخوة؟» فأجابوا: «أربعة أو خمسة، والأخوات؟» وظهرت على وجوههم إمارات الحيرة، وعدم اليقين. إن الأخوات بنظرهم على شيء من الثقة، لذلك اتجهوا إلى أبيهم بالسؤال، وإذا بالأب حائر مضطرب أيضاً. وأجابوا أخيراً: إنهنّ كثيرات!.

وسألتهم: ولكن، ما عددهنّ؟ وإذا بهم جميعاً يتشاورون جادين، وتسفر المشورة عن أن العدد 14 أو 15 أو لعلّه أكثر من ذلك.

وقلت: إن لأبيكم، إذن عدداً كبيراً من النسوة؟ وأحال الصبية أمر الإجابة على ذلك إلى أبيهم فقال، وهو يبتسم ضاحكاً، إنه لا يعرف عددهن على وجه التحقيق. إنه يحيا حياة يسودها نظام الأبوة، ومن واجب الأب فيه أن يكثر من البنين والبنات، ويبتهج بالعدد مهما كلّف الأمر.

وانتقلنا إلى غرفة مجاورة زينت بالطنافس وأعدت فيها المائدة. وكان عدد أنواع الأطعمة التي قدمت لنا 10، ولا تدخل في هذا العدد الفاكهة

والحلويات، وكثير من هذه الأخيرة حسنة الطهو. والعربي يكلف باللحم السمين الدهين، وبالحلوى إن كانت أشدّ ما تكون حلاوة: وكانت هناك كثير من الصحون الشهية أعدت للآكلين، شريطة أن تكون للإنسان شهية. وتصيب الإنسان الكظّة وتذهب الشهية إثر تقديم الصحون الأولى. وقد كنت أرجو أن يبقى لديّ شيء منها لأستمتع بتلك البرتقالات الكبار التي تزين المائدة. وكان تناولنا للطعام يجري على طريقة أهل المدن، لا على طريقة أهل الصحراء، فلقد كنا نجلس على الكراسي ونستخدم الشوكات والسكاكين.

ـ 6 ـ

خرجت يوم الأربعاء إلى الصحراء واتجهت صوب مقبرة المسلمين. إنها مدفن موتاهم منذ أيام العباسيين. ويرقد فيها الأتقياء الصالحون والرجال العظام، ولعلّ (بهلول) في المقدمة منهم جميعاً. والعوام يلقبون بهلول بـ(مضحك هارون الرشيد)، والحقيقة أنه كان من الصالحين وإنساناً سوياً، ويزور قبره كثير من البسطاء أيضاً، ويوم زيارته هو الأربعاء، على وجه أخص. وزرت السيد، ذا العمامة الخضراء في مرقد الشيخ جنيد، وشاهدت الحجر المقدس الذي أخرج لتراه لمة صغيرة من النساء ورفعت احترامي إلى مقام صانع المعجزات. وسرت في طريق منحنية صوب مرقد بهلول، وصحبتني إليه النسوة اللواتي عرفتهن في تربة الشيخ جنيد[1] وقامت بيننا فيه إلفة. ألم نكن جميعاً رفقة من الزوّار، تعتلج نفوسنا برغبات خفية ونذور سرية، قد تستجيب لها السماء أو لا تستجيب. ومن يدري لعل كلمة طيبة تصدر عن الرجل الصالح (بهلول)[2] وتصعد إليه تعالى فيستجيب لنا!.

---

(1) المتوفى سنة 298هـ (910م) وكانت مقبرته تعرف باسم مقبرة (الشونيزية). (المترجم).

(2) إن قبر بهلول دانه، الشهير ببهلول المجنون لـ(وهب بن عمر الكوفي) ويقال إنه من تلامذة الإمام جعفر الصادق. ولقد قرأ الرحالة نيبور (هذا قبر سلطان المجذوبين والنفس المطمسة سنة 501 (= 1107م) ويقول (المستشرق ماسينيون إنه قرأ سنة ـ نين... ثة
ستة ـ وثما ـ وسبعما
أو 876 (= 1384)
راجع: Mission en Mesopotamie Par Massignon (المترجم).

ويقوم المرقد داخل سور يحيط به من الجوانب كافة. وهناك فناء شجير أمام مرقد الشيخ الصالح. ولو نظرت إلى الأرض لوجدت الطابوق وقد صفّ هنا وهناك بما يشبه الدور الصغار التي يبنيها الأطفال وقد لا يكون هناك شيء داخلها، أو قد يكون فيها بعض الحصى، أو إحدى الخرق، أو بقية ناموسية، وكلها مرتبة بغير عناية وتمثل أشياء عدة؛ كمهد الطفل مثلاً. وتسمى النسوة هذه بـ(البيوت) وكل منها تمثل أمنية مما يهفو لها قلبها. . إن «البيت» الذي يضم المهد معدّ من امرأة عاقر، وهذا الترتيب الغريب للحزم والخرق يمثل سرير الزوجية وهو أمنية قلب فتاة حلّ وقت زواجها، ولم تتزوج. وتترك النسوة هذه «البيوت» الصغيرة في فناء المزار للشيخ وتذكّره بصمت بأن لها مطالب قدمتها له. فإن أجيب الطلب وتحققت الرغبة هدمت البانية «السعيدة» بيتها وقدمت شكرانها.

والتصقت بي إحدى رفيقاتي وكشفت لي عن مكنون قلبها قائلة: «إني يا سيدتي، تعسة، وزوجي في (بمبي)، وقد مضى على فراقه 12 سنة، فأنا الآن وحيدة. وأروم أن أرسل إليه صورتي ولكني أخجل من أن أرفع النقاب عن وجهي في أحد الدكاكين. أبمقدورك أن تصوريني لكي أرسل صورتي إليه؟».

لقد كانت شابة جميلة، تشوب وجهها الكآبة والاضطراب. ووعدتها بذلك. فقالت: ولكن لا تسمحي لأحد أن يراها، إذ لا أريد أن يرى وجهي أحد، ولتكن صورة واحدة فقط. وطمأنتها، إذ لن تزيد على صورتين، أعطيها واحدة وأحتفظ بالأخرى. ثم قلت لها: وسأصورك الآن، وليكن جدار المرقد خلفك.

وانخلع قلبها على مرآى آلة التصوير، ثم أخذت تتلفت مروّعة، وهي تخشى رفع النقاب عن وجهها. وأنَّبتها النسوة الباقيات على هذا، وقلن: «ألسنا جميعاً نسوة، فلم تخجلين؟» واستجمعت في الأخير أطراف شجاعتها ووقفت صارمة جادة المحيا وخلفها الجدار وقد أضيء بأشعة الشمس، وصورتها وانتهى الأمر. وكان عليّ أن أشرح لها أن من المتعذر إظهار الصورة في لحظة، وأني سآتي بها وائتمن عليها السيد في تربة الشيخ جنيد ولن تقع عينه عليها أبداً لأنني سأضعها في مظروف مختوم وأكتب على جانب منه

اسمها. وعندما سألتها عن اسمها نطقت به. ولم يكن لديّ قلم رصاص فاستعرت واحداً من رفيقتي، وهي سيدة فرنسية عاشت في أفريقيا الغربية. وكانت السيدة هذه تحمل في كيسها (باقلة سوداء) وهي من تعاويذ الزنوج. وعندما فتحت السيدة الفرنسية حقيبتها ورأيت حبة الباقلاء أخذتها منها لكي أريها إلى صديقاتنا الجديدات، وأنا أقول: «إن هذه للفأل الحسن». وتناولتها النسوة بإجلال، كما أخذتها الفتاة ذات الزوج الغائب في (بمبي) وقبّلتها ورفعتها لتلامس كلا من عينيها، الواحدة تلو الأخرى، وهي تتمتم: «إن شاء الله يعود... إن شاء الله يعود». وكان صوتها يفصح عن شوق حار، وانتابني الأسى لما هي عليه من وحدة. وودعت النسوة، ذوات العباءات السود، وتركتهن عند قبر (بهلول) وهنَّ يبنين «بيوت المنى» ويقمن الصلاة. فلو استجيبت الرغبات لوددت أن تستجاب رغبتي، وهي رغبة تلك الزوجة التي غاب زوجها بالذات، الزوجة ذات العيون الحزينة والقلب الصادق.

آمل أن الرجل الصالح بهلول أخذ بهذه الإشارة ووضعها في الموضع اللائق بها.

ـ 7 ـ
صانع القاشاني

إنه رجل بلغ من الكبر عتياً، ولكنه على الرغم من ذلك شاب في جسمه وعقله. وإنه يعمل في جوار المسجد حيث تسطع الشمس، وحيث تتطاير «ذوات الأطواق» فوق الرؤوس، وهديلها يملأ الأجواء. ويمر به طلاب العلم الديني في طريقهم للدراسة، والصلاة، وكذلك الأطفال الذين يدأبون على قراءة القرآن في ظل القبة الزرقاء. إنه كثير الاستغراق في عمله فلا يأبه لأي شيء. يقول هذا «الفيلسوف» إن الصلاة هي العمل. ولعلّ هذا الشيخ الذي استطاع بيديه الماهرتين أن يكسب القاشاني جمالاً فتزدان به أماكن الصلاة، أطول الناس «صلاة» وعلى الرغم من أنه لم يدخل المسجد طوال حياته إلا لماماً... إنه يضع عمامة خضراء مائلة فوق رأسه. إنه، وتلامذته مكلفون بإعداد

القاشاني، مما يحتاج إليه في بناء الجوامع وقبابها، وهو عمل يتطلب مهارة وإتقاناً. ومن أنواع القاشاني ما هو دقيق الصنعة ذو ألوان زاهية، وعليه صور الأزهار والأوراق، وأواني الورد، وخطوط منحنية مختلفة الأشكال. وصانع القاشاني هذا قادر على تقليدها على أحسن وجه. إنه شديد الكتمان لطرائقه، وصقلاته الخزفية، ولعله سيطلع عليها أحد الصنّاع المهرة قبل أن يحين أجله الموعود. وهو قادر على تقليد أنواع القاشاني، وله طرز خاصة ابتدعها بنفسه. وليس ذلك كل ما يحسن. إنه لقادر على صنع أشباه دقيقة للعاديات، وعلى الإتيان بذلك البريق العجيب الذي يسميه «وهج الشمس» وتصريفها على باعة التحف في المدينة، وهؤلاء، بلا شك يبيعونها على اعتبارها أصلية. ويقوم دكانه في ركن من أركان الباحة، وتساكنه فيها قطّة بيضاء لطيفة. وتقوم في أحد أركان الغرفة (كورة) صغيرة، وهناك كورة كبيرة بنيت من طين وهي قائمة تحت سدرة عارشة. أما أصباغه فهي محفوظة في ركن آخر. إنه يرسم الطرز التي يبتدعها على الورق، وهو في ذلك يستلهم طرز القاشاني القديم، وقد يعمد إلى إدخال شيء في قالب مهشم، وينقل رسمه بإحداث ثقوب على خطوطه، ثم يرمي مسحوق الفحم على الورق ليظهر الطراز على قاشانية وضعها تحته. وتخلط الألوان في صحن صيني أنيق، ولكنه مكسور ويا للأسف. أما المواد المستخدمة في الخلط فهي: صغار الحصى، وأنواع التراب وقد جرى سحقها جيداً، وبعض المعادن كالنحاس والذهب وما إلى ذلك.

إن اللون الأزرق الفارسي الجميل، وهو اللون الغالب على كل الألوان، نتاج النحاس. وهو يخلط بالماء وبأحد أنواع الرايتنج (القلفونية) Resin[1] المستورد من إيران، وأوراق إحدى الشجيرات، ويمطّ المغلي ويصبح جاهزاً للاستعمال. وتوضع الألوان، بعد إعدادها، في حقائب صغيرة. ومادة الصقل بسيطة مصنوعة من الحصى الصغيرة والرصاص والزجاج المهشم، وتلحق بالمسجد إحدى الغرف العالية وتجري فيها العمليات الأولى. ويؤتى بالتراب من بقعة تقع على ضفة دجلة شمالي بغداد، حيث التراب ملائم للعقد، ثم تصنع منه

(1) وهو الـ Colophony نسبة إلى «قلفونية» (مدينة في روما) ولذلك فيسمى (رايتنج قلفونية) ويسميه ابن البيطار (صمغ الصنوبر) انظر معجم شرف.

قوالب مخططة بالرمل اليابس. ثم تيبس هذه القوالب وتشوى قبل أن تفرش عليها الطبقة الأولى من اللون أو الصقال. وقد تتراءى العملية هذه بدائية بسيطة، ومن يقوم بها قلة من الرجال. وإنك لترى فوق رؤوسهم بلبلاً في قفص يشدو، وأشعة الشمس تنفذ من خلال الباب المفتوح. أو قد ترى فوق قبة المسجد رجالاً يعملون على إصلاح ما تكسر من قاشانيها. إنهم لا يأبهون لحرارة شمس الربيع المحرقة، وهم يفرشون أولاً طبقة الجبس ثم يضيفون إليها القاشانيات الجديدة في مكانها اللازم، على وفق الطراز القائم. والجبس أشد ما يكون إسراعاً إلى التصلب، لذا فإنك تجد القاشانية وقد ثبتت في مكانها لدى وضع قاشانية أخرى. إن الزهور والأوراق تشيع في النَسَق العربي Arabesque أو (التوريق) العريق، وتستلهم في أغلب أنواع الريازة، بما يخالف الشريعة الإسلامية، إذ قد يضع أحدهم فيها صورة مخلوق حي (رأس ديك) في طرازها.

وتسلقنا سلم المئذنة، وقد أتموا بناءها مجدداً في الآونة الأخيرة. إن ألوانها الوردية والشذرية مشعة زاهية، ولقد رأينا بغداد من فوقها. إنها تتراءى مدينة مسطحة البيوت، شرقية لا غربية، وكما كانت ترى أيام العباسيين. أما دجلة فيظهر كشريط يلتمع ويتلوى بين النخل والشجر الأخضر وخلفه صحراء كانت تقوم فيها (المدينة المدورة)[1] والتي أقام فيها الخلفاء الأولون واستحالت اليوم إلى تراب.

وتسمع لمناقير اللقالق على إحدى السطوح القريبة قعقعة، ولعلها تتأمل في المدينة مثلنا. والأعشاش كثيرة فوق السطوح وهي بصغار اللقالق موقرة، وإنك لتجد اللقلق الأب وقد علته المهابة وهو يحاول إرجاع صغيره الذي يريد أن يطير قبل الأوان. ولنترك هذه الطيور تطيل التأمل ولنتخذ السبيل المتلوي المؤدي إلى الباحة السفلى، حيث يقف صانع القاشاني وبيده هدية هي عبارة عن قاشانية صفراء سقط عنها شيء من صقالها بفعل السنين، ولكنها ما زالت ناعمة الملمس وجميلة. يقول الصانع المذكور إنها من العاديات الأصيلة، وإنها ليست مما يصنع

---

(1) «المدينة المدورة» شرع المنصور بتخطيطها سنة 141هـ (758م) وقام بتأسيسها سنة 145هـ (762م) وأتمها سنة 149هـ (766م). (المترجم).

للسوق. وشكرناه على ذلك وأثنينا على ما يصنع. وليس في هذا الصانع القديم شيء من التواضع المصطنع، إنه يقول: «ليس لي ندّ في العالم! وليس هناك من يستطيع صنع القاشاني مثلي، سواء في بغداد أو في الكاظمية».

في مقدور هذا الرجل أن يفخر بأنه أحد صناع القاشاني القدامى، وهم من طبقة محترمة، ما دام الذي يصنعونه مقدر. كانت شوارع بابل ومعابدها وقصورها، والمدينة في أوج قوتها، تشع بالقاشاني المميّن[1] وكنت تجد صورة الأسود والغرافين[2] الملونة بالأصفر، الأزرق، والأبيض وكأنها تمشي متشامخة على سطح الجدران الصقيلة القائمة على جانبي الطريق المقدس ومنها ما كان يرى حتى عهد قريب على بوابة عشتار الكبرى في المدينة المتهدمة. وكان الأزرق الشذري، شأنه اليوم، هو اللون المفضّل في صنع القاشاني والخزفيات. ولعل القبة الفخمة التي أمر (قبلاي خان)[3] بإنشائها لملذاته، واستعمل فيها القاشاني اللطيف البهيج، لم تكن إلا من صنع صانع قديم كان يعمل في دكان من دكاكين بغداد.

وما أن أقرأ قصيدة (قبلاي خان) إلا وتتراءى لي (القبة الزرقاء) وخلفها أشجار شديدة الاخضرار.

ـ 8 ـ

إنه يوم قائظ من أيام الصيف اللاهبة، وإنه يوم ميلاد الملك فيصل...

ونظم فيه سباق للسباحة النهرية، وازدحم المتفرجون في القوارب الراسية على ضفتي دجلة، والذي يلفت النظر أن بين الجموع نسوة يرتدين العباءات والمآزر الجذابة. وكانت الأعلام ترفرف في النسيم، ومن نعم الله أن يستروح الناس في ذلك اليوم بنسمة شمالية.

(1) الممين آثرناها ترجمة لكلمة Enamelled وتعني المطلي بالميناء.

(2) الغرافين: griffin وحش خرافي نصفه سبع ونصفه طير. (المترجم).

(3) قوبيلاي خان، أعظم أباطرة المغول طراً، وحفيد (جنكيزخان). اتصف بحب الإحسان ورجاحة العقل، ودوى اسمه في كثير من الأرجاء ووصلت جيوشه في أوروبا حدود بولندا. توفي سنة 1294. (المترجم).

وبدأ السباق من (جسر مود)[1]، أما نقطة السبق فتقع على بعد بضع مئات من الياردات جنوبي النهر المتلألىء، وقد جلست اللجنة وضيوفها في باخرة قريبة من تلك النقطة. وإنك لترى صبية صغاراً يرتدون سراويل السباحة وفي رقابهم أرقام السباق، وأشد ما يكونون توقاً لسماع إشارة البدء، إنهم متنقلون جماعات من محل إلى آخر.

ودوّت إطلاقة مسدس، وانطلق عدد من الصبية الصغار يعومون بعيداً عن الجسر، وينحدرون في التيار، وتشجعهم هتافات المتفرجين.

وأعقب ذلك سباق آخر للقوارب (الأبلام)، وهو الاسم الذي اعتدنا على تسميتها به في بغداد. وضجر المتسابقون من الانتظار لحين انتهاء السابحين من سباقهم، فانطلقوا يتسابقون، وكانت النتيجة أن المجاذيف كانت تضرب في الماء بين السابحين، وبرحمة منه تعالى لم يصب أحد منهم بضرر بليغ. ولم يكن ذلك ليكفي، فانطلقت القفف تتسابق وراء القوارب، وبذلك كان المتفرجون يشهدون 3 سباقات تجري في آن واحد، كما ساد الهرج والمرج قرب نقطة السبق بوجه يند عن الوصف. وينقطع أحد أرباب القفف عن الجذف ويترك المغرفة سادرة قبل أن يصل نهاية السباق، وينادي بأنه أحرز قصب السبق. وكان من الصعوبة بمكان إفهامه أن السباق لم ينته بعد: غريب أمر هذه القفف ما أسرع سيرها! أكان هناك يا ترى سباق للقفف في بابل القديمة؟ فمما لا شك فيه أن القفف وجدت في دجلة قبل حكم نبوخذنصر بأمد طويل، ولقد قام الفنانون[2] الآشوريون بتصويرها على الطنف (الأفاريز Friezes) التي قام باستخراجها من الأرض (لايرد Layard)، وهي شبيهة بالقفف التي تصنع اليوم.

---

(1) ويقوم اليوم مكانه جسر الأحرار. (المترجم).

(2) الفنانون جمع فنان Artist. شغل البعض طويلاً بالمساجلة حول استعمال الكلمة فقال فريق إنه لا يجوز استعمالها بمعنى رجل الفن المتخصص له الضليع، لأنها لم ترد في اللغة إلا بمعنى (حمار الوحش) وقال غيرهم لا مانع في استعمالها، والصحيح أن الفنان هو الذي يعالج الفن ويزاوله ويكاد يكون هذا الوزن الثلاثي قياسياً لكثرة ما ورد منه، فاستعماله لا غبار عليه، واتخاذ القياس يزيد اللغة ثروة ويؤدي معاني لم يعرفها السلف، وهذا شأن جميع اللغات الحية. (المترجم).

ومما وجد على الطنف الآشورية صور سباحين شدت إليهم جلود الشاة المنفوخة (جربان) ـ وكان سباق مثل هؤلاء آخر سباق في منهج اليوم. ويضرب المتسابقون بأرجلهم في الماء بقوة، وهم يستندون إلى (الجربان المنفوخة) لتساعدهم على السباحة. إن أيديهم ممدودة إلى قدّام، ولقد استطاع أحد المهرة في فن السباحة أن يسبق زملاءه بمسافة بعيدة. ويشاهد منظر هذا الصنف من المتسابقين كثيراً في الموصل، وحتى في أيام بواكير الربيع حيث يكون ماء النهر ببرودة الثلج. فإن جمدت مفاصل السابح خرج من النهر وركض على سيفه قليلاً ثم عاد وقد شعر بالدفء مرة أخرى. وقيل إن رسولاً خاصاً استطاع أن يبلغ بغداد سباحة بهذه الطريقة بعد أقل من يومين من مغادرته الموصل، وإبان الفيضان العالي بالذات.

ونال السباق ترحيباً كبيراً، لذا فإن إعادته في سنة أخرى أمر محقق. ويحب البغداديون السباحة، وصبية اليهود منهم على وجه أخص. وإنك لتجد المئات من هؤلاء سابحين في أوائل الصيف. ومنهم من يقول إن تعلّم السباحة جزء من الواجبات الدينية، وكذكرى لعهد الطوفان، وقد غزت المياه فيه الأرض كلها. وآخرون يرون فيه نوعاً من الرياضة التي يأخذ بها الصبية اليهود. ومهما كان الأمر، إن جموع السابحين في أمسيات بغداد جزء لا يتجزأ من حياتها إبان الصيف. ولا يتخلف البريطانيون عن احتذاء هذه الجموع.

وتقيم سلطات نادي العلوية خياماً للسباحة على جزيرة تظهر في النهر أمام النادي إبان الصيف، فتصبح بمثابة مرسى له. وتستحيل هذه الجزيرة إلى شاطىء (دوفيل) المصغّر كل مساء.

هذا وإن رحلات السباحة من أفضل أنواع التسلية خلال تلك الأيام والتي ترتفع فيها الجزيرة كثيراً.

وعندما يبرد الجو في الأمسيات، يرتدي السابحون ملابسهم، في إحدى البواخر النهرية، أو على سيف النهر، ويتناولون عشاءهم رخاء في إحدى البقع اللطيفة، وينسون بذلك حرّ اليوم وعناءه.

الفصل التاسع

المرأة العراقية

النسوة العراقيات. . .

إن ذكرت هاتين الكلمتين تتابعت الصور متوامضة متواكبة في المخيلة! فالمسلمة بتربيتها العالية، نحيفة القوام ذات مهابة وجلال. إنها تلبس العباءة السوداء، وتسدل الخمار على وجهها فيقيها نظرات الأغراب. وتلبس المرأة المسيحية مئزراً حريرياً يميل بلونه إلى الزرقة، وتتبختر المرأة اليهودية بمئزرها وتسدل على وجهها خماراً سميكاً له حافة من فضة، ورقيقات الحال من الموسويات يلبسن مآزر لها شرائط. والمرأة العشائرية لا تسدل على وجهها الخمار، إنها تتألق صحة ونشاطاً، ويظهر ذلك على خديها المتوردين، ويفتر ثغرها دوماً عن ابتسامة عذبة. وقد تتخذ الوشم[1] المميز لعشيرتها على

(1) لا تتخذ العشائر البدوية الوشم شعاراً مطلقاً. فالوشم وسيلة من وسائل الزينة. وقد تختلف العشائر في الأماكن التي يجري الوشم عليها من جسم المرأة ولكن ذلك لا يرقى إلى مستوى القاعدة المقررة كما لا يمكن مطلقاً تمييز امرأة من عشيرة عن أخرى بالوشم. ويبدو أن المؤلفة عممت ما هو معروف عن اتخاذ كثير من القبائل البدائية كسكان أستراليا الأصليين والهنود الحمر وسكان جزر المحيطين الهندي والهادي في مناطق بولونيشيا ومكرونيشيا وأوشينيا الأصباغ على الجسم شعاراً للقبيلة. وهذه ظاهرة اجتماعية أخرى مبعثها الإيمان بالطوطمية وتستعمل في الاحتفالات الدينية أو في حالة التهيؤ إلى الحرب، ولا علاقة لها البتة بالتجميل بدليل أنها تزاول في أغلب الأحوال في بعض القبائل، وحصراً في قبائل أخرى، بين الرجال دون النساء! تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

الحاجبين والخدين والحنك. والكلدانيات يلبسن البتّ[1] المخرم، ويضعن على رؤوسهنّ العمامة. وصبايا تلكيف يلبسن لباساً غريباً فيه النضير[2] والخرز وهو مبعث الدهش والاستغراب. واليزيديات يلبسن ثياباً قرمزية ويتزيّن بالفضة وتلف الواحدة منهن حول خصرها زنّاراً[3]، أما الأرمنيات فهن أشبه بالفلاحات القبرصيات، يشددن الرؤوس بالكفافي وتتراءى الواحدة منهن وكأنهن تعيش في عالم ثان جميل..! وغير ما ذكرت كثيرات..

وإني لأذكر الكنائس الكلدانية أيام الأعياد وقد علقت فيها قناديل زرق خافتة الضوء... فالنسوة يتجمعن في الأماكن المخصصة لهنّ حصراً، وإذا بذلك اللون الشفقي الخافت يستحيل إلى ألوان زاهية عندما يحنين رؤوسهن خشوعاً وتضرعاً. إن دروعهن[4] تخفي جسومهن جميعاً ما خلا الوجوه بطبيعة الحال.. وإنك لترى فيها مجموعة ألوان: الفضي، والأزرق، والوردي، والقرمزي، والأبيض... وقد تسمع لها هسهسة، وكأنك تسمع الصوت المنبعث من أحد حقول الشعير وقد نشط فيه الحاصدون!.

إن مئزر اليهودية والمسيحية وعباءة المسلمة هو ما تغطّي كل منهن جسمها به خارج البيت فتلبسه على دروعها. ويضم جهاز العروس دوماً مئزراً فخماً أو عباءة فاخرة. وتنفق البغدادية على مئزرها أكثر مما تنفقه الإنكليزية المقتصدة من نساء الطبقة المتوسطة على ملابسها طوال شهور سنة. وطراز المئزر ثابت لا يتغير، وحريره على درجة كبيرة من الجودة، فلا يبلى طوال عمر صاحبته. إنه سميك، ومصنوع باليد، وتنسج فيه خيوط من ذهب وفضة، وقد يبلغ ثمن المئزر الواحد 10 ـ 15 ديناراً عادة وقد يفوق ثمن النوع الممتاز منه هذا المبلغ أضعافاً مضاعفة. وعلى الرغم من ذلك

(1) البت: كساء من صوف غليظ يصلح للشتاء والصيف.
(2) النضير: الذهب.
(3) الزنار: ما تلفه الذمية حول الخصر.
(4) الدرع: (مذكر) ثوب خاص بالنساء.

فليس المئزر بلباس عملي، إنه مزاج من الغطاء والدرع، وبه أكمام وتتماسك بالشرائط وبالدبابيس. ولا ينكر ما للمئزر من مظهر جذّاب لمن ترتديه خارج الدار وقد يزاح عن الرأس أو يعاد عليه بطريقة آلية... ! أما ألوانه فهي مختلفة، زاهية وإنك لتراه على (جسر مود)، و(نهر العشار) في أمسيات السبت وكأنك في أيام الربيع حيث خرجت كل يهودية وقد ارتدت أجمل مئزر تملكه.

أما العباءة فترتديها المسلمة لتغطي بها الجسم كلّه، من أعلى الرأس إلى أخمص القدم. وقد تكون العباءة بهيجة اللون كالمئزر لكن المسلمات من علية القوم لا يرتدين العباءات باللون الفاتح ويسرن بها في الشوارع. إنهن قد يرتدين الملابس بألوان قوس قزح في بعض المناسبات، كحفلات الزواج مثلاً، وتتكلف الشابات، على كل حال، بالألوان الزاهية كالبرتقالي والأخضر والأحمر الداكن.

كنت نزيلة البصرة، وعلى مقربة من مسكننا مدرسة للبنات. وكنت أنظر إلى الطالبات الصغار وهنّ يعبرن الجسر من تحت شباكي في طريقهن إلى مدرستهن ويلبسن العباءات بألوان زاهية وهن كأزاهير الحدائق... وكانت كل واحدة منهن بحراسة خادم، وقد ترنو بعضهنّ إلى... كما كنت ألقي إليهن أحياناً بالحلوى فتقع في جوانب أرديتهن الحريرية.

وما أن تبلغ الصبية سن الشباب إلا وتتغطى خارج الدار بالعباءة السوداء، وهي خاصة بعلية النساء المسلمات. وقد تشاهد وجوههن يخفيها الخمار.

في مقدور الأوروبي، أو الأوروبية، أن يكشف حقيقة من يصادفه، رجلاً كان أم امرأة، ومقام كل منهما من نوع اللباس المرتدي. ذلك أن الفوارق في الدين والرس واضحة المعالم في البلاد. فأهل الأديان المختلفة لا يختلطون إلا في القليل، كما لا يميل أي رجل، أو امرأة، إلى الظهور بمظهر يختلف عن مظهر طبقته أو دينه. فلا غرابة إن سمعت من يقول: «وكانت هناك نسوة مسيحيات...» أو «وسألت يهودياً...» أو «قالت لي

كلدانية». وهكذا دواليك. فلا لزوم أن يسأل المرء عن الدين أو الرس ذلك أن اللباس والمظهر كفيلان بالدلالة عليه.

وتميل المسلمة من علية القوم إلى اللباس الذي لا يتسم ببهرجة المظهر. والمسلمة المحافظة لا تلبس الملابس المفصلة على الطرز الفرنسية، ومما تصنعه أخوات الدير الراهبات أو تبيعه معاهد أوروزدي باك، وإنما تكتفي بما اعتادت زميلاتها على لبسه. وهي تضفر شعرها في جديلتين طويلتين تقع كل واحدة منهما على جانب من جانبي وجهها. وهي تشدّ الرأس بعصابة (بويمة) من الحرير الأسود تكاد أن تستره كله: ولهذه الـ(عصّابة) طرفان يتدليان على الأذنين، وقد تشدّ كفية سوداء أخرى فوق الحاجبين وتثبت طرفاها بدبوس من خلف. وهي ترتدي (الزبون) وهو قميص طويل الأكمام مفتوح من قدّام وقد ثبتت فيه (بروش) أو (دبوس) وقد يحزم بخيوط من ذهب أحياناً. وفوق (الزبون) ترتدي (الهاشمي) وهو ثوب شف ذو أكمام واسعة، ويرمى طرفه أحياناً فوق الرأس ويصنع عادة من حرير أسود مخطط. وتتخذ المرأة العراقية زينتها وتصطنع لذلك كثيراً من وسائل التبهج[1] وليس هذا بالشائع الغالب. إنها تضع الكحل في عينيها، والكحل مسحوق أسود مصنوع في الغالب من الأنتيموني، ويقال إنه يقوي العينين ويعطيهما حافة سوداء مقبولة. والشعر يفرك في الحمام بأوراق الحناء من قبل الخادمات، ويقال إنه يمنع سقوط الشعر، ولا تنس أن جلّ العراقيات لهن شعر فينان كثيف.

وترتدي المسلمة خارج البيت عباءتين، تضع في إحداهما يديها، وتضع الثانية على رأسها فتغطي الجسم كله.. وهي تسدل على وجهها نقاباً أسود خفيفاً. إنها لا تتزين بكثير من المجوهرات، إذ الحجول لباس الطبقة الدنيا، والفتيات المسلمات من عامة القوم لسن دقيقات في حدود الذوق فهن يلبسن الحجول الثقيلة من ذهب وفضة، وتتراءى الحجول من وراء الجوارب فوق نعالهن، وهي بلا كعوب. ولا تضرب الريفيات الفقيرات نقاباً على وجوههن،

(1) آثرناها ترجمة لكلمة Cosmetics

وهن يكلفن بنوع من الحلي يسمى (خزامة) ـ خاتم الأنف، وآخر يسمى (الوردة) وهي تصنع من الذهب واللآلىء والشذر وتثبت في المنخر. وهن يلبسن السلاسل الفضية والحجول والخرز والتمائم والأساور.. وعلى الرغم من الوشم فهن مقبولات الشكل، ضوامر، وقوامهن سبط، ولهن سيقان ممشوقة. واعتدت أن أشاهد كل يوم صفاً طويلاً من هاته النسوة العاملات الصغيرات وهن يعبرن (جسر مود) في غرة الفجر وقد وضعت كل واحدة منهن 6 ـ 8 علبات من علب (الروبة)، واحدة فوق أخرى في عمود متعال. وتجيء البعض منهن من جوف الصحراء، ومنهن من يعلقن الأطفال فوق ظهورهن. إنهن يمشين متبخترات، «مشية الأميرات»، ويبتسمن، ويمرحن، ويلقين بالتحيات إلى من يمر بهن من المعارف. وعندما يصلن المدينة يقعدن على قارعة الطريق أمامهن علب (الروبة) المستديرة يبعنها إلى من يريد... وقد يناقلن الحديث بعضهن بعضاً مرحات، أو يرضعن أطفالهن بين الفينة والفينة. ويسترن أرجلهن خلال سيرهن الطويل بخرق بالية، ويشددن رؤوسهن ليحفظنها من أوار الشمس.

وليست بنت الصحراء ببدينة أو مترهلة. فحياتها كلها تعب وإجهاد فلا سبيل لأن تتكدس اللحوم على الجسوم. ولها حرية لا تحلم بها المرأة المتحجبة، زوج الثري في المدينة. وهن يدفعن ثمن هذه الحرية غالياً... من العمل الكاد الدؤوب. وسمعت في الحلة[1] عن إشاعة تذهب إلى أن موسراً تزوج فتاة من شمر... والفتاة العشائرية هذه كانت تمضي كل وقتها تتنسم النسمات العليلة وتستروح الهواء الطلق من فوق سطح البيت... ولم يرق ذلك للزوج فاضطر إلى تطليقها وسرحها بمعروف. فالفرق بين حياة المرأة العشائرية وحياة المرأة في المدينة بيّن شاسع كالفرق بين الشرق والغرب. وقد تضطر زوجات الشيوخ إلى التخلق بأخلاق نساء المدن حتى في الريف فيسدلن على وجوههن نقاباً صفيقاً ويجرين على ما تجري عليه هاته النسوة استجلاباً لرضاء أزواجهن. ومن كبار شيوخ العشائر من يحتفظ بعدد كبير من الزوجات،

(1) الصحيح أن تكتب بهاء منقوطة.

أو بالأحرى زوجات وإماء[1] . . وإنهن يعشن تحت سيطرة امرأة بلغت من الكبر عتياً، ولكل واحدة منهن غرفة خاصة بها. والشريعة الإسلامية تلزم الرجل بأن يعدل بين نسائه لذا يوكل إلى تلك العجوز أن تقرر من منهن ستتشرف بزيارة الزوج في ليلة ما بالذات، وعلى أساس التتابع العادل. وعندما يمضي الزوج ليلته مع إحدى زوجاته ترفع على باب غرفتها راية حمراء[2]. للمسلم أن ينكح ما طاب له من النساء مثنى، وثلاث ورباع، وقد يتزوج أكثر من ذلك إن عمد إلى طلاقهن[3] ولا

---

(1) لقد ابتلي أغلب الكتاب الغربيين بالمبالغة كلما كتبوا عن الشرق والأوضاع الاجتماعية السائدة فيه. وعندي أن من أسباب هذا استمرار تأثير الكتب التي كتبت عن هذا الجزء من العالم في العصور المظلمة وبداية انتشار الاستعمار الغربي فبعض الكتاب الغربيين يتخيلون، بسبب حب المبالغة ولخضوعهم لتأثيرات تلك الكتب، وجود العبيد والإماء والجواري والغلمان في مجتمعات الشرق حتى الآن. فالمؤلفة مثلاً تطلق هذا الحكم الغريب فتدعي أنها سمعت أن أحد شيوخ المنتفق تزوج بمئات الزوجات أو الإماء.
والذي أعرفه أنه لم يجمع رجل عراقي في الفترة التي تكتب عنها المؤلفة، لا من البدو ولا من الريف ولا الحضر في وقت واحد مثل هذا العدد الضخم. صحيح أن واحداً أو أكثر من شيوخ العمارة أو المنتفق تزوج ـ طيلة حياته ـ بما يقرب من مائة زوجة. ولكن الثابت أن أمثال أولئك المغرمين بتعدد الزوجات يتزوجون كثيراً ولكنهم لا يحتفظون في وقت بذاته بعدد كبير من الزوجات بل إنهم كانوا يكثرون من الطلاق بقدر ما يتهافتون على الزواج.
أما الإماء، في مفهومها التاريخي القديم، فلم يبق لها وجود في العراق. لقد ملك كثير من شيوخ العراق الاحتلال البريطاني عدداً من العبيد كما تحول عدد من عبدات الشيوخ إلى زوجات شرعيات لهم. ولذا فالنساء العبيد في بيوت الشيوخ كن إما خادمات وإما زوجات.
تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

(2) «وهذا ضرب من خيال مخرجي أفلام السينما في هوليود حين يطلب منهم إخراج أفلام عن حياة الشرق الغامضة المترفة التي تعج بالسحر والمؤامرات، والحرير، والمجوهرات، والشبان، والجواري، والفروسية، والبطولة، كما يتخيلونها ويقيني أن الذي تدعيه المؤلفة لا يمت إلى الواقع بصلة مطلقاً». تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

(3) أباحت (الشريعة الموسوية) تعدد الزوجات إلى غير عدد والنصرانية بمقتضى نصوصها تأخذ بشريعة موسى، إلا ما جاء في الأناجيل أو رسائل الرسل بمخالفتها، ولا يوجد نص صريح أو مؤول تأويلاً معقولاً يدل على أنها تمنع ذلك. وإباحة تعدد الزوجات في الإسلام =

يتزوج العشائري في الغالب أكثر من واحدة[1]، وأهل السنة منهم على وجه أخص[2].

ألَّف (السيد حبيب شيحا) كتاباً ممتعاً يسرد فيه في إسهاب كبير عادات البدو في منطقة بغداد فيقول فيه: إن البدو يحذون دوماً حذو أحد رؤساء عشيرة (ألبو محمد)، وهو الشيخ فيصل بن خليفة، والذي كانت في عصمته

= مشروط فيها العدالة والقدرة على الإنفاق وبذلك يكون الإسلام قد وقف مانعاً الإسراف الذي تقره الشرائع من قبل، وتعدد الحلائل في الإسلام خير من تعدد الخلائل في غيره. (المترجم).

(1) «هذا حكم أقل ما يوصف به أنه خطأ فاحش. فأفراد العشائر في العراق مولعون أشد الولع في الإكثار من الزوجات بل إن الرجل من أهل العشائر يعتبر التزوج بأكثر من واحدة من أعز الأماني وأعذب الأحلام التي يسعى جاهداً لتحقيقها. ولعل الأغلبية الساحقة من العشائريين الذين ظلوا متزوجين بزوجة واحدة إنما ظلوا كذلك لأنهم فشلوا لأسباب معينة في أن يتزوجوا بأكثر من واحدة. فالدوافع لتعدد الزوجات في الريف كثيرة منها: إنه مجلبة للاعتبار الاجتماعي، وإنه عامل اقتصادي هام إذ إن المرأة في الريف أداة إنتاج فعالة في كل القطاعات الاقتصادية، وهو إلى جانب ذلك وسيلة لتحقيق رغبة معروفة عند أهل الريف هي الحصول على مزيد من النسل، والأولاد الذكور بصورة خاصة، وأخيراً فهو من المتع الحلال الطيبة. والجدير بالذكر أنه في المجتمعات التي تكون المرأة فيها عاملاً إنتاجياً وحيث يكون عدد الأولاد مقياساً للاعتبار الاجتماعي واحتياطياً أساسياً للدفاع عن النفس يصبح تعدد الزوجات والإكثار منهن ضرورة اجتماعية».

تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

(2) «لا علاقة في رأيي بين المذهب وكثرة الزوجات في هذا الموضوع بالذات. والذي يحدد عدد الزوجات بين سكان العشائر، على ما أعتقد، هو العامل الأيكولوجي البيئي لا الديني. فتعدد الزوجات في المجتمعات الريفية الزراعية المستقرة يكاد أن يكون طرازاً اعتيادياً ولذلك أسبابه التي ألمعت إليها في التعليق رقم (4)، في حين أن البدو بحكم قساوة حياتهم وكثرة تنقلهم وبحكم كون المرأة في مجتمعهم عاملاً اقتصادياً بدلاً من أن تكون عاملاً إنتاجياً. لا يتزوجون أكثر من زوجة واحدة إلا في القليل النادر. فإذا لاحظنا أن الأكثرية الساحقة من سكان الريف والعشائر الزراعية في جنوبي العراق من أهل الشيعة وأن كل البدو من أهل السنة استطعنا أن نتخيل سبب خطأ المؤلفة في حكمها الذي أصدرته».

تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

980 من الزوجات! أما ابنه الذي خلفه فلم يتزوج أكثر من 92 زوجة. وكان هذا يفصح في الغالب عن رغبته في أن تكون له 100 زوجة، لكن (الملا) لم يشجعه على تحقيق رغبته هذه واعتبر ذلك من سوء الطالع، والنحس. وأبناء المدن من علية القوم لا يتزوجون بأكثر من واحدة، وهم يحذون في ذلك حذو أهل القسطنطينية المتمدنين، وهم لا يحلّون الطلاق إلا لأسباب قوية صحيحة. وأسعدني الحظ فتعرفت بسيدات عراقيات أصبحن صديقات لي. إن ذكاءهن ولطفهن وجلالهن يؤهلهن لأن يبارين أفضل السيدات في أي قطر من أقطار العالم. ومن كان منهن في استانبول، ومن الطبقات المتعلمة، لا يفرقن كثيراً عن الأوروبيات فيما خلا التزامهن بالعادات المحلية عندما يأتين إلى بغداد. فتجدهن يسدلن على وجوههن النقاب، ولا يستقبلن الزائرين من الرجال ولا يرتدن الملاهي العامة. وقد يصطحب زوج أوروبي المنزع زوجه وأهل بيته إلى السينما وهن متحجبات، وفي إحدى الواجهات المنعزلة يشاهدن ألاعيب شارلي شابلن وقد يتركن السينما خلسة لئلا يلحظهن أحد.

وتختلف العادات كثيراً. فأنا أعرف زوجتين مسلمتين لموظفين كبيرين ببغداد يذهبن وهن يسدلن النقاب على الوجه لتناول الطعام مع الزوجين في بيوت الأوروبيين. إنهن يرتدين ملابس السهرة ويتحادثن مع الضيوف الذين دعوا لمقابلتهن.

لصديق مسلم آخر أم ساحرة وأخت، إنه أوروبي النزعة إلى أبعد حد، ولكنهن محافظات ويعشن في عزلة تامة.

وتقضي التقاليد المحلية بأن لا تترك المرأة بيتها أيام الحداد، ولقد لبست هاتان السيدتان السواد على راحل عزيز لمدة سنتين، ولم تترك واحدة منهن البيت أبداً. إنهن يرفضن بشدة اعتبار مثل هذا أمراً مفروضاً عليهن. وهناك ذات يشغل مركزاً رفيعاً ببغداد ويمنع نساء بيته من الخروج مطلقاً لا لسبب إلا لكونهن نساءه وهاته النسوة ينظرن إلى مثل هذا الحجر وكأنه من تراثهن الرفيع.

ومن الخطأ أن يتصور المرء أن المسلمات في العراق ينشدن الحرية[1] وقد يتململن أحياناً من ضرورة النقاب، ولاسيما إبان أيام الطقس الحار، ولكنهن يعتبرن العزلة مما يجلب احترام الرجال. وتنظر النسوة المترفات إلى البدع التي تأتيها بعضهن بازدراء، وتنسب ذلك إلى سوء تربيتهن. لكن التأثيرات التي قلبت من وضع المرأة في استانبول ناشطة اليوم في العراق، فالجيل النابت أخذ يتبرم بالأوضاع. وسمعت بنتاً عراقية، وقد عرف أبوها بوفارة الثروة، تقول لصديقتها التركية التي اعتادت على تذوق الحرية «وددت ألّا أكون بنتاً... إنني أفضل أن أكون بنت (بلمجي) وأتمتع بالحرية» لقد منعتها أمها من الذهاب إلى السينما عندما دعتها صديقتها إلى ذلك. وقالت الصديقة: «وهل من الضروري في الذهاب إلى السينما أن تسدل كل واحدة منهن نقاباً سميكاً على الوجه؟!» فأجابت الأم: «حسناً... إن متّ فلتفعل بناتي ما تشاء، ولكني لن أقر مثل هذا ما دمت حيّة!». إن الحرية شيء محبب يستأهل كل كفاح، فلا معدى للمرأة العراقية من أن تسعى إليها قدماً. وليس في العراق اليوم رجل مهما بلغ من «التقدمية» و«الانتصار للمرأة» يرضى بأن تصبح نساء بيته مضغة في أفواه المتزمتين، ورجال الدين. قامت النسوة في استانبول بثورة تلقائية، وكانت الحرب في جانبهن وخلعن الحجاب، وهن اليوم يشغلن وظائف كانت من قبل وقفاً على الرجال فمنهن الكواتب وسائقات حافلات الترام... ومنهن من يكنسن الشوارع أيضاً.

العزلة على وجه العموم، تضيّق من أفق تفكير المرأة. شكت لي سيدة تركية من جاراتها البغداديات قائلة: «ليس لهاته النسوة من حديث غير حديث المطبخ والقيل والقال... أو طول أهداب هذا الشاب أو ذاك!» وصرح لي أحد الوزراء أن نساء بيته على شيء من التفه ولا خير يرتجى من ورائهن، فهو يرى أنهن لا يعنين بترتيب البيت شأن الإنكليزيات، ولا سبيل

(1) المؤلفة تسرد وضع المرأة العراقية في زمن نشر الكتاب سنة 1923، إن قيمة السرد هذا لا يعدو تصوير واقع تاريخي مضى وولى، وما أعظم الفارق بين ذلك الزمن ويومنا هذا. (المترجم).

إلى إنجاز أي شيء في بيته... فلو أراد أن تنظف النافذة لوجب عليه أن يقوم لذلك بنفسه.

والتعليم سبب في تحسين مثل هذا الحال، ما في ذلك شك. وتعليم المرأة في العراق[1] معدوم. وفي استانبول مدرسة بنات ممتازة أسسها الأمريكان في (سكوتاري) ففسحت المجال أمام التركيات ليتعلمن. وليس من هذا شيء ببغداد، وبمقدور الفتاة من علية القوم فيها أن تذهب إلى مدرسة الراهبات الفرنسية لتدرس على الأخوات ذوات القلب الطيب الرؤوم: الفرنسية والإنكليزية والعزف على البيانو ومبادىء التعليم، وخياطة المخرمات وعمل الشرائط قبل كل شيء. ولو لم توجد مدرسة هاته الأخوات الصوالح، وليس التعليم فيها ممتازاً، لبقيت الفتاة العراقية تعتمد على التعليم الفردي، وليس هذا بذي مستوى عال.

أما التعليم العالي ففي حكم العدم، كما ليس هناك من تعليم ابتدائي للنساء، وهناك سيدات موسرات ومن علية القوم ولكنهن في عداد الأميات. وبعض النسوة العراقيات أشد محافظة من غيرهن... ولا يقدمن على عمل ما إلا بعد الاستخارة. دعوت إحدى الفتيات... إلى تناول الشاي معي في يوم ما وأرسلت الدعوة لها بوساطة إحدى معارفي من السيدات. وكانت الفتاة شديدة التوق لتلبية الدعوة إذ لم يسبق لها أن زارت بيتاً أوروبياً من قبل. ولكن الأم رأت في مثل هذه الزيارة نجساً! ورجتها زائرتها أن تسمح لابنتها بذلك فوافقت بشرط أن تستخير، وتناولت سبحتها وعزلت بعض حباتها كيفما اتفق ثم أخذت تعد الحبات اثنتين اثنتين وانتهى التعداد بحبة منفردة... ولم يكن ذلك بالفأل الحسن... أما الفتاة فلقد أسفرت استخارتها عن زوجين من الحبات! وسقط في هذه اللحظة فنجان وانكسر، فما كان من الأم إلا أن تهتف: إن هذا لدليل على أن الزيارة

---

(1) ذلك ما كان عليه الحال إبان تأليف الكتاب أما اليوم فالجامعة والمدارس الثانوية والمتوسطة والابتدائيات فيها آلاف من الطالبات، وقد تخرجت من الكليات مئات الطبيبات والصيدلانيات والمدرسات والمهندسات إلخ... (المترجم).

خاطئة![1] إنها حقاً لامرأة لطيفة محبوبة على الرغم من ذلك كله، وقد تستضيف أحياناً السيدات الأوروبيات. . .

إن الفخار المتهشم، على كل حال، عقبة في سبيل إتمام الزيارة، فمن سوء الطالع أيضاً أن يسقط الفنجان ولا يتهشم!.

كانت السيدة التي وصفتها تستضيف جماعة من صديقاتها في إحدى المرات وكان ابنها الصغير يلعب بكرة زجاجية، وسقطت الكرة من يد الطفل ولم تنكسر فأثار ذلك الإشفاق والهلع في نفس الأم فهبت لتكسر الكرة ولكن صديقاتها حلن دون ذلك. ولما أعادت الأم الكرة إلى موضعها فوق المائدة زوّت وجهها وقالت: سيعتري ابني منذ هذه اللحظة شحوب ولغوب ويعاني أعراض حمى عالية. . . ثم عادت إلى حيث وضعت الكرة وهي تقول: لا مفر من كسرها. . . وكسرتها لكي يستعيد الطفل صحته ولعبه.

والمرأة العراقية تحيط ولدها، منذ أن تكتحل عيناه بنور الشمس أول مرة بكثير مما تعتقد فيه الوقاية من الشر.

فهي تضع سكيناً أو سيفاً قربه عند ولادته لتطرد بهما الجان، فالجان تكره كل شيء حاد. . . وقد تضع التعاويذ، والآيات القرآنية مشدودة حول عنقه أيضاً. ويؤخذ الوليد في يومه الأول إلى صباغي المحلة كافة فيلطخ كل منهم وجهه بصبغة، كما يضع جانباً منها على منديل الطفل أيضاً. وليست العادة هذه مطردة كثيراً، وبدونها لا يرى الوليد خارج بيته لمدة 40 يوماً. وهم لا يغسلون رأسه خلال هذه المدة، وبعد مضيها يؤخذ إلى الحمام فيغسل ولا ضير بعد ذلك إن خرج. . .

وتزعم الأمهات أن دودة تخرج من «البقعة الرخوة» فوق جمجمة الصبي وقبل أن تتماسك عظامها. ولكنني أشك إن كانت الأم تُعنى حقاً بملاحظة حصول مثل هذا أو لا. ويعاني كثير من الأطفال آلام القروح،

---

(1) لقد تلاشت أمثال هذه الروحية، إن وجدت حقاً، نتيجة انتشار التعليم في العراق. (المترجم).

فالزعم الشائع أن منظر الصبي النظيف الجذّاب يغري به العين الشريرة. وهم يثقبون منخر الطفلة ويضعون فيه خيطاً فيصبح مثل هذا الجرح سبباً في كثير من المتاعب، إذ قد تنجم عنه قرحة وقد تسري القرحة إلى الوجه كله. وقد يصاب الطفل بحبة بغداد (الأخت)[1] عادة، وما أن تتقيح إلا وتعمد الأم إلى طلائها بمستحضر قيري. وعلى الرغم من أن هذا المستحضر غير ضار بحد ذاته لكن القيح قذارة، والقذارة يقف عليها الذباب فتسوء حالة الطفل لذلك.

والمرضعات يرضعن أطفالهن طويلاً، وقد يستمر الإرضاع إلى ما بعد أن يدرج الصبي. ولو سقط وجرح فالدواء الشافي أن يلطخ بالطين أو التراب شريطة أن يؤخذ من الموضع الذي سقط فيه بالذات. هذا وتطرد الأرواح الخبيثة التي سببت له السقوط بإيقاد الشموع في المحل ذاته.

والحثر[2] شائع جداً، والأم المصابة به تنقله إلى أطفالها جهلاً وإهمالاً، وقد تنسب إلى الله عمى العيون أو تقرحها، وإن ذهبت إلى من يتعاطى طب العوام في أحد الأسواق لزودها بمرهم معقم أحمر اللون. . . لكنها لا تعنى، ولا يعنى «الطبيب» نفسه بنظافة الخرق المستعملة، وقد تستعمل الواحدة منها من قبل عدد كبير من المصابين.

إن المسلمين والنصارى واليهود سواسية في إهمال وسائل الوقاية الأساسية. وفي مشارف الموصل دير مقدسي يسمى بدير (مار كوركيس). وإنك لتجد في داخل الدير عدداً من الكفافي علقت على الجدار وتزينها الصلبان الحمر. ومن يزور الدير يعلم بأن لها قدرة على شفاء مرض العيون، فالقديس كوركيس يعنى بهذا الفرع من المعجزات. لذا اعتاد الناس أن يمسحوا عيونهم بتلك الكفافي واحدة تلو الأخرى. . . آملين

---

(1) وهي المعروفة بـ Baghdad Boil.

(2) الحثر هي التراخوما Trachoma فيما أقره مجمع اللغة العربية بمصر من مصطلحات علم الرمد.

الشفاء! هذا وإنك لتجد بينهم العجوز المصابة بالسدّ[1] وضعاف البصر من الأطفال وغيرهم ممن يشكون إصابات خطيرة معدية في عيونهم[2].

تم تعيين زائرتين صحيتين ببغداد. إنهن يزرن الأمهات في بيوتهن ويسدين لهن المشورة الصحية ويساعدنهن قدر المستطاع. أعلمتني الزائرتان أن الأمهات يعوزهن الوقوف على كل ما هو باده Common sense في الناحية الصحية وأن من الصعوبة بمكان أن يحملن على إدراك قيمة كل ما يساعد على حفظ الصحة كأشعة الشمس والماء الجاري. ولكنهن، على الرغم من ذلك كله، يقدّرن ما يسدى إليهن من رعاية وعناية. وقامت صديقة لي، وقد راعها ما شهدت من جموع الأطفال المصابين بتقرح العيون، بفتح بيتها لأمهات هؤلاء الأطفال وشرعت في معالجة القروح وسائر الإصابات العينية... وقد نالت على حسن صنيعها هذا جزاء وشكوراً. فمن المريضات من تعمد إلى جمع بيضات قلائل أو شيئاً من الخضر وتقدمها هدية إلى تلك الصديقة... وقد يمس شعورهن إن رفضت هذه قبول مثل تلك الهدايا!.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن مستوى النظافة، أي نظافة الجسد الفعلية، بين النسوة المسلمات من الطبقات السفلى أعلى من مستوى النسوة من نفس الطبقة في بلادنا. وعلينا أن نتذكر أن الماء يجلب إلى البيت في كثير من الأحوال من النهر بالجرار، وقد يكون المطر منهمراً بشدة شتاء، وقد تكون الحرارة على أشدها في الصيف... وأن ذلك كله بسبب ما يُلزمه الدين الإسلامي وتَلتزم به الأغلبية الساحقة.

وأعظم حدث في حياة الفتاة المسلمة طراً هو الزواج والأمومة، والزوجية هي كل شيء لديها في الحياة. إنها تنتظر بمزيج من الصبر

---

(1) أقر مجمع اللغة العربية في القاهرة هذا المصطلح لـ Cataract من مصطلحات علم الرمد راجع مجلته العدد5، ص242.

(2) ما أشد الفرق بين تلك الحال وحال الأمهات اليوم فهن يزرن المستوصفات ويراجعن دور الحضانة والأمومة والطفولة فينال أطفالهن عناية متزايدة. (المترجم).

والتطلع ذلك اليوم الذي تزور فيه إحدى صديقات أمها زيارة خفية، ولصالح ابن الصديقة. فتقترح أن يتصل النسب بين الأسرتين. إن مثل هذا اليوم يجب ألّا يكون بعيداً، فالفتيات يتزوجن في العراق مبكراً. وقد تعرف الفتاة الفتى في أيام الطفولة. لا سيما إن كان ابن عم لها، كما هو الغالب، وقد يكون غريباً لم تر وجهه ولن تراه إلا في يوم الزواج. وعلى الرغم من أن واجب الفتاة أن ترضى بما يقرره الوالدان في أمثال هذه الأمور، فلقد أصبح من الشائع اليوم أن يسمح الكبار إلى الجيل النابت بأن يرى بعضهم بعضاً من خصاص النافذة، أو من وراء حجاب، فإن كرهت الفتاة زوجها المقترح فإن القلة من الوالدين فقط، على ما أظن، تصرّ على إجراء صفقة الزواج. النساء مقامرات بالطبع، والزواج الذي تقدم عليه المسلمة معصوبة العينين وبلا معارضة (يانصيب) وميدان فسيح للحظ، وللحظ فصل الخطاب. والزواج عندها، على كل حال، وسيلة لغاية هي: إنجاب الأطفال. إن نصف الرقى والتعاويذ التي يعدّها المتعاطون بالسحر مخصصة لمن لا طفل لها. فالعقيم ترى أنها لم تحظ برضاء الله، وأنها مخلوق لا فائدة من وجوده، أو «درب لا ينفذ إلى شيء». وهي لا تترك تعويذة سحرية إلا وتستعملها، كما أنها تزور الأماكن وتصلّي وتتضرع إليه تعالى عسى أن يبدل حالها السيىء بحال حَسَن.

وما التعاويذ التي تستعمل إبان الزواج وهي الحنطة وأوراق الشجر الأخضر وما إلى ذلك إلا رموز للإخصاب. وهناك آلاف من تعاويذ حمل الأطفال، وليس هناك تعويذة واحدة لمنع الحمل، فليس هناك من امرأة عراقية، مسلمة أو يهودية أو مسيحية، تشفق على نفسها من كثرة الأطفال.

والعروس المسلمة تزود من قبل أبويها بصداق[1]. ويحدد مقدار

---

(1) «العروس المسلمة لا تزود من قبل أبويها بصداق. . . فهذا خلاف الشرع والتقاليد. فالذي يقدم الصداق هم أهل العريس. ولكن يجوز أن يقدم أهل العروس لابنتهم مساعدة مالية أو =

الصداق عند عقد القران. وتخطب الفتاة إثر نجاح «المفاوضات الدبلوماسية» التي تجريها (الحريم)، ثم يتلو الإمام صيغة العقد وترتل آي الذكر الحكيم.

وعند المسيحيين واليهود مراسيم تتصل بالخطبة ويحضرها القساوسة والأحبار وقد يطول أمد الخطبة أو يقصر، وليس من اللائق أن تزور العروس خلال هذه المدة بيت أم زوجها المرتقب. وهم يتبادلون الهدايا ويرسل العريس قبل يوم الزواج بأمد قصير هدايا إلى جميع السيدات في بيت زوجته المرتقبة.

وشهدت الأيام الخوالي، وما زالت بالنسبة لفقراء القوم، جوقاً موسيقياً يعزف في موكب الهدايا المرسلة(1).

ويوقع عقد القران من قبل الأبوين(2) أو الأوصياء، أو من الطرفين، وتتلى المراسيم الدينية ثم توضع الصيغة القانونية له بعد ذلك.

ويميل المسلمون من علية القوم إلى إقامة حفلات الزواج مختصرة ومقصورة على الأقارب، ولكن العادة الشائعة احتشاد النسوة في الحرم، واجتماع الرجال في جناحهم والاحتفال بالعرس. وليس هذا بنهاية الزواج. فلقد شهدت مواكبة تسير في الليل غالباً وتعزف فيها الموسيقى وتطلق النسوة فيها الزغاريد، كما شهدت الصواني محمولة وقد أوقدت فيها

= أثاثاً لإظهار ثرائهم أو بسبب حبهم لابنتهم أو لمعاونتهم في تكوين بيت كامل مريح وبدء حياة زوجية هانئة».

تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

(1) أعتقد أن المؤلفة تقصد الموكب الذي يسمى محلياً في العراق بـ(الحملة) وهو الموكب الذي تنقل فيه أثاث العرس (الجهاز) من بيت أهل العريس إلى بيت أهل العروس أو إلى البيت الجديد الذي سيقيم فيه العروسان، ويخرج عادة قبل موعد الزفاف بجوق موسيقي وهلاهل وغناء ورقص.

(2) لا يوقع عقد الزواج من قبل الأبوين بل من قبل وكيلي العروس والعريس، بل كانت العادة قديماً أن يبتعد أب العروس وإخوانها البالغون عن مكان كتابة العقد والاحتفالات بالمهر والزفاف خجلاً ولعل بقايا هذه العادة لا تزال موجودة في العراق حتى الآن.

تعليق: الدكتور شاكر مصطفى سليم.

الشموع ونثرت فيها الأوراق الخضر، كما رأيت من يحمل في الموكب الفوانيس والنسوة يحملن فوق الرؤوس قطع الأثاث وأواني الطبخ والدواليب والفرش والوسائد والستائر وما إلى ذلك. وقد زادتها بهجة ورونقاً تلك الشرائط الملونة التي تلف بها. وما أن تصل النسوة دار الحريم إلا ويشرعن بترتيب وضع الأثاث كما يحلو لهن. إنهن يصرفن جلّ الوقت في ترتيب فراش العرس، وهو فراش ممتاز بهيج عليه المخرمات من ذهب وفضة، وتعلوه الكلّه ويغطى بأغطية من حرير. والوسائد في بيوت علية القوم من قماش (الساتان) السميك وقد خيط بالذهب والفضة.

ويتلو ذلك كله وصول العروس إلى بيت الزوجية واستقبالها من قِبل نسوة البيت هذا. وقبل أن يسمح للعريس الشاب أن يرى عروسه عليه أن يذهب إلى الجامع مع أصدقائه. ثم يعود بعد ذلك ولا يسمح له برؤية زوجه إلا بعد أن يخطو فوق سيف عار موضوع على عتبة غرفة العرس. وفي الغرفة هذه تقف العروس في انتظاره، ومعها امرأة عالية السن، هي أم العريس في الغالب، لتقوم بتقديم الزوجين إلى بعضهما، والدعاء لهما بالسعادة والهناء، ثم إنها تتركهما على انفراد.

وعلى العريس أن يعود إلى حيث بقي أصدقاؤه فيتلقى منهم التهاني والتمنيات قبل أن ينصرفوا.

وزواج النصارى ذو طابع اجتماعي متمايز، وعلى الرغم من أن النساء والرجال لا يختلطان فيه، إذ يبقى كل من الجنسين في غرف خاصة. وهم يحتسون فيه مقادير كبيرة من الويسكي والعرق، ولقد راعني في أول زواج مسيحي حضرته في العراق عدد (الكؤوس) التي كانت تصب في أجواف المدعوين صبّاً. ولكن الاحتفال كان بهيجاً لطيفاً. فلقد جلست النسوة صفوفاً وهن يرتدين أجمل اللباس، كما جلس الرجال أيضاً صفوفاً في غرفة مجاورة. وكانت الموسيقى تعزف بألحان عربية وتركية وأوروبية مختلطة.

ويذكرني هذا بحادث وقع في البصرة، فلقد ذهبت إحدى صديقاتي

الفرنسيات مع القنصل الفرنسي إلى حفلة زواج. وكان المدعوون يعبّون أقداح الويسكي بلا حساب، وكان كل شيء يجري على المعتاد حين وقف والد العريس وطلب من الجوق أن يعزف النشيد الرسمي الفرنسي إكراماً للمدعوين البارزين. وإذا بأفراد الجوق يتلاغطون ويضوضون ثم يقف الناس لأول (نوطة) احتراماً وإجلالاً. ووقف المدعوان الفرنسيان أيضاً إذ ما كان في مقدورهما إلا الحفاظ على جدية الأمر. وعزف الجوق قطعة من نغم آخر هو النغم المعروف بالفرنسية La fille de Madame Angot وهو نغم محبب لدى الأجواق التركية. ومن نافلة القول أن نذكر إن المدعوين لم يعمدا إلى إشاعة الارتباك والحرج بين مضيفيهما الكرام!.

الفصل العاشر

شرعة الصحراء وأسلوب الحياة فيها

هي «انطباعات» مبعثها هذا القصص المنمَّق، وتلك الأفلام السينمائية المزوقة... التي يجود بها خيالُ «كليفورنيا» المجنّح!.

إنها «انطباعات» عن البيداء تراود خيال من هم غرباء عنها، فتصورها لهم موطناً للفروسية وميداناً للهوى... وهي، في الحق، ليست من هذا كله في شيء!!.

فشيخ القبيلة ليس بذي الجسم الجميل الممتاز دوماً، وهو لا يتخلّق بأخلاق الأمراء حتماً، ولا يشبه الملك لباساً... فقد يكون، في الغالب، قميئاً، فظّاً، غليظاً... لا تغلب عليه النظافة أبداً.

إنه حلس شهوات، وأسير لذات، وهو مرهف الحس بإزاء الكسب والخسارة، وقد ينظر إلى المرأة نظرة «خاصة»!!.

ولكن سلوكه العام لا غبار عليه، فهو كريم مضياف، على ما تقرره شرعة الصحراء... ذلك أن التقاليد هي التقاليد سواء أكانت في خيام البدو أم في صالونات «مي فير May Fair»[1].

وبإزاء المرأة ليست فروسيته على قدر كبير من الأهمية... وإنك لتستشف ذلك من الحكايات التي سأوردها فيما بعد.

---

(1) إنه الحي الذي يسكنه سراة (لندن) وعلية القوم فيها. (المترجم).

وفي الحق، إنه ماكر مخاتل يجيد الشنقصة[1]... ولكنه، على الرغم من ذلك كله، قد لا يعدم من يميل إليه.

إن حياته العامة على شيء كبير من الشظف والقسوة... والحرية التي تسودها تجعلها ثمينة، وجديرة بالاحترام.

ولو سنحت لك الفرصة فقابلته، فلن تجده، على ما تصوّره الأفلام السينمائية، فاتحاً ذراعيه لك بالترحيب، ومنحنياً أمامك بالإجلال والتقدير... فالشرقي لا يعرف هذا أبداً، إنه من صنع «ستوديوهات السينما»، ما في ذلك شك!.

قد يحييك، إن قابلته، وهو يضع يده على صدره، أو فمه أو فوق حاجبه... وإن أحنى الرأس أحناه قليلاً...

فيا من تنتجون الأفلام السينمائية... اسمعوا إلى هذا كلّه وعوا!.

إن شيخ القبيلة هو القانون، والقانون هو، منذ مئات السنين. وهو يتجنب الاتصال بحكام المدن، وكان من نتاج هذا كله قصاص سريع قاس، وأبعد ما يكون عن الكمال المنشود.

لقد أقرّوا شرعة الصحراء هذه إلى حد ما[2]، ذلك أن أية محاولة في فرض قانون البلد حرفياً على البدو تؤدي إلى تعقيدات، وشيء كثير من سوء الفهم، وقد يكون الضرر الناجم عن هذا الفرض أكثر من نفعه... وإليك أقصوصة تصور ما أذهب إليه:

في الأيام الأولى للاحتلال البريطاني في العراق قتل لامرأة بدوية ابن... فعلا العويل في الخيام واشتد النحيب فيها. وألقت الشرطة

(1) ابتزاز الأموال بأية وسيلة. (المترجم).

(2) تريد المؤلفة بذلك نظام دعاوى العشائر الذي وضع في دور الاحتلال البريطاني للعراق سنة 1918 والذي ألغته الجمهورية العراقية بعد ثورة 14 تموز 1958. والنظام من المخلفات السيئة لدوري الانتداب البريطاني في العراق، والعهد الملكي البائد. وخطره واضح فهو يعمد إلى التفريق بين مواطني العراق بإزاء القانون الواحد الذي لا يتجزأ. (المترجم).

القبض على القاتل، وجيء به إلى أقرب مدينة كبيرة وألقوه في غيابة السجن حتى موعد إجراء محاكمته. وحكم عليه بالموت... ومن الغرابة بمكان أن والدة القتيل أخذت تراجع، إثر صدور الحكم هذا، الضابط السياسي البريطاني، وأصرّت في أحد الأيام على الجلوس وصيد باب داره، وصممت على عدم الانصراف إلا بعد أن يسمح لها بمقابلته. وأذن لها بذلك بإزاء هذا الإلحاح الشديد، وما أن رأت الضابط إلّا وارتمت على قدميه مسترحمة منه، والدموع تنهمر من مآقيها، أن يأمر بإطلاق سراح القاتل فوراً!!.

واستبهم الطلب على البريطاني ودهش منه كثيراً، وقال: «ولكن لِمَ تريدين الحفاظ على حياة عدو لك، وقاتل ولدك الوحيد؟!».

فلم تحْرِ جواباً... بادىء ذي بدء...

وعندما أصرّ عليها أن تفصح عن السبب، قالت: ـ

«إن قلته لك، فقد لا تفهم ما أرمي إليه».

فقال لها: قولي، وسأحاول أن أفهم!.

وهنا نظرت إليه الثكلى بعين المسكنة، وباحت بمكنون الضمير قائلة:

«إني قبل كل شيء، أرملة، والقتيل ولدي الوحيد، وسندي ليوم أبلغ فيه من الكبر عتياً. فلو سمحت بمحاكمة القاتل وفق قانون العشائر فقد أحصل على (الديّة) وهي تقيم أودي في بقية عمري حتى أفارق هذه الحياة. ولو شنق القاتل فلن يقضَ على طلب الثأر، وقد أصبح الآن قائماً بيننا... وسيقتل فرد من أبناء عشيرتي، وفرد من أبناء عشيرته... وبذلك يراق دم كثير، وتصبح الشحناء قائمة متأججة بيننا أمد الدهر».

وليست هذه الأقصوصة من أقصوصات الفروسية، وسحر الخيال، لكنها تمثل شرعة الصحراء الصارمة القاسية بكل جلاء!.

واستطاع الضابط السياسي أن يخفف حكم الإعدام إلى السجن، ودفعت (الديّة) وحسمت بها القضية.

ولتذليل ما ينجم من أمثال هذه العقبات والمصاعب سنّ نظام[1] يحاكم بموجبه العشائري من قبل السلطات الإدارية وبمشورة رؤساء العشائر المختصة، ولا تنظر في ذلك المحاكم المدنية.

ولم يجر تطبيق هذا (النظام) بوجه حسن مرض عموماً، ذلك أن من الصعوبة بمكان التمييز بين من هو عشائري وبين من هو من أهل المدن، كما أن صرامة قانون العقوبات تفوق صرامة العرف العشائري. لذا يشعر ابن المدينة، أو العربي المستوطن، أنه واقع تحت وطأة قانون شديد بخلاف جاره المواطن العشائري... وفي حالة ارتكابهما جرمين متماثلين.

قلت إن شرعة الصحراء هذه ليست على حظ كبير من الكمال، ويصدق هذا القول بالنسبة إلى النساء بالدرجة الأولى. فالفتاة ملزمة بموجب العرف العشائري على الزواج من ابن عمها، إن رغب هو في ذلك. إنها ملك صرف له بهذا الاعتبار! وإن أراد رجل أن يخطب امرأة، فلا يكفي رضاء الوالدين عن هذه الخطبة، وعلى الرجل أن يحسب لابن العم حسابه، وقد لا يكون هذا راغباً في الزواج من بنت عمه، لكنه قد يحول دون زواجها من غيره. لغير سبب ما[2].

فإن خطف محب موله مدله مفتون الحبيبة، بسبب رفض ابن العم هذا، اعتبر قتلها، والحبيب الخاطف، أمراً مقضياً... ولابن العم أن ينفذه أيضاً!.

---

(1) وضعت السلطة المحلية أسس هذا النظام واستهدفت تعزيز المشيخة وإشراك شيوخ العشائر في الحكم. كما عين رؤساء العشائر الموالين لها بوظائف إدارية (مديرين في النواحي). إن مثل هذا النظام الذي يهدف إلى حسم المنازعات العشائرية على وفق العادات والتقاليد يراد به جعل المجتمع العشائري قائماً على «العصبية»، متمتعاً بالاستقلال القضائي والإداري ـ ومعتمداً إلى أي تنظيم سياسي أو إداري في البلد فيما خلا العشيرة. ولهذا كان هذا النظام من عوامل التصدع والتفسخ الاجتماعي سواء في عهد الاحتلال البريطاني أو في عهد الملكية البائد لأنه عمل على تجزئة البلاد إلى وحدات عشائرية لا يوجد بينها أي انسجام وتضامن، وعزلها عن المجتمع العراقي في المدن، واحتفظت العشائر بأحقادها وضغائنها. (المترجم).

(2) وقد يسبب ذلك أن تبقى بنت عمه عانساً طوال حياتها!.

وتتمثل القسوة والصرامة في شرعة الصحراء هذه بأجلى مظاهرها فيما يترتب على قذف أية فتاة عشائرية أو ما يروجه حولها الوشاة. إن همزة امرأة حسود، أو لمزة غريم، أو أي نبأ أبتر يأتي به نمّام أشر... ويعطي به عفاف الفتاة، حقاً كان ذلك أم باطلاً، يجعل قتلها واجباً على أقرب الرجال إليها، وهو الأخ عادة.

وقد لا يكلف الأخ نفسه عناء التحقق من الطعن، إنه يقدم على القتل جهالة[1]. ومن الغريب أن نساء العشائر ترضى بكل هذا شرعة، لا مطعن فيها ولا مراء.

وقد رويت لي قصة تصور ما أقول: فلقد نجم عداء بين امرأتين فذهبت إحداهن إلى شقيق الأخرى، وكالت لها المفتريات، فما كان من الأخ إلا أن يهرع إلى كوخ أمه، ويجهز على أخته فيه، حالاً. وجيء بالفتاة البائسة إلى مستشفى الحلة، وهي ممزقة كل ممزق، وتلفظ أنفاسها الأخيرة. ومن الغريب أنها أرسلت، وهي في مثل هذه الحال، إلى الضابط السياسي ترجوه ألّا يقتل الأخ أو يسجن، ما دام هو «صاحب الحق» في الأمر كله! وأجاب الضابط السياسي، وهو تحت وطأة هذه الجريمة الفظيعة، أن ليس بمقدوره الحيلولة دون ذلك، فالعدل يجب أن يأخذ مجراه، وعندما جاء الضابط ووجدها تغالب الألم بذهاب أثر الحقن المورفينية عادت ترجوه، وهي ذليلة صاغرة، وبنحيب يقطع نياط القلب، أن يعدها بالنظر في استرحامها هذا!.

وغلب الضابط على أمره بنتيجة هذا المشهد كله، فعمل بما أرادت ووعدها بألّا يعدم الأخ أو يسجن، إن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وبقيت الفتاة تعاني آلام الجروح الباضعة طوال 7 أيام، ثم ماتت. ودعي شيوخ القبيلة وكبارها إلى مجلس، ومثل القاتل أمامهم فيه. وشرح لهم الضابط القضية من أولها لآخرها، وإذا بهم جميعاً يقولون بلسان واحد:

«والله، لقد أحسنت الفتاة فيما طلبته منك صنعاً، وأن تصرفها هو

---

(1) الجهالة: التسرع من غير روية وتفكير ولا أناة، وهي نقيض الحلم.

الفضيلة بعينها . . . كذلك هذا الرجل لقد أصاب في قتلها أيضاً. إن ذلك من واجبه، وليس لك أن تعاقبه وإن كانت الفتاة بريئة، على ما نعتقد. إن الفتاة هي عرضه، فإن مسّ العرض فلا علاج له غير هذا العلاج.

ونفي الرجل من عشيرته لزمن محدود في خاتمة القضية.

وهذه قضية أخرى بمقدور الزوج فيها أن يدافع عن زوجته:

فلقد ذهبت الزوجة إلى مدينة بعيدة لتحضر عرساً فيها. ووشت بها امرأة أخرى إبان غيابها هذا. وجاءت المرأة النذر: «لا تعودي، فلقد اتهموك، ورموك بالباطل» لكن قلب المرأة كان يحن إلى أطفالها وزوجها، فلم تلبث أن عادت إلى قريتها. فما كان من أولادها إلا أن يطلبوا منها أن تفر سريعاً قائلين: «لقد أقسم أعمامنا أن يقتلوك ـ لقد حفروا لك قبراً». أما الزوج فلقد أيّد رجاء أولاده، إنه يحب زوجه، وهو مطمئن إلى أنها بريئة ولكنه ليس بمستطيع أن يقدم لها عوناً. ولقد دفع بها الخوف إلى الهروب إلى المدينة التي تركتها وطلبت حماية السلطات الرسمية فيها. واستدعى شيخ القبيلة، واستدعيت المرأة وحلفت، والدموع تجري من مآقيها، والتنهدات تتصاعد أنها بريئة أمام الله. وألقى الشيخ السمع وهو يغالب الألم على هذه «الطريدة»، وختم الضابط السياسي قوله:

« . . . والآن أسلّمها لك لتحميها . . . وحذار أن يصيبها مكروه!» ورفض الشيخ ذلك قائلاً:

«لتبق في حماك، فذلك أفضل!». ولم يكن لدى الضابط مأوى لمثل هذه المكروبة، فاضطرّ إلى أن يسلّمها، والأسى يغمر قلبه، إلى الشيخ الذي أصرّ على تزويده بوثيقة تؤكد أن السلطة المحلية تحمي «الطريدة» وعسى أن يكون فيها شيء من النفع. لكنه أخطأ في ظنّه، فما أن غادرت المرأة باب المبنى الحكومي إلّا وأجهز عليها . . . ولم تفدها تلك الوثيقة التي كانت تحملها بيدها!.

لكن الضابط نفسه أصاب نجحاً في قضية أخرى: فلقد جاءته في يوم امرأة شابة، وجلست على أرض ديوانه صامتة. وعندما سألها عما تريد،

أجابت «احمني، فالقوم يأتمرون بي، ويريدون قتلي!» وعندما استوضح من الفتاة عن السبب أجابت:

«إن اسمي بنية، وإني آثمة وهذه قصتي:

فأهلي يريدون تزويجي من غول بصورة إنسان، إنه والله لفظّ غليظ، وإني لأمقته أشد المقت». وكانت الشابة بسبيل الزواج منه، وهي صاغرة لو لم يكن ذلك الحبيب المفتون... وسارت إجراءات الزواج قدماً، وأعدت خيمة (حوفة) ليقضي العروسان فيها الأسبوع الأول، وأعدت الحلوى... وفي الليلة التي تسبق ليلة (الجلوة) جاء الحبيب إلى الخيمة وهو مشتمل بظلام الليل وهمس في أذنها: الهروب... الهروب فوراً «وهنا قالت الفتاة» لقد طار صوابي، ووهنت قواي فلبيت طلبه». واتجه الحبيبان إلى الصحراء الطليقة، وتعالت في أثرهم الصيحات... وعاشا في وجل شديد لحين من الزمن، يتواريان عن أنظار الرقباء، ويعانيان كثيراً من العسر والحرمان. وقالت الفتاة، والدموع تنحدر من مآقيها غزاراً، وصوتها يرتجف فرقاً: «ونبذني الشاب ليتخلص من هذه الصعاب التي جاء بها حبه، ونصحني أن أحتمي بك بعد أن لاذ هو بالفرار».

ولم يرجع الضابط الفتاة إلى عشيرتها، وعلى الرغم من أن الشيخ أخذ على نفسه موثقاً بأن يحميها في بيته. وكانت الفتاة ترتعد من هذا الشيخ وتقول: «إنه قاتلي حتماً بمجرد تسليمي إليه» وسلّم الضابط الفتاة في النهاية إلى أحد أتباعه، وتزوجت شخصاً صالحاً من أرباب المقاهي وهي اليوم أم لعدة أطفال، ونسيت بذلك حبيبها المخادع وزال عنها كابوس الموت إلى غير رجعة.

ودعا الضابط البريطاني أحد شيوخ المنتفق للحضور في مجلس عشائري، فأرسل الشيخ من يقول إنه يخاف على نفسه من شيخ آخر سيحضر الاجتماع، وهو من أفراد عشيرته بالذات، وإنه لن يحضر إن لم يعط عهداً بالحماية من الضابط المذكور. وأعطاه البريطاني (العهد) بادىء الرأي، وتم الاجتماع في مَضَافة واسعة، وعندما اكتمل عقد الحاضرين سأل البريطاني

الشيخ الخائف: «ممن تخاف من بين هؤلاء؟» فأشار إلى واحد منهم. فعقب البريطاني: إن أصيب هذا الشيخ، ضيفي، بسوء فسيلق المعتدي جزاء وفاقاً. وسمع ذلك الكل بصمت عميق. . . ولكن، (ضيف البريطاني) لقي حتفه بمجرد أن أرفض الاجتماع وقفل راجعاً إلى مضارب قبيلته!.

لن يسلم شرف السلطة البريطانية المحتلة إذن حتى يعاقب الجاني. ويرفض هذا الشيخ الأنوف الأبي العاتي أن يأتي بالقاتلين من أبناء عشيرته أو يدلي بأسمائهم. وهنا احتار الضابط السياسي في أمره، فما عساه أن يفعل يا ترى؟! راجع بغداد، وحكومتها غارقة في لجج المشاكل، والثأر العشائري، بالنسبة إليها، جد بسيط. إذن لينفذ القانون، وإن خرق الدستور. . . وحالفه هذه المرة:

ذلك أن فلكاً حربياً مرّ يمخر عباب النهر وهو مشحون ببعض البريطانيين، فما كان من الضابط إلا أن يستوقفه ويشرح لمن فيه الحال مستنجداً. وأرسل في مساء ذلك اليوم بالذات كتباً إلى شيوخ المنطقة كافة، باستثناء الشيخ العاصي، وطلب إليهم الاجتماع به في موضع بقع على الضفة الشمالية للنهر. . . وفي الصبح وصل الضابط السياسي إلى المحل الموعود، وفي الوقت المعين، فوجد أن 25 شيخاً من الذين دعاهم ينتظرون.

وسرعان ما صوبت مدافع القارب الحربي عليهم. . . وطلب إليهم التسليم، فسلّموا أنفسهم صاغرين. وقال الضابط:

«إننا لا نريد بكم سوءاً، ولكني جمعتكم لإظهار قوة الحكومة البريطانية، وأنا ذاهب لأعاقب الشيخ».

ثم إنه دعا أحد الشيوخ من أصدقائه واستصحبه إلى قرية الشيخ العاصي تاركاً الآخرين على أحر من الجمر.

وكانت قرية الشيخ هذا من قصب، فأحرقت وأصبحت أثراً بعد عين. أما قصر الشيخ نفسه فلقد شاعت فيه النار كما تشيع في الحطب اليابس، ورجاله واقفون ونساؤه يصرخن ويلطمن الخدود. ولم يجسر أي فرد على القيام بأمر. . . ما دام الشيوخ أنفسهم واقفين تحت رحمة صليات المدافع!.

ومضى حين من الدهر على الحادث، وكان الضابط السياسي في إحدى جولاته الصحراوية... وكان الشيخ الطريد هائماً فيها، وإذا بهما يقتربان من بعضهما صدفة، حتى إذا أصبح الشيخ الطريد من الضابط السياسي بمسمع الصوت إلا وأزاح اللثام عن وجهه قائلاً: «أتعرف من أنا، يا هذا؟» فأجابه الضابط: «نعم!» فقال الشيخ: «أما زالت هناك جائزة يتناولها من يأتي برأسي إليكم؟» أجابه الضابط: «أجل!» فقال الشيخ: «أنت تعرف أن ليس في هذا المكان غيري وغيرك، فما الذي يمنعني من قتلك؟» فأجابه الضابط: «إن أقدمت على ذلك فأنت، ولا شك، فاقد صوابك، إذ سيخلفني آخر، وسينزل بك العقاب لا محالة» وهنا تبسم الشيخ من جواب الضابط ضاحكاً، وقال: «قل لي، أبمقدورك أن تلغي هذه الجائزة؟» فقال الضابط: «سأسعى في سبيل ذلك إن دفعت الديّة إلى ذوي القتيل» وافترق الرجلان ليلتقيا مرة أخرى فيدفع الشيخ العاصي، وقد لان بعد شماس، ديّة كبيرة حدد مقدارها من قبل الحكومة البريطانية بالذات وما أن تسلّمها ذوو القتيل إلّا وألغيت الجائزة الموضوعة على رأس الشيخ المطيع الآن!.

وفي إحدى المرات استطاع الشيخ، صديق الضابط السياسي، والذي صحبه في حملة الثأر المذكورة، أن يحفظ حياة صديقه وكاد أن يضحي بنفسه في سبيل ذلك. وخلاصة القضية أنهما كانا في قارب آلي يمخر عباب النهر فإذا ببعض أفراد عشيرة الشيخ نفسه يصوبون النار إلى القارب. وهنا هبّ الشيخ منتصباً وجاعلاً من نفسه ستاراً يقي الضابط من شر إطلاقاتهم... ولما رأى أفراد العشيرة شيخهم كفوا عن إطلاق النار... ولكن بعد أن أصابته منهم طلقة طائشة. وطلب الشيخ من صديقه الضابط أن يرفع علماً أسود، ومعنى ذلك في العرف العشائري قيام الثأر بين المعتدى عليه، وبين المعتدين. وبعد 4 أو 5 أيام جاءه الشيخ بـ 5000 روبية تعويضاً عن محاولة الاعتداء عليه، ومعه ناهد من بنات العشيرة في الـ 16 من عمرها وأخرى صبية في الـ 13 من عمرها. وهنا قال الضابط البريطاني إنه لا ينوي الزواج في ذلك الوقت، وإنه قد قبل الفتاتين، ولكنه يعيدهن صحبة الشيخ إلى مضارب قبيلتهن. ذلك أن

العرف العشائري يقضي بأن تصحب الديّة فتاة من قريبات القاتل ليتزوجها أخ القتيل أو ابنه.

وهذا العرف، على ما يظهر لأول وهلة، شائن فظيع. إذ من المؤمل أن تقوم نساء القتيل بمعاملة هذه الفتاة أسوأ معاملة، وقد يقع ذلك فعلاً، بادىء الأمر.. لكن العرف، مع ذلك، ينطوي على جوهر نفيس. إذ المؤمل أن تضع الفتاة بعد زواجها غلاماً من زوجها فتصبح الحياة منعمة بالحب بعد أن كانت حالكة بالثأر وبالبغضاء... كما ينسى ما مضى ويذهب طلب الثأر إلى غير رجعة.

فدور الفتاة، إذن، دور حمامة السلام.

وفي الصحراء تقاليد أخرى تتصل بالثأر والحرب. فليس من المقبول شكلاً أن تشن الحرب بلا إنذار سابق، والقبيلة المعتدى عليها تنذر غريمتها بأنها ستشن الحرب عليها، ويكون الإنذار إما شفوياً أو تحريرياً، وهو يسمى بلغة العشائر «النكا» وإيقاف الحرب يسمى «الهدرة»، و «العلك»[1] وهو الهدنة.

وعذراء الصحراء لا يطمثها إنس إلا لماماً، فإن حدث شيء من هذا فمصيرها الموت، إلا إن تزوجها هاتك العرض ودفع مبلغاً مرضياً إلى ذويها. وفي النادر الأقل أيضاً أن يتقدم أحدهم فيحل محل هذا ويتزوج الفتاة حماية لها من ذويها. وقد تعمد المتزوجات من النساء إلى الدس الخفي، فإن افتضح سرهنّ كان الموت عقاباً لهن.

وقال لي أحد رجال العشائر المجربين المحنكين: إن تسعة أعشار المشاكل العشائرية ناجمة عن المرأة، على وجه التحقيق. إن استغاثة المرأة «صيحة الحرمة» سبب الثأر والقتل. إنها تثير نخوة الرجال في الوغى، وتوصم من يحجم عنه بالجبن والعار. والشجاع ذو الشكيمة أثير لديها ومكين مكرم، ومن يرهب الموت يضلّ السبيل إلى قلب فتاة البيداء. ونفوذ نسوة البيداء سبب

(1) للبدو تعبير خاص يستعمل في هذه الحال وهو «مردود النكا عليكم». (المترجم).

في إحلال السلام. فإن التجأ رجل طريد إلى خبائهن حمينه، ولو كان في أثره رجالهن بالذات. وهكذا التجأ رجل بريطاني خلال ثورة 1920 إلى خدر بدوية فقيرة، والدم منه يسيل، وفي أثره بعض الثوار العرب، فما كان من نسوة الخدر إلا أن يستقبلن مطارديه شر استقبال، ثم عمدن إلى تهريب الجندي البريطاني الجريح إلى مكان أمين.

ورجال القبائل نشطون ويكلفون بالحرية والاستقلال. وهم في سني الشباب ذوو وسامة، لكنهم يشوهون خلقهم بـ(الوشم) تارة على الوجه وتارة على الأطراف وسائر أجزاء الجسم. ولكل قبيلة وشمها الخاص، كما أن لها (وسمة) خاصة تسم بها ما تمتلك من الماشية والأنعام. ولو تسنى لأي إنسان أن يجمع هذه «الوسمات» لكوّن منها مجموعة ممتعة جداً. ولقد تم حسم كثير من القضايا العشائرية الشائكة الدائرة حول موارد الماء بدلالة قاطعة من هذه «الوسمات».

لا مراء أن أهم حدث في حياة المرأة العشائرية هو الزواج، إنها تتزوج في مقتبل العمر، ويتفق على صداقها مسبقاً، ويدفعه الخاطب إلى أبيها قبل شهر، أو أسبوعين، من ميعاد الزواج. ويبلغ الصداق هذا حوالي الـ 6000 روبية ويختلف بالنسبة إلى ابنة الشيخ إذ قد يبلغ الـ 4000 روبية، وهو في النادر. ويقضي العرف لدى العشائر أن يدفع المبلغ إلى العروس، ويضيف إليه أبوها مبلغاً آخر.

وتسافر الفتاة صحبة أمها إلى إحدى المدن لشراء بعض الحلي، وهذه لا تعدو أن تكون عملية استثمار المبلغ أو توفيره، فالفتاة تتزيّن بهذه الحلي وتبيعها إن احتاجت إلى المال. ويتألف «جهازها» من لوازم بيتها، وثيابها، وأواني الطبخ والوسائد، والأغطية، وفراش العرس، والستائر، وتحمل النسوة «الجهاز» إلى بيت العروس وهن يزغردن في طريقهن. ولا تجلب العروس معها فرشاً أو مهراً. وتقام خيمة خاصة في الأسبوع الأول من الزواج تسمى (حوفة). وهي تفرش بالبسط والوسائد وتحاط بستائر تسمى (كنات). والعريس هو الذي يعدّ الخيمة، ثم تزف العروس إليها ويوافيها بعد ذلك.

وفي الخيمة هذه تقضي العروس 7 أيام بلياليها، لا تخرج منها ولا يراها أحد أبداً، باستثناء العريس الذي يستطيع أن يدخلها أو يخرج منها أنّى شاء، بطبيعة الحال. إنه يستقبل مهنئيه في المضيف. وفي اليوم الثامن تترك العروس الخيمة إلى بيتها الجديد حيث تباشر واجباتها المنزلية فتجمع الحطب، وتطحن الدقيق، وتعدّ الخبر، وتطبخ وتغزل وما إلى ذلك.

ويقيم ذوو العريس مأدبة كبرى، وبعد تناول الطعام يضعون صحناً كبيراً في وسط البيت وترمى فيه النفحات والأعطيات. ويهتف صديق العريس لدى كل رمية «شاباش محمود» أو «شاباش زيد» منوّهاً باسم المعطي.

ذكرت آنفاً شيئاً عن الاستجارة بالمرأة وإجارتها، وما ذلك إلا رعاية لعرف قبلي عريق من شرعة الصحراء، هو (الدخالة). ولو طلب قاتلُ (الدخالة) من أخ القتيل لغدا آمناً. والعرف المتبع فيها أن يدخل المطارد الذي ينشد الدخالة إلى البيت ويهتف بها. وعندئذٍ لا يقتصر واجب رب البيت على ضمان سلامته بل عليه أن يكسيه، ويطعمه، وأن يوصله إلى البيت والقرية زالعشيرة حيث يكون المطارد آمناً. ثم يصبح رب البيت في حلّ من واجباته: وهذا العرف العشائري على شيء كبير من الصرامة، فبمقدور أي إنسان أن يحمل عصا الشيخ ويمر من مضارب أي قبيلة معادية وهو آمن... وعلى الرغم من وجود من يطالب بدمه في تلك القبيلة بالذات.

وقريب من (الدخالة) ما يسمى بـ(الوجه والتسيار). فإن هتف عشائري: (بوجه فلان) فمعنى ذلك أنه أصبح بحمايته، فلو خان الحامي واجبه اقترف إثماً عظيماً، إنها وصمة تعلق باسمه وتتعدى إلى اسم عشيرته، وعليه أن يدفع (الحشم)، مبلغاً عظيماً إلى المعتدى عليه.

ويصحب طلب الثأر شيء كبير من القسوة والغضب، وقد يؤخذ البريء بجريرة الذنب.

طلبت امرأتان مقابلة السياسي في مكتبه، ودخلتاه سافرتين، وكانت إحداهن في الـ 35 من العمر والثانية فتاة طويلة في الـ 15 أو 16 من عمرها. وقصت الإمرأتان قصتهما عليه. قالت إحداهن إن لعشيرتها ثأراً مع عشيرة

أخرى، وإن رجال العشيرة المعادية خطفوا ابنها، وهو صبي في الـ 18 من عمره. وفي الصحراء تتناقل الأنباء سراعاً، وسرعان ما بلغ المرأة أن ولدها يسام سوء العذاب، ففي النهار يرعى ثيران القبيلة، وفي الليل يدفن ـ في الرمل ـ حيّاً حتى رقبته. إنهم يريدون له الموت جوعاً، ومن الحتم أن يعذب قبل قتله.

ووجه الضابط السياسي طرفاً من الأسئلة ليحيط بالأمر خُبْرا. فالقبيلة لا تحظى بعطف الناس وليست بذات سمعة طيبة. وتهاوت المرأة تستعطف قائلة: إن ساعدتني في هذا فلك ابنتي هذه! وأعدّت في الليلة نفسها قوة من 40 رجلاً من (الشبانة) ـ المجندين المحليين ـ وشرحت لهم خطة الحملة. لقد تلقى هؤلاء الرجال النبأ ببالغ السرور واستقلّوا الفلك الحكومي الذي مخر بهم في النهر صعداً حتى بلغ نقطة تبعد ميلاً، وأصبحوا على مقربة من قرية القبيلة. وطلب الجنود المحليون من الضابط أن يبقى في مأمنه داخل الفلك، وقالوا له: إن بمقدورهم المضي بكل هدوء للبحث عن الصبي وإطلاق سراحه خلسة، قبل اللجوء إلى القوة، ولو كتب لهم ألّا يعودوا قبل منتصف الليل فعليه أن يمضي لوحده ويعود بالنجدة. ونزل المجندون إلى سيف النهر ونفذوا من سيقان القصب المتعالي، والضابط السياسي يلقي السمع مترقباً. واختفى رجاله جميعاً وفي هدوء الليل البهيم لم يعد يسمع لهم صوت... ولم يكدر ذلك السكون إلّا نقنقة الضفادع، وهمهمة حشرات الليل وهي تدبّ، وهمسات النسيم وهو يداعب الغصون. لم يسمع أزيز إطلاقة، ولم يرتفع صوت إنسان. وانتصف الليل والضابط ينتظر على أحر من الجمر. وعلى حين غرّة مزق شمل السكون صوت عيار، وتلته إطلاقات أخرى ثم سمع صريخ وجلبة، وخرج من بين سيقان القصب أحد المجندين وهو يتهالك ويتعثر في مشيته ويهمس «كن على عجل يا صاحب، فنحن هنا جميعاً. لقد ذعر أهل القرية، وعلينا أنْ ننجو بأنفسنا حالاً».

وهنا شوهد بقية المجندين وبينهم السجين وهو عار ويكاد يغمى عليه. وكنت تشاهد في أعقابهم (الشيخ حاجي ميري)، وبيده سكين لنصلها بريق، وقد وضعها على عنق السجين ليضمن السكون. والحاج ميري هذا فرد من

العشيرة المعادية. ومضى المجندون في الفلك. وقبل أن تحلّ الظهيرة ردّ المعذب البائس إلى أمه. وكان بصر هذه الأم المسكينة قد خبا وفارقت الحياة بعد 10 أيام من إطلاق سراح فلذة كبدها هذا.

وسمعت المرأة في الليلة التي أعقبت إطلاق سراحه إلى دار الضابط السياسي البريطاني لتقول إنه برّ بوعده، لذا فهي على استعداد لأن تبر بوعدها أيضاً فتزوجه بنتها، فما كان من الضابط إلّا أن يعتذر عن ذلك ويصرفها.

هذا وإن قتل رجل عند العشائر أمر يفوق خطورة قتل امرأة. وشرف المرأة عزيز لأنه ملك أسرتها، بل هو عنوان شرف هذه الأسرة بالذات، لكن ليس لكلمتها كبير خطر، ولا تقدّر مصالحها إلا إن كانت هي مصالح الأسرة بالذات. وشهادة امرأة واحدة في المحكمة لا أهمية لها، وشهادة امرأتين تعادل شهادة رجل واحد.

ولقد نظرت إحدى المحاكم في قضية امرأة قتلت خارج مضارب قبيلتها وكان القتلة هم أبناء عمومتها. فالمرأة كانت تستقي من بئر ومعها امرأتان شهدتا المقتل لكن أكثرية أعضاء المحكمة لم تر في شهادة الامرأتين بيّنة كافية، فالقانون يتطلب شهادة رجلين، أو شهادة رجل وامرأتين. ولم يكن في هذه القضية مجال لحسمها على وفق العرف العَشائري لذلك أحيلت إلى المحاكم الجزائية المعتادة للنظر فيها. ومما يدعو إلى الغبطة أن مثل هذه النظرة الضيقة ليست مما يلتزم به القضاة الوطنيون، لكن القضية ترينا واحدة من كثير من الصعوبات التي يجابهها من يناط به أمر توزيع العدل بين الناس.

وهناك قصة يقصها العرب وقد لا يكون المجال هنا متسعاً للإسهاب فيها لكنها، على كل حال، مثال حسن على البينات التي تنبثق عن ظروف القضية، وهي بينات لا يطمئن إليها إلّا قليلاً. ذلك أن ثلاثة من علماء الشريعة كانوا بسبيلهم إلى إحدى الغرف حيث أعدّ لهم الطعام. وعلى حين غرة خرج كلب وهو يلعق ما تبقى على فمه من اللبن. وعندما جلس الثلاثة إلى الطعام ورأوا أن اللبن مبعثر وقد أصيب منه شيء قال أحدهم: «لن أصيب من هذا اللبن شيئاً فلقد أكل الكلب منه، ولم يعد صالحاً لذلك» وهنا سأله الثاني:

كيف عرفت ذلك؟، إننا لم نر الكلب ولذلك فنحن لا نعرف ذلك، وبما أننا لا نستطيع إثبات التهمة على الكلب فهو بريء بموجب القانون، ولذلك فلم يعبث باللبن أبداً. وهنا قال الثالث: «ولكن من الواضح أن الكلب أصاب شيئاً من اللبن، ألم تره يسرع خارجاً وعلى فكيه شيء من اللبن؟». وبقي الثاني مصرّاً على رأيه وأصاب شيئاً من اللبن بينما امتنع الآخران. وترك الثالث رفيقيه وخرج إلى الشارع وقد كان خالياً إلّا من شخصين يتعاركان. وحاول أن يتدخل ليفض الخصام بينهما لكن أحد الشخصين طعن الآخر بخنجر، وبعد أن رماه وشاهد غريمه يهوي إلى الأرض، أطلق لساقيه الريح. وانحنى العالم فوق القتيل والتقط الخنجر وقد علق به شيء من الدم المتدفق وهنا هجم عليه بعض الرجال وألقوا عليه القبض قائلين: «لِمَ هذا يا وغد؟ لِمَ قتلت الرجل» فقال العالم: «لست بقاتله» وحاول أن يشرح الأمر فلم يصدّقوه وقالوا: هذا هو الخنجر الدامي بيدك، وهذا من قتلته يلفظ أنفاسه الأخيرة، فكيف تنكر جريمتك؟ وهنا خرج العالم الثاني من البيت، والتفت إليه العالم الثالث يقول: «إنك على حق، فالكلب لم يصب شيئاً من اللبن»!.



ملحق الكتاب

طير العراق وحيوانه

ورد الربيع... وهذه «الفاختات المطوَّقة» تنوح بين الغصون في البساتين، وهذا الحمام يساقط على الفناء في كل مسجد. وإنك لتجد في الجوامع أطفالاً يرتلون (القرآن)، ومعلمهم (الملّا) ينغُض[1] ويرنو إلى الحمام الشادي السابح في ضوء الشمس، أو المجتمع في الظل الظليل، وقد رمته قبةُ المسجد الزرقاء. وقد تسمع الطفل البغدادي يترنم على لسان الفاختة ويقول: (كوكو أختي... وين أختي) أما الحمام الوحشي الذي يعشعش على القباب والمنائر فيسمونه: (طوارني)، وهناك أسطورة تدور حوله بالذات: فهم يزعمون أن «فاجعة الحسين» بكربلاء حملت الحمام على مواصلة النواح، وأن أقدامه أصبحت عارية حمراء بغمسها بدم الشهيد، وما السواد على جناحيه إلا إشارة الحداد عليه. وهذا الحمام خرّب أقدم منارة ببغداد (منارة سوق الغزل) على ما يزعمون. فمن المتواتر أن (الخليفة المعتصم) الذي بنى المسجد الذي لم يبق منه إلا هذه المنارة (كذا!) كان في أحد الأيام مستغرقاً في صلاته فرأى أتباعه يطاردون (درويشاً) من الفقراء جاء يصلّي في الجامع. وأمر الخليفة أتباعه أن يكفوا عن ذلك، وانهال عليهم باللائمة ونفح (الدرويش) صرة من النقود. وهنا تقدم هذا البائس الفقير إلى الخليفة وقدم له قفصاً من الحمام الأليف، وهو كل ما يملك، عنواناً على تقديره لصنيع المعتصم وشكراً على أفضاله. وأطلق الخليفة الحمام الحبيس، فطار هذا إلى المنارة ليعيش فيها جيلاً بعد جيل، وحتى يومنا هذا. وكان الناس يرسلون الحمام الزاجل محملاً برسائل تدور

(1) يشير بالتسليم (نغضاً بالرأس) والملا أصلاً قصر كلمة (مولى) بمعنى السيد. (المترجم).

حول حركة القوافل وسفرها بين بغداد وغيرها من البلدان، كالشام مثلاً، وقبل أن تخترع المبرقة Telegraph.

وفي بواكير الربيع يعود (اللقلق) و(السنونو) إلى العراق، وأهله يكلفون بهما كلفاً شديداً، وهما مبعث التفاؤل عند الكثيرين منهم. والطائران يبنيان أعشاشهما في نفس الأماكن، سنة بعد سنة. فلا غرابة إن سمعت أحدهم يهتف «لقد عاد (لقلق) باب المعظم بالذات» ـ فلهذا الطائر حسّ خاص بتبدل الجو والأماكن. ولو عمد أحد الناس إلى إزعاج اللقلق لفرّ هارباً، وذلك بنظرهم من أسباب التطير.

ومما يحوم حول البيوت (العصفور) و(البوم)، والأول كثير الضجيج، كصنوه في إنكلترا، ويلحق الضرر الكبير بالحدائق. وإذا ما أكثرت عصافير البيت من الزقزقة كان ذلك، بنظر أهله، دليلاً على قرب سفر أحدهم. ويتشاءم الناس كثيراً من (البوم)[1]، واسمه علم على الزراية، وإن حامت بومة على سرير شخص نائم فوق سريره بسطح الدار وجب عليه أن يهتف: (سكين وملح) ـ ذلك أن السكين والملح، بنظر البعض، مما يقي الإنسان من النكبات.

ويحب العراقيون بلبلهم، وإنك لتجد البلابل حبيسة في أقفاص معلقة في المقاهي والمساجد... إن للبلبل ألحاناً عذاباً وشدواً صافياً. وقد يسقونه القليل من النبيذ أحياناً، أو يطعمونه بعض حبات الرمان، فإن انتشى هذا الغرّيد انبعثت منه ألحان عذاب. ويفسر البعض شدوه باستجداء الورد (شده ورد، أبو الورد) ويرددون ذلك كثيراً. والبلبل صخّاب كثير الشجار.

وألطف طيور الحقول في العراق طرّاً: الوروار[2]، وتلتمع الزرقة

---

(1) لصغار البوم شخير، ولعلها تنبه به الأبوين لمعرفة مكانها، وشخيرها عال جداً. وهناك حكاية تقول إن أحد القواد الأتراك كان يجاور (القنصل الأمريكي) وكان كل منهما يتهم الآخر بالشخير وبعد لأي اكتشف الاثنان مصدر الشخير... بومة صغيرة. (المؤلفة).

(2) في الأصل Bee-eater، طائر قصير الرجلين، طويل المنقار أسود، في قمة رأسه حمرة، وتحت حنكه طوق يميل إلى الصفرة وسائره أخضر، وفي وسط ذنبه ريشتان أطول من سائر =

والخضرة فيه وهو يطير سابحاً في ضوء الشمس. وهناك (الرفراف)[1]، وهو من طيور الماء والجداول الشائعة في العراق. ومن هذا الطائر 3 أنواع، أحدها جميل ذو لونين: أبيض، وأسود. وللرفراف الأزرق منظر بهيج عندما تطير منه الأبابيل[2]، إن منظرها كاللهب الأزرق وهي تغشي بساتين البصرة أو تحوم حول الماء الهادىء المنساب في جداولها، وقد قامت على حفافيها بواسق النخل.

ويستخدم (الهدهد)، طائر سليمان، ذو العرف الجميل في التعاويذ والرقى فهو في زعمهم يقي المرء من طعنات السكين وضرب الرصاص. ومثله قنبرة الصحراء أيضاً. ومن هذه ما لا عرف لها، وما له عرف، ويشيع النوعان في العراق. وقد يرى الإنسان بين الفينة والفينة طائر (الذُعَرة)[3]، المائية منها، وطائر السمان[4] والشحرور[5]، والعصافير المغرِّدة[6]، وما إلى ذلك من أنواع الطيور الشائعة في إنكلترا أيضاً.

ويكثر في الحلة (العَقْعَق)[7] ويشيع الواق[8] في البراري والأرض

= ريش الذنب، ووروار حكاية صوته ويسمى خضيراء وخضار أيضاً ـ معجم الحيوان (أمين المعلوف).

(1) في الأصل Kingfisher طائر طويل المنقار، قصير الزمكي والرجلين، جميل المنظر جداً ـ المصدر نفسه.

(2) الأسراب والجماعات.

(3) في الأصل Wagtail وهو طائر صغير يكثر من تحريك ذنبه، واسمه عند العامة في العراق (زيطة) ـ المصدر نفسه.

(4) في الأصل Thrushes وواحدها طائر صغير أغبر اللون طيب اللحم ـ المصدر نفسه.

(5) في الأصل Black-bird وهو طائر من الدج أسود اللون حسن الصوت سمي بذلك للونه. ومادة شحر معناها السواد ـ المصدر نفسه.

(6) في الأصل Finches.

(7) في الأصل Magpie وهو غراب أبقع طويل الذنب سمي بحكاية صوته (معجم الحيوان لأمين المعلوف).

(8) في الأصل Bittern وهو طائر من فصيلة مالك الحزين، طويل العنق والمنقار والرجلين والأصابع والأظافر قصير الزمكي أصفر الريش مع رقشة وتوشيم يحب العزلة فيختفي في النهار بين الآس ويكثر الصياح في الليل ـ معجم الحيوان لأمين المعلوف. وفي =

الخلاء. ولم أقف على أسطورة مما يتصل بالنسور، والصقور، أو النَورس[1] الذي يغشى دجلة ويطوف على مائه الجاري المنحدر السريع، وسرعان ما تجده يعلو في الجو ليرجع من حيث ابتدأ. ويحدث الغراب، بنوعيه الأبقع والأسود، ضجيجاً مزعجاً على سطوح البيوت. والزاغ[2] أميل طيور العراق إلى الهدوء، وأهل الريف يأكلون من لحمه، ولكنهم ـ بطبيعة الحال ـ يجهلون «فطائر الزاغ»، ولن أبحث فيما يأكل أهل العراق عموماً من لحم الطير، كلحم القطا، والدراج، والسلوى[3] والجُهلول، والبط البري.

ومن المؤسف أن الصياد العربي لا يعنى بذبح الطائر الجريح، بل يتركه حياً إلى أن يحين زمان طبخه. واشتهر البط البري منذ زمن الرومان بأنها حارس أمين، وما زالت شهرته هذه ذائعة في أرجاء البلاد. وهم يزعمون أن البطة لا تنام، وأنها تحمل حصاة في فمها فإن غشيتها سنة من النوم سقطت الحصاة فأيقظتها.

والحيوانات التي تسكن الصحارى، أو جذوع النخل كثيرة، ولعل أصغرها، وألطفها، ما يسمى بجرذي النخل Mongoose أو أبو عرس. إنه أصغر من صنوه الهندي، وبمقدور الإنسان أن يجعله أليفاً مؤنساً. إنه يطرد الصراصر والفئران من الحدائق والبيوت. يشاهد هذا الحيوان بجسمه الدقيق المتلوي تلوي الحية، وهو يقفز في الحقول أو عبر المسالك. ومن أغرب الحيوانات الأليفة سمور الصخر (stone-Marten). إن فروه غالي الثمن، وأشك

= الحق أن هذا الطائر يشيع في المستنقعات الكثيرة القصب ولا يرى نهاراً إلا إذا أرغم على الطيران.

تعليق: الأستاذ بشير اللوس.

(1) في الأصل guli، واسمه أيضاً (زمج الماء) وهو طائر الماء الأبيض يعلو في الجو ثم يزج نفسه في الماء ويختلس منه السمك ولا يقع على الجيف ولا يأكل غير السمك. (المصدر نفسه).

(2) في الأصل Rook وهو غراب أسود يلمع بخضرة وحمرة أسود المنقار والرجلين (المصدر نفسه).

(3) في الأصل Quail وهو طائر من رتبة الدجاج وفصيلة التدرج التي منها الحجل والدراج وربما كان يسمى في العراق (مريعي). (المصدر نفسه).

في أن من يحتفظ به في بيته[1] يستطيع أن يلبس جلده بدون تأنيب من ضميره. إنه عطوف على سادته ولكنه شرس وفظ بإزاء الحيوانات الأخرى. وعلى الرغم من أنه صغير، يحب العزلة بطبعه، إلا أنه قد يثب حتى على أبناء جنسه في خلال زمن توالده.

والغزال حيوان رشيق وديع، ويستطيع الإنسان أن يجعله أليفاً بيسر وسهولة، لكنه ليس على شيء كبير من الذكاء، كما أن أرجله الدقاق سهلة الكسر والتهشيم.

ومن «سكان» البراري: الثعلب، والذئب، واليربوع، وابن آوى. ويسمى ابن آوى (واوي) وهو حكاية صوته، فصوته أشبه ما يكون بالعويل والنواح. ولو اعولت بنات آوى خارج المدينة أجابتها الكلاب نابحة بصوت أجش، وكأنها غضبى. والآثوريون من سكان الجبال يروون أسطورة في هذا الصدد: فالكلاب كانت في يوم ما تسكن خارج المدن، وبنات آوى تسكن في داخلها وتستمتع بالأمن والدعة. وسعت الكلاب إلى بنات آوى تقول لها: «إن فينا مريضاً، فإن أقام في المدينة واستمتع بوسائل الراحة المتوافرة فيها، قد يكتب له الشفاء. لنتبادل، إذن، المكان لمدة أسبوعين عسى أن نقوم على خدمة مريضنا داخل جدران المدينة». وأجابت بنات آوى «سمعاً وطاعة، عسى الله أن يعجِّل في شفاء مريضكم». وما أن مضى على ذلك أسبوعان إلا ورجعت بنات آوى تعول خارج المدينة، وتقول: «وخي ايله ماريا» ـ أي، وكيف حال مريضكم الآن؟ فتجيبها الكلاب وهي غضبى: «بعدو... بعدو...» وهكذا تتابعت الأيام، وبنات آوى تكرر السؤال، فتجيبها الكلاب بنفس الجواب.

وتوجد الدببة في التلال، ويدعى سكانها أنها تفهم لغة البشر. وفي إحدى الليالي تسلّلت فتاة إلى أحد البساتين لتسرق شيئاً من فاكهتها، وعندما تطلعت من بين أغصان شجرة من أشجار التفاح شاهدت أقداماً عارية. لقد خيل إليها أنها أقدام فتى جاء يسرق مثلها، ولكنها في الحق لم تكن إلا أقدام دب عارية. ونادت الفتاة من حسبته فتى وهي قائلة: «ارم لي بشيء من

---

(1) في الأصل Snipe.

الفاكهة» ولم تسمع لسؤالها جواباً، بطبيعة الحال. ثم عادت تقول: «إن لم ترم لي بشيء فسأخبر البستاني عنك». وروع الدب من صوت الفتاة فسقط من فوق الشجرة وولى هارباً. وأشق شيء على الفتاة بعد ذلك أن تفهم أن الذي نادته لم يفقه قولها أبداً.

طبيعي أن هناك كثيراً من الحكايات الدائرة حول البعير. فمنظره منظر المزهو المتغطرس، لا يبعث على الدهش عند العربي. والمعروف أن الخيول لا تحب الإبل. وهم يزعمون أن الحصان لم يكن راضياً عن خلقه وكان يطلب أن تكون عنقه أطول ليستطيع أن يأكل من الحشيش بيسر وسهولة وكان يتشوق إلى ما يقي ظهره من وطأة الأحمال والأثقال، وكان يصبو إلى عرف أطول، وأقدام طوال. وخلق الله الإبل، وقال للحصان «انظر إلى حَلقة هذا القبيح لعلك تطلب أن تكون شبهاً له! ويقود قطار الإبل دوماً حمار. وشكا حاله هذا إلى الله قائلاً: لقد خلقتني في أبشع تكوين، فهذه عنقي طويلة جداً، وخفاي مشوهتان، ووضعت على ظهري سناماً محدودباً. ولا ضير في ذلك كله ولكن الذي لا أستسيغه أبداً أن حماراً صغيراً يصبح دليلي ويقود قطاراً من جنسي!!».

وفي الجيش المصري وحدة عسكرية من الهجانة، وليس مثلها في جيش العراق، ولكن هناك شرطة هجانة في الرمادي. وقد يخال لك أن النجائب السريعة (الذلول) صالحة، بوجه خاص، للأغراض العسكرية لكنها في الحق، ليست كذلك. فقد تنزلق أقدامها وتصاب بأضرار عندما يحل موسم الشتاء وتتوحل الأرض.

والإبل عند البدو ثروة ما بعدها ثروة. فهي لا تحمل أثقالهم إلى بلد ليسوا ببالغيه إلا بشق الأنفس، فحسب، ولكنهم يشربون من خلفها[1] اللبن، ويأكلون من لحمها، وجبنها، ويتخذون من وبرها لباساً ويصنعون منه بيوتاً. وتعد ثروة العشيرة بما تملك من الأنعام، وأخص بالذكر من بين العشائر: شمر، وبني لام. ومن أنواع الأغنام: الخروف الكردي، وهو سمين المؤخرة

(1) الخلف: ثدي الناقة.

يغلب عليه اللون الأبيض، وثمين بسبب قوته ونشاطه. أما الخروف العربي، بنوعيه (العوَّاس) و(الشنال) فيجود بصوف ناعم الملمس، وبالحليب، والزبدة، والجبن، ويتخذون من صوفه لباساً، وتصدر مصارينه إلى أوروبا وأميركا فتصنع منها اللُقانق[1].

ويمكن أن تزدهر في العراق تجارة الجلود شريطة العناية بتنظيفها. فالجلد الخام فيه من أجود الأنواع لكنه لا يعالج بوجه جيد، فلا يصبح صالحاً للتصدير. وتربى قطعان المعز مع قطعان الغنم، وتستخدم لنفس الغاية. وتذبح الشاة على وصيد الباب إكراماً للضيف عند قدومه، فإن كان الضيف في علية القوم، وذوي المكانة الرفيعة، كشاه إيران، وزار العتبات المقدسة، سالت دماء الضحايا من تحت أقدامه غزاراً. ولا معدى لفقراء القوم من استخدام الحمار في قضاء حاجاتهم، فهم يحملون على ظهره أحمالاً ثقالاً من البطيخ، والرمل والطابوق، ولا تستثنى من ذلك النفايات أو غيرها. ويركب الحمار من رقت حاله، وهو، يعد، من أرخص وسائط نقل الأمتعة البيتية. ولا يذكر اسم الحمار إلا مسبوقاً بكلمة تدل على الاعتذار والتأدب، ولا يشذ عن ذلك حتى الحمار الأبيض الممتاز الكبير المستورد من نجد، وثمنه ثمن الحصان. وتظهر على الحمار دوماً إمارات المرح، وهم يزينونه بقلائد من الخرز الأزرق، والتعاويذ، والأجراس، وقد يعلقون عليه إزاراً من الصوف الملون ويصبغون ذيله وعرفه بالحناء. كما قد يضعون على جانبيه سمة تشبه الكف، فهي تطرد بنظرهم العين الشريرة وتغدق الخير على صاحبه. وقد يعامل هذا المخلوق بقسوة، فليس في بغداد جمعية للرفق بالحيوان. وحب العربي لفرسه مشهور. ويقوم (النسَّابة) باستقصاء أصل الخيول العربية وبيان أسلافها، كأسلاف الأمراء. ولكن عناية العرب بهذه الخيول وتغذيتها ليست بدرجة كبيرة. وقد يعمد شيخ الصحراء إلى إطعام فرسه المفضلة بيديه، وقد يفوق ثمن الفرس الأصيلة صداق الزوجة «العزيزة»! إن الفرس زينة الفارس في البيت، كالطفل والزوجة. وتفقد الفرس الأصيلة قيمتها إن كانت مياسمها الظاهرة سيئة الطالع. ومن ذلك أن تكون إحدى الأرجل بيضاء، والباقية سوداء، ومثل هذه

---

(1) اللقانق: (السجق) آثرناها ترجمة لكلمة Sausages الانكليزية. (المترجم).

الفرس لن تركب أبداً. والفرس الأصيلة لا تباع إلا في النادر الأقل، وقد تباع رجل واحدة منها أو رجلان أو ثلاث أرجل. ومن الشروط ما يحدد مالك الفرس الأول، فالثاني، وإلخ... إذ قد يمتلك الفرس الواحدة 6 أشخاص، لذلك فعسير على الأجنبي أن يشتري فرساً ما، أما الفرس الأصيلة فيتعذر شراؤها إطلاقاً. وأصائل الخيول أنواع عدة أهمها: الحمداني، الصقلاوي، كروش، وثنان، خيلة، ضمان، حركة، عبيان، مناجي، دريبات. والشائع أنها تنحدر جميعاً من 5 أفراس نجدية أصيلة، يرجع عهدها إلى ما قبل الإسلام.

وهناك أسطورة تتعلق بالحصان الأول، وخلقه، ومفادها أن الله دعا الريح الجنوبية وقال لها: إني خالق من روحك حيواناً جديداً، فاجمعي أطرافك، وإني لا أريد أن يرى شكلك أحد، وصدعت الريح بأمره، ثم إنه نفخ في حفنة منها وخلق الحصان، ثم أمره الله قائلاً: «والآن يا من خلقت على أجمل صورة، كن في خدمة الإنسان، واجلب له السعادة والمال، فسيصبح فارسك هذا أشد نبلاً وأكثر شهامة».

ولكل شيخ، مهما كان مركزه «رباط» خاص به، والرباط فرس ذات حسب ونسب. لذلك يمتلك إبراهيم بك السعدون (من المنتفك) 30 فرساً وكلها من الأصائل المعروفة باسم (ضمان)[1]. والعراقيون جميعاً يعلمون ذلك حق العلم. كما أن عشيرة (المطير) بنجد تربي الخيول الأصائل المعروفة باسم (كروش). والعرب لا تقيم كبير وزن للفرس إن كان عدوها قصير المدى. إنهم يثمنون الفرس العادية إن دأبت على عدوها لمسافات بعيدة، لذلك أصبحت سباقاتهم لمسافة 10 أو 15 ميلاً. والسبب في هذا واضح جلي: فالفرس، بالدرجة الأولى، للغزو. وعلى سرعة جريها، وثباتها، يتوقف فوز فارسها فيه، وعودته سالماً غانماً منعماً. ولو غنمت أفراس العدو في الغزو، فمن حق كل غاز أن يحتفظ بما غنم، إلا الأصائل فإنها تسلَّم إلى شيخ العشيرة نفسه. ولو طلب أصحابها الأصلاء استعادتها وجب على الشيخ أن يلبي الطلب ويعيدها

---

(1) هو إبراهيم بك بن مزعل باشا السعدون وقد عين متصرفاً للناصرية في أول إنشاء الحكومة العراقية. (المترجم).

لهم. وتباع الفرس الأصيلة، ومعها نسبها المدوَّن، ويصادق عليه الشيخ الذي اكتحلت في كنفه عينا الفرس بالنور أول مرة.

ويربى البقر والجاموس في العراق أيضاً. وفي بغداد، والبصرة، والموصل معامل للألبان، ويمتلك بعضها الأجانب البريطانيون. والجاموس حيوان خامل الحركة، قبيح المنظر، لونه رمادي أو بلون الحديد. ويجود الجاموس بلبن جيد، فيه نسبة الزبدة عالية. ويشاهد هذا الحيوان في الأمسيات الحارة غاطساً في ماء النهر حتى الرقبة، وبهذه الطريقة ينعم ببرودة الماء. وقد يعبر قطيع الجاموس النهر بيسر، ويقود القطيع في عبوره صبي يركب على جاموسة فيه.

ويعتبر الكلب نجساً في بلاد الإسلام كلها. وكتب أحدهم في «جريدة الأوقات البغدادية» عن هذا الحيوان ما ترجمته: «إن البغدادي السوي لا يقر قتل الكلاب أبداً، كما لا تقره النسوة أبداً. ولعل سبب ذلك راجع إلى ما جاء في قول عربي قديم مفاده: إن دم الكلب المستباح سرعان ما يثأر لصاحبه. ومن الخرافات الشائعة بين النساء البغداديات أن من يقسو على الكلب يصبح أبتر، مقطوع النسل. فإن لم يرزق الزوجان الخلف فلا غرابة إن تحرَّت الزوجة عن السبب بتكتم إذ عسى أن يكون زوجها قد ضرب كلب جاره مثلاً. وعلى الرغم من أن الكلاب في عداد الأنجاس فهم لا يرون في لمسها ما يجلب العدوى شريطة أن لا يكون الكلب مبتلاً بماء المطر، أو من السبح في النهر. وقد يطبطب العربي على ظهر الكلب، ولا ضير في هذا بنظره، فإن لعق الكلب يد صاحبه فذلك غير سائغ. فاليد تصبح نجساً، ولا معدى من غسلها 3 مرات في أول فرصة. إن ذلك من وسائل تطهير اليد، ولا بد أن يصحب غسل اليد «بسم الله» ثلاث مرات أيضاً[1].

ويعتبر المسلمون المتزمتون الكلاب غير المبتلة أنجاساً أيضاً، فإن لمس أحدهم جسم الكلب نقض وضوؤه، ولن يقرب الصلاة ما لم يغيّر ملابسه.

---

(1) وهناك حديث مشهور عن النبي ﷺ:
[إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً، إحداهن بالتراب] (المترجم).

ومما يحوم حول هذه المعتقدات أيضاً استثناء (السلوقي) من ذلك كله. والسلوقي من كلاب الصيد، ويجيز له صاحبه أن يأكل صيده من الدرَّاج أو أي طائر آخر.

وللسلوقي ذنب طويل رائش، وأذنان طويلتان، ناعمتا الملمس، وهم يدربونه على صيد الغزال، متعاوناً في ذلك مع الصقور، فالصقر يطير بوجه الطريدة الهاربة، فإذا ما استقر عليها ضرب بجناحيه على رأسها، فيسقط في يدها وتقل سرعة عدوها. وعندئذٍ تسنح الفرصة للسلوقي فيثب عليها ويسحبها إلى مكان أسياده. ولشيوخ العرب ولع خاص باستخدام الصقور في الصيد، وكثيراً ما يشاهد المرء صقوراً، شدًّ على عينيها بقطعة جلدية، ووقفت على ساعد أحد أتباع الشيخ.

والأسود تكاد تكون منقرضة في العراق. وما تزال الأساطير تتردد في مضارب البدو حول بطولات شبابهم وهم يلتقون بالأسود وجهاً لوجه، فيصرع الشاب أحدها بنفسه، وما يصحب الطراد بين الأسد والبدوي الشاب من غرائب وعجائب. ومما يدل على أن الأسود كانت كثيرة في بلاد الرافدين هذا العدد الكبير من صور الصيد المنحوتة على الآثار الآشورية. وقد كان عدد من الأسود موجوداً بالفعل قبل ما يقارب الـ 50 سنة. وتوجد الفهود أيضاً، والخلاصة أن المرء يستطيع أن يجتاز البلاد بأمن وطمأنينة. ولن يصادفه حيوان مخيف فيما عدا ذئب البلاد الضعيف، والثعالب وبنات آوى.

وفي الرافدين سمك كثير، ومنه، كالبز، ذو حجم كبير. والبز ليس بذي خطر، ويؤكل لحمه. لكن الكوسج **Shark** على جانب كبير من الخطر، وإلى حد يجعل السباحة في جداول البصرة محفوفة بالأهوال.. وقد يتخذ سبيله في نهر دجلة. صعداً حتى بغداد، أو في الأقل حتى مصب نهر ديالى. وسمك البني ذو طعم سائغ جداً، وكذلك الشبوط، وهناك نوع آخر من الأسماك ذي لحم طيب ولكن الشوك فيه كثير، فلا يخلو أكله من خطر.

والجرِّي محرم أكله عند الشيعة. ويقال إن السبب في ذلك إن الإمام

علياً كان جالساً للوضوء على حافة النهر في إحدى المرات، فعكّرت عليه (الجرّية) الماء، فلعنها الإمام، وحرّم على الشيعة أكلها.

ومن المناظر المألوفة التي يشاهدها من يسكن ضفة النهر صيد السمك بالشباك، وهي ترمى من القوارب النهرية والقفف، وقد تكون حصيلة الصيد في بعض الأحيان كبيرة، وقد يصاد السمك بالشرك أو يرمى مسحوق خاص يخدرها فتطفو على سطح الماء وتتجمع.

ويشاهد الإنسان الفراشات حتى في أيام الشتاء المصحية، وأكثر أنواعها شيوعاً (فراشة اللهانة)[1] البيضاء، و«الأميرال الأحمر»[2] و«السيدة المصبوغة»[3] على ما تسمى في إنكلترا.

---

(1) وفي الأصل .The White Cabbage Butterfly.

(2) وفي الأصل The Red Admiral.

(3) وفي الأصل The Painted Lady.